أمريكا

فرانتس كافكا

• Author : Franz Kafka
• Title: America
• Translated by: El Dessouki Fahmy
• Afaq's first edition: 2017
• Cover Design by: Amr El Kafrawy
• Cover Painting: El Dessouki Fahmy
• Publishing Consultant: Sawsan Bashier

◆ المؤلف: فرانتس كافكا
◆ العنوان: أمريكا
◆ ترجمة: الدسوقي فهمي
◆ طبعة آفاق الأولى 2017
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ لوحة الغلاف: الدسوقي فهمي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير

آفاق للنشر و التوزيع
AFAQ BOOKS

رقم الإيداع:
٢٢٤١١ / ٢٠١٦
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977-765 - 072 - 4

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form، or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة– من شارع محمود بسيوني – ميدان طلعت حرب– القاهرة – جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ – ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ – موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

فرانتس كافكا

أمريــــكا

رواية

ترجمة

الدسوقي فهمي

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كافكا، فرانتس.
فرانتس كافكا : أمريكا - ترجمة: الدسوقي فهمي
ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2017
368 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 22411 / 2016
الترقيم الدولي 4 - 072 - 765 - 977 - 978
1 - الأدباء
2 - كافكا، فرانتس

الفصل الأول

العطشجي

عندما توقف كارل روسمان– وهو صبي بائس في السادسة عشرة حمله أبواه على الرحيل إلى أمريكا؛ لأنه استجاب لإغراء خادمة، فأنجبت منه طفلًا– على ظهر الباخرة التي كانت تدخل ببطء ميناء نيويورك، بدا له كما لو كانت أشعة الشمس قد أضاءت فجأة تمثال الحرية، وعلى هذا فقد رآه في ضوء جديد، مع أنه كان قد تطلع إليه قبل وقت طويل، كانت الذراع القابضة على السيف، قد ارتفعت وكأنها قد انفردت لتوها مرفوعة إلى أعلى، وكانت رياح الأعالي المنطلقة تهب حول التمثال.

قال في نفسه: «ما أشد ارتفاعه!».

بينما كان يقترب تدريجيًّا من الرصيف، يدفعه حشد الحمالين المتدافعين المتزايد؛ لأن فكرة مغادرة الباخرة لم تكن بعد قد طرأت على باله.

وصاح به شاب كان قد تعرف عليه خلال الرحلة وهو يمر به: «لا يبدو عليك الاهتمام كثيرًا بأمر الهبوط إلى الشاطئ، أليس كذلك؟» فأجابه كارل ضاحكًا: «أوه، إنني على أتم الاستعداد لذلك»، ولما كان نشيطًا، ومنشرحًا، فقد رفع صندوقه إلى كتفه، لكن، بينما كانت عيناه تتعقبان ذلك الشخص، وهو يتدافع ليشق لنفسه طريقًا إلى الأمام وسط الآخرين ويطوح في خفة بعكاز في يده، تذكر في فزع أنه كان قد نسي مظلته أسفل، في قاع الباخرة، فأسرع يرجو ذلك الشخص الذي يعرفه، والذي لم يبد ارتياحًا في الحقيقة لتلبية رجائه بأن يسدي إليه جميلًا بالانتظار دقيقة إلى جوار الصندوق، ثم ألقى نظرة أخرى على الزحام لكي يحسب حساب العودة، وأسرع بالذهاب... وأسفل سطح الباخرة، وجد آسفًا، أن ثمة سقالة، كانت قد مهدت على عجل، للمرة الأولى طبقًا لمعلوماته، ربما للإسهام في هبوط ذلك الحشد الهائل من المسافرين إلى الشاطئ، وكان عليه أن يشق طريقه في جهد هابطًا الدرجات الحلزونية التي لا نهاية لها، وعبر ممرات لا حصر لمنعطفاتها، وعبر حجرة خالية بها مائدة كتابة عارية، ولما كان قد مر بهذا الطريق مرة فقط أو مرتين وسط حشود الآخرين في كلتا المرتين، شعر بضياعه تمامًا، وبالحيرة تستولي عليه، حينما لم يسعه التعرف على أحد، ولم يعد يسمع سوى وقع الأقدام المتتابعة التي لا تهدأ، وقع آلاف الأقدام فوقه، وآلاف الأقدام يأتيه وقعها من بعيد، ويصله كأنه الأنفاس الواهنة، ثم الخفقات الأخيرة للآلات التي كانت قد توقفت في النهاية، فراح بلا وعي يدق على باب صغير كان قد تصادف وقوفه أمامه في أثناء تجوله الذي طال في قاع الباخرة.

وأجابه صوت من الداخل قائلًا: «إنه ليس مغلقًا!»، ففتح كارل الباب في ارتياح. ووجه إليه الرجل الضخم الجثة، السؤال دون أن يكلف نفسه عناء النظر إليه: «لماذا كنت تطرق الباب كالمجنون؟» وخلال فتحة ما كان يتسرب ضوء النهار في خفوت، وكل ما كان قد تبقى بعد حاجة الأدوار العليا، كان غارقًا في ظلام تلك القمرة المتواضعة، حيث كان ثمة سرير سفري وخزانة ومقعد، والرجل، كانوا جميعًا قد تكوموا معًا، وكأنهم قد اختزنوا في هذا المكان. قال كارل: «لقد ضللت طريقي! لم ألاحظه في أثناء الرحلة، ثم إن هذه الباخرة ضخمة إلى حد مخيف!»، فأجابه الرجل قائلًا في شيء من الفخر:

– «نعم، إنك محق في هذا القول»، بينما كان يعبث طوال الوقت بقفل صندوق سفري صغير، راح يضغط عليه بكلتا راحتيه على أمل أن يسمع صوت انفتاح القفل، ثم استأنف حديثه قائلًا: «لماذا لا تدخل؟ إنك لا ترغب في الوقوف مكانك هكذا خارج الحجرة!».

فقال كارل: «ألا يزعجك وجودي؟».

– لماذا، كيف يمكنك أن تزعجني؟

فسأله كارل رغبةً في المزيد من الاطمئنان: «هل أنت ألماني؟» ذلك أنه كان قد سمع عن الكثير من المخاطر التي يتعرض لها الوافدون الجدد إلى أمريكا، وخاصة تلك المتاعب التي يسببها الأيرلنديون.. وأجابه الرجل قائلًا: «نعم، إنني كذلك!» وظل كارل واقفًا في تردد، ثم أمسك الرجل فجأة مقبض الباب، ودفعه فانغلق في حركة خاطفة، دافعًا كارل إلى داخل القمرة.

قال: «إنني لا أحتمل النظرات التي يوجهها إليَّ الآخرون من الممر».. ثم عاد إلى مواصلة محاولاته لفتح الصندوق قائلًا: «إن الناس لا يتوقفون عن المرور، والتحديق في داخل القمرة، وهذا أكثر مما في مقدور المرء أن يحتمله!» فأجابه كارل قائلًا: «ولكن الممر قد خلا تمامًا».. كان يقف محصورًا بطريقة مرهقة خلف حافة الفراش، وقال الرجل: «نعم.. خلا الآن منهم!».. قال كارل في نفسه: «لكن «الآن» هو ما نتحدث عنه! من الصعب الحديث مع هذا الرجل!».

قال له الرجل: «استلق فوق الفراش، ففيه متسع لك، بدلًا من المكان الضيق الذي تقف فيه!» زحف كارل إلى الفراش في جهد، وضحك في صوت مرتفع بعد محاولة القفز الأولى الفاشلة التي قام بها للاستقرار فوق الفراش، ولكنه ما كاد يصبح فوقه حتى صاح: «يا إلهي.. لقد نسيت الصندوق تمامًا!».

- لماذا.. أين هو؟

- فوق.. على سطح الباخرة، يحرسه شخص كنت قد تعرفت به، ما هو اسمه يا ترى مرة أخرى؟.. وأخرج بطاقة من بطاقات الزيارة من داخل جيب، كانت أمه قد خاطته له في بطانة معطفه لينتفع به في رحلته، «باتربوم، فرانز باتربوم!».

- ألا يمكنك أن تستغنى عن ذلك الصندوق؟

- لا.. بالطبع!

- حسنًا، فلماذا إذن تركته في يدي غريب؟

- كنت قد نسيت مظلتي في أسفل الباخرة، فاندفعت مسرعًا لإحضارها ولم أرغب في سحب الصندوق معي.. ولقد ضللت طريقي فوق هذا كله!

- هل أنت وحيد، بلا أي شخص ليرعى شئونك؟

- «نعم وحيد تمامًا!»، ولعلني أنضم إلى هذا الرجل، طرأت الفكرة فجأة على رأس كارل.

«أين عساني أن أعثر على صديق طيب؟».

- والآن فقد فقدت الصندوق أيضًا، ولا مجال لذكر المظلة!

جلس الرجل أخيرًا فوق المقعد، وكانت مشكلة كارل قد جذبت اهتمامه في نهاية الأمر.

- ولكنني أعتقد أن صندوقي لا يمكن أن يكون قد فُقد!

فأجابه الرجل قائلًا: «في إمكانك أن تعتقد ما شئت!»، وراح يحك في عنف، شعره القصير، الكثيف، الداكن، ثم استطرد: «على أن الأخلاق تختلف باختلاف كل ميناء جديد تدخله، ففي هامبورج قد يقوم باتربوم الذي ذكرته بحراسة صندوقك، بينما يبدو أنه هنا قد اختفى على الأغلب باختفاء الصندوق!».

ورد كارل قائلًا: «يجب عليّ إذن أن أعود إلى سطح الباخرة فورًا لأتحقق من الأمر!» ونهض، وهو يتطلع حوله ليبحث عن طريقه إلى خارج القمرة. وأجابه الرجل قائلًا وهو يدفعه بيده، بينما كانت يده الأخرى على صندوقه، دفعة عنيفة، سقط بسببها كارل مستلقيًا مرة أخرى على الفراش: «يجب أن تبقى حيث أنت».

تساءل كارل في حنق قائلًا: «ولماذا أبقى؟».

وأجابه الرجل قائلًا: «لأنه لا حاجة بك إلى الذهاب، كما أنني سأنصرف أيضًا، ويمكننا أن نمضي معًا، إن الصندوق قد سُرق، وعلى هذا فلا حيلة لك الآن في استرداده، وربما يكون الرجل قد تركه حيث هو، وفي هذه الحالة، سنجده في مكانه بسهولة، عندما تفرغ الباخرة من المسافرين، وينطبق الأمر نفسه على مظلتك».

فسأله كارل في شك: «وهل تعرف طريقك بسهولة في ممرات الباخرة؟».

وبدت له فكرة احتمال العثور على حاجياته بسهولة في حالة فراغ الباخرة من ركابها، فكرة مقنعة، وإن يكن ثمة خداع لعله أن يكون خلف هذه الفكرة على نحو ما.

قال الرجل: «وكيف لا أعرف، إنني عطشجي!».

فصاح كارل في اغتباط:

– أنت عطشجي!

كما لو كان ذلك الأمر قد فاق كل تصوراته، فنهض معتمدًا على كوعه حتى يتمكن من تفحص الرجل أكثر عن قرب.

– كانت توجد ثمة نافذة صغيرة في مواجهة الحجرة التي كنت أنام فيها مع السلوفاك مباشرة، وكان في إمكاننا أن ننظر من خلالها إلى غرفة الآلات.

فأجابه العطشجي قائلًا: «نعم.. ذلك هو المكان الذي كنت أعمل فيه».

وقال كارل متعقبًا تسلسل أفكاره: «كان لديّ دائمًا اهتمام بالآلات،

وكان في مقدوري أن أصير مهندسًا ميكانيكيًّا في وقت من الأوقات، هذا أمر مؤكد.. فقط لو لم يكن عليّ أن أرحل إلى أمريكا».

– ولماذا كان يتحتم عليك أن ترحل إلى أمريكا؟

قال كارل: «آه.. هذه الحكاية!».. متخلصًا من المسألة كلها بطردها بيده..

تطلع إلى العطشجي بابتسامة كما لو كان يرجوه التجاوز عن امتناعه عن البوح.

قال العطشجي: «لا بد من سبب لذلك فيما أعتقد؟».

لم يكن من السهل الفصل فيما إذا كان العطشجي يشجع كارل بهذا القول على البوح، أو لا يشجعه.

قال كارل: «يمكنني أن أصبح وقَّادًا الآن أنا أيضًا، فيستوي عند والدي ووالدتي الحال الذي يؤول إليه أمري!».

قال العطشجي: «إن وظيفتي سوف تخلو».. ولكي يؤكد إدراكه لهذه الحقيقة، دس يديه في جيبيّ سرواله وطوح ساقيه في داخل سرواله الذي يكاد يشبه الجلد، ومددهما فوق الفراش، وكان على كارل أن يتزحزح أكثر ناحية الحائط.

– هل ستغادر الباخرة؟

– نعم.. لقد حصلنا اليوم على أجورنا.

– ولماذا تغادرها، ألا تحب هذا العمل؟

- أوه.. إن الأمور تجري على هواها، ولا يتوقف الأمر على حب المرء لعمله، أو عدم حبه له، إلا إنك محق تمامًا، فلست أحب هذا العمل، ولا أعتقد أنك تفكر جديًّا في العمل كوقَّاد، إلا إنها الآن الفرصة المناسبة لك، لو راق لك بالفعل أن تصبح وقَّادًا، ولهذا فإنني أنصحك ألا تفعل، فلو كنت ترغب في دراسة الميكانيكا في أوروبا، فلماذا لا تدرسها هنا؟ إن الجامعات الأمريكية أفضل كثيرًا من جامعات أوروبا!

قال كارل: «يمكنني أن أفعل، لكنني لا أكاد أملك شيئًا من المال، لكي أفكر في الدراسة، ولقد قرأت عن شخص ما كان يعمل طوال النهار في باخرة، وكان يدرس في أثناء الليل، حتى صار طبيبًا، ثم محافظًا على ما أظن، إلا أن ذلك يحتاج إلى كثير من المثابرة، ألا يحتاج إلى المثابرة؟ وأخشى ألا يكون لديّ الاستعداد لتلك المثابرة خاصة إنني لم أكن تلميذًا مجدًّا، ولم أجد عناءً شديدًا في نفسي لانصرافي عن الدراسة، وربما كانت الدراسة هنا أكثر صعوبة.. فأنا لا يمكنني أن أتحدث الإنجليزية مطلقًا، ومهما كان الأمر، فالناس هنا متعصبون ضد الأجانب على ما أعتقد.

- «وعلى هذا فأنت قد جئت أيضًا على الرغم من هذا كله، هل الأمر كذلك؟ حسنًا إذن. أعتقد أن الأمر كذلك تمامًا، وأعتقد أنك الشخص الذي أبحث عنه، فانظر، إن هذه الباخرة التي نحن عليها الآن باخرة ألمانية، وهي تابعة لخط «هامبورج- أمريكا» الملاحي، فلماذا لا يكون طاقم البحارة جميعًا من الألمان، إنني أتوجه إليك بهذا السؤال؟ ولماذا كان كبير المهندسين شخصًا من رومانيا، وهو رجل يدعى شوبال، من الصعب تصديق ذلك، كلب مصاب بالحصبة مثله يقودنا كالعبيد نحن الألمان الذين

نعمل على باخرة ألمانية، لا ينبغي لك أن تظن- وهنا خانه صوته، فأشار بيديه- إنني أشكو لمجرد الرغبة في الشكوى، إنني أعلم تمامًا أن لا نفوذ لك، وأنك لست سوى فتى بائسًا أنت نفسك، إلا أن هذا الأمر أكثر مما يمكن احتماله!» وهوى بقبضته عدة مرات على المائدة، وعيناه لا ترتفعان عنها، بينما كان يمضي في حديثه قائلًا: «لقد عملت فوق العديد من هذه البواخر»، وذكر في الحال عشرين اسمًا، الواحد منها بعد الآخر كما لو كانت جميعًا اسمًا واحدًا، وقد أثار هذا ضيق كارل به للغاية.. «ولقد قمت بعملي على خير ما يرام، عليها جميعًا، وكنت أتلقى المديح، وأحظى بتقدير كل قبطان عملت تحت رئاسته، ولقد كنت أقضي بالفعل فوق أي باخرة شحن من تلك البواخر عددًا من السنوات ملتصقًا بالباخرة كأنني جزء منها، هذا ما فعلته!»، ثم نهض واقفًا على قدميه، كما لو كان قد فرغ من إنجاز أهم عمل في حياته- «وهنا فوق هذه «القصعة» حيث تجري جميع الأعمال طبقًا لقاعدة ثابتة، ولا يضطرك الأمر مطلقًا إلى استخدام ذكائك، هنا لا يرضون عنه، أنا هنا شيء تحت أقدام شوبال، وأنا هنا متراخٍ يجب أن يُلقى به خارجًا، ولا يحق له أن يتقاضى أجره، هل يمكنك أن تفهم ذلك؟ إنني لا أفهمه؟».

قال كارل في تأثر: «ألا يمكنك أن تتحمل ذلك؟».. كان قد فقد تقريبًا كل إحساس بأنه مستلق في أعماق باخرة ما، ترسو إلى شاطئ قارة مجهولة، وكان يغلب عليه الشعور بأنه في منزله هنا، على فراش العطشجي، «ألم تتح لك فرصة الالتقاء بالقبطان في مكان ما من هذه الباخرة؟ ألم تطلب منه أن يتيح لك الحصول على حقك؟».

- «أوه!.. اخرج من هنا، هيا، انصرف إلى الخارج، لا أريد أن أراك هنا،

إنك لا تحسن الاستماع إلى ما أقوله، ثم.. توجه إليّ النصيحة، كيف يمكنني الذهاب إلى القبطان؟!».

وجلس العطشجي ثانية في تثاقل، وأخفى وجهه بين راحتيه.

قال كارل لنفسه: «أليس في إمكاني أن أتقدم إليه بنصيحة أفضل من تلك؟».

ثم دار في رأسه أن أفضل ما يمكنه أن يفعل هو الذهاب للبحث عن صندوقه، بدلًا من تقديم النصيحة التي لا تقابل إلا على أنها غباء، قال له والده عندما أعطاه الصندوق، مازحًا: «كم من الوقت يمكنك أن تظل محتفظًا فيه بهذا الصندوق؟».. والآن ربما كان ذلك الصندوق العزيز قد فقد بالفعل، كان عزاؤه الوحيد الذي تبقى له هو أن أباه لم يكن يسعه أن يعلم بسهولة شيئًا عن حالته الراهنة، حتى لو حاول أن يتحرى عن ذلك. كل ما كان يمكن للبحارة أن يقولوه، لا شيء سوى أنه قد وصل بسلام إلى نيويورك، إلا أن كارل قد شعر بالأسف عندما فكر في أنه لم يكد يستعمل بالمرة، جميع الأشياء التي كان الصندوق يحتويها، فلقد كان عليه، على سبيل المثال، أن يغير القميص الذي يرتديه بقميص نظيف آخر منذ مدة طويلة، ولكنه لم يفعل، وهكذا ذهب كل تدبيره عبثًا، ولم يحدث ذلك سوى الآن، في بداية عهده بالغربة، حيث كان من الضروري أن يظهر في ملابس نظيفة، كان مضطرًا إلى مواجهة الناس بالقميص القذر الذي يرتديه، إلا أن ضياع الصندوق لم يكن على هذه الدرجة من الخطورة، ذلك أن البدلة التي كان يرتديها كانت بالفعل أفضل كثيرًا من تلك التي كان الصندوق يحتويها، تلك البدلة التي كانت في واقع الأمر شيئًا ينفعه فقط في حالة الاضطرار، كانت أمه قد أصلحتها على عجل قبل أن يرحل

مباشرة! ثم تذكر أن الصندوق كان يضم أيضًا قطعة سالامي «لحم حمير» من فيرونيز، كانت أمه قد زودته بها كأكلة شهية إضافية، لم يكن قد أكل منها سوى قطعة ضئيلة؛ لأنه كان قد فقد شهيته تمامًا طوال الرحلة، وكان الحساء الذي كانوا يقدمونه في الباخرة لركاب الدفة، يزيد على حاجته، لكنه كان يود الآن لو كان السالامي في متناول يده، إذن لأمكنه أن يهديه للعطشجي، ذلك لأن أمثال هؤلاء الناس يبهجهم أن يهديهم الآخرون شيئًا ما زهيدًا، كان كارل قد تعلم ذلك من والده الذي كان يدس السيجار في جيوب صغار الموظفين الرسميين الذين كان يتعامل معهم، فكان يكسبهم، بهذا تمامًا. كل ما كان كارل يملكه الآن ليهدي منه، لم يكن سوى نقوده، ولم يكن يرغب في أن يمسها في هذه الآونة بالذات، وخاصة بعد أن فقد صندوقه.. ثم تحولت أفكاره ثانية إلى الصندوق.. ولم يسعه أن يفهم لماذا كان حريصًا على مراقبته، مراقبة شديدة إلى ذلك الحد طوال رحلته، حتى أنه لم يكن يهنأ بالنوم خوفًا عليه، كل هذا.. لكي يتركه يسرق منه في النهاية، بمثل هذه السهولة، وتذكر الليالي الخمس التي قضاها مركزًا عينيه المرتابتين على فتى سلوفاكي كان سريره يقع إلى اليسار، بعد سريرين، ذلك الفتى الذي كان يتحين الفرصة.. كان كارل واثقًا من ذلك، لكي يسطو على صندوقه، كان ذلك الفتى السلوفاكي ينتظر فقط حتى يغلب النوم كارل، فيستغرق فيه دقيقة واحدة؛ وذلك لكي يتمكن من تدبير أمر السطو على الصندوق، وإخفائه بعيدًا، بسحبه بعصا طويلة مدببة، كان دائمًا يلعب بها، أو يتمرن عليها طوال النهار، كانت البراءة تبدو في أثناء النهار واضحة غاية الوضوح على وجه ذلك السلوفاكي، ولكن ما يكاد الظلام يحل، حتى يكثر من النهوض في فراشه ليلقي نظرات مخبولة على صندوق

كارل. لقد رأى كارل نظراته تلك في وضوح تام، ويذكر أنه بين الحين والآخر كان أحدهم يشعل شمعة صغيرة، مع أن ذلك كان ممنوعًا حسب لائحة نظام الباخرة، ومن ثم يحدق بقلق المهاجر في إحدى النشرات الغامضة الخاصة بواحدة من وكالات الهجرة، فلو كانت إحدى تلك الشموع مشتعلة بالقرب منه؛ لأمكن لكارل أن يغفو للحظات، لكن لو كانت تلك الشمعة المشتعلة بعيدة عنه، أو كان المكان مظلمًا تمامًا، كان عليه أن يحتفظ بعينيه مفتوحتين على اتساعهما. لقد أنهكه الجهد الذي كبده إياه هذا العبء، وربما كان ذلك كله قد ضاع الآن عبثًا، آه لو أتيح له مرة أخرى أن يلتقي بباتربوم ذاك!

عندئذ، ارتفعت، على البعد، في الصمت المخيم على الباخرة أصوات طرقات قصيرة خافتة، شبيهة بوقع أقدام الأطفال، وكانت تقترب ويزداد وقعها ارتفاعًا، حتى بدت أقرب ما تكون إلى وقع أقدام الرجال في أثناء سيرهم، رجال في طابور، وهو ما كانت تفرضه طبيعة الممر الضيق.. وصوت اصطدام سواعد، على ما يبدو، كان من الممكن سماعه أيضًا، فنهض كارل الذي كان على وشك أن يسترخي تمهيدًا للنوم متخلصًا من كل همومه التي تتصل بالصناديق، أو السلوفاك، ولكز العطشجي بكوعه لكي ينبهه، ذلك أن مقدمة الطابور كانت تبدو على وشك الوصول إلى باب القمرة: قال العطشجي: «هذا هو طاقم الباخرة: لقد كانوا يلعبون هناك، أعلى الباخرة، ثم عادوا للتمام.. لقد خلت الباخرة الآن تمامًا، ويمكننا أن نذهب نحن أيضًا! هيا بنا!» وأخذ كارل من يده وانتزع في اللحظة الأخيرة صورة للعذراء موضوعة في إطار، من الحائط الذي يعلو الفراش، ودسها في جيب سترته، وأمسك صندوقه وغادر القمرة في صحبة كارل.

«إنني في طريقي الآن للإدارة؛ لكي أوضح لهم رأيي، لقد ذهب كل الركاب، ولا حاجة بي للتفكير فيما سوف أفعله»، ظل العطشجي يردد هذا القول، مضيفًا إليه بعض التعديلات في كل مرة، وبينما كان يسير في طريقه ركل أحد جوانب الممر بقدمه نحو فأر كان قد اعترض طريقه، لكنه لم يفلح إلا في أن يدفعه إلى الإسراع بالاختباء في داخل جحره، الذي كان قد بلغه في اللحظة المناسبة، كان بطيئًا في جميع أعماله، ومع أن ساقيه كانتا طويلتين، إلا أنهما كانتا ممتلئتين أيضًا للغاية.

واتخذا طريقهما عبر جانب من المطبخ حيث كانت بعض الفتيات اللاتي يرتدين مرايل بيضاء متسخة- كن قد لطخنها عمدًا- يغسلن أطباقًا في أحواض هائلة، ونادى العطشجي فتاة تدعى «لينا» وطوق خصرها بذراعه، ولما قاومت أحضانه في دلال، جرها معه جزءًا من الطريق قائلًا لها: «إنه يوم القبض، ألن تأتي معي؟» فأجابته قائلة: «ولماذا أكلف نفسي مشقة الذهاب معك، يمكنك أن تحضر لي النقود هنا!» وعلى حين كانت تتلوى تحت ضغط ذراعه، ثم تنطلق مبتعدة على عجل، صاحت خلفه قائلة: «من أين التقطت هذا الصبي الجميل؟» لكنها لم تكن تنتظر منه جوابًا، وكان في وسعهما سماع ضحكات الفتيات الأخريات، اللائي كن قد توقفن جميعًا عن العمل.

وواصلا سيرهما حتى بلغا بابًا فوقه كورنيش صغير، يرتكز على أعمدة رفيعة مذهبة، منحوتة كلها على شكل جسم امرأة، كانت تبدو بمقارنتها إلى باقي أجزاء الباخرة، مفرطة في الفخامة، وأدرك كارل أنه لم يسبق له المرور بهذا الجزء من الباخرة، الذي ربما كان مخصصًا في أثناء الرحلة

لركاب الدرجتين الأولى والثانية.. لكن الأبواب التي كانت تفصله عن بقية أجزاء الباخرة، كانت مفتوحة جميعًا الآن على مصاريعها؛ تمهيدًا لعمليات تنظيف الباخرة، حقًّا، لقد التقيا في طريقهما ببعض الرجال الذين يحملون المكانس فوق أكتافهم، وحيوا العطشجي، وكان كارل مندهشًا للحد الذي بلغه نظام الباخرة، ولم يكن قد لمح، كراكب من ركاب المؤخرة، سوى القليل من مظاهر هذا النظام، وكانت تمتد بطول الممرات أسلاك التركيبات الكهربائية، وكان ثمة جرس صغيرة يسمع رنينه من حين لآخر..

قرع العطشجي الباب في احترام، وعندما صاح شخص ما قائلًا: «ادخل» طلب في وقاحة من كارل أن يدخل بإشارة من يده، فتقدم كارل إلى الداخل، ولكنه ظل واقفًا إلى جوار الباب. وكان منظر البحر يبدو من خلال النوافذ الثلاث التي كانت في الغرفة، فدق قلبه بصورة أسرع وهو يتطلع إلى حركة الأمواج المنعشة، وكأنه لم يكن يتطلع من قبل إلى البحر بلا انقطاع على مدى أيام خمسة بطولها، كانت البواخر الهائلة تقطع خط سير بعضها مع بعض، مستسلمة لهجمات الأمواج بالقدر الذي يسمح لها به ثقلها البالغ، ولو أن المرء ضَيَّقَ حدقتيّ عينيه لبدت له هذه البواخر وكأنها تترنح تحت ثقل وزنها. ومن صواريها كانت تتطاير رايات مستطيلة ضيقة، وكانت على الرغم من توترها بسبب سرعة طيرانها، ترفرف أحيانًا، وربما كان من الممكن سماع أصوات المدافع التي تنطلق فجأة دفعة واحدة من بعض البوارج الحربية.. وكانت تطلق للتحية، ومرت سفينة حربية من نوع ما، على مسافة غير بعيدة، وكانت فوهات مدافعها تتألق بتأثير انعكاسات ضوء الشمس التي تسقط فوق الصلب، وتبدو وكأنها مسنودة إلى الأمام

بحركتها المطمئنة، المنسابة، مع أنها لم تكن تتحرك فوق أحد الصنادل، وكان من الممكن فقط رؤية مشهد عن بُعد للبواخر الأصغر حجمًا، وللقوارب، من مكان المرء عند الباب على الأقل، وهي تندفع هناك في جماعات خلال المسافات التي تفصل بين البواخر الهائلة، وخلفها جميعًا كانت تقوم نيويورك، وناطحات سحابها تحدق في كارل بمئات الآلاف من عيونها، نعم، في هذا المكان كان في وسع المرء أن يدرك أين هو!

كان ثلاثة من السادة يجلسون حول مائدة مستديرة، أحدهم كان ضابطًا من ضباط الباخرة، في زي البحرية الأزرق اللون، وكان الآخران اثنين من موظفي الميناء في زي أمريكي أسود.. وكانت فوق المائدة أكوام من مختلف أنواع الأوراق، انتهى الضابط أولًا من فحصها، وقلمه في يده، ملأ بها حافظتي أوراقهما، إلا عندما كان الأمر يلزمهم باتباع أسلوب أو آخر، من أساليب العرف الرسمي، الذي كان يمليه أحدهما على زميليه، وهو يصدر أصواتًا تشبه الفرقعة بأسنانه، طوال الوقت.

وإلى جوار النافذة الأولى كان يجلس شخص ضئيل الحجم إلى منضدة، وظهره للباب، كان منشغلًا بفحص بعض دفاتر الحسابات الضخمة التي كانت مصطفة فوق رف ضخم في مستوى رأسه، وإلى جواره كانت توجد خزانة حديدية مفتوحة، كانت تبدو للوهلة الأولى على الأقل خاوية. وكانت النافذة الثانية خالية، ويبدو من خلالها أكمل منظر للبحر، لكن بالقرب من النافذة الثالثة كان يقف سيدان يتحدثان في أصوات خافتة، كان أحدهما مستندًا إلى النافذة، وكان يرتدي زي الباخرة، ويعبث بمقبض سيفه، أما الرجل الذي كان الحديث موجهًا إليه، فكان يعطي وجهه للنافذة،

ومن حين لآخر كانت تصدر حركة عن صف الزخرفة المفتوح فوق صدر محدثه. كان يرتدي الملابس المدنية، ويحمل عصا رفيعة من أعواد البامبو، كانت تستند مع كلتا يديه على خاصرته، على الرغم من وقفته المفرودة، كأنه السيف.

لم يكن أمام كارل متسع من الوقت لتفحص هذا كله؛ ذلك لأن أحد المساعدين قد تقدم نحوهما في الحال ووجه السؤال للعطشجي، بنظرة بدت كما لو كانت تبين له، أنه ليس ثمة ما يبرر وجوده الآن هنا، فما الذي يريده، وأجاب العطشجي بأقصى ما يمكنه من الرقة التي تفوق الرقة التي وجه إليه بها السؤال، إنه يريد مخاطبة أمين حسابات الباخرة، فأشار المساعد بيده إشارة تفيد الرفض، لكنه مضى على أطراف أصابعه في الوقت نفسه، نحو الرجل الجالس إلى دفاتر الحسابات متفاديًا الاقتراب من المائدة المستديرة، بدورة طويلة حولها، وتجمد أمين الحسابات تمامًا- وقد بدا ذلك واضحًا- عند سماعه كلمات المساعد، لكنه دار في النهاية متجهًا نحو الرجل الذي يرغب في التحدث إليه ودفعه بعيدًا في عنف، وأقصى عنه المساعد أيضًا، حتى يخلص نفسه تمامًا من الإزعاج، فتحرك المساعد حينئذ بجانبه منسحبًا متجهًا ثانية نحو العطشجي، وقال في صوت لا يفتقر صاحبه إلى نصيبه هو أيضًا من الثقة بنفسه: انصرف من هنا فورًا.

عند هذا الرد، تحولت عينا العطشجي إلى كارل، كما لو كان كارل هو قلبه الذي يفضي إليه بأساه. ودون أن يتوقف كارل لحظة ليفكر فيما عساه أن يفعله دفع نفسه مباشرة عبر الحجرة، مصطدمًا بالفعل بأحد مقعدي الضابطين، بينما راح المساعد يطارده، ملوحًا بذراعيه المفرودتين كما لو

كان يحاول الإمساك بحشرة. إن كارل كان قد سبقه إلى بلوغ منضدة أمين حسابات الباخرة التي تشبث بها في عنف، استعدادًا لمحاولة المساعد أن يسحبه بعيدًا عنها.

واستيقظ انتباه كل من كانوا بالحجرة، بالطبع، في الحال، قفز الضابط الجالس إلى المائدة واقفًا على قدميه، وتطلع موظفا الميناء في هدوء، ولكن بانتباه، وتحرك السيدان اللذان يقفان أمام النافذة أكثر نحو بعضهما، أما المساعد الذي أدرك أنه لم يعد من شأنه الآن أن يتدخل، بعد أن انتبه رؤساؤه إلى الأمر، فقد تراجع إلى الخلف، وظل العطشجي منتظرًا عند الباب في توتر حتى تحين اللحظة التي يطلب فيها منه أن يتدخل، واستدار أمين حسابات الباخرة أخيرًا دورة كاملة في مقعده.

وانتزع كارل من داخل جيبه السري الذي لم يكن يحفل بأن يطلع عليه هؤلاء الناس، جواز سفره، الذي فتحه، ووضعه إلى المنضدة بدلًا من أية محاولة أخرى لتقديم نفسه، وبدا على أمين حسابات الباخرة، كما لو كان يظن أن جواز السفر غير صحيح؛ ذلك لأنه قد دفعه جانبًا، فتناوله كارل عندئذ ودسه في داخل جيبه، كما لو كانت هذه الخطوة الأولى من الشكليات قد انتهت على ما يرام.

ثم شرع يقول: «هل تسمح لي بأن أقول، إنه في رأيي قد حاق الظلم بصديقي العطشجي. ها هو شخص محدد استبد به شوبال في هذه الباخرة! إن له سجلًا حافلًا بالخدمة المرضية، على عديد من البواخر، في إمكانه أن يسرد أسماءها على مسامعك.. إنه مثابر، شغوف بعمله، وأنه لمن الصعب حقيقة أن يرى المرء لماذا على هذه الباخرة بالذات حيث لا يتطلب العمل

جهدًا شاقًّا كما هو في سفن الشحن مثلًا، لا يلقى هذا الشخص سوى هذا الحظ القليل من الاهتمام.. لا بد أنه محض افتراء ذلك السبب الذي ينتهي به إلى تلك الحالة البائسة ويسلبه الاعتراف بالفضل الذي هو أهل له دون شك. لقد التزمت، كما يمكنك أن ترى ذلك بنفسك، بالاهتمام بالأمور العامة، وفي وسعه أن يعرض عليك شكواه الصريحة بنفسه.

بهذا القول كان كارل قد خاطب السادة الحاضرين جميعًا، ذلك لأنهم في الحقيقة، كانوا يستمعون إليه، ولأنه يبدو، بعد هذا، أنه بين كل هؤلاء على الأقل لابد من وجود شخص واحد عادل، وفيما عدا ذلك الشخص الوحيد العادل، يجب على أمين حسابات الباخرة أن يكون عادلًا أيضًا، وأخفى كارل أيضًا في مراوغة حقيقة أنه لم يتعرف على العطشجي إلا منذ تلك الفترة القصيرة فحسب، لكن كان في مقدوره أن يلقي خطبة أفضل بكثير من خطبته تلك التي ألقاها، لو لم يتشبث ذهنه بمواجهة ذلك الوجه الأحمر، وجه الرجل الذي كان يمسك بالعصا البامبو، والذي كان قد أصبح الآن في مجال رؤيته للمرة الأولى.

كان هذا صحيحًا، كل كلمة مما قيل! صرح العطشجي بذلك، حتى قبل أن يسأله أي شخص عن رأيه، ودون أن ينظر في الحقيقة أي شخص إليه. ربما كان ذلك الحماس الزائد الذي أبداه، خطأً شنيعًا لو أن الرجل ذا الزخارف التي تنتشر على صدر ردائه، كما بدا الآن على أنه القبطان بالطبع، لم يكن قد وطّن عزمه نهائيًا، على الاستماع إلى حقيقة الأمر. ذلك أنه فرد ذراعه، وصاح في العطشجي: «تعال هنا» في صوت قاس كالصخرة. فأصبح كل شيء يعتمد الآن على سلوك العطشجي.. أما عن عدالة قضيته، فلم يكن

ثمة ظل من الشك يساور كارل في ذلك بحال من الأحوال.

وظهر لحسن الحظ في هذه اللحظة أن العطشجي كان رجلًا متمرسًا بخبرة لا حد لها.

ففي هدوء يعد مثلًا لرباطة الجأش سحب من داخل صندوقه، في محاولته الأولى لفتحه، حزمة صغيرة من الأوراق، ومذكرة، وتقدم بهما نحو القبطان، كما لو كان ذلك أمرًا متوقعًا.. متجاهلًا أمين حسابات الباخرة تمامًا، ونشر مستنداته تلك على إفريز النافذة. لم يكن يوجد أمام أمين حسابات الباخرة ما يفعله، فلم يجد بدًّا من أن يتقدم هو أيضًا إلى الأمام وقال مفسرًا: «إن هذا الرجل جعجاع خبيث! إنه يقضي في حجرة صرف الأجور، وقتًا أطول من الوقت الذي يقضيه في غرفة الآلات. لقد دفع هذا الشخص شوبال الهادئ إلى اليأس المطبق، استمع إليّ»، وهنا استدار إلى العطشجي: «إنك متشبث إلى حد فظيع بدفع نفسك إلى الأمام. كم مرة من المرات طردت حتى الآن من حجرة صرف الأجور؟ واعترف أيضًا بوقاحتك في طلب أشياء لا حق لك في المطالبة بها حال من الأحوال؟ كم من المرات اندفعت مهرولًا من حجرة صرف الأجور إلى مكتب أمين حسابات الباخرة؟ وكم من المرات قام الآخرون في صبر بتوضيح حقيقة أن شوبال هو رئيسك المباشر، وأنه هو الشخص الذي يتعين عليك أن تتعامل معه وحده؟ والآن جئت أيضًا إلى هنا، بينما القبطان حاضر هنا بنفسه، لتزعجه، بوقاحتك، وكأن ذلك كله لم يكن كافيًا، حتى تصطحب معك «لسان حال» ليشرح في طلاقة تلك التظلمات الملفقة التي لقنتها له، صبي لم يسبق لي أن رأيته على هذه الباخرة من قبل مطلقًا!».

وتمالك كارل نفسه بقوة حتى لا يقفز مندفعًا إلى الأمام.

إلا أن القبطان كان قد اشترك لحظتها في الحديث بهذه الملاحظة: «من الأفضل أن نستمع إلى ما ينبغي على الرجل أن يواجه به نفسه! إن شوبال قد أصبح في هذه الأيام، أضخم، إلى حد بعيد، بالنسبة لفردتي حذائه! إلا أن هذا لا يعني أن أعتقد أنك محق» كانت الكلمات الأخيرة موجهة إلى العطشجي، كان طبيعيًّا ألا يشترك القبطان في المناقشة منذ البداية، إلا أن كل شيء بدا وكأنه كان يسير في طريقه الصحيح. وبدأ العطشجي في تقرير حالته، وتمالك نفسه منذ البداية حتى أنه كان يطلق على شوبال «مستر شوبال» وشعر كارل بالرضا الزائد، بينما كان يقف بجوار منضدة أمين حسابات الباخرة الخاوية، حتى أنه في غمرة اغتباطه راح يضغط على فتاحة الخطابات إلى أسفل بإصبعه! لم يكن مستر شوبال عادلًا! مستر شوبال يفضل الأجانب! أمر مستر شوبال العطشجي بمغادرة حجرة الآلات، وأرغمه على تنظيف دورات المياه، وهي مهمة ليست من اختصاص العطشجي مطلقًا! وفي إحدى المرات كانت كفاءة «مستر شوبال» هي أيضًا موضوعًا للتساؤل لأنه يبدو في صورة لا تتطابق مع حقيقة أمره. وعند هذا الحد ركز كارل نظراته على القبطان، وحدّق فيه في تبجيل رصين، كما لو كانا زميلين؛ حتى يمنعه من التحيز ضد العطشجي بسبب غلظة أسلوب الرجل في التعبير عن متاعبه. كما أنه لم يبد كذلك أن شيئًا محددًا قد تمخض عنه تدفق العطشجي في الإيضاح.

ومع أن القبطان ظل مستمرًا في الإنصات، وهو مستغرق في أفكاره، إلا أن عينيه كانتا تنمان عن قراره بالاستماع إلى العطشجي هذه المرة إلى

النهاية، وفقد باقي السادة صبرهم، ولم يلبث صوت العطشجي أن غطى الحجرة، فكان ذلك علامة تنذر بالسوء. وكان السيد الذي يرتدي الملابس المدنية، هو أول من أفصح عن نفاد صبره عندما راح يعبث بعصا البامبو، ويقرع بها- ولو في رقة- أرضية الحجرة.

وظل الآخرون يحدقون إلى أعلى من حين لآخر، لكن موظفيّ الميناء، اللذين كانا يبدو عليهما الضيق لضياع وقتهما، اختطفا أوراقهما ثانية، وشرعا- ولو في شرود إلى حد ما- في تفحصها، أما ضابط الباخرة فقد استدار إلى منضدته، وصعد أمين حسابات الباخرة الذي ظن الآن أنه قد انتصر اليوم، تنهيدة مفعمة بالاستهزاء. ومن التشتت العام للاهتمام، بدا أن المساعد كان هو الشخص الوحيد المحتفظ بصفائه، على نقيضهم جميعًا، وهو الوحيد الذي تعاطف إلى حد ما مع ذلك الرجل البائس الذي لاقى الكثير، وأومأ مطرقًا في أسى نحو كارل، كما لو كان يحاول تفسير أمر ما.

بينما، كانت الحياة في الميناء خارج النوافذ تمضي في طريقها، كان صندل للشحن محملًا بجبل من البراميل، التي لا بد كانت قد ربطت بصورة مثيرة للدهشة، طالما أنها لم تتدحرج، كان ذلك الصندل يمضي مبتعدًا، حاجبًا ضوء النهار تمامًا، وقوارب بخارية صغيرة، تمنى كارل لو أتيح له أن يتفحصها في دقة، لو سمح له الوقت بذلك، كانت تنطلق مبتعدة كالقذيفة، لأقل حركة تبدر من الرجل الواقف أمام العجلة. وهنا وهناك أشياء غريبة تهتز في حرية مع حركة المياه التي لا تستقر.. أشياء كانت قد غاصت ثانية على الفور، وغمرتها المياه أمام عينيه المدهوشتين، وقوارب تابعة لخطوط عابرات المحيط كانت تجدف مبتعدة ببحارتها الذين يتصببون عرقًا، وكانت

تمتلئ بالركاب الذين يجلسون في صمت وترقب، كما لو كانوا مرصوصين هنالك. غير أن بعضهم لم يكونوا يتوقفون عن تحريك رؤوسهم للتحديق في المشهد المتغير، حركة بلا نهاية، تنتقل من المعدن الذي لا يكل إلى الآدميين البؤساء، ومشاغلهم.

إلا أن كل شيء كان يتطلب السرعة، والوضوح، والتقرير الدقيق، وما الذي كان العطشجي يفعله؟ لا شك أنه كان مستمرًا في حديثه، حتى لقد تصبب عرقًا، وكانت يداه ترتعشان بشدة، حتى لم يعد في استطاعته أن يمسك بالأوراق التي كان قد وضعها على حافة النافذة. ومن كل النقاط الفرعية كانت تنصب التظلمات التي تتناول شوبال. كانت تبدو كل منها في ذاكرته كافية لإجبار شوبال على التسليم باستبداده وظلمه، إلا أن كل ما كان العطشجي قد تمكن من تقديمه إلى القبطان، لم يكن سوى خليط تعس، كان كل شيء يحتشد فيه في وقت معًا، وبلا مبرر.. وظل الرجل الذي يمسك بالعصا المصنوعة من البامبو، فترة طويلة محدقًا في السقف بينما يصفر لنفسه، واحتجز موظفا الميناء، ضابط الباخرة على مائدتهما، ولم يبد عليهما ما يدل على استعدادهما للسماح له مرة أخرى بالابتعاد. وكان أمين حسابات الباخرة قد كَبَتَ رغبته في الصياح فقط نظرًا لهدوء القبطان، ووقف المساعد وقفة انتباه، منتظرًا في كل لحظة أن يصدر القبطان أمرًا يتعلق بالعطشجي.

عند هذا الحد لم يتمكن كارل من أن يظل ساكنًا، ولهذا فقد تقدم متباطئًا نحو الجمع، وفي رأسه تجري منطلقة في سرعة، كل الوسائل التي يمكنه بها أن يقبض في براعة على زمام الأمر.

كانت اللحظة، لحظة حرجة دون شك، وكانت قد طالت بعض الشيء

وربما طُرد كلاهما فعلًا خارج المكتب، وربما كان القبطان رجلًا طيبًا، وربما كانت لديه أيضًا- أو هكذا بدا الأمر لكارل- بعض الأسباب الخاصة التي تدفعه في تلك اللحظة إلى التظاهر بأنه سيد عادل، لكنه قبل كل شيء قبطان لا مجرد أداة يلعب بها المرء في طيش، ولقد كان هذا بالضبط هو النحو الذي كان العطشجي يعامله على أساسه، في غمرة السخط الذي أفعم به قلبه.

لهذا قال كارل للعطشجي: «يجب عليك أن تعرض الأمور على نحو أكثر بساطة، وأكثر وضوحًا، إن القبطان لا يمكنه أن يتخذ قرارًا عادلًا بناء على ما تلقيه عليه. كيف يتسنى له أن يعرف كل الميكانيكيين، وصبيان الباخرة بأسمائهم، فضلًا عن أن يعرفهم بأسمائهم الأولى؟ حتى تنتظر منه عندما تذكر له هذا وذاك، أن يدرك على الفور من هم الذين تقصدهم؟ رتب تظلماتك، واذكر أهمها أولًا، ثم بعد ذلك التي تليها في الأهمية، ولعلك ترى أنه من غير الضروري حتى أن تذكر معظمها. لقد سبق أن شرحتها لي دائمًا على نحو أكثر وضوحًا!» وفكر قائلًا في نفسه، على سبيل التبرير، إذا أمكن سرقة الصناديق في أمريكا، فلا شك أن المرء يسعه أن يلقي بكذبة، من حين لآخر، بدوره هو أيضًا.

لكن هل كانت ثمة فائدة قد أسفرت عنها نصيحته؟ لعلها لم تكن قد جاءت بالفعل متأخرة كثيرًا عن وقتها. لقد توقف العطشجي عن الكلام فورًا، عندما استمع إلى الصوت الذي يألفه، إلا أن عينيه كانتا ممتلئتين بالدموع.. دموع كرامته المطعونة، ودموع الذكرى، وحزن الحاضر البالغ، حتى أنه قد تمكن بصعوبة من أن يتعرف على كارل، فكيف يمكنه عند هذا الحد- تحقق كارل من هذا في صمت، وهو يواجه العطشجي الصامت أخيرًا- أن يغير

فجأة أسلوبه في الحديث، عندما بدا واضحًا له، وقد قال كل ما يمكنه قوله، دون أن يستثير أدنى بادرة عطف، وأنه لم يكن في الوقت نفسه قد قال شيئًا على الإطلاق، ولا يسعه أن يتوقع من هؤلاء السادة أن يستمعوا مرة أخرى إلى كل ذلك اللغو، وفي مثل هذه اللحظة كان على كارل نصيره الوحيد أن يقطع استرسال حريته بتلك النصيحة الطيبة المزعومة، التي أوضحت أن كل شيء قد ضاع.. كل شيء.

قال كارل لنفسه: «لو أنني كنت قد تكلمت قبل ذلك بدلًا من التطلع عبر النافذة!» خافضًا عينيه أمام العطشجي، ومدليًا ذراعيه إلى جانبيه كدليل على أن كل أمل قد انتهى.

إلا أن العطشجي أخطأ فهم هذه الحركة، شاعرًا بلا شك أن كارل كان يضمر له نوعًا من اللوم، وفي رغبة صادقة في إيضاح الحقيقة، كلل العطشجي كل أخطائه الأخرى بالشروع في مشاجرة مع كارل، لحظتها عندما كان الرجال المجتمعون حول المائدة المستديرة قد بلغ بهم السخط مداه، على تلك الثرثرة الفارغة التي كانت تعطل أعمالهم المهمة، وعندما كان أمين حسابات الباخرة قد أخذ يتبين شيئًا فشيئًا أن صبر القبطان، قد أصبح أمرًا لا يمكن فهمه، وعندما كان على وشك الانفجار، وعندما كان المساعد قد تحول مرة أخرى بصورة نهائية إلى صف سادته، وراح يقيس العطشجي بنظرات وحشية، وعندما كان الرجل الذي يمسك بالعصا المصنوعة من البامبو، أخيرًا، ذلك الرجل الذي كان القبطان يرمقه بين الحين والآخر بنظرات ودية، قد ضاق تمامًا بوجود العطشجي، بل أصيب في الحقيقة بالقرف منه، فأخرج مفكرة صغيرة، وانشغل في وضوح بأفكار مختلفة تمام الاختلاف وهو ينظر في مفكرته أولًا، ثم يعود

فيوجه نظراته نحو كارل.

قال كارل: «إنني أعرف!» وكان يحاول بصعوبة أن يتفادى التيار الذي كان العطشجي يوجهه الآن نحوه، إلا أنه تمكن من الاستنجاد بابتسامة ودية وجّهَهَا للعطشجي على الرغم من كل الشقاق الذي كان قد قام في نفسه.. «إنك على حق، إنك على حق! إنني لم أشك في ذلك قط!».

ولخوفه من أن ترتطم به يدا العطشجي اللتان كان يلوح له بهما، كان كارل يود لو أمكنه أن يمسك بهما، وإن كان الأفضل أن يسحب الرجل إلى أحد الأركان، حتى يتمكن من أن يسر إليه بما قد يهدئ ثائرته، ويشجعه من الكلمات التي يجب ألا يسمعها الآخرون، إلا أن العطشجي كان قد تخطى كل الحدود، فشرع كارل بالفعل في التماس شيء من العزاء في فكرة أنه في مقدور العطشجي، عند الاضطرار أن يواجه الرجال السبعة الذين تضمهم الحجرة بالعنف النابع من يأسه. لكن على المنضدة، كانت هناك شبكة أجراس تمكن من رؤيتها بنظرة، أجراس عديدة لا حصر لها، كان مجرد الضغط عليها بيد واحدة، كفيلًا بأن يقيم الباخرة كلها، وأن يأتي بكل الرجال العدوانيين الذين تمتلئ بهم ممراتها.

تقدم السيد الذي يمسك العصا المصنوعة من البامبو الآن، على الرغم من التجائه إلى التباعد لضجره البالغ، نحو كارل، وسأله بصوت ليس مرتفعًا غاية الارتفاع، ولكنه كان واضحًا بدرجة كافية، ومسموعًا فوق ضجة هذيان العطشجي: «بالمناسبة ما هو اسمك؟» في تلك اللحظة، وكما لو كان شخص ما خلف الباب ينتظر توجيه هذا السؤال، انبعثت طرقة على الباب، فنظر المساعد عبر الحجرة إلى القبطان، وأومأ القبطان، وعلى هذا توجه

المساعد نحو الباب وفتحه. كان يقف في الخارج رجل متوسط الحجم في معطف حربي قديم، لا يبدو عليه مطلقًا أدنى صلة شبه بذلك النوع من الرجال الذين يتعاملون مع الآلات. ومع ذلك فقد كان هو شوبال.. فلو لم يكن كارل قد استنتج ذلك من تعبير الارتياح الذي أضاء العيون جميعًا، حتى عيني القبطان، فلا شك أنه كان سيستنتجه من الرعب الذي سيطر على سلوك العطشجي الذي ضم قبضتيه على امتداد ذراعيه المفرودتين في حدِّة جعلت إطباقتهما، تبدو أهم شيء على الإطلاق في وجوده كله، هاتان القبضتان اللتان كان على أتم الاستعداد لأن يضحي في سبيلهما بأي شيء آخر في الحياة. كانت قوته كلها مركزة في قبضتيه، بما فيها تلك القوة التي كانت تحمله على الوقوف منتصبًا فوق قدميه.

وهكذا أصبح العدو هنا هو أيضًا، منتعشًا، ومبتهجًا في ملابس الشاطئ، وتحت ذراعه دفتر ضخم، لعله ينطوي على تقرير عن ساعات العمل، والأجور المستحقة للعطشجي، وكان يتفحص في جرأة وجوه الحاضرين جميعًا، وبدا كما لو كان اهتمامه الأول الذي يجب الاعتراف به في صراحة هو أن يكتشف في أي جانب من جوانب الحجرة كانوا يقفون! كان الرجال السبعة الذين تجمعهم الحجرة أصدقاءه بالفعل، وعلى الرغم من أن القبطان كان قد أثار بعض الاعتراضات عليه قبل قليل، أو أنه قد تظاهر بأنه يفعل ذلك؛ لأنه قد أحس بالأسف من أجل العطشجي، فقد كان واضحًا أنه لا يجد أدنى أثر للخطأ في جانب شوبال. وأن رجلًا كالعطشجي، لا يمكن أن يكون قد أهين بهذه الدرجة من القسوة، ولو كان شوبال ليلام على شيء، فقد كان هذا الشيء الذي يجب أن يلام عليه هو أنه لم يكبح جماح العطشجي،

الميال للاعتراض دائمًا، بصورة كافية، طالما أن ذلك الشخص قد جرؤ على مواجهة القبطان في نهاية الأمر.

إلا أنه من الممكن الاطمئنان إلى أن مواجهة شوبال والعطشجي ستنتهي، حتى ولو كانت على يد محكمة من البشر، إلى نفس النتيجة التي ترضاها العدالة السماوية، طالما أن شوبال، حتى ولو نجح في التظاهر بالصلاح، سينهار بسهولة، في نهاية الأمر.

إن توهجًا قصير الأمد لطبيعته الشريرة سوف يكشف عن طبيعته تلك لهؤلاء السادة، ولسوف يمهد كارل لذلك. وأن لديه بالفعل خبرة مباشرة واسعة بالمكر، وبطباع الشخصيات المختلفة التي تجمعها الحجرة، وفي هذا المقام لن يكون الوقت الذي أنفقه بداخلها قد ضاع عبثًا. لقد كان مما يؤسف له أن العطشجي كان يفتقر افتقارًا شديدًا إلى المهارة، إنه لا يبدو مطلقًا أهلًا للفعل الحاسم.

فلو أن شخص دفع شوبال نحوه، فلعله أن يشج جمجمة ذلك الرجل، الشائهة بقبضتيه. إلا أن القدرة على تخطي الخطوتين اللازمتين حتى يصبح شوبال في متناول يده، كانت فوق طاقته. فلماذا لم يتوقع كارل، ما كان يبدو متوقعًا على هذه الدرجة من البساطة، وهو أن شوبال كان سيظهر لا محالة، حتى لو لم يكن قد ظهر تلقائيًا كما حدث، فلا بد أنه كان سيحضر بناء على طلب القبطان! فلماذا لم يدبر خطة محكمة للهجوم بالاشتراك مع العطشجي، بينما كانا في طريقهما إلى هنا، بدلًا من السير في سذاجة، ودون أدنى استعداد، على نحو يبعث على اليأس؟ حتى بلغا أحد الأبواب «كما اتفق لهما أن فعلا؟ فهل كان العطشجي قادرًا على أن يتفوه الآن بكلمة، أو

الرد بنعم أو لا، كما يتحتم عليه أن يفعل لو قدر له أن يستجوب الآن، رغم أن الاستجواب- ولا جدال في ذلك- كان أمرًا بعيد الأمل في حدوثه، إسرافًا في التفاؤل! ها هو يقف هنالك، ساقاه متخاذلتان، وركبتاه مرتعدتان، ورأسه ملقيٌّ إلى الخلف، والهواء يتردد إلى داخل وخارج فمه المفتوح، كأنما لا توجد للرجل رئتان تتحكمان في حركة الهواء.

كان كارل نفسه يشعر بمزيد من القوة، وصفاء الذهن، ربما لم يسبق له أن أحس بهما على هذا النحو في بيته مطلقًا من قبل، فلو استطاع والده ووالدته فقط أن يرياه الآن، مدافعًا عن العدالة في أرض غريبة أمام رجال ذوي سلطة، ومع أنه لم ينتصر بعد، إلا أنه عازم في إقدام على أن يحوز النصر النهائي! فهل يعيدان النظر في فكرتهما عنه؟ ويستبقيانه إلى جوارهما، ويمجدانه؟ انظر في عينيه أخيرًا، أخيرًا.. هاتان العينان المفعمتان بالولاء لهما؟ تساؤلات مبهمة، ولكن ليس الآن، هو أوان طرحها.

- «لقد جئت إلى هنا لأنني أعتقد أن هذا العطشجي قد اتهمني بالغش أو بشيء من هذا القبيل. وقد أخبرتني إحدى فتيات المطبخ بأنها قد شاهدته يفعل ذلك! أيها القبطان وأنتم جميعًا أيها السادة وإنني على أتم الاستعداد لتقديم الإثباتات التي تدحض أيًّا من هذه الاتهامات. ولو شئتم أن أقدم لكم شهادات الشهود غير المنحازين، الذين لا تشوب نزاهتهم الشوائب، هؤلاء الشهود الذين يقفون في انتظار سماع شهاداتهم الآن أمام باب هذه الحجرة».

كان هذا هو التقرير الذي تقدم به شوبال، وقد كان للحق تقريرًا واضحًا جريئًا، وربما خُيل للمرء من التعبيرات التي تبدلت على وجوه المستمعين أنهم قد استمعوا لأول مرة، بعد انقطاع فترة طويلة سادها الصمت، إلى

صوت بشري حقًّا. ولا شك في أنهم لم ينتبهوا إلى الفجوات التي كان من السهل أن يتبينها المرء في تلك الخطبة الرائعة. لماذا مثلًا: كانت الكلمة الأولى، المناسبة التي تهيأت له هي «الغش»؟ فهل حدث أن اتهمه أحد بذلك؟ لعله استبدل بها كلمة: التحامل على جنسية من الجنسيات؟ كانت إحدى فتيات المطبخ قد شاهدت العطشجي وهو يمضي في طريقه إلى الإدارة، فتكهن شوبال على الفور بما يعنيه ذلك! فهل كان إحساسه بالذنب هو الذي شحذ إدراكه؟ ثم إنه قد جمع الشهود فورًا، ألم يفعل ذلك؟ ومن ثم يتحول فيصفهم بأنهم غير منحازين، ويصفهم كذلك بالنزاهة، ربما لكي ينتفع هو بهذه الصفات؟ احتيال! ولا شيء سوى محض احتيال! ولم ينخدع هؤلاء السادة جميعًا بذلك فقط، بل قد صادفت فعلته استحسانهم أيضًا.

ثم.. لماذا تعمد التأخير، هذه الفترة الطويلة التي انقضت بين وشاية فتاة المطبخ وموعد حضوره إلى هنا. لقد تأخر في المجيء حتى يترك الفرصة الكافية للعطشجي حتى يرهق السادة، وحتى يكون عزمهم على الحكم الواضح قد تبدد! هذا الحكم الواضح الذي كان شوبال يخشاه قبل أي شيء غيره! كما أنه قد انتظر أمام الباب فترة طويلة، لا شك في أنه قد فعل ذلك، فهل كان قد تعمد عدم الطرق على الباب، حتى سمع السؤال العارض الذي وجهه السيد الذي يمسك عصا البامبو. هذا السؤال الذي استند إليه، على أمل أن يكون العطشجي قد فرغ بالفعل من مهمته.

كان كل شيء واضحًا الآن وضوحًا كافيًا، كما أن تصرف شوبال العفوي كان يؤكده، لكن لابد من توضيح ذلك لهؤلاء السادة بوسائل أخرى أشد فعالية. يجب أن يهتزوا في عنف، فأسرع إذن الآن يا كارل، واستغل كل

دقيقة تبقت أمامك، قبل أن يشرع الشهود في دخول الحجرة، ويقلبوا القضية بأكملها رأسًا على عقب.

إلا أن القبطان كان قد أشاح في تلك اللحظة نفسها لشوبال بيده- طالبًا منه أن ينصرف، فانتحى جانبًا من فوره- وقد رأى أن تدبيره قد تأجل على ما يبدو لوقت ما- وهرع إليه المساعد، حيث راحا يتبادلان معًا حديثًا هامسًا، يتضمن نظرات جانبية عديدة موجهة نحو العطشجي وكارل. بالإضافة إلى حركات وإشارات لها مغزاها.

كان يبدو على شوبال، وكأنه كان يرتب في ذهنه خطبته الرائعة القادمة!

وفي الصمت الذي ران على الحجرة، قال القبطان، موجهًا حديثه إلى السيد الذي يمسك بعصا البامبو في يده: «هل ترغب في أن توجه سؤالًا ما إلى هذا الصبي، يا مستر جيكوب؟».

فأجاب الآخر، بانحناءة خفيفة ردًّا على مجاملة القبطان، ثم عاد ثانية، فسأل كارل: «ما هو اسمك؟».

فأجابه كارل الذي ظن أن مهمته الأساسية يمكن أن تتم بصورة أفضل، لو حاز رضا ذلك الشخص الذي يلح بتساؤله.. أجابه مسرعًا، في اقتضاب، دون أن يحاول تقديم نفسه- على عادته- بواسطة جواز سفره، الذي كان عليه أن ينتزعه ثانية من داخل جيبه:

- كارل روسمان.

- حقًّا!

قالها السيد الذي دعي باسم جيكوب متراجعًا، بابتسامة مرتابة وكذلك

ابتسم القبطان، وأمين الباخرة والضابط، وحتى المساعد ابتسم هو أيضًا، وعلت الدهشة البالغة وجوههم جميعًا عند سماعهم اسم «كارل»، كان موظفا الميناء وحدهما، وشوبال هم الذين ظلوا دون مبالاة.

وعاد مستر «جيكوب» مرة أخرى فقال: «حقًّا؟» وهو يتقدم نحو كارل بخطوات جامدة، واستطرد قائلًا: «إذن فأنا خالك جيكوب، وأنت... ابن أختي العزيز! لقد كنت مشتبهًا في ذلك طوال الوقت!»، وجه جملته الأخيرة للقبطان قبل أن يحتضن كارل الذي استسلم له في ذهول، وهو يقبله.

وعندما تخلص كارل من عناق خاله، سأله في لطف.. لكن في برود شديد، محاولًا بغاية ما يمكنه أن يحسب النتائج التي قد تتمخض عنها هذه التطورات الجديدة لصالح العطشجي، قائلًا: «وما عسى أن يكون اسمك؟».

لم يكن ثمة ما يحتاج إلى توضيح أن شوبال لم يكن يسعه في هذه اللحظة أن يخرج من هذا الموقف بأي شيء في صالحه.

ورد القبطان، الذي اعتقد أن مستر جيكوب قد شعر بالإهانة لسؤال كارل؛ لأنه كان قد تراجع في اتجاه النافذة، لا شك لكي يخفي عن الآخرين اضطرابه، وانفعالات وجهه الذي كان يربت عليه بمنديل في يده قائلًا: «ألا تدرك حظك السعيد أيها الشاب.. إنه السيناتور إدوارد جيكوب، ذلك الذي صرح الآن بأنه خالك»، وقال السيناتور إدوارد جيكوب: إن من تدعى «برومر» هذه، أنجبت طفلًا من ابن أختي، صبي يتمتع بصحة جيدة عمدته باسم «جيكوب»، وواضح أنها أطلقت هذا الاسم عليه، تيمنًا بشخصي المتواضع، ذلك أن حديث ابن أختي إليها، الذي كان يشير فيه إليّ من وقت لآخر، كان قد ترك أثرًا عميقًا في نفس تلك المرأة، واسمحوا لي بأن أضيف

أن هذا كان من حسن الطالع.. أما والدا الصبي، فإنهما لكي يتخلصا من النفقة، ويتجنبا الفضيحة- وينبغي عليَّ أن أقر بأنني أجهل جهلًا تامًّا طبيعة القوانين التي يسري تطبيقها في هذا الخصوص، وأجهل كل الملابسات التفصيلية وظروف هذه الحالة- أقول إذن إنهما لكي يتجنبا الفضيحة، ويتخلصا من دفع النفقة، قاما بطرد ابنهما- ابن أختي العزيز- وأرغماه على الرحيل إلى أمريكا، دون أن يكون مستعدًا- ويا للعار- لمواجهة أعباء تلك الرحلة.. وهذا ما يسعكم أن تلمسوه بأنفسكم.

فما عسى أن يكون الحال الذي كان سينتهي إليه مصيره، لو لم ترسل إليَّ تلك المرأة هذا الخطاب الذي وصلني في النهاية، بعد أن تأخر طويلًا، أمس الأول، وسردت لي فيه القصة كاملة، وكذلك أوصاف ابن أختي، وفي حكمة بالغة، اسم الباخرة التي رحل عليها أيضًا!!

فلو كان لي أن أشرع في تسليتكم أيها السادة، فلعلني أقرأ عليكم بضع فقرات قصيرة مما جاء في هذا الخطاب، ثم جذب ورقتين كبيرتين من أوراق الخطابات ممتلئتين بالكتابة في خط دقيق، ونشرهما أمامهم:

- «ولست أشك في أنكم ستهتمون بالإنصات إليها، ذلك أن هذا الخطاب قد كُتب بأسلوب ينطوي على شيء من الدهاء المتعمد، الساذج، ويشيع فيه الاهتمام البالغ الذي ينم عن الحب- لوالد الطفل- إلا أنني لا أنوي أن أمضي في قراءة أكثر مما يلزمني في توضيحي لحقيقة الحال، وحتى لا أحرج مشاعر ابن أختي منذ بداية لقائي به، مشاعره تلك المرهفة لا تزال بلا شك، ويمكنه أن يقرأ ذلك الخطاب لمعلوماته الخاصة فيما بعد على انفراد في الحجرة التي تم إعدادها الآن، في انتظاره».

إلا أن كارل لم يَكُنْ يَكِنّ أية مشاعر ليوهانا برومر، وتذكرها ثانية وهو يعود بذاكرته إلى الماضي الذي تلاشى الآن.. تذكرها وهي تجلس في مطبخها إلى جوار منضدة المطبخ تعتمد بكوعها على سطحها.. كانت تتطلع إليه كلما دخل المطبخ لكي يملأ كوبًا من الماء لوالده، أو يقوم بأداء طلب لوالدته. وكانت هي تجلس أحيانًا بلا مبالاة إلى أحد جوانب المنضدة تكتب خطابًا، أو ترسم ملامح وجه كارل من مخيلتها، وفي أحيان أخرى كانت تجلس وهي تخفي وجهها بيدها ولا تكاد تعي شيئًا مما يقال لها.. كانت تركع في أحيان أخرى داخل حجرتها الضيقة الملاصقة للمطبخ مستغرقة في الابتهال أمام صليب خشبي، وكان كارل يشعر بالخجل عندما كان يمر بها، أو يلمحها من خلال فتحة الباب الموروب. وكانت تحدث ضوضاء مزعجة أحيانًا بداخل المطبخ، وتتراجع وهي تضحك كالمخبولة، عندما كان كارل يقترب منها، وفي مرات، كانت تغلق باب المطبخ في إثر دخول كارل وتقبض بيدها على أكرة الباب، ولا تسمح له بالخروج حتى يظل يتوسل إليها طالبًا منها أن تسمح له بالخروج، في أوقات أخرى كانت تحضر له أشياء لم يكن في حاجة إليها وتدسها في يده.. في صمت. وذات مرة نادته قائلة: «كارل» وبينما كان يقف متحيرًا في أمر هذه الألفة المفاجئة، سحبته إلى غرفتها.. وكانت تتنهد، وتزم- في قلق- ملامح وجهها، ثم.. أغلقت الباب خلفه، وطوقت عنقه بذراعيها في عنف، حتى أوشك على الاختناق، وحينما كانت تسأله إن كان عليها أن تخلع ثيابها، كانت قد خلعت ملابسه هو بالفعل بيديها، وأرقدته في فراشها، كما لو كانت قد عزمت على ألا تتركه لأي مخلوق آخر، وعلى أن تحنو عليه، وتدلله إلى الأبد.. ثم صاحت قائلة:

«كارل.. كارل يا عزيزي»، وبدت عيناها وكأنهما قد أوشكتا على افتراسه، بينما لم تثبت عيناه على أي شيء مطلقًا، وكان يشعر بالضيق، وهو غارق في كومة الملابس التي بدا وكأنها كانت قد كومتها من أجله هو وحده، ثم استلقت إلى جواره، وطلبت إليه أن يسرُّ لها بشيء، لكنه لم يستطع أن يقول لها شيئًا، فتظاهرت بالغضب، سواء كان ذلك على سبيل المزاح، أو أنها كانت قد غضبت منه بالفعل، وراحت تهزه، وتتسمع إلى دقات قلبه.. وأدنت صدرها منه حتى يتمكن من الاستماع بدوره إلى خفقات قلبها أيضًا، إلا أنها لم تنجح في أن تحمله على الاستماع إلى أي شيء، ثم ضغطت بطنها العارية إلى جسده، وتحسست ساقيه بأصابعها بصورة مقززة، حتى لقد حاول أن ينهض رافعًا رأسه وعنقه عن الوسائد، ثم ضغطت جسدها إلى جسده.. بدت كما لو كانت قد أصبحت جزءًا منه، وربما لهذا كان قد تملكه شعور جارف بالحنين. وعاد أخيرًا إلى فراشه، ودموعه تنهمر فوق خديه، بعد محاولات متعددة قامت بها، لتعود به مرة أخرى إلى داخل حجرتها.. كان هذا هو كل ما حدث، إلا أن خاله قد استطاع أن يحيل ذلك الحادث إلى أسطورة، ويبدو أن الطباخة كانت مشغولة تمامًا به، وأنها أخبرت خاله بوصوله، ولقد كان هذا خير ما قامت به في سبيله، وسوف يبحث هذا الأمر فيما بعد، لو أمكنه أن يفعل..

وصاح السيناتور: «والآن.. أرجو أن تخبرني بصراحة، عما إذا كنت خالك أم لا؟».

فأجابه كارل وهو يقبل يده ويتلقى منه قبلة فوق حاجبيه قائلًا: «أنت خالي وإنني في غاية السعادة لعثوري عليك، غير أنك تكون مخطئًا لو اعتقدت أن

والدي ووالدتي يتحدثان عنك بالسوء. وعلى أية حال فلقد وصلتك نقاط عديدة مغلوطة في ثنايا القصة التي بلغتك، وأعني أن الأمر لم يحدث في الواقع بتفاصيله كلها على ذلك النحو، إلا أنك لا تتوقع بالطبع أن تدرك على نحو بالغ الدقة أمورًا تجري في مكان بعيد كل هذا البعد، ولا يخيل لي أن ضررًا ما من الممكن أن يصيب هؤلاء السادة، إذا اتفق لهم أن استمعوا إلى بعض التفاصيل الخاطئة التي تتناثر في ثنايا حدث لا يهمهم في شيء!».

قال السيناتور: «حديث رائع» وقاد كارل نحو القبطان الذي أبدى له عطفه في وضوح وسأله: «أليس ابن أختي رائعًا؟».

قال القبطان: «إنني سعيد غاية السعادة» وانحنى انحناءة نمت عن دقة تدريبه العسكري.. «بالالتقاء بابن أختك يا سيدي السيناتور، ولقد حظيت باخرتي بشرف الاستئثار بهذا المشهد الذي انتهى «بِلَمّ الشمل» وتم في داخلها، إلا أن الرحلة في ذلك الجزء الخلفي من الباخرة لم تكن رحلة طيبة بالمرة، ذلك لأن مختلف أنواع الناس بالطبع يسافرون في ذلك المكان، ونحن نبذل أقصى جهد يسعنا أن نبذله لتوفير الراحة الممكنة لركاب هذا الجانب من الباخرة، بصورة تقترب كثيرًا، مما توفره الخطوط البحرية الأمريكية من الراحة لمثل هؤلاء المسافرين.. أما عن تحويل السفر في هذا الجزء من باخرتنا إلى متعة خالصة فشيء لم يسعنا بعد أن نحققه.

قال كارل: «لم يسبب لي هذا المكان أي ضرر».

وكرر السيناتور قوله ضاحكًا بصوت مرتفع.. «لم يسبب له هذا المكان أي ضرر».

وأكمل كارل قائلًا: «فيما عدا إنني أخشى أن أكون قد فقدت صندوقي». وبذلك تذكر كل ما مر به وما تبقى أمامه ليفعله.. وتطلع حوله فرأى الآخرين ما زالوا يقفون في أماكنهم صامتين تغلبهم الدهشة وتنم نظراتهم عن التبجيل وأعينهم مثبتة عليه.. موظفا الميناء وحدهما، لقسوتهما ووجهيهما اللذين يقطران اعتزازًا واضحًا بالنفس، هما اللذان أظهرا شيئًا من الأسف لحضورهما في هذا الوقت غير المناسب، وربما كانت الساعة التي استقرت أمامهما على المائدة، أكثر أهمية بالنسبة إليهما من أي شيء آخر حدث في هذه الحجرة، أو قد يحدث.

وكان أول من عبر عن شعوره بعد القبطان- وهو أمر غريب- هو العطشجي، الذي قال: إنني أهنئك قلبيًّا.. وشد على يد كارل، ووشت حركته تلك، بشيء من الاعتراف بالفضل، لكنه عندما توجه إلى السيناتور بنفس كلماته التي وجهها إلى كارل، انسحب السيناتور متراجعًا إلى الخلف، كما لو كان العطشجي قد بالغ في تجاوز حدوده، فعدل العطشجي في الحال عن نيته.

وأدرك الآخرون، الذين كانوا قد شهدوا الآن ما انتهى إليه الحال، واجبهم فتجمعوا حول كارل والسيناتور في حلقة صاخبة.

وهكذا قدر لكارل أن يتلقى بالفعل تهاني شوبال، وتقبلها، وشكره على مشاعره، وكان آخر المهنئين هما موظفا الميناء، اللذان قالا كلمتين لا أكثر بالإنجليزية، كان لهما تأثير يبعث على الضحك..

وأحس السيناتور برغبته في ارتشاف آخر قطرة من المتعة التي أتاحها له الموقف، فشرع في تنشيط ذهنه وأذهان الآخرين بالإسهاب في ذكر

التفاصيل الثانوية التي تتعلق بالحادث، ولم تقابل هذه التفاصيل بأي نوع من أنواع الضجر، بل قوبلت بالطبع من الجميع بقدر كبير من الاستحسان والاهتمام، وعلى هذا فقد ذكر لهم أنه كان قد خط في مفكرته- حتى يتسع أمامه المجال للبحث في حالة الضرورة- ملامح ابن أخته، وصفاته المميزة، كما أوضحتها الطباخة في خطابها، وعندما بدأ يشعر بالضيق الذي سببه له هياج العطشجي، أخرج مفكرته، لمجرد أن يسلي نفسه بتصفحها، ثم راح يقارن- لمتعته الخاصة- الأوصاف التي ذكرتها الطباخة، تلك الأوصاف التي لم يكن نصيبها من الدقة مما يرضى عنه مطلقًا، أي رجل من رجال المباحث، واستغرق في مقارنتها بملامح كارل عندما واجهه.. وهذه هي الطريقة المثلى للعثور على ابن أخت.. قالها السيناتور في زهو كما لو كان يرغب في تلقي المزيد من التهاني..

تساءل كارل قائلًا: «ما الذي سيحدث الآن للعطشجي؟» متجاهلًا ملاحظات خاله الأخيرة. كان قد تخيل في وضعه الراهن، أن في إمكانه أن يقول كل ما يطرأ على باله.

وأجابه السيناتور قائلًا: «سوف ينال العطشجي ما يستحقه من جزاء، وهو الجزاء الذي يراه القبطان مناسبًا، وأعتقد أننا قد نلنا كفايتنا، بل وأكثر من الكفاية عن موضوع العطشجي.. بالإضافة إلى أن هذا هو ما لا يختلف عليه أحد من السادة الموجودين هنا دون شك».

وقال كارل: «إلا أن هذا ليس هو لب الموضوع، عندما يتعلق الأمر بالعدالة!».

كان كارل يقف بين خاله من ناحية وبين القبطان من الناحية الأخرى..

ولعله كان قد أدرك دوره، في المكان الذي كان يقف فيه، فقد كان يحاول تحقيق شيء من التوازن بينهما.

إلا أن العطشجي كان يبدو وكأنه قد فقد الأمل.. كانت يداه مدسوستين إلى منتصفهما في حزام بنطلونه، حيث بدا حجمهما بالإضافة إلى الجزء الأسفل من السترة العازلة، الذي كان قد تهدل فوق الحزام، كتلة ضخمة بارزة، بصورة لافتة للنظر، في أثناء انهماكه في حملته المهتاجة. إلا أن ذلك مما لا يؤبه به مطلقًا، لقد كشف لهم بؤسه الداخلي، فلينطلقوا الآن إذن إلى الخرق البالية التي تستر جسده أيضًا، ويمكنهم بعد ذلك أن يلقوا به إلى الخارج.

وكان قد استقر في ذهنه أن شوبال سيقدم إليه هذه الخدمة الأخيرة.. بمعونة المساعد. فقد كانا أقل الرجال الموجودين بداخل الحجرة أهمية، وسوف يهنأ شوبال بالراحة حينئذ حيث لا يعود هناك وجود لمن يدفعه إلى «اليأس التام» على حد تعبير أمين الحسابات.. ويصبح في وسع القبطان أيضًا أن يكدس في باخرته حشودًا من عمال رومانيا.. وتصبح اللغة الرومانية هي اللغة السائدة في الباخرة كلها. ولعل الحال أن يصبح عندئذ على أتم ما يرام.. فلن يكون هناك عطشجي ليتسبب بعد ذلك في إزعاج مكتب الإدارة بهياجه! على أن آخر ما قام به من جهود سيظل باقيًا، على الأغلب، كذكرى ودية، بعد أن أعلن السيناتور في وضوح، أن الضيق الذي أصابه كان هو السبب المباشر في تعرفه على ابن أخته. ولقد حاول ابن الأخت أكثر من مرة أن يقدم له يد المساعدة بالفعل. وعلى هذا فقد أتاح له مقدمًا لقاء خدماته جزاء يتعداه بكثير. هو مشهد هذا اللقاء!.. ولم يفكر العطشجي حتى في أن

يطلب شيئًا آخر منه الآن، ذلك أنه حتى وإن كان ابن أخت سيناتور، فقد كان لا يزال بعيدًا عن أن يكون قبطانًا، ولم يكن الحكم القاطع ليخرج إلا من فم القبطان.

وبينما كان العطشجي مستغرقًا في مثل هذه الأفكار، حاول جاهدًا ألا ينظر نحو كارل، رغم أنه- لسوء حظه- لم يكن يجد شخصًا آخر سواه يمكن ألا تقذى عيناه لرؤيته في هذه الحجرة المليئة بالخصوم.

قال السيناتور لكارل: «لا تسيء فهم الموقف، فربما كانت هذه المسألة مسألة عدالة، إلا أنها في الوقت نفسه مسألة نظام أيضًا، وكلا الأمرين على هذه الباخرة، وخاصة الأخير.. يتوقفان على تقدير القبطان».

غمغم العطشجي الذي كان قد سمعه وأدرك ما يعنيه قائلًا وهو يبتسم في جهد:

- «هذا صحيح».

- «إلا أننا قد قمنا بالفعل، لفترة طويلة للغاية، بتعطيل القبطان عن أداء واجباته الرسمية التي لا بد له من القيام بها الآن، وقد وصل إلى نيويورك، وقد حان الوقت الذي يجب علينا فيه أن نسرع بمغادرة الباخرة، بدلًا من إضافة خطأ آخر إلى أخطائنا بالتدخل دون مبرر إطلاقًا في هذا الخلاف البسيط بين اثنين من الميكانيكيين، فنخلع عليه بذلك كثيرًا من الأهمية. إنني أدرك تمام الإدراك وجهة نظرك يا ابن الأخت العزيز، وهذا الإدراك يتطلب مني أن أسرع بإبعادك فورًا عن هنا».

قال القبطان: «سآمر بإعداد قارب لكما في الحال»، دون أن يعترض

على ما قاله السيناتور مطلقًا، لدهشة كارل الشديدة، حتى لقد بدا له أن خاله قد امتهن نفسه. واندفع أمين حسابات الباخرة مسرعًا إلى منضدته وأبلغ أمر القبطان إلى البحارة.

وقال كارل لنفسه: «لم يكد يبقى شيء من الوقت، إلا أنني لا يمكنني أن أفعل شيئًا دون أن أتسبب في غضب الجميع. ولا يمكنني في الحقيقة أن أترك خالي الآن في نفس اللحظة التي عثر فيها عليّ، إن القبطان شخص مؤدب دون شك، إلا أن أدبه هذا سرعان ما يتلاشى عندما يتعلق الأمر بمسألة النظام، كما أن خالي لا شك قد قصد ما قاله. ولست أرغب في أن أتحدث إلى شوبال، وإنني ليؤسفني حتى مصافحته. أما بقية الموجودين هنا فلا شأن لهم بالأمر».

وحينما كان يفكر على هذا النحو، تقدم في بطء نحو العطشجي وجذب يد الرجل اليمنى من حزامه، وضغط عليها في رفق بين راحتيه.

سأله قائلًا: «لماذا لا تقول شيئًا؟ لماذا تراجعت عن كل محاولة؟».

لم يجب العطشجي.. بل عقد حاجبيه، كما لو كان يبحث عما ينبغي عليه أن يجيب به، وبينما كان مستغرقًا في ذلك، خفض عينيه.. ونظر إلى يده المستقرة بين راحتي كارل.

– «لقد لقيت معاملة ظالمة، لم يلقها أي شخص آخر سواك على هذه الباخرة، إنني أعلم هذا تمام العلم» وحرك كارل أصابعه بين أصابع العطشجي إلى الخلف وإلى الأمام.. بينما تطلع العطشجي حوله وقد تألقت عيناه، كما لو كانت نفسه قد أفعمت بسعادة غامرة، لا يملك أن يحسده عليها أحد.

- «وعليك الآن أن تتأهب للدفاع عن نفسك أجب بنعم أو بلا... وإلا فلن يتاح لهؤلاء الناس أدنى فكرة عن الحقيقة. عليك أن تعدني بأنك ستفعل ما أقوله لك، ذلك أنني أخشى، ولديَّ من الأسباب ما يحملني على ذلك، أنه لم يعد في مقدوري أن أقدم لك بعد، يد المساعدة.. ثم انفجر كارل باكيًا بعد ذلك. وقبَّل يد العطشجي ساحبًا تلك اليد المتشققة المتراخية لحظتها في وهن، وضغطها على خده، وكأنها كنز يوشك على أن يتخلى عنه، إلا أن خاله السيناتور كان قد أسرع الآن إلى جانبه، وجذبه مبتعدًا به برفق، لكن بحزم.

قال السيناتور وهو يبادل القبطان نظرة خبيرة من فوق رأس كارل:

- «يبدو أن العطشجي قد ترك أثرًا سحريًّا في نفسك، لقد شعرت.. بالوحدة، ثم وجدت العطشجي.. وأنت مدين له بالكثير الآن، لا بأس بهذا كله. إنني أؤكد لك، لكنني أرجوك، ولو من أجلي، ألا تشتط مرة أخرى على هذا النحو، وتعلم أن تدرك وضعك».

ارتفع الصخب خارج الباب. كانت قد انبعثت صيحات، بدت مرتفعة كما لو كان شخص ما قد راح يفتح الباب في عنف، ودخل بحار في حالة مضطربة، مشعثًا، وحول وسطه تلتف مريلة فتاة، صاح قائلًا وهو يثني كوعيه كما لو كان لا يزال يشق طريقه وسط الزحام: «يوجد حشد كبير منهم في الخارج..» - ثم ثاب فجأة إلى رشده، وحيا القبطان، ولكنه لحظ المريلة المشدودة إلى وسطه عندئذ، فنزعها وطوح بها إلى الأرض، وصاح: لقد تجاوزوا حدودهم، لقد شدوا حول وسطي مريلة فتاة، ثم دق كعبيه معًا، وأدى التحية للقبطان، وشرع شخص ما في الضحك، إلا أن القبطان صاح في عنف: «تبدو الحال في صورة بديعة للغاية! من بالخارج؟».

تقدم شوبال خطوة إلى الأمام قائلًا: «إنهم شهودي، أرجو عفوك يا سيدي عن سلوكهم الشائن. إن الرجال يفقدون صوابهم أحيانًا، عندما يصلون إلى نهاية إحدى الرحلات».

فأصدر القبطان أمره قائلًا: «أدخلهم إلى هنا»، ثم استدار ناحية السيناتور على الفور في أدب لكن في عجلة:

«هل تفعل خيرًا الآن يا سيدي السيناتور، بأن تصحب ابن شقيقتك وتتبع ذلك الرجل، الذي سيرشدك إلى القارب المعد لك. لست بحاجة إلى توضيح مدى السرور والشرف الذي حظيت به بتعرفي بك، وأود فقط يا سيدي السيناتور أن أنتهز أقرب فرصة لاستئناف حديثنا الذي لم يتصل عن حالة الأسطول الأمريكي. وأرجو أن يقطع حديثنا مرة أخرى أيضًا حدث آخر سار».

ورد خال كارل قائلًا وهو يضحك: «يكفيني ابن أخت واحد، أؤكد لك. والآن تقبل تحياتي الحارة على كرمك، وإلى اللقاء. وأضيف أنه ربما لا يكون من المستبعد أن تتاح لنا فرصة طويلة للقاء، في أثناء رحلتنا المقبلة إلى أوروبا» بينما طوق كارل بذراعه في حرارة.

فأجابه القبطان قائلًا: «يسرني ذلك غاية السرور»، وصافح السيدان بعضهما بعضًا. ولم يكد كارل يتمكن إلا من أن يلمس يد القبطان مسرعًا في صمت، ذلك أن انتباه الأخير، كان قد شغله بالفعل الخمسة عشر شخصًا الذين أصبحوا الآن في داخل الحجرة يقودهم شوبال، وقد تم تعنيفهم فيما يبدو، إلا أنهم لا يزالون رغم ذلك يصخبون صخبًا شديدًا.

وطلب البحار من السيناتور أن يأذن له في أن يتقدمهما، وأفسح له ولكارل ممرًا خلال الجمع المحتشد، حتى تمكنا في يسر من الخروج بين صفين من الرجال الذين انحنوا لهما.

ولقد بدت على هؤلاء الأشخاص في وضوح، الخفة التي كانوا ينظرون بها إلى هذا النزاع، بين شوبال والعطشجي، فلم ينظروا إلى هذا النزاع إلا على أنه مجرد هزل. ولم يكن حتى وجود القبطان ليفلح في فرض شيء من الجد على سلوكهم.

ولمح كارل بينهم فتاة المطبخ التي تدعى «لينا»، والتي غمزت له الآن في خبث، بينما كانت تشد إلى وسطها تلك المريلة التي كان البحار قد قذفها إلى الأرض، فقد كانت مريلتها.

وبينما كانا يتبعان البحار، تركا الممر وتحول إلى ممر صغير أدى بهما بعد خطوتين إلى باب صغير، هبط منه سلم صغير يوصل إلى القارب الذي كان في انتظارهما. وأصبح البحار الذي كان يتقدمهما في داخل القارب بقفزة واحدة، ونهض البحارة الذين كانوا في القارب واقفين وأدوا التحية.

وكان السيناتور لحظتها ينبه كارل إلى كيفية الهبوط إلى أسفل، عندما انخرط كارل، الذي كان قد توقف فوق أعلى درجات السلم فجأة في نهنهة عنيفة، ووضع السيناتور يده اليمنى تحت ذقن كارل، وجذبه إليه، وربت عليه بيده اليسرى، وهبطا السلم في وضعهما هذا درجة درجة، وهما ملتصقان ببعضهما. ودخلا القارب حيث وجد السيناتور مكانًا مريحًا لكارل يواجهه مباشرة، وبإشارة من السيناتور دفع البحارة بالقارب بعيدًا عن الباخرة، من ثم انطلقوا في التجديف بأقصى سرعة.

لم تكن تفصلهم سوى بضع ياردات قليلة عندما اكتشف كارل، على غير توقع أنهم كانوا في الجانب الذي تطل عليه نوافذ حجرة الإدارة الثلاث.

كانت النوافذ الثلاث تمتلئ بشهود شوبال، الذين حيوهما، ولوحوا لهما بأيديهم في ود بالغ، ولوح الخال جيكوب بالفعل لهم بيده إلى الخلف، وأظهر أحد بحارة القارب براعته.. بأن طير بأصابعه قبلة نحو الباخرة دون أن يخل بإيقاع تجديفه المنتظم، وبدا الآن وكأنه لم يوجد بالفعل أي عطشجي بالمرة. وتطلع كارل بإمعان شديد إلى خاله الذي كانت ركبتاه تكاد تلمسان ركبتي كارل، وخامره الشك في قدرة هذا الرجل على أن يملأ مكان العطشجي. أزاغ خاله بعينيه، وحدق بهما في الأمواج التي كان قاربهما يهتز فوقها.

الفصل الثاني

الخال جيكوب

اعتاد كارل سريعًا أسلوب حياته الجديدة في منزل خاله، وكان خاله قد استجاب في الحقيقة لأقل رغبة من رغباته، فلم يعد كارل مجبرًا على أن يتعلم من خلال التجربة المُرّة التي غالبًا ما ترهق المرء عند بداية تعرفه على بلد من البلدان الأجنبية.

وكانت غرفة كارل تقع في الطابق السادس، من عمارة كانت أعمال خاله تشغل طوابقها الخمسة الأخرى، بالإضافة إلى طوابق ثلاثة أخرى كانت تقع في أسفل العمارة. وكانت حجرته ساطعة الضوء بنافذتيها وبابها الذي يفتح على إحدى الشرفات، حيث كانت الدهشة البالغة تأخذه كل صباح عندما كان يخرج إلى تلك الشرفة ناهضًا من فراشه الصغير.

غرفة ربما لم يكن ليحلم بمثلها مطلقًا، لو أنه كان قد نزل هذا البلد كمهاجر صغير معدم، فضلًا عن احتمال عدم التصريح له بدخول الولايات المتحدة مطلقًا، تبعًا لتقدير خاله، الذي كان على دراية بقوانين الهجرة، بل إنه ربما كان قد أجبر على العودة ثانية إلى وطنه، دون اعتبار مطلقًا لحقيقة أنه كان قد أصبح بلا وطن.

كان التعاطف شيئًا لا يصح لك أن تأمل فيه في بلد كهذا، وكانت أمريكا تتفق في هذا الصدد تمامًا مع ما كان كارل قد قرأه عنها، ما عدا شيئًا واحدًا، هو أن هؤلاء الذين واتاهم الحظ فيها كان يبدو عليهم أنهم ينعمون هنا بحظهم مختالين بأنفسهم بين أصدقائهم الذين لا يبالون بشيء.

كانت ثمة شرفة خارجية ضيقة تمتد بطول حجرة كارل، لكن ما هي ميزة ذلك المكان المرتفع المتميز الذي لا يتيح له رؤية أكثر من منظر شارع واحد فحسب، يمتد مستقيمًا بين صفين من المباني التي تتخذ أشكالًا مربعة، ويبدو لهذا وكأنه يهرب مبتعدًا إلى حيث تتبدى خطوط إحدى الكاتدرائيات التي تبدو هائلة الحجم وسط ضباب متكاثف! ومنذ الصباح حتى المساء ثم في قلب الليل الحالم، بعد ذلك كان ذلك الشارع يبقى دائمًا مجرى لتيار قلب دائم من الحركة، كانت تبدو له من أعلى مضطربة معقدة، تبدو فيها هياكل كل الناس، في كل لحظة هياكل مضغوطة وحولها سطوح جميع أنواع المركبات التي ترسل إلى الفضاء ضجيجًا آخر أشد إسرافًا وتعقيدًا من ضجيج حركة الشارع، وتتصاعد الأتربة والروائح جميعًا وتنتشر في فيضانات من الأضواء التي ترسلها مختلف الأشياء التي يعج بها الشارع، ترتفع هذه الضجة كلها، ثم تعود فتتراجع لتتجمع في عنف مرة أخرى، فترهق العين المبهورة التي ترى هذا الاختلاط كما لو كان سطحًا من الزجاج يغطي أعلى الشارع ويتهشم في عنف متناثرًا إلى شظايا في كل لحظة.

كانت عيناه مفتوحتين على كل شيء، وكان خاله جيكوب قد نصحه بألا يأخذ شيئًا في الوقت الحاضر مأخذ الجد؛ ليتفحص كل شيء بالفعل ويأخذه في اعتباره، لكن دون أن يجهد نفسه. إن الأيام الأولى لأي أوروبي في أمريكا

تبدو كما لو كانت ميلادًا جديدًا، ولم يكن كارل يحاول أن يشغل نفسه كثيرًا بأمر أيامه الأولى هذه دون داع، ما دام المرء يعتاد على الأشياء هنا بسرعة أكبر من سرعة اعتياد الطفل القادم إلى الدنيا من العالم الآخر لهذه الأشياء، إلا أن عليه أن يضع نصب عينيه أن الأحكام الأولى لا يعول عليها دائمًا، ولهذا فلا يجب على المرء أن يسمح لها بالتأثير على أحكامه المقبلة التي سوف ترتكز عليها في نهاية الأمر حياته في أمريكا، ولقد عرف هو شخصيًّا وافدين جددًا، منهم على سبيل المثال، من نبذوا هذه الافتراضات الحكيمة وراحوا ينفقون أيامهم بطولها في شرفاتهم يحدقون منها نحو الشارع في أسفل كالقطعان الضالة. ربما كان استغراقه وحيدًا على هذا النحو في التحديق المتبلد نحو الحياة المتشابكة لنيويورك يسبب له حيرة بالغة.. إلا أن هذه الحيرة لو تملكت شخصًا وفد إلى أمريكا لمجرد المتعة، فلعلها تتملكه في حدود لا تتعداها. أما أن تتملك شخصًا ينوي البقاء في هذه الولايات، فلا معنى لها عندئذ سوى أنها أداة تدمير فحسب، وهو لفظ مؤثر بلا داع، ولعله ينطوي أيضًا على شيء من التهويل، وكان الخال جيكوب في الحقيقة يكشر في ضيق كلما وجد كارل واقفًا في الشرفة حين يكون في زيارة من زياراته لكارل، تلك الزيارات التي كانت تحدث مرة في كل يوم وفي أوقات مختلفة من النهار، وقد لاحظ كارل ذلك سريعًا، وكان يحرم نفسه بقدر الإمكان من متعة الوقوف لفترات طويلة في الشرفة، ومع ذلك فقد كانت هذه هي المتعة الوحيدة التي كانت في متناول يده. وكان في غرفته مكتب ذو تصميم رائع على الطراز الأمريكي، نفس المكتب الذي ظل والده لسنوات طويلة يحلم بالحصول على مثله محاولًا الحصول عليه بثمن رخيص من كل أنواع المزادات، دون أن يوفق

مطلقًا؛ نظرًا لضآلة دخله. هذا المكتب، لم يكن يربطه بالطبع أي وجه من وجوه المقارنة بذلك الذي كان يطلق عليه مكتب أمريكي الطراز في مزادات أوروبا، فهو يحتوي مثلًا على ما يقرب من مائة درج من مختلف الأحجام، حيث كان يمكن «لرئيس الولايات المتحدة» نفسه أن يجد مكانًا مناسبًا لكل ملف من ملفاته الرسمية، وكان يوجد بالإضافة إلى هذا «منظم» في أحد الجوانب، فلو أدرت مقبضًا ما، أمكنك أن تحدث وضعًا لكل هذه الأدراج غاية في التعقيد، ويمكنك أن تقوم بتبديل الأدراج على سبيل التسلية، أو لكي تتناسب مع حاجتك وتغطس هذه المكعبات في بطء لتشكل أساس مجموعة جديدة أو قمة الأدراج المتدرجة من أسفل إلى أعلى، وحتى بمجرد إدارة المقبض مرة أخرى، فإن ترتيب كل شيء يتغير تغيرًا تامًّا، ويتم التحول بصورة بطيئة، أو في سرعة محمومة تبعًا لدرجة ضغطك على المقبض عند إدارته، لقد كان هذا المكتب اختراعًا جديدًا كل الجدة، وأنه ليذكر كارل تمامًا بمنظر الكريسماس التقليدي الذي كان يعرض على الأطفال المذهولين في ساحة السوق في بلده، حيث يذكر نفسه أيضًا، وقد تدثر جيدًا بملابسه الشتوية، وتوقف مستعبدًا في أغلب الأحيان، يحاول عن كثب أن يقارن بين حركة المقبض الذي كان يديره رجل عجوز، بتغير المنظر، تقدم الملوك المقدسين الثلاثة مترنحين وإشعاع النجم، صورة المذود المقدس المتواضعة.

ولقد بدا له دائمًا أن والدته عندما تقف خلفه، لم تكن تتابع تفاصيل هذه المشاهد بانتباه كافٍ، فكان يسحبها لتلتصق به حتى يشعر بها تضغط على ظهره ويصيح بأعلى صوته، ويظل يحدد لها كل ما يلاحظه على المناظر، ربما أرنب بري صغير بين الشعب في مقدمة المنظر جالسًا على ساقيه الخلفيتين،

ثم ظل رابضًا وكأنه يتحفز للاندفاع ثانية حتى تغلق أمه فمه بيدها ثم تعود فيما يبدو إلى سابق حالها من الشرود، لم يكن المكتب قد صنع لمجرد أن يذكره دون شك بمثل هذه الأشياء، لكن لا بد أن تكون قد وجدت علاقة غامضة ما في تاريخ اختراعه شبيهة بتلك العلاقة التي انبعثت من ذاكرة كارل. ولم يكن الخال جيكوب- على عكس كارل- راضيًا عن هذا المكتب بالذات، كان يريد أن يشتري مكتبًا كامل المعدات من أجل كارل، لكن كانت كل المكاتب، في هذه الأيام، مجهزة بتلك الأجهزة الحديثة التي تتميز أيضًا بإمكان أن تتحول إلى مكاتب من الطراز القديم بنفقات لا تكاد تُذكر، وعلى كل حال فلم ينس خاله أن ينصحه بألا يستعمل المنظم «مطلقًا».

وقد شفَّع نصيحته بالإشارة إلى حساسية «المنظم» البالغة وسهولة إصابته بالعطب وارتفاع تكاليف إصلاحه ثانية! ليس من الصعب أن يتبين المرء أن هذه الملاحظات كانت مجرد إدعاءات، ومع أن الخال جيكوب كان يمكنه أن يغلق «المنظم» إلا أنه لم يفعل ذلك.

وفي الأيام القلائل الأولى التي أتيح لكارل وخاله أن يتبادلا خلالها عديدًا من الأحاديث، ذكر كارل أنه كان مغرمًا في وطنه بالعزف على البيانو مع أنه لم يمارس العزف عليه كثيرًا، ولم يتلق دراسات في العزف عليه فيما عدا تعليمات والدته الفطرية، وكان كارل واعيًا تمام الوعي أن تطوعه بهذه المعلومات، كان في الحقيقة طلبًا لبيانو، ولهذا حدَّق لحظتها بعينيه في خاله، حتى اتضح له أن خاله يمكن أن يكون مسرفًا إلى حد ما، ولم ينفذ هذا الاقتراح في الحال، لكن بعد مرور حوالي ثمانية أيام، قال خاله له كما لو كان يصرح له بموافقة يصعب عليه إعلانها، إن البيانو قد وصل الآن،

ويمكن لكارل لو شاء أن يشرف على نقله.. ولقد كان ذلك أمرًا هينًا جدًّا، وإن لم يكن أهون من عملية نقل البيانو نفسها، فقد كانت العمارة تحتوي على مصعد خاص لنقل العفش، يمكن أن يتسع لحمولة عربة كبيرة ممتلئة بالأثاث، وفي داخل هذا المصعد ارتفع البيانو إلى حجرة كارل. وكان في وسع كارل أن يصعد هو أيضًا مع البيانو والعمال في نفس المصعد، لكن كان ثمة مصعد آخر عادي، خال إلى جواره تمامًا.

وهكذا استعمل كارل هذا المصعد الأخير في صعوده، محتفظًا بنفسه دائمًا على نفس ارتفاع المصعد الآخر، باستخدام رافعة ما، وكان يحدق في تركيز من خلال المربعات الزجاجية نحو الجهاز البديع، الذي كان قد أصبح ملكًا خاصًّا له الآن! وعندما أصبح البيانو أخيرًا في داخل حجرته، وعزف عليه النوتة الأولى، كان قد بلغ به الفرح الأحمق أقصاه، حتى أنه قفز واقفًا، بدلًا من مواصلة العزف ويداه على خاصرتيه، وراح يحدق إلى البيانو في طرب، على بعد عدة خطوات، كان الصوت في الحجرة يرن على نحو رائع، وقد تمكن من أن يزيل من نفس كارل شعوره بعدم الارتياح الذي أحس به؛ لأنه يعيش في عمارة مبنية من الصلب، ولم يكن المرء يرى في الحقيقة أي أثر للصلب في داخل الحجرة نفسها، على الرغم من منظر المبنى الخارجي، كما لم يكن في وسع المرء أيضًا أن يكتشف أقل تنافر في أثاثها لا ينسجم مع الكل.

ولقد علق كارل في البداية آمالًا كبيرة على عزفه على البيانو، وكان يحلم أحيانًا، بلا حياء قبل أن يغلبه النوم على الأقل، باحتمال تأثير عزفه على البيانو تأثيرًا مباشرًا على حياته في أمريكا، وعندما فتح نوافذه، ودخلت

حجرته ضوضاء الشارع، كان من الغريب حقًّا أن يسمع على البيانو أغنية قديمة من أغاني الجيش في بلده، حيث يتمدد الجنود في إحدى الليالي عند نوافذ الثكنات ويحدقون في مربع من الضوء في الظلام في الخارج، ويغنون بعضهم إلى بعض من نافذة إلى أخرى.. لكن الشارع يبقى كما هو دون تغيير، لو نظر كارل إليه بعد ذلك يبقى عبارة عن جزء صغير في ترس هائل لا يمكن أن تلمسه يد قبل أن يدرك المرء تمامًا كل القوى التي تتحكم في مداره، ولقد أباح الخال جيكوب العزف على البيانو، ولم يتفوه بكلمة واحدة تعبر عن عدم ارتياحه بذلك، وخاصة أن كارل كان يستغرق في العزف عليه عندما يكون وحيدًا تمامًا، ولقد أحضر لكارل بالفعل نوتات بعض المارشات الأمريكية، وبينها السلام الوطني، إلا أن حب كارل الخالص للموسيقى لم يفلح في أن يفسر له معنى ذلك السؤال الذي وجهه لكارل ذات يوم عندما سأله في جدية تامة، إن كان في نيته أن يتعلم العزف على الفيولينا أو النفخ في البوق أيضًا.

وكان تعلم اللغة الإنجليزية هو أول وأهم واجبات كارل، وكان مدرس شاب في إحدى الكليات التجارية المجاورة، يحضر في السابعة كل صباح إلى حجرته، فيجده عاكفًا بالفعل فوق المكتب على كراسات تمريناته، أو سائرًا يذرع الحجرة ذهابًا وإيابًا وهو يحفظ المفردات. وقد أدرك كارل في وضوح أنه لو أراد أن يتقن اللغة الإنجليزية، فليس لديه من الوقت ما يضيعه في غير العمل، وأدرك أن هذه كانت أيضًا أفضل فرصة يمكنه أن ينتهزها ليدخل السرور على قلب خاله، بالتقدم السريع في الدراسة، ومع أنه كان يقصر نفسه في البداية على استخدام أبسط التحيات، إلا أنه سرعان ما أصبح قادرًا على أن يستخدم اللغة الإنجليزية في أجزاء كبيرة، كانت تتزايد

دائمًا في أحاديثه مع خاله، حينما كان حديثهما والجياد راكضة في مدرسة ركوب الخيل التي أرسله إليها خاله، ولم يكن من الممكن أن يرى المرء سوى ذراع «ماك» المرفوعة عندما كان يشير بأوامره إلى كارل، وبعد انقضاء نصف الساعة المفعمة بالمتعة، التي تنقضي كالحلم، كان يعلن التوقف، وكان «ماك» يبدو حينئذ دائمًا في عجلة شديدة من أمره، فيقول لكارل إلى اللقاء، وهو يربت على خده عدة مرات كما لو كان قد سره بالفعل أن يشاهد ركوبه، ثم يختفي، ثم يصعد كارل ومدرس اللغة الإنجليزية إلى السيارة، ويعودان إلى دروسهما، خلال الطرق الخالية غالبًا؛ ذلك أنهما لو دخلا في حركة المرور التي تتحرك على امتداد الشارع الرئيسي الذي يؤدي مباشرة من مدرسة ركوب الخيل إلى عمارة خاله، فإن معنى هذا ضياع وقت طويل، وعلى كل حال، فقد تخلى مدرس اللغة الإنجليزية أخيرًا عن القيام بدور الحارس؛ لأن كارل الذي لام نفسه أشد اللوم لإجبار هذا الرجل المرهق دون مبرر، على مرافقته إلى مدرسة الفروسية، وخاصة عندما تبين له أن الإنجليزية التي كان يستعملها في حديثه مع «ماك» خلال التدريب، كانت بضع جمل غاية في البساطة، توسل لهذا إلى خاله أن يعفي الرجل من القيام بهذا الواجب، وبعد تفكير طويل نزل خاله على رغبته.

ولقد انقضى وقت طويل قبل أن يسمح الخال جيكوب لكارل ببعض المعلومات التي تتصل بعمله، مع أن كارل كان قد سأله طويلًا من قبل أن يسمح له بشيء من ذلك. كان عمله نوعًا من القومسيون «السمسرة» والتشهيل أو ما شابه ذلك، على حسب أدق التخمينات التي توصل إليها كارل، ولعل عمله كان نوعًا من العمل الذي لا وجود له في أوروبا؛ ذلك لأن

العمل لم يكن يتوقف على نقل البضائع من المنتج إلى المستهلك أو التاجر، لكنه كان تداولًا لكل أنواع السلع الضرورية، والمواد الخام التي تتداولها الشركات فيما بينها، وبين الاحتكارات الصناعية.. وقد كانت طبيعة العمل تبعًا لهذا هي شكل ما من النشاط الذي يتضمن الشراء، والتخزين، والنقل، والإتجار في الكميات الهائلة من البضائع، كل ذلك في وقت معًا، ولهذا كان لا بد أن تتوافر له أقصى درجات الدقة، والاتصالات الدائمة التي لا تنقطع، الاتصالات التليفونية والتلغرافية بكل عملائها المختلفين. ولم تكن صالة عمال التلغراف أصغر، بل كانت أكبر كثيرًا من صالة مكتب التلغراف في مدينة كارل، التي أتيح له ذات مرة أن يلقي عليها نظرة، بمساعدة زميل من زملائه في المدرسة، كان له من يعرفونه فيها، وكان من الممكن رؤية أبواب أكشاك التليفونات وهي تفتح، وتغلق من أي مكان اتفق للمرء أن ينظر نحوه، بداخل صالة التليفونات، وكانت الضجة بداخلها تكاد تدفع المرء إلى الجنون.. فتح خاله أول باب من هذه الأبواب، ورأى كارل تحت الضوء الكهربائي الساطع، عاملًا معزولًا تمامًا عن كل صوت يمكن أن يصدر عن الباب.. تطوق رأسه حلقة من الصلب وتضغط السماعتان على أذنيه. كانت ذراعه اليمنى موضوعة فوق منضدة صغيرة، ويبدو كما لو كانت ثقيلة بدرجة غريبة، وكانت الأصابع وحدها تمسك بقلم رصاص، مستمر في الارتعاش بانتظام وسرعة لا إنسانيتين، وكان مقتضبًا من الكلمات التي كان يقولها في «المرسل»، وكان المرء يلاحظ غالبًا، أنه رغم ما يبدو عليه من التأهب طالبًا رفع الصوت أو راغبًا في مزيد من الدقة في المعلومات، فإن الجملة التالية التي يسمعها كانت ترغمه على أن يخفض عينيه، وأن يمضي في الكتابة قبل

أن يتمكن من تنفيذ نيته، وعلاوة على ذلك، فإنه لم يكن بحاجة إلى أن يقول شيئًا، كما أوضح ذلك الخال جيكوب لكارل في صوت طيع، ذلك لأن هذه المحادثة نفسها التي يقوم بها هذا العامل، كانت تجري في نفس الوقت بواسطة عاملين آخرين، ويمكن بعد ذلك بمقارنة التقريرات المختلفة، تجنب الأخطاء قدر المستطاع. وعندما خرج الخال جيكوب وكارل في تلك اللحظة من الكشك، انسل ساع إلى داخله، وخرج بالمذكرات التي فرغ العامل من تدوينها لتوه، وفي داخل القاعة كان يرتفع ضجيج متواصل يسببه الناس الذين يندفعون هنا وهناك، لم يقل أحد إلى اللقاء، كما أن التحيات كانت ممنوعة، وكان كل واحد يقفو أثر خطوات الذي يسبقه متخذًا نفس الوجهة، مركزًا عينيه على الأرض، التي كان عليه أن يقطعها بأسرع ما يمكنه، أو يلقي بنظرة سريعة إلى كلمة، أو علامة هنا أو هناك على الأوراق التي يحملها في يده، والتي يتلاعب بها الهواء في أثناء حركته المسرعة.

- «لقد حققت شيئًا خارقًا بالفعل!».

قالها كارل في مرة من المرات التي قام فيها بتجولاته خلال المبنى، الذي استغرقه عدة أيام ليجوس في كل أجزائه، حتى ولو لم يكن عليه سوى أن يلقي مجرد نظرة على كل قسم.

- «دعني أذكر لك أيضًا، إنني بدأت في إنشاء هذا كله بنفسي منذ ثلاثين عامًا، وكان عملي محدودًا في ذلك الوقت، بالقرب من أحواض السفن، ولو تصادف وعهد إليَّ بتفريغ خمس عبوات في يوم واحد، فقد كنت أعتبره يومًا عظيمًا، وأعود إلى المنزل منتفخًا بالزهو، واليوم تغطي مخازني ثالث المساحات الكبيرة في الميناء، ومخزني القديم هو الآن المطعم والمخزن

الذي يضم حاجيات الحمالين الذين يعملون لديّ، والذين يشكلون خمسًا وستين فرقة.

قال كارل: «إن هذا مدهش في الحقيقة».

وأجابه خاله منهيًا حديثه: «إن التطورات في هذا البلد سريعة دائمًا».

وذات يوم ظهر خاله فجأة قبل الغداء مباشرة، ذلك الغداء الذي كان كارل يتوقع أن يتناوله وحيدًا كعادته، وطلب منه أن يرتدي بذلته السوداء في الحال، وأن يصحبه لتناول الغداء بصحبة اثنين آخرين من أصدقائه في العمل، وبينما كان كارل يبدل ملابسه في الحجرة المجاورة، جلس خاله إلى المكتب، وتطلع إلى التمرينات الإنجليزية التي كان كارل قد انتهى توًّا من أدائها، ثم أنزل ذراعه إلى جانبه، وصاح في دهشة قائلًا بأعلى صوته: «مستوى من الدرجة الأولى، حقيقة!».

وواصل كارل إبدال ملابسه في ارتياح لا شك فيه، عند سماعه هذه الكلمات التي تمتدحه، إلا أنه على كل حال كان قد أصبح الآن واثقًا تمام الثقة من إنجليزيته.

وفي حجرة طعام خاله، التي ما زال يذكرها منذ اللية الأولى لوصوله، نهض رجلان طويلان متينا البنيان، واقفين، كان أحدهما يدعى «جرين» وكان الآخر، يدعى «بوللاندر»، كما اتضح من خلال الحديث اللاحق، ذلك أن خاله لم يكن يتفوه تقريبًا بكلمة تتناول أحدًا من معارفه، وكان دائمًا يترك الفرصة لكارل، حتى يكتشف من خلاله ملاحظته ما الذي كان مهمًا، أو مثيرًا للاهتمام في أمرهم، وخلال تناول الغداء، لم يدر بينهم من الحديث سوى ما

يتناول أمور العمل، الذي كان يعني بالنسبة لكارل درسًا ممتازًا في المفردات الإنجليزية التجارية، وترك كارل وحيدًا لينشغل بأمر طعامه، كما لو كان طفلًا، ليس عليه سوى أن يجلس معتدلًا وأن يحصر اهتمامه في إفراغ طبقه، إلا أن مستر جرين مال على المائدة نحوه، وسأله بالإنجليزية دون أن يغيب عن باله أن ينطق كل كلمة بأقصى ما يمكنه من الوضوح، ماذا كانت على وجه العموم انطباعاتك الأولى عن أمريكا؟ وبنظرات قليلة جانبية وجهها نحو خاله، أجاب كارل تقريبًا إجابة كاملة في الصمت التام الذي أعقب ذلك السؤال، واستخدم لإرضاء نفسه، وأيضًا كنوع من الامتنان عددًا من تعبيرات نيويورك المتميزة. واندفع الرجال الثلاثة معًا في الضحك عندما نطق بإحدى الجمل، وخشي كارل أن يكون قد ارتكب خطأً ملحوظًا لكن لا، فقد فسر له مستر «بوللاندر» أنه كان قد قال بالفعل لتوه، شيئًا غاية في الظرف. وفي الحقيقة كان المستر «بوللاندر» قد بدا وكأنه قد شغف بكارل بصورة ما بالفعل، وبينما عاد الخال جيكوب، ومستر جرين ثانية إلى التشاور في شئون أعمالهما طلب مستر «بوللاندر» من كارل أن يقترب بمقعده، وسأله أسئلة لا حصر لها عن اسمه، وعائلته وعن رحلته، وأخيرًا، لكي يعطيه فرصة راح في سرعة، وهو يضحك، ويسعل يحكي له عن نفسه، وعن ابنته التي يعيش معها في منزل ريفي صغير على مقربة من نيويورك، حيث يقضي فيه أمسياته فقط؛ لأنه كان مديرًا لأحد البنوك، ولأن عمله يفرض عليه التواجد طوال اليوم في نيويورك، ولقد وجهت لكارل الدعوة بالذهاب إلى المنزل الريفي في حرارة، ذلك أن أمريكيًا حديثًا على هذا النحو، ويفتقر كذلك إلى التجربة لا بد أن يكون في حاجة إلى استحمامٍ من حين لآخر من «نيويورك». وسأل

كارل خاله في الحال، أن يأذن له بقبول هذه الدعوة، فسمح له خاله بذلك في سرور واضح، وإن يكن دون تحديد وقت معين أو حتى دون أن يعيرها كثيرًا من الاهتمام، كما توقع كارل ومستر «بوللاندر».

لكن في اليوم التالي، استدعى كارل إلى أحد مكاتب خاله- كان لخاله عشرة مكاتب مختلفة في هذا المبنى وحده، حيث وجد خاله، ومعه المستر «بوللاندر» مضطجعين تقريبًا على نفس الصورة في مقعدين وثيرين.

قال له خاله: إن مستر «بوللاندر»- الذي كان من الممكن تمييزه في ظلمة المساء التي كانت تخيم على الحجرة- قد حضر لكي يصحبك معه إلى منزله الريفي، كما قيل بالأمس. فأجاب كارل قائلًا: لم أكن أعلم أن ذلك كان سيتم اليوم، وإلا كنت قد أعددت نفسي لذلك.

فقال خاله: إذا لم تكن على استعداد، فلعله من الأفضل أن تؤجل هذه الزيارة إلى وقت آخر.

وصاح مستر «بوللاندر» قائلًا: وما هي حاجتك إلى الاستعداد، إن الشاب يجب أن يكون مستعدًا دائمًا لأي شيء.

فقال خاله مستديرًا نحو ضيفه: لا يتعلق الأمر به، لكن عليه أن يصعد ثانية إلى حجرته، وسوف يسبب هذا تأخيرك.

فقال مستر «بوللاندر»: يوجد متسع من الوقت لهذا، لقد عملت حساب التأخير، وغادرت مكتبي مبكرًا.

فقال الخال جيكوب: هل رأيت مدى الاضطراب الذي أحدثته زيارتك الآن بالفعل؟

قال كارل: إنني في غاية الأسف، إلا أنني سوف أكون هنا ثانية في خلال دقيقة واحدة، واندفع خارجًا.

قال مستر «بوللاندر»: لا تتعجل إنك لا تسبب لي أقل إزعاج، بل على العكس، إنه ليسرني أن تقوم بزيارتي.

- سوف يفوتك درس الفروسية غدًا.. هل ألغيته؟

قال كارل: لا.. لست أدري..

لقد بدأت هذه الزيارة التي كان يتطلع إليها ترهقه الآن.

وتساءل خاله: وهل تنوي الذهاب على الرغم من ذلك؟

وتدخل مستر «بوللاندر»، ذلك الرجل العطوف، لمساعدة كارل، قائلًا: سوف نتوقف في طريقنا عند مدرسة الفروسية، وندبر أمر كل شيء.

قال الخال جيكوب: ثمة شيء آخر هو أن «ماك» سيتوقع ذهابك!.

فقال كارل: إنه لن يتوقع ذهابي؛ لأنه سوف يذهب على كل حال إلى المدرسة.

فقال الخال جيكوب: حسنًا إذن، وكأن إجابة كارل لم تكن سوى مجرد حجة واهية.

وتدخل المستر «بوللاندر» مرة أخرى لحل المشكلة، قائلًا: لكن.. كلارا.. كانت كلارا هي ابنة مستر بوللاندر، تتوقع حضوره هي أيضًا، وفي هذا المساء نفسه، ولا شك أن لها الأفضلية على «ماك».

قال الخال جيكوب: بالتأكيد.. حسنًا، إذن، أسرع بالذهاب إلى حجرتك.

وبحركة بدت كما لو كانت حركة لا إرادية، دق عدة مرات على ذراع المقعد، وكان كارل قد أصبح لحظتها عند الباب، عندما أوقفه خاله ثانية بسؤاله:

– بالطبع، ستكون هنا ثانية، غدًا صباحًا، لتحضر درس اللغة الإنجليزية.

فصاح المستر «بوللاندر» قائلًا: لكن يا سيدي العزيز، وهو يستدير مندهشًا في مقعده إلى الحد الذي سمحت له بها ضخامته:

– ألا يمكنه أن يبقى معنا على الأقل حتى بعد الغد؟ ألا يمكنني أن أحضره معي في الصباح الباكر بعد غد؟

فرد الخال جيكوب قائلًا: ليس ثمة مجال للسؤال في هذا الشأن، فلا يمكنني أن أسمح بانقطاع دراسته على هذا النحو، وفيما بعد، عندما يتاح له الحصول على وظيفة ثابتة من نوع ما، سأكون مسرورًا عندما أتركه يقبل هذا النوع من الدعوات الممتدة لوقت أطول.

وفكر كارل في نفسه قائلًا: «يا له من اعتراض».

وقال المستر «بوللاندر» باكتئاب: «لكن فقط لمدة أمسية واحدة، ليلة واحدة؟ إنها لا تكاد في الحقيقة تستحق العناء!».

قال الخال جيكوب: «هذا ما أعتقده أنا أيضًا».

فقال المستر «بوللاندر»: «على المرء أن يقبل ما يتيسر له»، ثم عاد ثانية إلى الضحك، قائلًا: «حسنًا.. سأنتظرك..» ملوحًا لكارل، الذي أسرع مبتعدًا عندما لم يقل خاله شيئًا أكثر من ذلك.

وعندما عاد بعد قليل، مستعدًا للرحلة، وجد مستر «بوللاندر» وحده في

الغرفة، كان خاله قد غادرها، وهز مستر «بوللاندر» يدي كارل بكلتا يديه في مرح، كما لو كان يريد أن يؤكد لنفسه كل التأكيد، أن كارل كان ذاهبًا معه في نهاية الأمر. وكان كارل لا يزال مضطربًا نتيجة لتعجله، ومع ذلك فقط ضغط يدي مستر «بوللاندر» بدوره. كان يكاد يطير فرحًا لفكرة الزيارة.

– «أليس خالي غاضبًا لذهابي؟».

– «لا مطلقًا.. إنه لا يقصد كل ما قال جديًّا.. إنه فقط مهتم بأمر تعليمك اهتمامًا شديدًا».

– «هل أخبرك هو نفسه أنه لا يقصد ما قاله جديًّا؟».

– «أوه.. نعم»، قالها المستر «بوللاندر»، وهو يضغط على الحروف في بطء، مؤكدًا بهذا أنه لا يمكنه أن ينطق كذبًا..

– «إنه من الغريب ألا يكون راغبًا في أن يسمح لي بزيارتك، مع أنك صديقه!».

وعلى الرغم من أن مستر «بوللاندر» هو أيضًا لم يكن يوافق على ذلك، إلا أنه لم يجد تفسيرًا للأمر، وكان كلاهما، وهما ينطلقان بعربة مستر «بوللاندر» خلال المساء الدافئ، قد راحا يقلبان هذا الأمر طويلًا في رأسيهما، على الرغم من أنهما قد تحدثا في أمور أخرى. كانا يجلسان ملتصقين، وكان كارل متشوقًا لسماع أكبر قدر ممكن عن الآنسة «كلارا» كما لو كان نفاد صبره لطول الرحلة يمكن أن يخففه الاستماع إلى القصص التي تجعل الوقت ينقضي في سرعة. لم يسبق له من قبل أن مر في شوارع نيويورك في المساء، لكن على الرغم من ازدحام الأرصفة والشوارع العامة

بالحركة التي يتغير اتجاهها في كل لحظة، كما لو كانت زوبعة، وكان الزئير المنبعث عن حركة الشوارع، يبدو أشبه بأصوات كائنات غريبة لا صلة لها بالبشرية مطلقًا. وكان كارل وهو يجهد نفسه في تركيز انتباهه لالتقاط كلمات مستر «بوللاندر» لم يكن يرى شيئًا سوى معطف مستر «بوللاندر» الغامق، الذي كان موثقًا بسلسلة ذهبية... وخارج الشوارع الرئيسية حيث كان رواد المسارح يصخبون لخوفهم الشديد، من أن يكون الوقت قد تأخر بهم، وبينما هم يسرعون في طريقهم بخطوات مهرولة، أو يمرقون في عربات، بأقصى سرعة ممكنة، كانا قد وصلا بسرعة إلى الضواحي، حيث تحولت سيارتهما عن طريقها بواسطة رجال البوليس الذين يركبون الجياد، أكثر من مرة- إلى الشوارع الفرعية؛ ذلك لأن الطريق الرئيسي كانت تملؤه مظاهرة قام بها عمال المعادن المضربون، وكان المرور الضروري، يسمح له باستعمال مفترق الطرق. وعندما خرجت سيارتهما من الظلام الذي يخيم على الطرقات الضيقة، عبرت أحد هذه الشوارع المهمة، الفسيحة التي تكاد تكون في اتساع الميادين، وبدا على كل من الجانبين رصيف لا ينتهي، ممتلئ بحشود متحركة من الناس الذين يتقدمون في بطء إلى الأمام، حيث كانت أناشيدهم أكثر تجانسًا من أي صوت إنساني آخر مفرد. وكان يمكن رؤية رجال البوليس على ظهور الجياد في الشوارع العمومية التي ظلت خالية، وهم يتحركون هنا وهناك، أو وهم يجلسون فوق جياد ساكنة لا تأتي بأية حركة، أو حاملي الأعلام أو الأشرطة الممتلئة ببعض الكتابات، تمتد بعرض الشارع فوق رؤوس المتظاهرين، أو زعيم عمالي محاط بالملاء والأعوان، أو ترام كهربائي لم يتمكن من الفرار بسرعة، ولهذا توقف الآن مظلمًا،

وخاليًا، بينما السائق والكمساري يستلقيان على الرصيف. وجماعات صغيرة من المتفرجين الفضوليين يقفون على البعد، يرقبون المساعدين، كانوا متسمرين في أماكنهم على الرغم من أنه لم يكن لديهم أدنى فكرة عما كان يجري.

إلا أن كارل كان يضطجع إلى الخلف في سعادة، وكانت فكرة أنه سيكون الآن ضيفًا عزيزًا، في منزل ريفي ساطع الضياء، محاط بأسوار عالية، وتقوم على حراسته كلاب الحراسة المدربة، كانت هذه الفكرة قد ملأته بالرضا البالغ، ومع أنه كان قد بدأ الآن يشعر بالنعاس يغالبه، ولم يعد قادرًا على أن يلتقط تمامًا ما كان مستر «بوللاندر» يوجهه إليه، أو كان يسمع أجزاء متقطعة من حديثه على الأكثر، فقد راح يلوم نفسه بين الحين والآخر، ويدعك عينيه حتى يرى إن كان مستر «بوللاندر» قد لاحظ نعاسه ذلك! إن هذا كان شيئًا حاول كارل أن يتجنبه بأي ثمن.

الفصل الثالث

منزل ريفي بالقرب من نيويورك

«حسنًا، لقد وصلنا»، قالها مستر «بوللاندر» في لحظة من لحظات شرود كارل. كانت العربة قد توقفت أمام منزل، كأغلب المنازل التي يملكها الأثرياء في ضواحي نيويورك، منزل يتسع ويمتد إلى أبعد مما ينبغي لمنزل ريفي أُعد لسكنى أسرة واحدة فقط. ولما لم يكن يوجد أي ضوء ينبعث منه، سوى بصيص كان ينبعث من أحد جوانب طابقه الأسفل، فقد كان من الصعب أن يقدر المرء مدى ارتفاعه. وكانت تنبعث أمام المنزل أصوات تصدر عن حفيف أشجار جوز الهند، وثمة- كانت البوابة قد فتحت على مصراعيها عندئذ- ممر قصير يفصل المنزل عن تلك الأشجار، ويؤدي إلى درجات الباب الخارجي للمنزل. أحس كارل بالتعب عند هبوطه من العربة، حتى لقد بدأ يظن أن الرحلة كانت رحلة طويلة على نحو ما، وسمع في ظلام الممر الذي كانت تظلله أشجار جوز الهند، صوت فتاة إلى جانبه، تقول: «هذا إذن هو المستر جيكوب أخيرًا!»، فقال كارل وهو يتناول اليد التي مدتها إليه تلك الفتاة التي لم يتمكن من أن يتحقق من شكلها: «إن اسمي هو

روسمان!» وقال مستر «بوللاندر» موضحًا: «إنه ابن أخت جيكوب فقط، أما اسمه فهو كارل روسمان».

فقالت الفتاة التي لم تكن تلتفت كثيرًا إلى الأسماء: «لن يقلل هذا من سرورنا لرؤيته».

وألح كارل هو أيضًا في التساؤل، وهو يسير متجهًا نحو المنزل بين مستر «بوللاندر»، وبين الفتاة: «هل أنت الآنسة كلارا؟».

قالت: «نعم»، وأضاء وجهها في هذه اللحظة شعاع ينبعث من داخل المنزل،و كانت تميل برأسها نحو كارل، وهي تضيف: «إلا أنني لا أريد أن أقدم نفسي هنا في الظلام».

وفكر كارل، وهو يفيق أكثر كلما تقدم في السير، قائلًا في نفسه: «هل كانت تنتظرنا بجوار البوابة؟».

قالت كلارا: «على فكرة لدينا ضيف آخر هذه الليلة».

فصاح «بوللاندر» منفعلًا: «مستحيل!».

وقالت كلارا: «إنه مستر جرين».

فتساءل كارل، وكأن إلهامًا قد تملكه: «متى وصل؟».

- «منذ دقيقة واحدة، ألم تسمعا صوت سيارته التي كانت تتقدم سيارتكما؟».

وتطلع كارل إلى أعلى، نحو مستر «بوللاندر» ليرى ما سيفعله في هذا الموقف، إلا أن «بوللاندر» كان قد دس يديه في جيبي بنطلونه، وكانت قدماه قد تسمرتا في أرض الممر:

- «لا خير في الحياة خارج نيويورك، فهي لا تعفيك من الإزعاج، وسوف نحاول تدبير منزل لنا في مكان أبعد كثيرًا من هذا المكان، حتى ولو كلفني بلوغه أن أقود سيارتي إلى منتصف الليل».

وظلوا واقفين أمام الدرجات المؤدية إلى باب المنزل الخارجي.

قالت كلارا: «لكن وقتًا طويلًا انقضى بالفعل، منذ زارنا مستر جرين آخر مرة!»، كانت تتفق مع أبيها فيما قال، لكنها كانت تحاول تهدئته، والتخفيف من ضيقه.

قال «بوللاندر»: «ولماذا جاء في هذه الليلة بالذات؟!»، وقد تدحرجت الكلمات فوق شفته السفلى المتهدلة في غضب. كانت ترتجف، كما كان يرتجف كل جسده الثقيل المترهل في وضوح.

قالت كلارا: «لماذا حقًّا؟».

وقال كارل، مندهشًا هو نفسه للتعاطف الذي ربطه بهذين الشخصين اللذين كانا غريبين تمامًا عنه قبل يوم واحد: «ربما لن يلبث حتى يعود ثانية من حيث أتى!».

قالت كلارا: «أوه.. لا، إن أعمالًا مهمة تربطه ببابا، وقد يستغرق بحثها وقتًا طويلًا، فلقد هددني فور وصوله مازحًا بقوله: «إن عليَّ أن أظل واقفة حتى الصباح، إن كان قد راق لي أن أبدو أمامه في صورة المضيفة المهذبة!».

فصاح «بوللاندر»، وكأن شيئًا لم يكن أشد سوءًا مما سمع، قائلًا: «هذه هي القشة الأخيرة.. إذن فهو ينوي البقاء طوال الليل؟».. وأضاف قائلًا: «إنني أشعر بشيء من الرغبة..- ووشت عبارته هذه بشيء من القدرة على

المرح- إنني اشعر بالفعل بشيء من الرغبة يا مستر روسمان، في أن أضعك ثانية في داخل العربة، وأعود بك مباشرة إلى خالك! لقد ضاعت هذه الليلة الآن مقدمًا، ومن يدري متى يسمح لك خالك بزيارتك لنا هنا ثانية، إلا أنني لو عدت بك ثانية إلى نيويورك الليلة، فلن يكون أمامه أن يرفض السماح لك بزيارتنا في المرة القادمة».

وأمسك بيد كارل، لكي يشرع في تنفيذ فكرته في اللحظة نفسها، إلا أن كارل لم يتزحزح من مكانه، ورجت كلارا أباها أن يتركه، فلن يكونا هي وكارل على الأقل في حاجة إلى السماح لمستر جرين بإزعاجهما مطلقًا. وفي النهاية كان «بوللاندر» نفسه يخشى أن يكون قراره قد أصبح قرارًا حاسمًا بحيث لا يمكنه أن يتحول عن تنفيذه، وفوق ذلك- ربما كان هذا هو القرار الحاسم فعلًا- كانوا قد سمعوا فجأة مستر جرين، يهتف من أعلى الدرج، إلى الحديقة، قائلًا: «أين أنتم بحق الجحيم؟».

فقال المستر «بوللاندر»: «إننا قادمون!»، وراح يصعد الدرجات، وخلفه كارل، وكلارا اللذان تفحصا الآن بعضهما في الضوء.

قال كارل في نفسه: «ما أشد احمرار شفتيها؟»، وتذكر شفتي مستر «بوللاندر» وكيف تحولتا إلى هذه الصورة الساحرة، في شفتي ابنته!

قالت: «سنتوجه بعد تناول العشاء مباشرة، إلى حجرتي، لو رغبت في ذلك، وهكذا يمكننا على الأقل أن نتخلص من مستر جرين، حتى لو تحتم على بابا أن يبقى معه، ولعلك أن تكون لطيفًا لتعزف لي على البيانو، فقد قال لي بابا إن لك مقدرة فائقة على العزف، ويؤسفني أشد الأسف أن أصرح لك بأنني لا أستطيع مطلقًا، أن أتمرن على العزف، وإنني لم ألمس البيانو الذي

أمتلكه مطلقًا، رغم حبي الشديد للموسيقى!».

كان كارل على أتم استعداد لتلبية رجاء كلارا، مع أنه كان يود لو كان في إمكان المستر «بوللاندر» أن ينضم إليهما، إلا أن رؤيته لهيئة مستر جرين العملاقة- كان كارل قد اعتاد على رؤية كرش بوللاندر- عندما بدت لهم قامته في أعلى الدرج، وهم يصعدون درجات السلم، قد طردت كل أمل كان قد تبقى لدى كارل في انتزاع بوللاندر بعيدًا عن هذا الرجل، في تلك الليلة.

واستقبلهم مستر جرين في لهفة، وكأن وقتًا طويلًا كان قد انقضى بالفعل دون طائل، تناول ذراع مستر «بوللاندر»، ودفع كارل وكلارا أمامه نحو حجرة الطعام، التي كانت تبدو مبهجة غاية البهجة بالأزهار التي كانت منسقة فوق المائدة، والتي كانت تنبثق من بين الأغصان والأوراق الخضراء، فجعلت وجود مستر جرين شيئًا مؤسفًا على نحو مضاعف، كان كارل يحدث نفسه بهذا، بينما كان ينتظر إلى جوار المائدة حتى جلس الآخرون، وكانت تتملكه الرغبة في أن تظل الأبواب الزجاجية التي تفتح على الحديقة مفتوحة كما كانت، ذلك أن شذًا قويًا كان يهب إلى داخل الحجرة وكأن المرء كان يجلس تحت تعريشة زهور، عندما نفخ مستر جرين منخاريه، واندفع لإغلاق هذه الأبواب الزجاجية نفسها، منحنيًا إلى الترابيس التي في أسفلها، ومرتفعًا على أطراف أصابع قدميه، مادًّا ذراعه إلى أعلى لإغلاق الترابيس العليا، فعل ذلك في نشاط الشباب، حتى أن الخادم عندما أسرع إليه، لم يجد شيئًا قد تبقى له ليقوم به، وكان أول ما تفوه به مستر جرين عندما عاد بعد ذلك إلى المائدة، هو التعبير عن دهشته لأن كارل كان قد طلب موافقة خاله على قيامه بهذه الزيارة. ودفع ملعقة ممتلئة بالشوربة إلى فمه، ثم ملعقة أخرى، وراح يشرح لكلارا

التي كانت تجلس إلى يمينه، ومستر «بوللاندر» الذي إلى يساره، لماذا كان مندهشًا بهذه الصورة، وكم كان الخال جيكوب قلقًا في اهتمامه بكارل، حتى أن عطفه عليه كان عطفًا بالغًا إلى حد أبعد ما يكون عن عطف خال على ابن أخته!

وحدث كارل نفسه قائلًا: «إنه ليس قانعًا بتدخله غير المرغوب فيه هنا، وإنما يصر أيضًا على التدخل بيني وبين خالي..» ولم يتمكن كارل من ابتلاع قطرة واحدة من الشوربة الذهبية اللون، لكنه راح بعد ذلك يصب الشوربة في صمت في داخل حلقه؛ لأنه لم يرغب في أن يظهر ما شعر به من الغضب، واستمر في تناول العشاء في بطء مؤلم.

ولم يظهر مستر جرين الذي كانت كلارا تعاونه على تناول وجبته، شيئًا من الحيوية أو النشاط، وكان يطلق ضحكة عالية بين الحين والآخر كلما سنحت الفرصة، وترك المستر «بوللاندر» نفسه يستغرق في المناقشة مرة أو مرتين، عندما كان مستر جرين يتحدث عن الأعمال، إلا أنه سرعان ما انسحب حتى من الحديث عن الأعمال هي أيضًا، وكان على مستر جرين أن يغريه على الحديث، بالعودة إليه ثانية على غير توقع. وفوق ذلك فقد ظل مستر جرين يكرر قوله بأنه لم يكن ينوي القيام بهذه الزيارة المفاجئة.. وعندما كان مستر جرين يقول ذلك، كان كارل يتسمع كما لو كان شخصًا ما يتهدده، وكانت كلارا قد تشبثت به، وقالت له إن اللحم المشوي موجود إلى جوار مرفقه، وقالت إنه الآن في حفلة عشاء! ويضيف جرين قائلًا: إن الأمر الذي جاء لمناقشته كان أمرًا ذا أهمية خاصة، إلا أن أهم جزء فيه كان من الممكن أن يتم بحثه في المدينة، في هذا اليوم، مع ترك التفاصيل الثانوية

لإتمام بحثها في اليوم التالي أو في أي يوم آخر فيما بعد.

ولهذا فقد استدعى بالفعل إلى مكتب المستر «بوللاندر»، قبل موعد الانصراف بوقت طويل، إلا أنه لم يجد المستر «بوللاندر» في مكتبه، وكان عليه لهذا أن يتصل تليفونيًّا بمنزله، ليخبرهم بأنه لن يعود هذه الليلة، واستقل سيارته بعد ذلك إلى هنا.

فقال كارل في صوت مرتفع، قبل أن يجد أي شخص آخر فرصة للرد على جرين: «إذن، فيجب عليّ أن أعتذر إليك؛ لأنني الملوم على ترك مستر بوللاندر لمكتبه مبكرًا اليوم، وإنني لفي غاية الأسف».

وحاول مستر بوللاندر أن يخفي وجهه خلف فوطة السفرة، بينما ابتسمت له كلارا ابتسامة لم تكن تنم عن عطفها، بل كان تشي برغبتها في التأثير عليه على نحو ما.

وقال مستر جرين وهو يمزق حمامة مشوية بضربات قاطعة من سكينه:

– «لم يطلب أحد منك أن تعتذر، بل إنني على عكس ذلك مغتبط جدًّا لقضاء الليلة في هذه الصحبة السارة، بدلًا من تناول العشاء وحدي في منزلي، حيث لا يوجد لدي سوى مدبرة منزل عجوز هي التي أجدها في انتظاري، وإنها عجوز جدًّا، حتى إن أقصى مجهود يسعها أن تبذله هو أن تنتقل من باب المطبخ إلى المائدة فحسب، وأضطجع أنا في مقعدي إلى الخلف منتظرًا بضع دقائق في كل مرة، أرقبها فيها وهي تقطع رحلتها الشاقة، ولم تتوقف هذه الرحلة إلا أخيرًا عندما أقنعتها في النهاية بأن تترك مهمة توصيل الأطباق من المطبخ حتى باب حجرة الطعام لخادمي، إلا أن الرحلة

من باب حجرة الطعام حتى المائدة، هي المهمة التي لا تزال تقوم الآن بأدائها على قدر ما يسعني الاستنتاج».

صاحت كلارا قائلة: «يا للسماء، ما أشد إخلاصها!».

- «نعم.. لا يزال يوجد أخلاص في هذه الدنيا».

قالها المستر جرين، وهو يضع شريحة من الحمامة في داخل فمه، حيث قام لسانه بالتقاطها في الحال، وتصادف أن لاحظ كارل ذلك، فأحس بالغثيان، ونهض واقفًا، وأمسكت به كلارا من يده وأمسكه مستر بوللاندر من اليد الأخرى.

قالت كلارا: «لم يحن وقت نهوضك من على المائدة بعد»، وعندما جلس ثانية في مكانه، همست له قائلة: «سوف نختفي معًا بعد لحظات قليلة، فتذرع بالصبر».

وكان مستر جرين في تلك الأثناء يتناول طعامه في هدوء، كما لو كانت مهمة مستر بوللاندر وكلارا الطبيعية هي تهدئة كارل بعد أن أصابه بالغثيان.

كانت وجبة العشاء تمضي في بطء، مثقلة بالإرهاق الذي كان يسببه تدخل مستر جرين في كل مجال، والذي لم يمنعه من أن يدخر هجومًا جديدًا، بدأه في طاقة متجددة، وقد بدأ هجومه كما لو كان قد عزم على أن يستجم من عادات مدبرة منزله العجوز، فراح يزجي المديح المرة بعد المرة للآنسة كلارا، ويطري خبرتها في تدبير المنزل، وقد أرضى هذا المديح غرورها فيما يبدو، وكان كارل على نقيضها يحس برغبته في إيقاف هذا المديح، وكأنه كان هجومًا موجهًا في صورة ما، ومع ذلك فلم يقنع مستر

جرين بمهاجمة كلارا على هذا النحو، بل أعلن أسفه عددًا من المرات على شهية كارل الضعيفة- دون أن يرفع رأسه عن الطبق الذي أمامه- تلك الشهية التي تبدو له ضعيفة ضعفًا شديدًا خلافًا لما كان يتوقعه.

ودافع مستر «بوللاندر» عن شهية كارل، على الرغم من أنه كان عليه أن يشجعه على تناول المزيد من الطعام، بما أنه كان هو المضيف. كان كارل قد أصبح في غاية الحساسية بسبب الضيق الذي كان يعانيه طوال فترة تناول الطعام، حتى لقد فسر كلمات مستر بوللاندر، خلافًا لفكرته الطيبة عنه، على أنها نوع من عدم الكرم، وكان هذا سببًا آخر لاندفاعه فجأة إلى تناول الطعام في نهم وبسرعة لا تليق، لمجرد أن يجلس مسترخيًا بعد ذلك بقية الوقت، تاركًا سكينه وشوكته أمامه على المائدة بلا حركة، حتى لقد احتار الرجل الذي كان يقوم بالخدمة على المائدة، فيما كان ينبغي عليه أن يفعل بهما.

قال مستر جرين، وهو يحاول أن يوحي بأن ما قاله من الكلمات إنما تعني رغبته في المزاح، وذلك بأن شدد قبضته على سكينه وشوكته: «سوف أخبر خالك غدًا، كيف أنك قد تسببت في إغضاب الآنسة كلارا بعدم تناول عشائك»، واستأنف حديثه قائلًا وهو يداعب بأصابعه أسفل ذقن كلارا التي أسلت جفونها وتركته يفعل ذلك: «انظر إلى الفتاة... كيف أطرقت برأسها إلى أسفل!».

ثم صاح، وهو يضطجع في مقعده إلى الخلف: «أيتها الصغيرة المسكينة؟!» ضاحكًا بتثاقل الرجل المتخم بالطعام. وحاول كارل عبثًا أن يجد سببًا لسلوك مستر بوللاندر. كان يجلس ناظرًا في طبقه، وكأن أهم الأحداث كانت تجري لحظتها على صفحته، ولم يجذب مقعد كارل قريبًا

منه، وعندما بدأ يتحدث، وجه حديثه إلى المائدة كلها، بينما لم يوجه شيئًا لكارل بصورة مباشرة، وكان كارل يعاني كذلك من أن جرين ذلك الخليع العتيد، من أبناء نيويورك، كان قد تجرأ على أن يدلل كلارا عمدًا، وأن يهينه، وهو ضيف مستر بوللاندر أو يعامله على الأقل، وكأنه كان طفلًا، وأن يمضي على تلك الصورة، في مواصلة سلوكه البشع الذي لم يكن كارل يدري إلى أي حد يسعه أن يحتمله. وعندما نهضوا من على المائدة- عندما لاحظ جرين نية الجميع- كان هو أول من نهض من عليها، وبدا كما لو كان قد جر الآخرين إلى الاقتداء به، تحول كارل جانبًا إلى إحدى النوافذ الهائلة التي تحيطها إطارات ضيقة بيضاء، وتفتح على الشرفة، والتي كانت في حقيقة أمرها عندما تطلع إليها وهو يقترب منها أبوابًا حقيقية، ترى ما الذي طرأ على كراهية مستر بوللاندر وابنته، تلك الكراهية التي أظهراها في البداية نحو جرين، والتي بدت حينذاك إلى حد ما غير واضحة لكارل الذي لم يتمكن من أن يفهم لها سببًا؟ ماذا طرأ على تلك الكراهية حتى يقفا الآن مع الرجل، ويومئا إليه، كان الدخان يتصاعد من سيجار مستر جرين الذي أهداه له بوللاندر، سيجار غليظ بالصورة التي كان والد كارل قد ذكرها له في أحيان، على أنها حقيقة، ولعله لم يكن قد رآه بالفعل بعينيه! كان الدخان ينتشر في أنحاء الحجرة، حاملًا تأثير جرين حتى إلى الأركان والزوايا التي لم يطرقها بنفسه، وكان في إمكان كارل أن يشعر من على البعد الذي كان يقف عنده بالدخان وهو يلسع أنفه، وبدا سلوك جرين الذي كان كارل قد حدق فيه بلفتة سريعة من رأسه، سلوكًا مشينًا في رأي كارل، وبدأ كارل يفكر في أنه كان واضحًا كافيًا له الآن أن خاله كان قد عارض قيامه بهذه

الزيارة، كل تلك المعارضة؛ لأنه كان يعلم في بساطة مدى ضعف شخصية مستر «بوللاندر»، وتوقع لهذا، احتمال أن يتعرض كارل للإهانة بشكل ما- ولم يكن مصيبًا في هذا بالطبع- أما بخصوص الفتاة الأمريكية، فإن كارل لم يحبها هي أيضًا، على الرغم من أنها كانت قريبة غاية القرب من الصورة الجميلة التي تخيلها عليها، وكان كارل قد دهش بالفعل للتألق الغريب الذي بدا به وجهها منذ أن بدأت ملاطفات مستر جرين لها، وخاصة التألق الذي ومضت به عيناها المتيقظتان، والثوب المحبوك على جسدها، ذلك الثوب الذي لم ير مثله من قبل، وبعض طيات صغيرة من النسيج الأصفر اللون، وشت بقوة الانفعال، إلا أن كارل لم يبال بشيء من ذلك، وكان يسره أن يتخلى عن فكرة الذهاب إلى حجرتها، لو أمكنه أن يفتح الباب الذي إلى جواره- وقد وضع يده على المزلاج محاولًا أن يفتحه ويقفز بداخل العربة أو- لو كان السائق نائمًا بالفعل- يسير على قدميه عائدًا إلى نيويورك. كانت الليلة الصافية بقمرها الساطع، ملكًا خالصًا لكل شخص، وبدا له الخوف من أي شيء في الخارج شيئًا لا معنى له، وتخيل- وقد بدأ يشعر بالسعادة في تلك الحجرة لأول مرة- كيف سيتمكن في صباح الغد- فليس في إمكانه أن يصل إلى نيويورك قبل ذلك الوقت- من أن يصيب خاله بالدهشة، حقًّا، إنه لم يسبق له أن دخل حجرة نوم خاله، ولا كان يعلم حتى أين كانت تقع من ذلك المبنى، إلا أنه سرعان ما سيفلح في العثور عليها، ثم يدق على الباب، وعند الصيحة المعهودة: «ادخل» يندفع داخلًا إلى الحجرة، مصيبًا خاله العزيز بالدهشة، خاله الذي يعرفه حتى الآن في كامل ثيابه، وأزراره مغلقة حتى ذقنه، جالسًا في فراشه بملابس نومه، وعيناه المفعمتان بالدهشة

مثبتتان على الباب، وقد لا تكون تلك المفاجأة في حد ذاتها أمرًا شديد الأثر، إلا أن المرء عليه أن يقدر النتائج التي قد تترتب عليها، فربما أمكنه أن يتناول فطوره مع خاله لأول مرة، وسيكون خاله في الفراش، ويجلس هو أمامه على مقعد، ويوضع الفطور على منضدة صغيرة بينهما، وربما أصبح هذا الفطور الذي جمعهما، ترتيبًا ثابتًا فيما بعد، وربما تمكنا خلال تناول ذلك الفطور- بالفعل- أن يتحدثا إلى بعضهما في صراحة أكثر، ولقد كان انعدام الثقة المتبادلة بينهما، في نهاية الأمر، هو السبب في أنه كان يظهر شيئًا من الجموح، أو العناد بمعنى أصح، ولا يزال إلى اليوم يبدو لخاله على هذه الصورة، وحتى لو اضطر إلى قضاء الليلة هنا- ويبدو أن هذا هو ما سيحدث بالفعل، لسوء الحظ، على الرغم من أنهم قد تركوه يقف وحيدًا إلى النافذة، ويتسلى بالتطلع خارجها- فلعل هذه الزيارة غير الموفقة، أن تكون هي نقطة التحول في علاقته بخاله، وربما يكون خاله مستلقيًا في فراشه، ومستغرقًا في هذه اللحظات نفسها في نفس الأفكار.

واستدار في شيء من الرضا، كانت كلارا تقف إلى جواره، وتقول له: «ألا يسرك أن تشترك معنا على الإطلاق؟ ألا تحاول أن تشعر نفسك، ولو قليلًا، أنك هنا، في منزلك، هيا.. سأقوم بمحاولة أخيرة معك».

قادته عبر الحجرة، إلى الباب، وكان السيدان يجلسان إلى مائدة جانبية، يشربان في أكواب مرتفعة، سائلًا خفيفًا فوارًا، لم يكن كارل يدري ما هو، وكان يود لو تذوقه. وكان مرفقا المستر جرين معتمدين على المنضدة، وكان وجهه قريبًا جدًّا من وجه مستر بوللاندر، ولو أن امرءًا غيره لا يعرف مستر بوللاندر، فربما ظن أن خطة إجرامية كانت تدبر بينهما، وليس عملًا

مشروعًا، بينما تعقبت عينا مستر بوللاندر، كارل، إلى الباب بنظرة ودية، ولم يوجه مستر جرين نظرة واحدة إلى كارل، خلافًا للقاعدة الثابتة، بأن عيني المرء تتعقبان لا إراديًّا ما تتعقبه عينا من يتحدث إليه، وبدا لكارل أن تصرف مستر جرين العدائي الواضح إلى هذا الحد، كان يشير إلى اعتقاده أن عليهما هو وكارل أن يتقاتلا بالفعل، وأن يشتبكا بالأيدي، وإلى أنه من المحتم أن تحسم العلاقة بينهما عن هذا الطريق الذي ينتهي في اللحظة الحاسمة بانتصار أحدهما وانهيار الآخر.

قال كارل في نفسه: «لو كان هذا هو ما يعتقده، فهو أحمق، إنني- في الحقيقة- لا أريد شيئًا منه، وعليه أن يتركني في سلام».

وما كاد يخطو إلى الردهة، حتى خطر له أنه ربما كان قد بدا فظًّا في سلوكه، ذلك أن عينيه كانتا مركزتين في جمود، على جرين، حتى أن كلارا كان عليها أن تسحبه إلى خارج الغرفة، ومضى في صحبتها الآن طائعًا، وعندما كانا يمران خلال الردهات، لم يسعه إلا أن يصدق عينيه بصعوبة في البداية، حينما كان يرى خادمًا بعد كل عشرين خطوة تقريبًا، في ملابس فاخرة، ممسكًا بشمعدان ضخم، له عمود في غاية الضخامة، حتى كان الخادم يضم كلتا يديه معًا ليتمكن من الإمساك به.

قالت كلارا، وهي تحاول أن تفسر له ذلك: «إن التركيبات الكهربائية الجديدة، قد تم تركيبها هناك في حجرة الطعام فقط، ولقد اشترينا هذا المنزل منذ وقت قريب، وكان علينا أن نقوم بإعادة بنائه كله تقريبًا، وقد كان هذا هو أقصى ما يمكننا أن نقوم به لإعداد منزل قديم كهذا المنزل، بكل ما فيه من الأشياء الغريبة».

قال كارل: «إذن فلديكم في أمريكا منازل قديمة بالفعل، أيضًا!».

فقالت كلارا ضاحكة، وهي تجذبه إلى الأمام: «بالطبع.. إن لديك أفكارًا غريبة عن أمريكا!».

قال في ضيق: «لا يجب أن تضحكي مني!»، فهو في النهاية يعرف أوروبا وأمريكا، بينما لا تعرف هي سوى أمريكا.

وفي أثناء سيرهما، دفعت كلارا أحد الأبواب، فانفتح، بدفعة خفيفة من يدها، وقالت دون توقف: «هذا هو المكان الذي سوف تنام فيه».

كان كارل يريد أن يتفحص الحجرة كلها في الحال، إلا أن كلارا صاحت في نفاد صبر، وارتفع صوتها حتى أوشك على الصراخ، قائلة: إنه سيكون أمامه من الوقت ما يتسع لذلك فيما بعد، وأن عليه أن يمضي معها أولًا، ونشبت بينهما مشادة في الردهة، حتى خطر ببال كارل أنه ليس ملزمًا بأن يفعل كل ما تأمره به كلارا، فخلص نفسه منها، واندفع إلى داخل الحجرة،. وكان الظلام الذي يبعث على الحيرة، كثيفًا خارج الشباك، وتبين في وسط الظلام بعض الأغصان الممتدة من شجرة ضخمة كانت تتطوح في الحديقة، وكان في مقدوره سماع تغريد الطيور، ولم يكن يستطيع تمييز أي شيء في داخل الحجرة، ولا حتى أن يتلمس طريقه خلالها، ذلك أن ضوء القمر لم يكن قد دخلها بعد! وشعر كارل بالأسف لأنه لم يحضر معه بطاريته الكهربائية التي كان خاله قد أعطاها له، ففي هذا المنزل كانت البطارية الكهربائية شيئًا لا غنى عنه مطلقًا، وكان يمكن للمرء أن يرسل الخدم إلى فراشهم بإعطائهم واحدة من تلك البطاريات الكهربائية!

وجلس على حافة النافذة، وحدّق في الظلام، وراح يتسمع، وبدا أن طائرًا ما، قد تسبب كارل في إزعاجه؛ لأنه كان يصفق بجناحيه بين أوراق الشجرة العتيقة، وكان صفير قطار من قطارات الضواحي، ينبعث من مكان ما عبر الحقول، وكل شيء كان ساكنًا تمامًا فيما عدا ذلك.

ولم يمض وقت طويل حتى عادت كلارا مندفعة إلى داخل الحجرة، وصاحت في غضب ظاهر: «ما معنى ذلك؟» وضربت قميصها بيدها.

وقرر كارل ألا يرد عليها بشيء، حتى تظهر شيئًا من الأدب، إلا أنها تقدمت نحوه بخطوات واسعة، وهي تصيح في دهشة: «حسنًا.. هل ستأتي معي، أم لا؟» وضربته سواء عن عمد، أو في غمرة ارتباكها، ضربة شديدة على صدره، حتى لقد أوشك أن يسقط خارج النافذة، لو لم يكن في اللحظة الأخيرة، قد انزلق من على حافة النافذة، حتى لامست قدماه أرض الحجرة!

قال لها في لوم: «ربما كنت قد وقعت خارج النافذة؟!».

- «مما يؤسف له أنك لم تقع، لماذا تبدو غبيًّا إلى هذا الحد؟ سوف أجذبك خارج هذه الحجرة في المرة القادمة».

وأمسكت به بالفعل، وحملته تقريبًا بين ساعديها المدربتين حتى النافذة، وكانت الدهشة قد استولت عليه، فلم يخلص نفسه من بين ساعديها، ثم عاد إلى نفسه، وتملص بجذعه متخلصًا من بين ذراعيها، وأمسك بها بدوره.

قالت في الحال: «أوه.. إنك تؤلمني!».

لكن كارل أحس أنه من الخطأ أن يتركها، وسمح لها بحرية الحركة التي تتيح لها اتخاذ أية خطوات تريدها، لكنه تبعها، ملتصقًا بها بشدة. كان

من السهل أن يقبض عليها بشدة بملابسها المحبوكة.

همست: «اتركني»، وكان وجهها المتضرج، قريبًا من وجهه، حتى لقد كان يجهد نفسه لكي يرى وجهها: «اتركني، سوف أعطيك شيئًا لا تتوقعه».

وفكر كارل في نفسه: «لماذا تتنهد على هذا النحو، إنني لا أسبب لها أي ألم، فلست أضغط عليها، إنما أمنعها فقط عن الحركة، فإنني لا أضمن ما قد تفعله؟»، وظل متشبثًا بها، لكن فجأة، في لحظة غفلة، وبعد لحظة من السكون، أحس مرة أخرى فجأة بقواها تصارع جسده، ثم انطلقت متخلصة من قبضته، ثم شلت حركته، بحركة من حركات المصارعة، وضربت قدميه بركلة بارعة من ساقها الممشوقة، حركة غريبة عليه، ألقته أرضًا أمامها في سيطرة مدهشة، ثم وقفت تلهث قليلًا، بجانب الحائط، كانت هناك أريكة بجوار ذلك الحائط، كان هو قد انطرح عليها، وتشبث بها في سقطته، وظلت هي على مسافة كافية من مكانه، وقالت: «انهض الآن لو استطعت!».

- «أيتها القطة... أيتها القطة المتوحشة!». كان ذلك هو كل ما استطاع كارل أن يصيح به، في سورة غضبه، وإحساسه بالعار: «لا بد أنك معتوهة، أيتها القطة المتوحشة!».

قالت له: «احذر ما تقول!»، ومدت يدها إلى حنجرته، التي راحت تضغط عليها بغاية العنف حتى أن كارل لم يتمكن من التقاط أنفاسه إلا بصعوبة، بينما لوحت بقبضتها الأخرى إلى خده، ولمسته كما لو كانت تجرب صفعه، ثم أعادتها إلى الخلف تدريجيًّا إلى أبعد فأبعد، على استعداد لتوجيه لطمة له في أية لحظة.

وسألته قائلة: «ما قولك، لو أنني عاقبتك على وقاحتك مع آنسة بإرسالك إلى منزلك وقد احمرت أذناك من شدة اللطمات؟ ربما أفادك هذا في أن تصبح شخصًا طيبًا طوال ما تبقى من حياتك، مع أنه لا يبدو عليك الاستعداد لتذكر ذلك. إنني آسفة في الحقيقة من أجلك، فأنت فتى حسن الشكل إلى درجة كبيرة، ولو أنك كنت قد تعلمت المصارعة اليابانية، فربما كنت قد ضربتني، وعلى أية حال.. على أية حال، فإنني أشعر برغبة شديدة في لطم أذنيك الآن، وأنت مستلق أمامي، ولعلني أندم لأنني لم أفعل، لكن لو أنني فعلت ذلك، فدعني أقل لك إنني سأفعله لأنني لا أستطيع مقاومة رغبتي تلك، ولن تكون لطمة واحدة بالطبع تلك التي سأسددها لك، بل إنني سأمضي في تسديد اللطمات إلى أذنيك، ولن أتوقف حتى تغطيك الكدمات الزرقاء والسوداء، وربما كنت واحدًا من هؤلاء الرجال الشرفاء- يمكنني أن أصدق ذلك بسهولة- وسيشق عليك أن تتحمل العار الذي أصابك بلطمك على أذنيك، وستبتعد في الحال. لكن لماذا كنت فظيعًا في سلوكك معي بهذه الصورة؟ ألا تحبني؟ ألا يستحق مجيئك إلى غرفتي أقل العناء؟ آه.. احذر، إنني سأصفعك الآن فجأة، سأصفعك في التو واللحظة، ولو عفوت عنك في هذه الليلة، فاعمل على أن تسلك سلوكًا أفضل في المرة القادمة. إنني لست خالك حتى أحتمل طبعك الشكس، ومهما يكن الأمر، فدعني أوضح لك، إنني لو تركتك الآن فلعلك لا تحتاج إلى الظن بأن العار الذي يلحقك يتساوى سواء لطمتك، أو عفوت عنك، سوف أصفعك على وجهك بغاية ما يسعني العنف، وقد لا تظن أنت أنني فعلت ذلك. إنني لا أدري ما الذي سيقوله «ماك» عندما أحكي له عن ذلك كله؟».

وعندما طرأ «ماك» على بالها، تراخت قبضتها، وأحس كارل في انفعاله بأن «ماك» قد أنقذه، وظل فترة قصيرة بعدها يحس بقبضة كلارا، وكأنها تقبض على حنجرته لا تزال، ولهذا تلوى في مكانه لحظة قبل أن يعود إلى سكونه مرة أخرى، مستلقيًا فوق الأريكة.

وطلبت منه أن ينهض، فلم يرد عليها، كما أنه لم يتحرك مطلقًا. وأشعلت هي شمعة في مكان ما، وأضاءت الحجرة، وظهر على السقف شكل متعرج بتأثير ضوء الشمعة، إلا أن كارل بقي ملقيًا برأسه على الأريكة حيث تركتها كلارا، ولم يتحرك قيد أصبع، وتمشت كلارا عبر الحجرة، وكان يسمع حفيف الثوب حول ساقيها وهي تذرع الغرفة، ثم بدا وكأنها قد توقفت فترة طويلة عند النافذة.

وسمعها تسأله في النهاية: «هل انتهيت من عنادك؟»، وتبين كارل أنه من المستحيل أن يجد الراحة في هذه الحجرة التي خصصها له مستر بوللاندر، ليقضي فيها ليلته، وظلت الفتاة تتجول في أنحاء الحجرة، وتتوقف لتتحدث إليه بين الحين والآخر. وكان هو قد ضاق بها من أعماقه، وكل ما كان يتطلع إليه هو أن يستغرق في النوم فورًا، ثم يغادر هذا المنزل بعد ذلك. لم يرغب حتى في أن يذهب إلى الفراش، كان يريد أن يبقى على الأريكة حيث كان، وكان ينتظر اللحظة التي تغادر فيها تلك الفتاة الحجرة، حتى يقفز إلى الباب خلفها، فيغلقه ويحكم رتاجه، ثم يمدد نفسه ثانية فوق الأريكة، وأحس برغبة شديدة في أن يتمطى ويتثاءب، إلا أنه لم يحب أن يفعل ذلك في وجود كلارا، ولهذا بقي مستلقيًا يحدق في السقف، وهو يشعر بأن وجهه كان يزداد، ويزداد جمودًا، ومرت أمام عينيه بقعة لعلها كانت ذبابة، حامت

حوله دون أن يتحقق تمامًا من طبيعتها.

وتقدمت كلارا نحوه، مرة أخرى، وانحنت أمام عينيه، فلو لم يحرك جفونه لأمكنه مع ذلك أن يراها جيدًا.

قالت: «إنني ذاهبة الآن، وربما رغبت في أن تأتي لرؤيتي فيما بعد، إن باب حجرتي هو الرابع، بعد باب هذه الحجرة، في نفس هذا الجانب من الردهة، فاترك الأبواب الثلاثة التالية، والباب الذي يليها هو الباب المطلوب! لن أهبط إلى الطابق الأسفل ثانية، بل سأبقى في حجرتي. لقد سببت لي الإرهاق أنا أيضًا، ولن أتوقع مجيئك بالطبع، لكن... لو رغبت في المجيء، فتعال! وتذكر إنك قد وعدت بأن تعزف لي على البيانو، ربما كنت تشعر بأنك قد انطرحت هامدًا، وأنك لا تستطيع أن تتحرك من مكانك، حسنًا إذن، ابق حيث أنت، وتمتع بالنوم الهادئ، ولن أذكر لوالدي شيئًا عن عراكنا العارض، لا شيء في الوقت الحاضر، أقول ذلك الآن إذا كنت تحس بشيء من الانزعاج له!»، وعلى الرغم من إرهاقها، الذي كان يبدو واضحًا في حركتها، انطلقت في خفة إلى خارج الحجرة.

وجلس كارل في مكانه على الفور، كان يتعذر عليه مواصلة احتمال ذلك الاستلقاء، نهض، وتقدم نحو الباب لمجرد تحريك أطرافه، وتطلع منه إلى الردهة. كم كانت مظلمة! وشعر بالغبطة عندما أغلق الباب، وأحكم رتاجه، وجلس مرة أخرى على مائدته، على ضوء الشمعة، واستقر رأيه على عدم البقاء لحظة أخرى في هذا المنزل، ورأى أن يهبط إلى مستر بوللاندر، وأن يخبره صراحة بمعاملة كلارا له- واضعًا في اعتباره ألا يهتم مطلقًا لمحاولة دفاعه عنها- ويطلب منه أن يسمح له بالعودة- لهذا العذر

الكافي- سواء بالعربة، أو سيرًا على الأقدام إلى منزل خاله! ولو أبدى مستر «بوللاندر» اعتراضًا على عودته في نفس الليلة، فسيطلب منه كارل حينئذ أن يأمر خادمًا على الأقل، بأن يقوده إلى أقرب فندق، وربما كان من الثابت أن أحدًا لا يعامل ضيوفه على النحو الذي كان كارل يفكر فيه، إلا أنه من النادر أيضًا أن يعامل الضيوف بالأسلوب الذي عاملته به كلارا، ولقد ظنت بالفعل أنها كانت رقيقة عندما وعدته بأنها لن تذكر شيئًا عما حدث بينهما لمستر بوللاندر، لقد كان ذلك في الحقيقة أمرًا شنيعًا غاية الشناعة. هل كان قد دعي إلى مباراة للمصارعة؟ لو كان قد دعي إلى ذلك، فإنه سيكون خجلًا أيضًا لأن فتاة يبدو أنها قد أنفقت الجانب الأكبر من حياتها في تعلم المصارعة قد طرحته أرضًا، وربما كانت فوق ذلك، قد تلقت تدريبًا على يد «ماك». وفي إمكانها أن تخبر «ماك» بما شاءت، فماك شخص ذكي للغاية، وكارل واثق تمام الثقة في ذكائه، على الرغم من أن الفرصة لم تسنح له ولو لحظة واحدة ليتأكد من ذلك، إلا أن كارل يعلم أيضًا أنه لو كان قد تلقى تدريبًا على يدي «ماك» بدوره، فلا شك أنه كان سيبدي تفوقًا أبعد كثيرًا مما أظهرته كلارا من التفوق في المصارعة، إذن لحضر إلى هنا مرة أخرى، في يوم من الأيام، حتى بلا أية دعوة، وشرع في دراسة المعركة، دراسة محكمة، تدهش لها كلارا غاية الدهشة، ثم تناول كلارا هذه نفسها، وطرحها على نفس الأريكة التي طرحته عليها الليلة.

وكان عليه الآن أن يجد طريقه ثانية إلى حجرة الطعام، التي كان قد ترك فيها قبعته لارتباكه عندما غادرها، في مكان ما، وسوف يأخذ الشمعة بالطبع في يده، لكن لم يكن سهلًا أن يجد المرء وجهته حتى في ضوء الشمعة، فلم

يكن يعرف، مثلًا، موقع حجرته هذه بالنسبة لحجرة الطعام، وكانت كلارا في طريقهما إلى هنا قد راحت تجذبه، فلم تترك له أقل فرصة للتطلع حوله، والتعرف على الطريق، كما كان باله مشغولًا أيضًا بمستر جرين، وبالخدم الذين كانوا يحملون الشمعدانات الضخمة، وباختصار، لم يكن يسعه بالفعل أن يتذكر إن كانا قد صعدا طابقًا أو طابقين، أو أنهما لم يصعدا أي سلالم على الإطلاق، ولهذا فقد حاول أن يقنع نفسه بأنهما كانا قد ارتقيا سلمًا ما، لكنه وجد أمام الباب درجات كان عليه أن يصعدها، فلماذا لا يكون هذا الجزء من المنزل مرتفعًا قليلًا عن مستوى أرض الحديقة هو أيضًا؟ لو أتيح له فقط شعاع من الضوء يتسرب من أحد الأبواب التي تتتابع في تلك الردهة أو صوت يمكنه أن يسمعه على البعد، مهما كان خافتًا؟

كانت ساعته- التي أهداها له خاله- تشير إلى الحادية عشرة، فأخذ الشمعة ومضى إلى الردهة، وترك باب حجرته مفتوحًا، فإذا لم يوفق في العثور على طريقه، فيمكنه على الأقل أن يعود ثانية إلى حجرته، ويمكنه في حالة الضرورة القصوى أن يصل إلى حجرة كلارا أيضًا، ولكي يضمن عودته إلى الحجرة، وضع مقعدًا في فتحة الباب، فربما انغلق من نفسه. وفي الردهة اكتشف أمرًا سيئًا- كان قد استدار إلى اليسار، مبتعدًا بالطبع عن حجرة كلارا- فقد اندفع في وجهه تيار هوائي، كان من الممكن رغم أنه كان تيارًا ضعيفًا أن يطفئ شمعته بسهولة، لهذا اضطر إلى أن يحوط بيده على لهب الشمعة، وكثيرًا ما كان يتوقف حتى يعود اللهب الذاوي إلى التوهج من جديد، كان يتقدم في طريقه ببطء، وبدا ذلك وكأنه يضاعف من طول الطريق، وكان كارل قد قطع مسافة طويلة، بطول حائط أصم، خال من الأبواب أو الفتحات، ولم

يكن في مقدور المرء أن يتخيل ماذا كان يقع خلف ذلك الحائط، حتى بلغ بابًا بعد آخر، وتتابعت الأبواب، وحاول كارل أن يفتح بعضها، لكنها كانت جميعًا مغلقة، وكانت الحجرات تبدو خالية، كانت مساحة واسعة جدًّا، على نحو غاية في الإسراف، وفكر كارل في الحي الشرقي من نيويورك، ذلك الحي الذي وعده خاله بأن يصحبه إليه، حيث يقال إن عددًا من الأسر كانت تعيش معًا في حجرة صغيرة، وأن منزل الأسرة بأكملها لم يكن سوى ركن من أركان الحجرة الواحدة، يتكدس فيه الأطفال حول والديهم، بينما يظل مثل هذا العدد الكبير من الحجرات الفسيحة خاويًا هنا، ويبدو أن الغرض من وجودها هو فقط ترديد الصوت عندما يدق المرء على باب كل منها. و بدا له مستر «بوللاندر» شخصًا ضلله أصدقاؤه المزيفون، وتمادى في الهيام بابنته التي تتسبب في خرابه. ولا شك أن الخال جيكوب كان صائبًا في حكمه عليه، وقد كان من مبادئ خاله ألا يحاول التأثير على كارل في حكمه بنفسه على الآخرين، وقد كانت مبادئ خاله هذه، هي السبب في هذه الزيارة، وفي كل هذا التجول الحائر خلال تلك الردهات، سوف يخبر خاله غدًا بصراحة مطلقة عن هذا كله، مدليًا بأحكامه الخاصة على كل شيء، وسوف يسعد خاله دون شك بالاستماع إلى أحكام ابن أخته، حتى عليه هو نفسه، وربما كانت مبادئ خاله هذه، هي الحقيقة، ربما كانت هي الشيء الحقيقي الذي يتمتع به خاله، وربما كانت هذه المبادئ قد أساءت كارل بصورة ما، إلا أن استياءه بدا له الآن على غير أساس.

وفجأة انتهى الجدار القائم على أحد جوانب الردهة، وظهر على امتداده درابزين، بارد جدًّا، من الرخام، وواجه كارل الفراغ الحالك- فهل كانت

هذه الردهة هي البهو الرئيسي للمنزل؟- كان من الممكن على ضوء الشمعة رؤية سقف مقبيّ- فلماذا لم يمرا هو وكلارا بها؟ وما هو الغرض من هذه الحجرة الهائلة الشديدة الارتفاع؟ إن المرء يقف هنا كما لو كان واقفًا في بهو كنيسة من الكنائس! وأسف كارل غاية الأسف لأنه لن يبقى في هذا المنزل حتى الصباح، فقد كان يود لو أطلعه مستر بوللاندر على كل أجزاء المنزل في ضوء النهار، وفسر له كل شيء.

كان الدرابزين قصيرًا للغاية، فلم يلبث كارل حتى وجد نفسه يسير بطول ردهة مغلقة، وباستدارة مفاجئة اندفع مسرعًا نحو الحائط، وكان الحرص الشديد الذي كان يمسك به الشمعة في تشنج قد منعها من السقوط والانطفاء. وبدت له تلك الردهة وكأنها بلا نهاية، ولم تكن بها نافذة واحدة، حتى يمكنه من خلالها أن يتبين أين كان، ولا كان يتحرك فوقه شيء في الطابق الأعلى، ولا تحته- وبدأ كارل يدور في حلقة، وكان لديه أمل ضعيف في أنه سيتمكن من الوصول إلى باب غرفته مرة أخرى، ولكنه لم يتمكن من العودة إلى الحجرة المرتفعة، ولا إلى الدرابزين، وكان قد منع نفسه عن الصياح حتى الآن؛ لأنه لم يكن يرغب في إثارة ضجة في منزل غريب في مثل تلك الساعة المتأخرة، لكنه تحقق الآن أن تجوله لن يوصله إلى شيء في هذا المنزل المظلم، وكان على وشك أن يطلق عقيرته، صائحًا بأعلى صوته: «هالو!» حتى يتردد صدى صيحته بطول الردهة في الاتجاهين، عندما لمح ضوءًا خافتًا يقترب خلفه، في نفس الطريق الذي سلكه، وأمكنه الآن أن يدرك طول تلك الردهة الممتدة في استقامة، كان ذلك المنزل عبارة عن قلعة، لا مجرد منزل فحسب، وكان فرحه لرؤية هذا البصيص المنقذ فرحًا بالغًا، حتى لقد نسي كل حذره، واندفع في اتجاه الضوء، وكان لا يزال ممسكًا بشمعته

المطفأة بعد أن خطا بضع خطوات قليلة، لكنه لم يعد يلقي بالًا إليها الآن؛ لأنه لن يكون في حاجة إليها بعد ذلك، فقد لمح خادمًا عجوزًا يحمل فانوسًا ويتقدم نحوه، وسوف يدله هذا الخادم في الحال على الطريق الصحيح.

تساءل الخادم، وهو يرفع فانوسه في وجه كارل، فيضيء وجهه هو أيضًا: «من أنت؟»، كان وجهه وقورًا إلى حد ما، بسبب اللحية الهائلة البيضاء التي كانت تنتهي فوق صدره في حلقات دائرية. وقال كارل في نفسه: «لا بد أن يكون خادمًا أمينًا، ما داموا قد سمحوا له بإطلاق لحية كهذه!»، وكان يحدق بإمعان في اللحية بطولها وعرضها، دون حرج؛ لأن الرجل كان يتفحصه هو الآخر بدوره، وأجاب قائلًا، بأنه ضيف على مستر «بوللاندر»، وأنه قد ترك حجرته ذاهبًا إلى حجرة الطعام، إلا أنه لم يجد الطريق إليها.

قال الخادم: «آه.. نعم، إننا لم ننته من التركيبات الكهربائية بعد».

فقال كارل: «أعلم ذلك!».

وسأله الخادم قائلًا: «ألا تريد أن تشعل شمعتك من الفانوس؟».

فقال كارل، وهو يشعلها: «لو سمحت».

وقال الخادم: «يوجد كثير من هذه التيارات الهوائية في هذه الردهات، والشموع تنطفئ بسهولة، وهذا هو السبب في أنني أفضل الفانوس عليها».

فقال كارل: «نعم، إن الفانوس عملي أكثر منها».

وقال الخادم، وهو يرفع الفانوس إلى بدلة كارل: «لماذا تغطيك كل هذه القطرات من الشمع؟».

فصاح كارل في انزعاج، قائلًا: «إنني لم ألاحظها مطلقًا!» أحس

بالانزعاج لأنها كانت بدلته السوداء التي قال خاله إنها تبدو عليه أفضل مما عداها، وها هي قد تلوثت الآن بهذه البقع، كما أنها لم تسلم كذلك من مباراة المصارعة التي دارت بينه وبين كلارا. تبين ذلك الآن أيضًا، وكان الخادم كريمًا جدًّا، حتى أنه قام بتنظيف البدلة بقدر المستطاع، وظل كارل يستدير حول نفسه، وهو يشير له إلى بقعة هنا، وبقعة أخرى هناك، وكان الرجل يزيلها جميعًا في طاعة.

وتساءل كارل عندما استأنفا طريقهما ثانية: «لكن لماذا كانت التيارات الهوائية هنا بهذه الكثرة؟».

قال الخادم: «حسنًا؛ لأنه لا يزال يجب إتمام الكثير من المباني، إن عملية إعادة البناء قد بدأت فقط، في الحقيقة، إلا أنها تسير في بطء شديد، وقد قام عمال البناء أخيرًا بإضراب، ولعلك تعلم ذلك، كما أن بناء منزل بهذه الضخامة يسبب كثيرًا من المشاكل، بالإضافة إلى أن عديدًا من الثغرات قد حدثت في الجدران ولم يسد أحد تلك الثغرات بعد، ولهذا تمرح التيارات الهوائية في كل أنحاء المنزل، ولو أنني لم أسد أذناي بقطعتين من القطن، لما كان في مقدوري أن أحتملها».

فتساءل كارل قائلًا: «هل يجب عليَّ إذن أن أتحدث في صوت أكثر ارتفاعًا؟».

قال الخادم: «لا... إن صوتك واضح، لكن عند عودتك مرة أخرى إلى هذا الجانب من المنزل، وخاصة هذا الجزء منه، بالقرب من المقصورة التي ستنفصل فيما بعد عن باقي المنزل، فسوف تجد أن التيارات قد اشتدت بصورة لن يسعك أن تحتملها».

- إذن فإن الدرابزين الذي على امتداد هذه الردهة، يؤدي إلى مقصورة!».

- «نعم».

قال كارل: «لقد ظننت ذلك منذ قليل».

قال الخادم: «إنها مقصورة تستحق الرؤية في الحقيقة، ولعل مستر ماك، لولاها ما كان قد أقدم على شراء هذا المنزل لو كان لي أن أقول ذلك!».

وتساءل كارل: «مستر ماك؟ لقد ظننت أن هذا المنزل ملكًا لمستر بوللاندر؟!».

قال الخادم: «نعم، ملكه دون شك، إلا أن مستر ماك كان هو الذي قام بشرائه، ألا تعرف المستر ماك؟!».

قال كارل: «أوه.. نعم أعرفه، لكن ما هي علاقته بمستر «بوللاندر»؟!».

قال الخادم: «إنه خطيب السيدة الصغيرة».

قال كارل، وهو يتوقف لحظة: «لم أكن أعلم ذلك بكل تأكيد!».

وتساءل الخادم: «أترى الأمر مدهشًا إلى هذا الحد؟!».

فأجابه كارل قائلًا: «إنني فقط أفكر في هذا الأمر، فلو لم يعلم المرء جيدًا حقيقة تلك العلاقات، لكان من السهل أن يتورط في أشد أنواع الأخطاء».

قال الخادم: «أما ما يدهشني أنا، فهم أنهم لم يخبروك بشيء عن هذا!».

فقال كارل، وهو يشعر بالارتباك: «نعم... هذا حق!».

وقال الخادم: «ربما ظنوا أنك تعلم، فهي تعد الآن أخبارًا قديمة بالفعل،

لكن ها نحن قد وصلنا..» وفتح بابًا، ظهرت خلفه درجات سلم يؤدي مباشرة إلى الطابق الأسفل، ثم إلى الباب الخلفي لحجرة الطعام التي كانت مضيئة ما زالت، كما كانت عند وصول كارل.

وقبل أن يهبط كارل متجهًا نحو حجرة الطعام، التي كان يصدر عنها صوت مستر بوللاندر، ومستر جرين، وهما مستغرقان في حديثهما الذي لم ينقطع منذ ساعتين، قال الخادم: «سأنتظرك هنا لو شئت؛ لكي أصحبك مرة أخرى إلى حجرتك، فمن الصعب أن يجد المرء طريقه هنا بسهولة في الليلة الأولى».

فأجابه كارل الذي لم يدر لماذا أحس بالحزن الذي دفعه إلى أن يدلي للخادم بهذا التصريح: «لن تراني حجرتي هذه مرة أخرى».

وقال الخادم مبتسمًا في شيء من الرقة، وهو يربت على ذراع كارل:

«لن تجد صعوبة في عودتك إليها، كتلك الصعوبة التي لقيتها هذه المرة!»، ولعل الخادم كان قد فسر كلمات كارل على أنه كان ينوي قضاء بقية الليلة في غرفة الطعام، يتحدث، ويشرب مع السيدين، ولم يشأ كارل أن يصرح بمزيد من الاعترافات عندئذ، وجال في خاطره أيضًا أن هذا الخادم، الذي أحبه أكثر من أي خادم آخر في هذا المنزل، يمكنه أن يدله على الطريق إلى نيويورك، ولهذا قال له:

– «لو انتظرتني هنا، فسوف يكون هذا كرمًا شديدًا منك، وإنني أتقبله شاكرًا، وسوف أعود بعد لحظة، على كل حال، وأخبرك بما سوف أفعله، وأعتقد أنني قد أكون في حاجة إلى مساعدتك».

قال الخادم: «حسنًا»، ووضع فانوسه على الأرض، ثم جلس فوق قاعدة منخفضة لعلها كانت بعضًا من آثار ترميم المنزل «سوف أنتظرك هنا، إذن، ويمكنك أن تترك معي شمعتك أيضًا»، قال ذلك لكارل وهو يهم بهبوط درجات السلم ممسكًا بالشمعة المضاءة في يده.

قال كارل: «إنني لا أعي الآن ما أفعله!»، وأعطى الشمعة للخادم الذي أومأ له فحسب، وكان من الصعب أن يقطع المرء بما إذا كانت إيماءته تلك مقصودة، أو أنها كانت مجرد حركة عفوية صدرت عنه عندما راح يتحسس لحيته بيده.

فتح كارل الباب الذي اضطرب في صوت مرتفع رغمًا عنه، فقد كان عبارة عن لوح واحد من الزجاج، كان يوشك على أن يقفز مخلوعًا من مكانه عندما يفتح في غير احتراس، دفعه كارل متعجلًا من مقبضه، وتركه يتأرجح خلفه في اضطراب مزعج، وكان كارل يريد أن يدخل الغرفة هادئًا غاية الهدوء، وأحس دون أن يستدير نحو الباب بأن الخادم يقف خلفه، كان قد نهض من جلسته فوق القاعدة وتبعه؛ لكي يغلق الباب خلفه بحذر دون أن يصدر عنه أي صوت.

وجه كارل حديثه للسيدين قائلًا: «اغفرا لي إزعاجي لكما»، فنظرا إليه بوجهين مستديرين، قد علتهما الدهشة، وألقى كارل في هذه الأثناء بنظرة سريعة في أنحاء الغرفة؛ ليرى إن كانت قبعته في مكان ما، إلا أنه لم يعثر عليها، وكانت الأطباق التي فوق المائدة قد رفعت جميعًا، فظن في ضيق أن قبعته ربما كانت قد رفعت أيضًا إلى المطبخ مع الأطباق.

سأله مستر بوللاندر: «لكن أين تركت كلارا؟». بدا أن تهجم كارل

لم يسبب له أي إزعاج؛ لأنه كان قد اعتدل في مقعده، وأدار وجهه ناحية كارل، وبدا عدم الاكتراث على وجه مستر جرين الذي أخرج من جيبه كتابًا من كتب الجيب، أضخم في الحجم وعدد الصفحات من أي كتاب آخر من نوعه، وراح يبحث بين صفحاته عن صفحة ما، لكنه ظل يقرأ صفحات أخرى منه في أثناء بحثه عن تلك الصفحة.

قال كارل: «لي رجاء أرجو ألا تسيء فهمه!»، وكان قد اندفع مسرعًا نحو مستر «بوللاندر»، ثم وضع يده على ذراع مقعده، حتى يقترب منه بقدر ما يستطيع.

وتساءل مستر «بوللاندر»: «وما عسى أن يكون هذا الطلب؟!» وكان ينظر إلى كارل نظرة صريحة واضحة، «إنه طلب أوافق عليه مقدمًا!»، ووضع ذراعه حول كارل، وسحبه بين ركبتيه، واستسلم كارل، مع أنه كان يشعر بأنه كان كبيرًا بالنسبة لهذا التدليل، إلا أن هذه المعاملة جعلت تصريحه بطلبه مع ذلك أكثر صعوبة.

وأضاف مستر «بوللاندر» متسائلًا: «ما الذي أحسست به بصراحة، بوجودك هنا، ألا ترى أن المرء يجد شيئًا من الحرية عند خروجه من المدينة إلى الريف، عادة؟!» ونظر بطرف عينه نحو مستر جرين، نظرة لها معنى لا تخطئه العين، وإن كان كارل قد حجب تلك النظرة عن مستر جرين إلى حد ما: «إن هذا الشعور ينتابني عادة كل مساء».

وحدث كارل نفسه قائلًا: «إنه يتكلم، وكأنه لا يعلم شيئًا عن هذا المنزل الهائل، وهذه الردهات التي لا حصر لها، ولا عن المقصورة والحجرات الخالية، أو الظلام الذي يجثم فوق كل مكان».

قال مستر «بوللاندر»: «حسنًا.. وما هو طلبك؟»، وجذب كارل الذي كان يقف صامتًا إليه في ود.

قال كارل: «أرجو..»، ولم يكن في مقدوره مهما حاول خفض صوته أن يمنع جرين الذي كان يجلس خلفه من سماع كل شيء، وقد كان يسره لو تمكن من إخفاء هذا الطلب عنه، هذا الطلب الذي قد يفسر بسهولة على أنه إهانة موجهة لمستر «بوللاندر»: «أرجو.. أن تسمح لي بالعودة إلى منزلي الآن، رغم تأخر الوقت!».

وما إن تفوه بأسوأ ما في طلبه، حتى انطلقت البقية كلها بعد ذلك، فقال دون أدنى مواربة أشياء لم يكن قد فكر فيها من قبل: «إنني أريد قبل كل شيء، أن أعود إلى منزلي، وسوف يسرني أن أرجع ثانية إلى هنا، ويسعدني أن أكون حيث تكون يا مستر بوللاندر، لكنني لا أستطيع أن أبقى هنا الليلة بالذات، إنك تعلم أن خالي لم يكن راغبًا في السماح لي بهذه الزيارة، ولست أشك في أنه كان يملك أسبابًا كافية لذلك، كما توجد لديه دائمًا أسباب كافية لكل شيء يعمله، وقد تهيأ لي من الجسارة ما جعلني أفرض عليه بالفعل أن يسمح لي بها، على الرغم من أنه كان على صواب، إنني قد قمت ببساطة باستغلال عطفه عليَّ، إنني لم أهتم مطلقًا باعتراضاته؛ لأنني أعلم تمام العلم، أن تلك الاعتراضات لم تكن لتغضبك يا مستر «بوللاندر»؛ لأنك صديقه المفضل، أفضل أصدقاء خالي جميعًا، ولا يمكن لأي شخص آخر أن يقارن بك مطلقًا من بين أصدقاء خالي، وقد كان هذا هو العذر الوحيد لعدم طاعتي لخالي، مع أنه عذر لا يكفي، ولعلك لا تعرف الكثير عن علاقتي بخالي، ولهذا فسأذكر لك النقاط الأساسية في هذه

العلاقة، فإلى أن تنتهي دراستي للغة الإنجليزية، وطالما لم أتحول إلى الحياة العملية كلية، فإنني أعيش معتمدًا كل الاعتماد على كرم خالي الذي أقبله، بالطبع، لصلة القرابة التي تربطنا، ولا يجب أن تظن أن بإمكاني حتى الآن أن أكسب عيشي بسهولة، وقد شاء الله أن يحرمني من كل وسيلة أخرى أستعين بها على مواجهة الحياة، وأصرح بأن تعليمي لم يكن تعليمًا عمليًّا يؤهلني لكسب العيش، لقد اجتزت بدرجات متوسطة أربع سنوات دراسية بإحدى المدارس الثانوية بأوروبا، إلا أن هذه الدراسة لا تجدي شيئًا، ولا تنفع المرء بالمرة في مواجهة الحياة؛ ذلك لأن مدارسنا متخلفة غاية التخلف في تدريس أساليب مواجهة الحياة، وقد تضحك لو أنني أخبرتك بالأشياء التي تعلمتها في تلك السنوات الأربع، ولو أتيح لصبي مثلي أن يمضي في دراسته، فينتهي من الدراسة الثانوية، ثم يلتحق بالجامعة، فربما أفاد ذلك في النهاية، وزوده بمعرفة تامة، تؤهله للقيام بعمل من الأعمال، وتمنحه الثقة في قدرته على السعي وراء الرزق، لكنني – لسوء الحظ – لم أتمكن من مواصلة الدراسة المنتظمة، ويخيل إليَّ أحيانًا أنني لا أعرف شيئًا بالمرة، وعلى أية حال، فأرقى معلوماتي لا يمكنها أن تعينني على مواجهة الحياة في أمريكا.
لقد أدخلت حديثًا بعض الإصلاحات على نظم التدريس ببعض المدارس الثانوية في بلدي، فأصبحت تدرس اللغات الحديثة، وقد تدرس أحيانًا بعض المواد التجارية، إلا أن تلك النظم الحديثة، لم تكن قد وجدت بعد، عندما انتهيت من دراستي الابتدائية، والتحقت بالمدرسة الثانوية، ولا شك أن والدي كان يريدني أن أتعلم اللغة الإنجليزية، لكن لم يكن في مقدوري أن أتنبأ وقتها بسوء حظي، وبأنني سأحتاج إلى استعمال اللغة الإنجليزية في

يوم من الأيام، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كان عليَّ أن أتعلم في المدرسة أشياء أخرى كثيرة، فلم يتسع وقتي لدراسة اللغة الإنجليزية، إنني أذكر هذا كله لكي أوضح لك مدى اعتمادي على خالي، وإلى أي حد أعتبر نفسي مدينًا له، نتيجة لذلك. ولعلك توافقني على أن وضعي، نظرًا لهذه الظروف، لا يسمح لي بأن أسيئه أدنى إساءة، أو أعصي حتى أوامره التي لا يعلنها. فلو كان لي أن أكفر ولو عن نصف الغلطة التي ارتكبتها الآن بالفعل بمجيئي إلى هنا بغير رضاه، فيجب عليَّ أن أعود إلى المنزل في الحال».

خلال هذه الخطبة الطويلة التي ألقاها «كارل»، كان مستر «بوللاندر» يستمع في انتباه، ويضغط على كارل من حين لآخر ضغطًا خفيفًا، لم يكن كارل يشعر به، وخاصة كلما كان كارل يذكر اسم (خاله جيكوب)، وكان يحدق في جدية، مرات عديدة، وكأنه كان يتوقع شيئًا من جرين، الذي كان مشغولًا بكتاب الجيب الذي كان يتصفحه. وكان كارل قد بدأ يشعر بقلقه يزداد، ويزداد، كلما اتضحت له علاقته بخاله أكثر فأكثر خلال خطبته، وحاول لا شعوريًّا تخليص نفسه من ذراع بوللاندر. كل شيء هنا كان يعوقه، الطريق المؤدي إلى خاله، خلال الباب الزجاجي، وهبوط الدرجات، والسير بطول الطريق، وعلى امتداد الطرق الريفية، وخلال الضواحي، إلى الشارع الرئيسي العريض حيث يقوم منزل خاله، تهيأت له كلها شبكة دقيقة التنظيم، تستلقي هنالك خاوية وملساء، وممهدة، تدعوه بأعلى صوتها، واختلطت رقة مستر «بوللاندر» بسماجة مستر جرين. كان كل ما جاء يرجوه من هذه الحجرة الممتلئة بالدخان هو السماح له بالعودة، وأحس بانفصاله عن مستر بوللاندر، وبرغبته في محاربة مستر جرين، وكان كل ما حوله عبارة عن

خوف غامض، كانت وطأته قد جعلته عاجزًا عن الرؤية.

وتراجع خطوة إلى الخلف، ثم توقف على مسافة متساوية من مستر بوللاندر، ومستر جرين.

تساءل مستر «بوللاندر» قائلًا، وهو يمسك بيد مستر جرين في توسل، مستديرًا نحوه: «أليس لديك شيئًا تقوله له؟».

وقال مستر جرين: «لست أدري ماذا يمكنني أن أقوله له»، قالها مستر جرين بعد أن أخرج خطابًا من بين صفحات كتاب الجيب أخيرًا، ووضعه أمامه على المائدة، وأضاف قائلًا: «إن رغبته في العودة إلى خاله مسألة تخصه، وبإمكان المرء أن يزعم أن عودته تجلب السرور إلى خاله، ما لم يكن قد تسبب بالفعل في إغضاب خاله غضبًا شديدًا بعصيانه له، ذلك العصيان الذي كان هو كل ما أمكنه أن يقدمه لخاله. ولست أشك في هذه الحالة إنه من الأفضل له أن يبقى هنا. من الصعب أن يقطع المرء بشيء، إننا كلينا صديقان لخاله، وليس من السهل أن يقول المرء إن كانت صداقتي لخاله أوثق، أو صداقة مستر بوللاندر له، ومع ذلك فنحن لا يمكننا أن نعرف ما الذي يفكر فيه خاله الآن، خاصة بينما تفصلنا هذه المسافة، التي تبلغ عدة أميال، عن نيويورك».

قال كارل، وهو يقاوم نفوره، مقتربًا من مستر جرين: «يمكنني أن أفهم مما قلته إنك أنت أيضًا ترى أنه من الأفضل لي أن أعود إلى خالي في الحال؟».

فأجاب مستر جرين قائلًا: «لم أقل شيئًا من هذا!»، وعاد مرة أخرى إلى

تأمل الخطاب، وراح يمر بأصابعه على حوافه، ويبدو أنه كان يرى أن مستر بوللاندر قد وجه إليه سؤالًا، وأنه أجاب عنه، على حين لا علاقة له بكارل على الإطلاق.

عند ذلك تقدم مستر «بوللاندر» نحو كارل، واقتاده في رقة مبتعدًا عن مستر جرين، في اتجاه النافذة الكبيرة، ثم قال وهو ينحني على أذن كارل، ويمر بمنديله على وجهه تمهيدًا لما يود أن يقوله، حتى اصطدم المنديل بأنفه، فأفرغه مستخدمًا منديله: «عزيزي مستر روسمان، لا يتبادر إلى نفسك الظن بأنني أريد أن أستبقيك هنا على الرغم منك، هذه مسألة لا مجال فيها للشك، ولا يمكنني أن أضع السيارة تحت تصرفك، إنني أعترف بذلك؛ لأنها قد وضعت في جراج عام يبعد مسافة غير قصيرة من هنا، فلم يتسع لي الوقت بعد لبناء جراج هنا، ولا يزال أمامي أن أعيد بناء كل شيء هنا، كما أن السائق لا يبيت هنا أيضًا، ولكنه ينام في مكان ما بالقرب من ذلك الجراج، ولست أدري أنا نفسي بالفعل أين ينام. وعلاوة على ذلك، فليس الوقت الآن وقت عمله، ولا يتوقع المرء ظهوره إلا في الوقت المناسب فقط، في الصباح. مع إنني لا أعتبر هذا كله عقبات تحول دون عودتك إلى خالك، لأنك لو صممت على ذلك، فسوف أصحبك في الحال إلى أقرب محطة سكة حديد، رغم بعدها عن هذا المكان، حيث لا يمكنك أن تصل إلى خالك في هذه الحالة، قبل وصولك إليه في صباح الغد، في عربتي، إلا بوقت قصير، فسوف نعود معًا إلى نيويورك في السابعة صباحًا».

قال كارل: «سوف أذهب إذن بالقطار يا مستر بوللاندر بالفعل، إنني لم أفكر في استخدام القطار مطلقًا، ولقد ذكرت أنت نفسك أنني يمكنني أن

أصل بالقطار قبل وصولي معك في صباح الغد، بعربتك».

- «لكن الفارق لن يكون ذا أهمية في هذه الحالة!».

قال كارل: «حتى ولو لم يكن الفارق كبيرًا.. حتى لو حدث ذلك يا مستر بوللاندر، إنني يسرني دائمًا أن أجيء ثانية إلى هنا، ذاكرًا عطفك بالطبع، هذه هي الحقيقة، إذا قدر لك بعد ما رأيته من سلوكي هذه الليلة أن تدعوني لزيارتك مرة أخرى، وربما أمكنني أن أشرح لك في زيارتي القادمة، على نحو أكثر وضوحًا، لماذا كانت كل دقيقة تبعدني عن خالي الآن، مسألة بالغة الخطورة».

وأضاف قائلًا، كما لو كان قد حصل بالفعل على الإذن بالرحيل: «لكنني أرى أنه لا ضرورة لأن تصحبني بنفسك الآن، لا ضرورة لذلك في الحقيقة بالمرة، ويوجد خادم يقف الآن خارج هذه الغرفة، يسره أن يدلني على الطريق إلى المحطة، والآن ينبغي عليَّ فقط أن أبحث عن قبعتي».

وبهذه الكلمات مضى عبر الحجرة، ليلقي نظرة سريعة أخيرة، عسى أن تكون قبعته في مكان ما.

قال مستر جرين: «يمكنني أن أزودك بقبعة»، وأخرج قبعة من جيبه قدمها له قائلًا: «ربما نفعتك الآن هذه القبعة».

وتوقف كارل مندهشًا، ثم قال: «لكنني لا يمكنني أن أنتزع منك قبعتك، ويمكنني بدلًا من ذلك أن أمضي حاسر الرأس، لست في حاجة إلى أي شيء».

- «خذها، إنها ليست قبعتي».

قال كارل: «في هذه الحالة، أشكرك!»، وتناول القبعة متعجلًا، حتى لا يتأخر أكثر من ذلك، وارتداها، ولم يتمالك نفسه من الضحك؛ لأنها كانت تناسبه تمامًا، ثم خلعها ثانية، وتفحصها، إلا أنه لم يجد بها العلامة الخاصة التي كان يبحث عنها، كانت تبدو وكأنها قبعة جديدة للغاية، قال: «إنها تناسبني تمامًا!».

صاح المستر جرين، وهو يضغط على المائدة بإبهامه: «إذن فالقبعة تناسبك!».

كان كارل في طريقه إلى باب الحجرة؛ ليبحث عن الخادم، عندما نهض مستر جرين، وتمطى بعد وجبته الدسمة، وراحته الطويلة، وضرب صدره بيده عدة ضربات مدوّية، وقال لكارل في صوت يجمع بين النصيحة والأمر:

- «يجب عليك قبل أن ترحل أن تقول وداعًا للآنسة كلارا».

ووافقه مستر بوللاندر، الذي كان قد نهض واقفًا هو أيضًا، قائلًا: «نعم، يجب أن تفعل ذلك!»، ومن طريقة نطقه لهذه الكلمات، كان يمكن للمرء أن يقول إنها لم تكن قد خرجت من أعماقه، وراح يخبط بيده في ضعف على جانب بنطلونه، ويزرر جاكتته، ثم يفك أزرارها مرة أخرى، تلك الجاكتة البالغة القصر، والتي لم تكن تصل إلى عجزه، طبقًا للموضة السائدة، إلا أنها كانت رداء لا يليق برجل ضخم الجثة كمستر بوللاندر. وكان في إمكان المرء أن يلاحظ في وضوح، وهو يقف بجوار مستر جرين، أن سمنة مستر بوللاندر لم تكن مظهرًا من مظاهر الصحة، كان ظهره السمين محنيًّا إلى حد ما، وبدا كرشه ناعمًا ومترهلًا، كان يبدو عبئًا عليه بالفعل، وكان وجهه السمين شاحبًا، ومهمومًا، وربما كان مستر جرين يبدو أكثر بدانة من مستر

بوللاندر، إلا أنها كانت بدانة متناسقة، ومتوازنة في جميع أجزاء جسده، وكان يقف بكعبيه متلاصقين، كأنه جندي، ويرفع رأسه في استقامة مرحة، كان يبدو كرياضي كبير، أو كابتن فرقة رياضية.

واستأنف مستر جرين حديثه قائلًا: «عليك أن تذهب الآن أولًا إلى الآنسة كلارا، فقد يسرك هذا، كما أنه يتناسب تمامًا مع ترتيباتي الزمنية، فلدي في الحقيقة أمر مهم سوف أخبرك به قبل أن تغادر هذا المنزل، أمر لعله يحسم أيضًا مسألة عودتك إلى نيويورك أو عدم عودتك إليها، إلا أنني مضطر لسوء الحظ، بناء على التعليمات التي تلقيتها، ألا أفشي لك شيئًا مما لديّ قبل منتصف الليل، وعليك أن تدرك أنني آسف أنا نفسي لذلك، ففيه إقلاق لراحتي هذه الليلة، لكنني سألتزم بالتعليمات التي تلقيتها، إنها الحادية عشرة والربع الآن، ويمكنني أن أفرغ في خلال الفترة الباقية من الوقت من مناقشة أعمالي مع مستر بوللاندر، تلك المناقشة التي قطعتها أنت، ويمكنك أنت أيضًا أن تقضي وقتًا ممتعًا مع الآنسة كلارا، وعليك أن توافينا هنا في تمام الساعة الثانية عشرة، حيث أنهي إليك بما يتحتم عليك أن تلم به».

فهل كان في وسع كارل أن يرفض هذا الطلب، الذي يفرضه عليه التأدب، والعرفان بفضل مستر بوللاندر، والذي توجه إليه به، علاوة على ذلك، رجل وقح، في حقيقة الأمر، ولا مبال، بينما لم يتدخل مستر بوللاندر الذي يعنيه هذا الأمر بكلمة، ولا حتى بنظرة؟ وماذا عساها أن تكون تلك الأخبار المهمة التي لم يكن له أن يعلمها قبل منتصف الليل؟ إن لم تكن هذه الأخبار لتعجل بعودته في خلال ثلاثة أرباع الساعة الباقية هذه على الأقل، بدلًا من تضييعها عليه كاملة، فلا شك أنها أخبار لا تهمه في شيء. إلا أن ما كان يحيره أكثر

هو تفكيره فيما إذا كان سيجد الجرأة على زيارة كلارا أصلًا، على الرغم من عدائها له، فلو كان معه الآن خنجر كذلك الذي أعطاه له خاله، ليستعمله ثقلًا للخطابات! فلن تكون حجرة كلارا تلك دون شك سوى وكر خطير لا يعرف الأمان. كان يستحيل عليه تمامًا أن يذكر شيئًا يسيء إلى كلارا هنا، فلقد كانت ابنة بوللاندر، وخطيبة ماك أيضًا، كما عرف أخيرًا، فلو كانت قد سلكت معه سلوكًا مغايرًا بعض الشيء، لكان قد أعجب بها في الحقيقة لتلك الروابط التي تربطها ببوللاندر، وماك، كان لا يزال مستغرقًا في كل تلك الخواطر، عندما أدرك أن أحدًا لم يكن ينتظر منه ردًّا على الإطلاق، ذلك أن جرين قد فتح الباب، وقال للخادم الذي هب واقفًا من فوق القاعدة التي كان يجلس عليها «اصحب هذا الشاب إلى الآنسة كلارا».

حدث كارل نفسه، عندما هرول الخادم، وهو يئن لضعفه، واقتاده في صمت تام، نحو حجرة كلارا: «هذا هو إذن الأسلوب الذي يتم به تنفيذ الأوامر هنا!»، وعندما مر كارل من أمام حجرته، التي كان بابها مفتوحًا لا يزال، سأل الخادم أن يتيح له الفرصة لكي يدخلها للحظة، على أمل أن يجمع شتات نفسه، إلا أن الخادم لم يسمح له بذلك.

قال له: «لا.. يجب أن تأتي معي فورًا إلى الآنسة كلارا، لقد سمعت ذلك بنفسك».

قال كارل: «ولكنني أريد دخول الحجرة لمدة دقيقة فقط!» كان يتطلع إلى الاسترخاء، مستلقيًا فترة وجيزة فوق الأريكة، محاولًا إضاعة الوقت حتى يحين منتصف الليل.

فقال الخادم: «لا تحاول أن تعوقني عن أداء واجبي».

وحدث كارل نفسه، قائلًا: «يبدو أنه يظن أن ذهابي إلى الآنسة كلارا هو نوع من العقاب»، وسار بضع خطوات قليلة، لكنه توقف بعدها ثانية في عناد.

قال الخادم: «تقدم أيها السيد الصغير، ما دمت لم ترحل، إنني أعلم أنك ترغب في الرحيل الليلة، إلا أننا لا نحقق عادة ما نرغبه، ولقد أخبرتك بالفعل أن رحيلك يكاد يكون مستحيلًا!».

فقال كارل: «إنني لا أرغب في الرحيل، إلا أنني سأرحل بالفعل رغم ذلك، وإنني ذاهب إلى الآنسة كلارا فقط؛ لكي أقول لها.. إلى اللقاء».

قال الخادم: «هل الأمر كذلك؟!»، ولاحظ كارل أن الخادم لم يكن يصدق ما قال: «فلماذا إذن لا ترغب في أن تقول لها إلى اللقاء؟.. هيا.. تعال!».

جاءهما صوت كلارا، قائلة:

– «من الذي في الردهة؟»، وشاهداها وهي تنحني وتتطلع إلى الردهة برأسها، خارج أحد الأبواب القريبة، وفي يدها لمبة مكتب كبيرة لها غطاء أحمر، وأسرع الخادم إليها، وذكر لها سبب وجوده، وتبعه كارل متباطئًا.

قالت كلارا: «لقد جئت متأخرًا!».

ولم يرد عليها كارل في الحال، ولكنه قال للخادم في رفق، لكن في لهجة آمرة فيها شيء من الحزم؛ لأنه كان قد فهم الآن شخصية هذا الرجل: «سوف تنتظرني أمام هذا الباب».

قالت كلارا: «لقد كنت على وشك الذهاب إلى الفراش»، ووضعت

اللمبة فوق المنضدة، وأغلق الخادم الباب من الخارج في هدوء: «إنها الحادية عشرة والنصف الآن تمامًا».

فقال كارل متسائلًا وكأن هذا الخبر كان نذيرًا له بالإسراع: «هل تعدت الحادية عشرة والنصف؟»، في هذه الحالة إذن، يجب عليَّ أن أقول إلى اللقاء في الحال؛ لأنني يجب أن أكون في حجرة الطعام في تمام الساعة الثانية عشرة».

قالت كلارا: «وما هو هذا الأمر الذي يدعوك إلى هذه العجلة؟».

كانت تسوي في شرود طيات قميص نومها، وكان وجهها متوردًا، وكانت تبتسم، فرأى كارل أنه لم يكن هناك ما ينذر بوقوع اشتباك في مشاجرة أخرى مع كلارا! وأضافت قائلة: «هل يمكنك مع ذلك أن تعزف لي قليلًا على البيانو كما وعدني بابا بالأمس، وكما وعدت أنت الليلة؟».

قال: «نعم، ولكن أليس الوقت متأخرًا لذلك الآن؟»، كان يحاول أن يرضيها؛ لأن سلوكها كان مختلفًا الآن عن ذي قبل، كما لو كانت قد ارتفعت إلى مستوى رقة بوللاندر، وماك أيضًا.

قالت: «نعم، إن الوقت متأخر بالفعل». وبدا وكأن رغبتها في الاستماع إلى العزف قد تلاشت الآن؛ لأنها أضافت تقول: «كما أن أي صوت يصدر الآن، سيتردد صداه خلال المنزل كله، وأخشى لو عزفت أن يستيقظ الخدم الذين ينامون في الطابق العلوي».

– «لست كما ترين مصرًّا على العزف، وآمل أن أعود مرة أخرى، في أي يوم آخر، أو إذا لم يثقل عليك، أن تقومي بزيارة خالي، وتلقين نظرة على

حجرتي أثناء وجودك، فأنا أمتلك بيانو رائعًا، أهداه لي خالي، ولو شئت فسوف أعزف لك حينئذ كل مقطوعاتي، وإن لم تكن كثيرة لسوء الحظ، كما أنها لا تليق أيضًا بذلك البيانو الرائع، الذي يصلح لعازف بارع، لكن ربما أتيح لك الاستماع إلى عزف لا بأس به، لو حددت لي مقدمًا موعد قيامك بهذه الزيارة؛ لأن خالي ينوي إحضار مدرس مشهور لكي أتدرب على يديه.. ولك أن تتخيلي إلى أي حد أترقب حضور ذلك المدرب، ولا شك أن عزفه سيكون جديرًا بأن تشرفيني بزيارتك للحظات خلال درس من هذه الدروس، وحتى أكون صريحًا معك غاية الصراحة، فإنني أعترف لك بارتياحي لتأخر الوقت، وبأنني لن أعزف لك الآن، فأنا لا أجيد العزف في الحقيقة، ولو عزفت لك الآن، فسوف تدهشين لرداءة عزفي، فاسمحي لي الآن بالرحيل. كما أن موعد ذهابك إلى الفراش، فوق ذلك، لا بد أنه قد حان الآن».

وأضاف قائلًا بابتسامة، عندما كانت كلارا تتطلع إليه في رقة، ويبدو كأنها لا تضمر له أية ضغينة بسبب المشاجرة، ومد لها يده: «في بلدي يقول الناس، نومًا هنيئًا، وأحلامًا سعيدة».

قالت دون أن تتناول يده: «انتظر، فلعلك تريد أن تعزف لي رغم ذلك». واختفت خلال باب جانبي صغير، كان البيانو بجانبه.

وحدث كارل نفسه قائلًا: «وما هو الحل في هذه الحالة.. لا يمكنني أن أبقى طويلًا، حتى ولو بدا سلوكها معي بهذه الرقة!» وانبعثت طرقة على باب الحجرة، وهمس الخادم من خلال فرجة الباب الضيقة، دون أن يجرؤ على فتحه: «اسمح لي، لقد دعيت الآن، ولا يمكنني أن أنتظرك أكثر من ذلك!».

فأجابه كارل، وكان يحس الآن بالثقة في قدرته على أن يجد الطريق إلى حجرة الطعام بمفرده: «يمكنك الذهاب إذن، لكن اترك لي فانوسك أمام الباب، كم الساعة الآن؟».

قال الخادم: «الثانية عشرة إلا الربع تقريبًا».

قال كارل في نفسه: «إن الوقت ينقضي في بطء»، وتذكر كارل حين هم الخادم بإغلاق الباب أنه لم يمنحه بقشيشًا، فأخرج شلنًا من جيبه- كان يحمل قطع الفكة المعدنية الآن تشخلل في جيب بنطلونه على الطريقة الأمريكية، أما أوراق البنكنوت فكان يضعها في جيب صديريته- وناول الشلن للخادم قائلًا: «خذ هذا مقابل عطفك».

وكانت كلارا قد عادت، وهي تربت على شعرها المرتب بأصابعها عندما خطر لكارل ألا يترك الخادم ينصرف، وإلا فمن الذي سيدله على الطريق إلى محطة السكة الحديد؟ حسنًا، لا شك أن مستر «بوللاندر» سيتمكن من أن يتصيد خادمًا من مكان ما، وربما كان ذلك الخادم العجوز قد دعي إلى حجرة الطعام، وعلى هذا فسوف يعود إلى جلوسه فوق القاعدة التي جلس عليها من قبل.

- «ألن تعزف لي حقًّا على البيانو ولو قليلًا؟! إن المرء نادرًا ما يستمع إلى الموسيقى هنا، فمن المؤسف أن يفقد المرء فرصة تتاح له بالاستماع إلى قليل من العزف!».

قال كارل: «إن عليَّ إذن أن أبدأ العزف في وقت غير مناسب!»، وجلس إلى البيانو في الحال، دون أن يضع في اعتباره شيئًا آخر سوى تأخر الوقت.

وسألته كلارا: «هل تحتاج إلى نوتات موسيقية معينة؟».

فأجابها قائلًا: «لا.. شكرًا، إنني حتى لا أجيد قراءة الموسيقى قراءة صحيحة».

وبدأ يعزف...

كانت قطعة صغيرة تلك التي كان يجيد عزفها، وكان يجب أن يعزفها في بطء، حتى يمكن فهمها، وخاصة بالنسبة للغرباء، إلا أنه عزفها مسرعًا في مارش واحد صاخب، وهبط السكون الذي كان قد تشوش في كل أنحاء المنزل مرة أخرى، عندما فرغ كارل من العزف، وظلا جالسين في مكانهما، وكأنهما قد تجمدا من الارتباك، فلم يأتيا بأية حركة.

ثم قالت كلارا: «عزف جيد بالفعل!»، لم يكن يوجد أي شكل من أشكال المجاملة يصلح لإطراء كارل بعد ذلك العرض الموسيقي الذي فرغ منه بأقصى سرعة.

سألها قائلًا: «كم الساعة الآن؟».

- «الثانية عشرة إلا الربع».

قال: «إذن فلا يزال أمامي قليل من الوقت!»، وحدث نفسه قائلًا: «ترى ما هي تلك القطعة الأخرى؟»، ثم أضاف قائلًا: «لا يمكنني أن أعزف القطع العشر التي أعرفها جميعًا، إلا أنني يمكنني أن أعزف من بينها لحنًا واحدًا على الأقل بصورة جيدة قدر المستطاع! وبدأ في عزف لحنه المفضل، وهو «أنشودة الجندي»، في بطء شديد، حتى أثار في نفس من تستمع إليه، الرغبة في الاستماع إلى قطعة أخرى، رفض كارل أن يعزفها في البداية، ثم اضطر

إلى أن يعزفها أخيرًا على مضض، كان عليه أولًا أن يبحث عن المفاتيح بعينيه كما يفعل عند عزف أي من مقطوعاته، ثم تذكر قطعة أخرى كانت تنتهي بنفس نهاية القطعة التي يعزفها، فاستغرق في تذكر النهاية الصحيحة. ثم قال بعد أن فرغ من العزف: «لست عازفًا مجيدًا!»، وهو يتطلع إلى كلارا، والدموع تترقرق في عينيه.

ثم انبعث صوت تصفيق من الحجرة المجاورة، فصاح كارل قائلًا وهو يتراجع فجأة إلى الخلف: «يوجد شخص آخر كان يستمع!».

فقالت كلارا برقة: «إنه ماك!»، وسمع كارل بالفعل صوت ماك، وهو يهتف: «كارل روسمان.. كارل روسمان!».

فقفز مطوحًا ساقيه من فوق مقعد البيانو، وفتح الباب! رأى ماك شبه مضطجع في فراش ثنائي ضخم، بينما تنتشر البطاطين فوق ساقيه في اضطراب، ورأى كذلك ستارة من الحرير الأزرق كانت هي الديكور الوحيد للفراش، كانت تشي بذوق تلميذات المدارس، وكان الفراش بسيطًا فيما عدا ذلك غاية البساطة، شائع الطراز، ومصنوعًا من الخشب الرخيص، وكانت ثمة شمعة تحترق فوق المنضدة التي بجوار الفراش، لكن الملاءات، وثياب ماك الليلية كانت بيضاء ناصعة كلها، حتى أن ضوء الشمعة الساقط عليها كان ينعكس على نحو يبهر الأبصار، وكانت الستارة تشع هي أيضًا، عند حوافها على الأقل، بتموجاتها الخفيفة الحريرية، المتهدلة. وكان باقي الفراش إلى جوار ماك مباشرة غارقًا، كما كان يغرق كل شيء آخر في ظلام حالك، ومالت كلارا تستند إلى عمود الفراش، وعيناها مثبتتان لحظتها على ماك.

هتف ماك وهو يمد يده إلى كارل قائلًا: «هاللو.. إنك تعزف عزفًا جيدًا جدًّا، ولم أكن أعلم حتى الآن إلا بموهبتك في ركوب الخيل فقط!».

قال كارل: «لست أجيد لا هذا ولا ذاك!»، ولو كنت أعلم أنك كنت تسمع لما كنت قد عزفت، لا شك في ذلك، إلا أن هذه السيدة الصغيرة..»، وتوقف كارل عن متابعة حديثه، كان قد تردد في أن يقول «خطيبتك» بعد أن رأى ماك وكلارا يشتركان بالفعل في نفس الفراش!

ورد ماك قائلًا: «إلا إنني أدركت وجود تلك الموهبة، وهكذا تحتم على كلارا أن تغريك بالمجيء من نيويورك إلى هنا، وإلا ما أتيح لي أن أستمع إلى عزفك بالمرة، ولا شك أنه عزف هواة، واضح جدًّا، وخاصة في المقطوعتين الأخيرتين، وقد كانتا بسيطتين غاية البساطة، وتمرنت أنت جيدًا على عزفهما، ولقد ارتكبت خطأ أو اثنين، إلا أنهما قد سببا لي سرورًا زائدًا، مع تجاوز حقيقة أنني عادة لا أستخف بالعازفين مهما كان مستوى عزفهم، لكن ألا تجلس؟ ألا تمكث معنا فترة قصيرة؟! قدمي له مقعدًا يا كلارا».

قال كارل في خشونة: «شكرًا، لا يمكنني أن أبقى، وإن كان يسعدني ذلك، ولقد قضيت وقتًا طويلًا في هذا المنزل قبل أن أكتشف وجود مثل تلك الغرفة المريحة».

قال ماك: «سوف أعيد بناء كل شيء على هذا الطراز».

وفي تلك اللحظة دق جرس ما اثنتا عشر دقة في تتابع سريع، كل دقة منها في أعقاب الأخرى، وكان كارل يكاد يحس بهبات الهواء الذي حركته ذبذبة دقات ذلك الجرس الهائل فوق خديه، أي نوع من القرى تلك القرية

التي يوجد بها مثل ذلك الجرس؟..

قال كارل مندفعًا إلى الردهة، وهو يمد يده لماك وكلارا، دون أن يشد على أيديهما: «لقد حان وقت ذهابي».

لم يجد الفانوس أمام الباب، وندم على تسرعه في منح الخادم بقشيشًا، وراح يتحسس طريقه بطول الحائط إلى حجرته، لكنه ما كان يقطع نصف المسافة إليها، حتى رأى مستر جرين، وهو يتطوح مسرعًا نحوه، وقد رفع يده إلى أعلى بشمعة، بينما تقبض أصابع يده نفسها على خطاب.

- «روسمان، لماذا لم تأت؟ لماذا تركتني أنتظرك؟ وما الذي أبقاك بحق الجحيم كل هذا الوقت مع الآنسة كلارا؟».

حدث كارل نفسه قائلًا: «يا لها من أسئلة لا حصر لها!»، «ثم ها هو الآن يدفعني إلى الحائط!»، وكان جرين حقًّا قد توقف ملتصقًا بكارل، الذي كان عليه أن يستند بظهره إلى الحائط، وكان جرين قد بدا في هذه الردهة في حجم بالغ الضخامة، فتساءل كارل بينه وبين نفسه، ساخرًا، إن كان جرين قد التهم مستر بوللاندر أيضًا؟

- «إنك لست رجلًا يعول في كلمته دون ريب، فلقد وعدت أن تهبط إليَّ في الطابق الأسفل، في تمام الساعة الثانية عشرة، وبدلًا من أن تفعل ما وعدت به، بقيت هنا تحوم حول باب الآنسة كلارا، لكنني كنت قد وعدت بإطلاعك على بعض الأخبار المهمة، وها هي».

ثم سلم كارل الخطاب. وقرأ كارل فوق مظروفه: «إلى كارل روسمان، يسلم له شخصيًّا، عند منتصف الليل، حيثما وجد».

قال مستر جرين، بينما كان كارل يفض الخطاب: «أظن أنني كنت أستحق أن تتقدم إليَّ بالشكر، لمجرد حضوري بالعربة إلى هنا من نيويورك بسببك، بدلًا من أن تنتظر مني أن أطاردك أيضًا في هذه الردهات!».

قال كارل، وهو يستدير إلى مستر جرين، بمجرد أن نظر إلى الخطاب: «إنه من خالي، لقد كنت أتوقعه».

ورد عليه مستر جرين قائلًا، وهو يرفع الشمعة إلى أعلى: «سواء كنت تتوقعه أو لا تتوقعه، فشيء لا يهمني بالمرة، عليك فقط أن تقرأه».

وقرأ كارل على ضوء الشمعة:

ابن أختي العزيز..

إنني في حقيقتي، كما لعلك قد تحققت الآن خلال فترة صداقتنا البالغة القصر، رجل أعمال، وربما كان هذا أمرًا لا يسر، بل لعله أن يكون شيئًا محزنًا، لا يحزن فقط هؤلاء الذين يتصادف احتكاكهم بي، بل إنه ليحزنني أنا نفسي أيضًا، إلا أن أعمالي هي التي صنعتني، وليس لأحد أن يطلب مني أن أتخلى عن طبيعتي، ولا حتى أنت يا ابن أختي العزيز، ولقد كنت أنت اختياري الأول، فلو كان لي أن أقبل شيئًا من قبيل هجومك الشامل على طبيعتي، لكنت انتزعتك عندئذ من وسط الناس جميعًا، بيدي هاتين اللتين تمسكان الآن بهذا الخطاب، وأجلستك فوق رأسي، لكن لما لم يكن لي أن أفعل شيئًا من هذا، فيجب عليَّ بعد حادثة اليوم، أن أقصيك عني في الحال، وإنني أرجو منك ألا تزورني بنفسك، ولا أن تحاول أن تتصل بي كذلك لا بالكتابة، ولا عن طريق الوسطاء. ولقد قررت أنت هذه الليلة أن

تفارقني، على غير رغبتي، فاثبت إذن عند قرارك هذا مدى الحياة، فعندئذ فقط يكون قرارًا جديرًا برجل. ولقد اخترت مستر جرين، أفضل أصدقائي، ليحمل إليك هذه الأخبار، ولا شك أنه سيجد شيئًا من الكلمات المشجعة لكي يقولها لك، ولا تحضرني أنا الآن مثل تلك الكلمات. إنه رجل قادر على التأثير في الآخرين، وسيزودك ولو كمجرد مجاملة لي فحسب، ببعض نصائحه، ومعونته في خطواتك الأولى المستقلة التي تخطوها. وسيفسر لك انفصالنا الذي يبدو لي الآن، مرة أخرى، مستعصيًا على الفهم، وأنا أنهي هذا الخطاب، إن عليَّ يا كارل أن أقول لنفسي المرة بعد الأخرى، إنه ليس لي أن أتوقع خيرًا من أسرتك. فلو نسي مستر جرين أن يسلمك صندوقك ومظلتك، فذكره بهما.

مع أفضل تمنياتي بتوفيقك المقبل.

المخلص لك

خالك جيكوب

تساءل جرين: «هل انتهيت من القراءة».

قال كارل: «نعم.. هل أحضرت معك الصندوق والمظلة؟».

قال جرين: «ها هو»، ووضع صندوق كارل السفري القديم، الذي كان يخفيه خلف ظهره حتى الآن بيده اليسرى، على الأرض بجوار كارل.

وعاد كارل فسأله مرة أخرى: «والمظلة؟».

قال جرين: «كل شيء هنا!»، وأخرج كذلك المظلة التي كانت مدلاة من أحد جيوب بنطلونه، ثم أضاف قائلًا: «لقد أحضر هذه الأشياء، رجل

يدعى شوبال، وهو مهندس في خط هامبورج- أمريكا الملاحي، وذكر أنه كان قد وجدها فوق ظهر الباخرة، ولعلك تجد وسيلة لكي تتقدم إليه بالشكر في فرصة ما».

فقال كارل، وهو يضع المظلة فوق الصندوق: «لقد حصلت الآن ثانية على أشيائي القديمة على الأقل».

ورد عليه مستر جرين قائلًا: «لكن عليك أن تهتم بها أكثر من هذا في المستقبل، ولقد طلب مني السيناتور أن أنبهك إلى ذلك!»، ثم أضاف متسائلًا بدافع الفضول الخالص فيما يبدو: «يا له من طراز غريب من الحقائب، هذا الصندوق!».

فأجابه كارل قائلًا: «إنه واحد من تلك الحقائب التي يصحبها الجنود في بلدي معهم عند انضمامهم إلى الجيش، لقد كان حقيبة الجيش القديمة الخاصة بأبي، إنه صندوق مفيد أيضًا للغاية، وأضاف بابتسامة، وهو يتطلب منك لهذا ألا تتركه خلفك في مكان من الأماكن».

فقال مستر جرين: «لقد تلقيت درسًا كافيًا بعد كل شيء، وأظن أنه ليس لك خال آخر في أمريكا، وثمة شيء آخر بقي لك معي، هو تذكرة سفر بالدرجة الثالثة إلى سان فرانسيسكو، وقد قررت أن أرسلك إليها، أولًا لأن فرص كسب العيش تتاح لك بوفرة في الغرب، ولأن لخالك، من ناحية أخرى، يدًا في كل شيء هنا، ستجد له يدًا في أي عمل تراه مناسبًا لك، ويجب ألا يقع أي لقاء بينكما مطلقًا. ويمكنك في سان فرانسيسكو أن تقوم بما يروق لك من الأعمال، فابدأ إذن من القاع، وحاول أن تشق طريقك شيئًا فشيئًا، صاعدًا إلى أعلى».

لم يجد كارل أي نوع من الخداع في هذه الكلمات، ولقد بلغته الأخبار السيئة، التي ظلت مخبأة في جراب جرين طوال الليل، وبدا له جرين الآن شخصًا مسالمًا ربما أمكن له أن يتحدث إليه في صراحة، لعله لا يستطيع أن يتحدث بها إلى أي شخص آخر. كما أنه كان أفضل شخص أمكن اختياره، على الرغم منه، ليحمل إليه مثل ذلك السر، وتلك الرسالة المؤلمة، وقد كان حتمًا عليه أن يبقى شخصًا مريبًا طالما كان عليه أن يحتفظ بها بينه وبين نفسه.

قال كارل: «سوف أغادر هذا المنزل في الحال!»، وكان يأمل أن يجد قراره هذا تأييدًا من مستر جرين لخبرته في هذا الشأن ثم أضاف قائلًا: «ذلك إنني كنت قد دعيت إلى هذه الزيارة مجاملة لخالي، ولا محل الآن لوجودي هنا كشخص غريب، فهل تتكرم بأن تدلني على الطريق إلى خارج هذا المنزل؟ وأن تخبرني كيف أصل إلى أقرب فندق؟».

قال جرين: «يمكنني أن أفعل ذلك بأسرع مما تتوقع، وأعتقد أنك لا تتحرج من التصريح لي بما تريدني أن أفعله من أجلك، أليس كذلك؟».

توقف كارل فجأة، وهو ينظر إلى الخطوات الواسعة التي كان جرين يخطوها.. إن مثل هذه العجلة تبدو مريبة للغاية، فأمسك لهذا بذيل معطف جرين، وقد أدرك فجأة حقيقة الموقف، قائلًا: «هناك شيء آخر يجب عليك أن تفسره لي، فعلى المظروف الذي سلمته لي، قد كتب أن عليَّ أن أتسلمه عند منتصف الليل، حيثما تصادف وجودي، فلماذا إذن والأمر كذلك، حجزتني هنا عن الرحيل في الساعة الحادية عشرة والربع؟ لقد خالفت بذلك ما وُجِهَ إليك من تعليمات!».

وشوح جرين بيده، وهو يجيب قائلًا، في ضيق بالغ، اتضح منه مدى سخافة سؤال كارل: «هل كان مكتوبًا فوق المظروف أن عليَّ أن أقتل نفسي من الإجهاد في مطاردتك، والسعي في أثرك، وهل تشير محتويات الخطاب أدنى إشارة إلى أن التعليمات التي تتضمنها يمكن أن تفسر على هذا النحو؟!» إنني لو لم أكن قد حجزتك هنا، لكان عليَّ حينئذ أن أسلمك الخطاب بالتحديد، في الطريق العام!».

فقال كارل في غير اقتناع: «لا.. إن الأمر ليس كذلك، فلقد كتب على المظروف: «يسلم عند منتصف الليل»، وربما يكون التعب قد نال منك عندئذ، فلم يسعك أن تتعقبني بالمرة، ولعلني كنت قد وصلت إلى منزل خالي عند منتصف الليل، ولنفرض مثلًا أن مستر بوللاندر لم يخطر بباله أن شيئًا من هذا يمكن أن يحدث، أو أنه كان من واجبك أنت، باختصار، أن تعيدني إلى خالي بعربتك التي تجاهلت وجودها بالمرة بتلك الصورة المتعمدة، وخاصة أنني كنت متشبثًا بالعودة، ألم يذكر نص الخطاب في غاية الوضوح أن منتصف الليل كان هو الموعد المحدد لي؟ وأنك الملوم وحدك، بعد أن فاتني هذا الموعد!».

نظر كارل إلى جرين نظرة ماكرة، ورأى أن الخجل أمام هذه المواجهة كان قد علا وجه الرجل مختلطًا بالفرح لنجاح تدبيره، حتى تمالك نفسه في النهاية، ليقول محتدًّا، وكأنه يضع حدًّا لاتهامات كارل، رغم أن كارل كان قد لاذ بعد ذلك بالصمت لفترة طويلة: «لا تتفوه بكلمة أخرى».

ورفع كارل مرة أخرى صندوقه، ومظلته، وسار بهما نحو باب صغير دفعه، فانفتح أمامه.

ووجد كارل نفسه في الخلاء لدهشته، ورأى درجات سلم خارجي بلا درابزين كان يؤدي إلى الحديقة، كان عليه فقط أن يهبط درجاته، ثم يستدير نحو اليمين حتى يبلغ الممر الذي يؤدي إلى الشارع.

وفي ضوء القمر الساطع استطاع في سهولة أن يتبين طريقه، وكان يصله نباح الكلاب المتزايد التي كانت تنطلق بلا قيد في أرجاء الحديقة تحت ضوء القمر، وتقفز هنا وهناك بين ظلال الأشجار، وكان يسمع في السكون صوت ارتطام تلك الكلاب فوق العشب بعد قفزاتها الهائلة.

وتمكن كارل من مغادرة الحديقة، دون أن تتعرض له الكلاب، ولم يكن يدري على وجه اليقين، في أي اتجاه كانت تقع نيويورك، إلا أنه لم يكن عندما غادر الحديقة، قد انتبه إلى شيء من التفاصيل التي قد تصبح ذات نفع له الآن، ثم قال في نفسه أخيرًا إنه لا يوجد الآن ما يدفعه إلى الذهاب إلى نيويورك، حيث لا يتوقع مجيئه أحد، وحيث يوجد بالتأكيد رجل معين لا يتوقع مجيئه مطلقًا، وعلى هذا فقد اختار اتجاهًا صادفه، وانطلق سائرًا فيه.

الفصل الرابع

الطريق إلى رمسيس

في الحانة الصغيرة التي بلغها كارل بعد فترة قصيرة من السير، والتي كانت عبارة عن مجرد مطعم صغير، كان سائقو لوريات وعربات نيويورك يتناولون طعامهم فيها، وكانت تستعمل أحيانًا كمأوى ليلي، طلب كارل أرخص فراش يمكنه أن يقضي فيه ليلته، وكان قد رأى أنه يجب عليه أن يبدأ فورًا في التقشف، وعندما كان يقف في انتظار تلبية طلبه، لوح له صاحب الحانة طالبًا منه أن يصعد إلى أعلى الدرج، كما لو كان خادمًا بسيطًا، واستقبلته في أعلى الدرج عجوز شمطاء، شعثاء الشعر، كانت متجهمة لأنها كانت قد نهضت من نومها، وراحت تحذره- دون أن تستمع إليه مطلقًا- ألا يحدث أية ضوضاء، وأن يتقدم في هدوء بينما كانت تتقدمه حتى بلغت حجرة، أغلقت بابها خلفه، بعد أن همست له قائلة: «هست!».

ولم يتمكن كارل في البداية من أن يدرك هل كانت ستائر النافذة مسدلة أو أنه لم تكن توجد بالغرفة نافذة على الإطلاق، فقد كان الظلام حالكًا، لكنه تبين في النهاية كوة جذب غطاءها، فانتشر بداخل الحجرة قليل من الضوء، ورأى بالحجرة فراشين، كانا مشغولين كليهما بالفعل، فقد كان يستلقي

فوقهما شابان، مستغرقين في نوم عميق، لم يكن شكلهما يوحي بالاطمئنان للوهلة الأولى بلا سبب مفهوم، كانا مستغرقين في النوم بملابسهما كاملة، وكان أحدهما ينتعل حذاءه أيضًا.

رفع أحد الشابين المستغرقين في النوم، عندما كشف كارل غطاء الكوة، ذراعيه وساقيه قليلًا إلى أعلى، فبدا منظره غريبًا، حتى أن كارل لم يستطع إلا أن يضحك في نفسه بالرغم من حذره.

وسرعان ما تحقق كارل من أنه- على الرغم من عدم وجود أي شيء بالغرفة يمكنه أن ينام فوقه، لا فراش ولا أريكة، ولا أي شيء- لن يمكنه أن ينام هنا بحال من الأحوال، فلم يكن في مقدوره أن يجازف بفقدان صندوقه الذي عثر عليه أخيرًا، وبفقدان النقود التي يحملها، إلا أنه لم يرغب في مغادرة المكان أيضًا، فلم يكن يدري كيف يواجه المرأة العجوز وصاحب الحانة إذا غادر المكان بهذه السرعة، ولعله بعد هذا كله، أن يكون آمنًا هنا على الأقل، نفس الأمان الذي قد يتاح له في الخلاء، إذا هو غادر المكان في هذا الوقت المتأخر من الليل، ولا شك أنه كان من الغريب ألا يجد بالحجرة أي أثاث بقدر ما أمكنه الرؤية في ذلك الضوء الخافت، لكن، ربما كان هذان الشابان خادمين بالحانة، وعليهما أن ينهضا من نومهما في وقت مبكر استعدادًا لخدمة النزلاء، ولعلهما لهذا السبب كانا ينامان بملابسهما، فلم يكن أمامه ما يدعو للفخر في هذه الحالة أيضًا دون شك إن كان عليه أن ينام في حجرتيهما بعد أن يغادراها، لكنه على أية حال أمر يقل فيه عنصر المجازفة، ومع ذلك فليس له أن يستغرق في النوم استغراقًا تامًّا، مهما كانت الأحوال، حتى يتأكد من صحة افتراضاته هذه بصورة لا تقبل الشك.

وتحت الفراش كانت توجد شمعة بجوارها بضعة أعواد من الثقاب، زحف كارل في حذر، وتناولها، لم يكن يخشى إشعال الشمعة، فقد كانت الحجرة تخصه كما تخص الشابين الآخرين، اللذين كانا قد نعما بالنوم إلى ما بعد منتصف الليل، بالإضافة إلى انفرادهما بالفراشين اللذين كان يعدهما ميزة لا تعدلها ميزة أخرى في تلك اللحظات، ومع ذلك فقد كان يتجول في أنحاء الحجرة بغاية الحذر حتى لا يتسبب في إيقاظهما.

كان يود أولًا أن يفحص محتويات صندوقه، ويجرد أشياءه التي لا يكاد يذكرها الآن بصورة واضحة، تلك الأشياء التي لا شك قد اختفى أهمها بالفعل، فما أن تمتد يد شوبال إلى شيء حتى يكاد يتلاشى الأمل تقريبًا في أن تسترده ثانية كما كان، وربما كان قد توقع بالطبع بقشيشًا كبيرًا من الخال جيكوب، لكن لو أن شيئًا قد فقد بالفعل من محتويات الصندوق، فعليه ببساطة أن يلقي لومه على الحارس الأصلي للصندوق، مستر باتربوم!.

ولقد انزعج كارل عندما نظر في داخل الصندوق للوهلة الأولى، كم من الساعات أنفقها خلال رحلته، في ترتيب، وإعادة ترتيب أشياءه، لكي يجد كل شيء الآن مضطربًا بداخله ذلك الاضطراب الشنيع، حتى أنه لم يكد يدير المفتاح في القفل حتى قفز الغطاء إلى أعلى تلقائيًا.

ثم اكتشف في التو لفرحته، أن السبب الوحيد في تلك الفوضى، هو أن شخصًا ما كان قد أضاف إلى محتويات الصندوق أيضًا بدلته التي كان يرتديها خلال الرحلة، ولم يكن الصندوق بالطبع، ليتسع لها إلا بصعوبة، لم يكن أي شيء من محتويات الصندوق قد فقد ولم يجد في الجيب السري لجاكتته جواز سفره فقط، بل وجد أيضًا النقود التي كان والداه قد زوداه

بها، وأصبح لهذا، بالإضافة إلى ما كان يحمل من نقود، مزودًا الآن بقدر كافٍ من المال، وحتى الملابس الداخلية التي كان يرتديها عند وصوله كانت موجودة كذلك بداخل الصندوق وكانت قد غسلت، وتم كيها، وضع نقوده وساعته في داخل جيبه السري الأمين من فوره، وكان الشيء الوحيد الذي أسف له كارل هو أن قطعة لحم السالامي الفيرونيزية التي كانت موجودة في الصندوق، كانت قد خلفت رائحتها على كل الملابس، فلو استطاع أن يجد طريقة لإزالة تلك الرائحة من الملابس التي كان عليه أن يتجول بها في كل مكان لعدة شهور؟

وبينما كان يبحث عن شيء ما في قاع الصندوق- وهو كتاب مقدس في حجم الجيب، وبعض أوراق الخطابات، وصور فوتوغرافية لوالديه- سقطت القبعة من فوق رأسه إلى داخل الصندوق، وتبينها على الفور من حروفها المتآكلة، كانت هي قبعته نفسها، التي كانت والدته قد أعطته إياها ليرتديها في أثناء الرحلة، ولم يكن قد استعملها رغم ذلك على الباخرة من قبيل التوفير، فقد كان يعلم أن الناس في أمريكا يرتدون القبعة المستديرة بدلًا من القبعة العالية، ولم يكن يريد أن يستهلك هذه القبعة لذلك قبل أن يصل إلى أمريكا، وها هو مستر جرين قد استعملها فقط لمجرد استغفاله، فهل كان الخال جيكوب قد نبه عليه بأن يفعل ذلك أيضًا؟ وبحركة حانقة لا شعورية جذب كارل غطاء الصندوق، فانغلق مدويًّا في عنف.

لم يعد أمامه الآن أية حيلة في الأمر، فقد استيقظ النائمان، تمدد أولهما وتثاءب ثم تبعه الآخر في الحال ففعل نفس الشيء، كانت كل محتويات الصندوق مكومة فوق المنضدة، فلو كان هذان الرجلان لصين، فلم يكن

عليهما إلا أن يتقدما نحوه، ويضعا أيديهما على ما يروق لهما، وتقدم كارل وهو يحمل الشمعة في يده نحو الفراشين، كمحاولة لمواجهة هذا الاحتمال، والتأكد من حقيقة وضعه وفسر لهما كيف دخل هذه الحجرة، فلم يبد عليهما أنهما كانا ينتظران أي تفسير، فقد ظلا يحدقان إليه فحسب دون أن يتمكنا من الرد عليه، فقد كان النوم يغلبهما، ولم يجد على وجهيهما أثرًا للدهشة أو استنكارًا لوجوده، كانا شابين، إلا أن العمل الشاق، أو الفقر كان قد أبرز عظام وجنتيهما بصورة ملحوظة، وكانت تتهدل من ذقنيهما خصلات لحيتين شعثاوتين، وكان شعرهما أشعث كذلك، وبدا أنه لم يُحلق منذ فترة طويلة؛ لأنه كان متلبدًا فوق فروتي رأسيهما، ودعكا أعينهما الغائرة التي كان النوم لا يزال يغلقهما.

وقرر كارل أن يستغل جيدًا حالة الضعف المؤقت التي كانا يبدوان عليها في تلك اللحظة فقال: «إن اسمي هو كارل روسمان، وإنني ألماني الجنسية، فاذكرا لي اسميكما لو تفضلتما بذلك، بما أننا نشغل معًا نفس الغرفة، ومن أي بلد جئتما، وأصرح لكما كذلك بأنني لا أتطلع إلى مزاحمتكما في فراشيكما، فلقد وصلت متأخرًا، وليست لدي أدنى رغبة في النوم، على أية حال، كما أنه لا ينبغي لكما أن تسيئا فهم حالي نظرًا للبدلة الحسنة التي أرتديها، فأنا معدم تمامًا، وبلا أدنى أمل».

وأشار أصغر الرجلين- وهو ذلك الذي كان ينام منتعلًا حذاءه- بيديه وساقيه وحركة جسده، بما يدل على عدم اهتمامه بهذا كله وبأنه لا يملك وقتًا للاستماع إلى هذه المعلومات، واستلقى ثانية على الفراش، متأهبًا لاستئناف نومه في الحال، لكنه قال ملوحًا بيده قبل أن يعود إلى النوم: «هذا

الشاب الذي هناك يدعى روبنسون، وهو أيرلندي، أما أنا فاسمي ديلا مارش، وأنا فرنسي، والآن أرجوك أن تلزم الهدوء!» وما إن فرغ من ذلك، حتى أطفأ شمعة كارل بنفخة شديدة من فمه، وألقى برأسه فوق الفراش.

قال كارل في نفسه، مستديرًا نحو المنضدة: «حسنًا، لقد زال الخطر الآن مؤقتًا!»، فإذا لم يكن نومهما الآن مفتعلًا، فإن كل شيء على ما يرام، وكان الشيء الوحيد الذي لم يرتح إليه، هو أن أحدهما كان أيرلنديًّا، ولم يكن في إمكان كارل أن يتذكر في أي كتاب كان قد قرأ ذات مرة، عندما كان في بلده، أن على المرء إذا قدر له أن يذهب إلى أمريكا، أن يحذر الأيرلنديين، وقد كانت أمامه، عندما كان يقيم في منزل خاله، فرصة ممتازة بلا شك، كان يمكنه أن يستفسر فيها عن ذلك الخطر الأيرلندي، لكنه كان قد اعتقد حينذاك بأنه كان قد تحصن تمامًا ضد كل الأخطار حتى نهاية حياته، فقد أهمل بحث ذلك الأمر تمامًا، ورأى كارل أن عليه أن يلقي الآن على الأقل نظرة فاحصة، على الرجل الأيرلندي في ضوء الشمعة، التي أشعلها ثانية، ووجد أن الرجل يبدو محتملًا في حقيقة الأمر أكثر من الرجل الفرنسي، كانت وجنتاه لا تزالان تحملان أثرًا من الاستدارة، وكان يبتسم في نومه، بصورة ودود، بقدر ما أتيح لكارل أن يرى، عندما كان يقف على أطراف أصابعه على مسافة بعيدة من الرجل وهو يتطلع إليه.

وقرر كارل بصورة قاطعة ألا ينام على الرغم من كل شيء، وجلس فوق المقعد الوحيد بالحجرة، وأجل إعادة ترتيب أشيائه بداخل الصندوق لبعض الوقت، ثم تناول صورة فوتوغرافية لوالديه، كان يقف فيها والده الشاب منتصب القامة خلف والدته، التي جلست فوق مقعد ذي مسندين، منطوية

على نفسها إلى حد ما، وكانت إحدى يدي والده تستند على ظهر المقعد، بينما كانت يده الأخرى المضمومة تستقر فوق كتاب مصور فوق ترابيزة صغيرة كانت بجانبه، وكانت ثمة صورة فوتوغرافية أخرى كانت تضم كارل مع والديه، وكانا يتطلعان إليه فيها باهتمام، بينما كان هو يحملق في الكاميرا كما طلب منه المصور، إلا أنه لم يحضر معه هذه الصورة عند رحيله.

وتفحص الصورة التي أمامه في تركيز، وحاول أن يواجه نظرة والده من مختلف الزوايا، إلا أن والده لم يتجسد أمام عينيه، مهما كان يحاول أن يعدل تعبير وجهه في الصورة بتحريك الشمعة في اتجاهات مختلفة، ولا كان شاربه الكثيف الأفقي، يبدو حقيقيًّا هو أيضًا، لم تكن صورة جيدة إلا أن والدته رغم ذلك كانت قد تبدت له على نحو أفضل، كان فمها مزمومًا كما لو كانت تعاني ألمًا، ولا بد لها مع ذلك أن ترغم نفسها على الابتسام، وبدا لكارل أن أي شخص ينظر إلى هذه الصورة لا بد سيفاجأ بهذا الشعور، حتى لقد بدأ يدرك أنه كان تفسيرًا مبالغًا فيه، فكيف يمكن لصورة فوتوغرافية أن تشي بالمشاعر الدفينة بهذا الوضوح؟ وحول نظرته قليلًا، بعيدًا عن الصورة وعندما تفحصها ثانية لاحظ يد والدته التي امتدت إلى الأمام، تركت مسند الكرسي وتحركت إلى مقدمة الصورة، فبدت قريبة منه جدًّا، حتى بدا في إمكانه أن يتناولها ويقبلها، وفكر هل من الواجب عليه أن يكتب إلى والديه، مع أنهما قد حذراه ألا يكتب إليهما (وخاصة والده الذي نبه عليه في حزم بالغ بألا يفعل ذلك وهو يودعه في هامبورج)، في تلك الليلة الأليمة، كان قد اتخذ قرارًا حاسمًا بألا يكتب إليهما، عندما أخبرته والدته وهي تقف إلى النافذة بأن عليه أن يرحل إلى أمريكا، لكن ماذا يهم قرار صبي عديم الخبرة،

في مثل تلك الحالة؟.. وبعد تلك التطورات الجديدة؟ ولعله كان قد قرر أيضًا حينئذ أن شهرين في أمريكا سوف يتسعان له لكي يبلغ منصب قائد الجيش الأمريكي المرابط، لا أن يقبع الآن هنا في مثل هذا الوكر إلى جانب اثنين من المشردين، في مطعم خارج نيويورك، هذا المكان الذي كان يناسبه تمامًا، طالما لم يكن أمامه سوى أن يقبله، وتفحص وجهي والديه بابتسامة كما لو كان يحاول أن يقرأ في ملامحهما مدى استعدادهما لأن يتلقيا أخبارًا من ابنهما.

وشغله مقدمًا خوفه من أن يدركه الإرهاق في النهاية، وألا يتمكن من البقاء مستيقظًا طوال الليل، وسقطت الصورة من بين يديه، فوضع وجهه فوقها، واستمتع بملمسها البارد تحت خده، وفي شيء من الارتياح استغرق في النوم.

واستيقظ في الصباح الباكر عندما أحس بلكزة تحت إبطه، كان الرجل الفرنسي قد سمح لنفسه بأن يلكزه تلك اللكزة، إلا أن الأيرلندي كان يقف أيضًا إلى جانب المنضدة، وكانا يتطلعان إليه بلا مبالاة، كتلك التي أبدياها تجاهه في أثناء الليل، ولم يدهش كارل لأنهما لم يوقظاه معهما عندما استيقظا، فلم يكن هناك ما يدعوه إلى الارتياب في حركاتهما المتلصصة؛ لأنه كان غارقًا تمامًا في نومه، وبدا له أنهما لم يبذلا مطلقًا أدنى مجهود في ارتداء ثيابهما، كما بدا له من مظهرهما أنهما لم يغتسلا كذلك.

وقدما إليه نفسيهما الآن في شيء من التكلف على أنهما ميكانيكيان ظلا متعطلين لمدة طويلة في نيويورك، ولهذا كان الحال قد انحدر بهما إلى هذه الصورة، ولكي يبرهن له روبنسون على ذلك، فك أزرار سترته ليبين

له أنه لم يكن يرتدي قميصًا فوق جسده، إلا أن المرء كان يسعه أن يخمن ذلك من تهدل ياقة السترة التي كانت قد أحكمت فقط إلى العنق! وقد كانا في طريقهما إلى مدينة صغيرة هي باترفورد، وتبعد مسافة يومين سيرًا على الأقدام من نيويورك، حيث أشيع أن فرص العمل تتوافر بها، ولم تبدر منهما أية اعتراضات على انضمام كارل إليهما، ووعدا بأن يتبادلا حمل صندوقه، وأن يجدا له عملًا أيضًا كصبي، إذا تمكنا من العثور على عمل لهما، وهو أمر يسهل تدبيره إذا توافر العمل أساسًا، ووافقهما كارل على ذلك، فنصحاه في لهجة ودية أن يخلع بدلته الجيدة التي يرتديها، والتي ستعوقه في بحثه عن عمل، وقد كان في تلك الحانة نفسها فرصة صالحة للتخلص من تلك البدلة؛ لأن المرأة العجوز تتجر في الملابس القديمة، وفي الحال، عاونا كارل- الذي لم يكن قد قرر بصورة نهائية ما سيفعله في أمر البدلة- على خلعها، واختفيا بها، وعندما خلا كارل إلى نفسه، وكان لا يزال تحت تأثير النعاس، ارتدى في تكاسل بدلته القديمة، وهو يلوم نفسه لأنه قد وافق على بيع البدلة الجيدة، التي قد تعوقه الآن بالفعل عن الحصول على عمل كصبي، إلا أنها تتيح له أن يظهر في صورة حسنة إلى حد كافٍ، عندما يتطلع إلى وضع أفضل في فرصة أخرى، وفتح الباب في الحال لكي يدعو الرجلين إلى العودة بالبدلة، فوجدهما عندما فتح الباب واقفين أمامه، مزودين بنصف دولار وضعاه فوق المنضدة أمامه ثمنًا لبدلته، وفي الوقت نفسه كان يبدو عليهما الانشراح إلى حد أنه كان يصعب على المرء ألا يعتقد بأنهما قد استفادا بشيء من الثمن، وأنهما قد استفادا فائدة كبيرة أيضًا، لشدة قرف كارل.

لكن لم يكن هناك متسع من الوقت حتى يتحدث إليها كارل في هذا الشأن، فقد اندفعت المرأة العجوز إلى داخل الحجرة، وهي تغالب نومها كما بدت في الليلة السابقة، وراحت تدفعهم جميعًا أمامها إلى خارج الحجرة وهي تقول لهم إن الحجرة يجب أن تخلو الآن لوجود بعض النزلاء الجدد، ولم يكن هناك مجال لبحث هذا الأمر، ولم تكن هناك حاجة إلى القول بأنها كانت تفعل ذلك كمجرد خدعة، وكان على كارل عندما شرع في جمع أشيائه في داخل الصندوق، أن يتطلع إليها، وهي تجمعها بدلًا منه بكلتا يديها وتقذف بها في عنف إلى داخل الصندوق، كانت تحاول التخلص منهم كما لو كانوا ثلاثة من الحيوانات الكاسرة، تريد أن تطردهم خارجًا بأسرع ما يمكنها، وظل الميكانيكيان يراوغانها، ويدوران حولها ويجذبان طرف ردائها، ويلطمانها فوق ظهرها، لكن لو أنهما كانا يعتقدان أنهما بذلك يساعدان كارل لكانا مخطئين في ظنهما خطأ بالغًا! وعندما أغلقت العجوز الصندوق، ألقت بمقبضه بين أصابع كارل، ودفعت الميكانيكيين، وساقتهم جميعًا أمامها إلى خارج الحجرة وهي تهدد، بأنهم إن لم يسارعوا بالخروج، فإنها لن تقدم لهم القهوة، وبدا واضحًا أنها قد تناست تمامًا أن كارل لم يكن في صحبة الميكانيكيين من البداية؛ لأنها كانت قد طاردتهم جميعًا، ولما كان الميكانيكيان قد باعا لها بدلة كارل، فوق ذلك، فقد وشى ذلك كله بشيء من التضامن بينهما وبينه.

كان عليهم أن يذرعوا الممر ذهابًا وجيئة وقتًا طويلًا، وأقسم الرجل الفرنسي، الذي كان قد أمسك بذراع كارل، في وضوح منقطع النظير مهددًا بأن يطرح صاحب الحانة أرضًا لو جرؤ على الظهور، وضرب قبضتيه

المطبقتين في هياج، كما لو كان يستعد للمواجهة، وأخيرًا ظهر صبي ضئيل بريء المظهر، كان صغيرًا للغاية حتى لقد كان عليه أن يقف على أطراف أصابعه لكي يناول القهوة للرجل الفرنسي، ولم يكن هناك لسوء الحظ شيء سوى العلبة الصفيح، ولم يكن في مقدورهم أن يوضحوا للصبي حاجتهم إلى الأكواب.

وهكذا لم يكن عليهم سوى أن يتناوبوا تناول القهوة من العلبة الصفيح، الواحد منهم بعد الآخر، بينما يقف الآخران في انتظار دورهما، ولم يكن كارل ليقبل تناول القهوة على هذا النحو، لكنه لم يرغب أيضًا في إهانة الآخرين، ولهذا رفع العلبة الصفيح إلى شفتيه عندما حان دوره، إلا أنه لم يشرب شيئًا منها رغم ذلك.

وطوح الرجل الفرنسي بالعلبة على الدرجات الحجرية إيذانًا بالرحيل، وغادروا الحانة دون أن يلحظهم أحد، وتقدموا نحو ضباب الصباح الكثيف الضارب إلى الاصفرار، وساروا في صمت جنبًا إلى جنب على حافة الطريق، وكان على كارل أن يحمل صندوقه؛ لأن الآخرين لم يظهرا ما يدل على استعدادهما لحمله ليتيحا له أن يرتاح قليلًا، إلا عندما كان كارل يطلب منهما ذلك، وكانت تندفع من حين لآخر سيارة من خلال الضباب، وكان الثلاثة يديرون رؤوسهم ليتطلعوا نحو السيارة التي تبدو هائلة الحجم، ثم تنطلق كالسهم، حتى أنهم لم يتمكنوا من رؤية أحد بداخلها، ثم أخذت تقابلهم صفوف من العربات التي تحمل التموين إلى نيويورك، تلك العربات التي كانت تندفع في عكس اتجاههم في صفوف خمسة تشغل عرض الطريق، ويستمر ذلك التتابع الذي لا ينقطع، حتى أن أحدًا لم يكن

يمكنه أن يعبر الطريق إلى الجانب الآخر، وكان الطريق يتسع أحيانًا حتى يبدو أشبه بميدان، كان يقوم في منتصفه هيكل شبيه بالبرج، يقف بداخل رجل بوليس مهمته الإشراف على حركة كل شيء، وكان يوجه تلك الحركة في الطريق الرئيسي، والطرق الجانبية التي تتصل به، بمؤشر صغير في يده، وكان هذا الرجل هو المشرف الوحيد على حركة المرور إلى أن تصل تلك الحركة إلى الميدان التالي، وإلى عسكري المرور التالي، ويتم توجيهها في أثناء ذلك بكفاءة، وتلقائية باليقظة الصامتة التي يبديها سائقو اللوريات والعربات، ولقد دهش كارل أشد الدهشة للهدوء الشامل، فلعلك لم تكن لتسمع سوى وقع الأقدام، وطنين موتورات العربات، ولم تكن سرعة تلك العربات بالطبع واحدة على الدوام، وكانت تقوم حركة تنظيم واسعة النطاق للمرور في بعض الميادين بسبب اندفاع حركة السيارات من الشوارع الجانبية، فكانت صفوف طويلة من العربات تتوقف فجأة عندئذ، وهي تهتز عدة بوصات إلى الأمام، لكن بعد لحظات قصيرة، كان كل شيء يندفع إلى الأمام مرة أخرى بسرعة الضوء، ثم تتوقف الحركة كلها ثانية دفعة واحدة، كما لو كانت قد توقفت كلها بفرملة واحدة، وتمضي تلك الحركة كلها في جو رائق، بلا أدنى أثر للغبار الذي يرتفع تحت العجلات من الطريق، لم يكن هناك مارة، ولا بائعات يسرن وحيدات بطول الطريق نحو المدن كما في بلد كارل، لكن من حين لآخر كانت تظهر عربات لوري ضخمة، كانت تقف فوقها ما يقرب من العشرين امرأة بالسلال على ظهورهن، ولعلهن كن بائعات، فقد كن يمددن أعناقهن لينظرن إلى حركة المرور في صبر نافد للإسراع بالسير، وكانت ثمة لوريات تحمل رجالًا يتطلعون حولهم

وأيديهم في جيوب بنطلوناتهم، وكانت تلك اللوريات تحمل دائمًا بعض الكتابات المختلفة، وعلى أحدها قرأ كارل بصيحة دهشة: «مطلوب عمال ميناء لوكالة جيكوب للتصدير»، وتصادف أن كانت تلك السيارة تسير في بطء على نحو ما، وكان رجل ضئيل الحجم، محني الظهر، ودود بصورة ما، يقف على سلمها، وقد وجه هذا الرجل الدعوة إليهم لاعتلاء سطح العربة، واختبأ كارل خلف الميكانيكيين كما لو كان خاله في اللوري، ومن الممكن أن يراه، ولقد ارتاح لرفض زميليه تلك الدعوة، على الرغم من أنه قد وجد ظلًا من الإهانة في الطريقة المستهترة التي رفضاها بها، فهل كان لهما أن يعتبرا أنفسهما قد بلغا من السمو حدًّا يمنعهما من العمل لخاله؟.. ولقد قال لهما شيئًا من هذا في كلمات مقتضبة بالطبع، واستدار ديلامارش إليه وطلب منه عدم التدخل في الأمور التي لا يفهمها لأن تلك الطريقة في جمع الرجال هي احتيال شنيع، كما أن شركة جيكوب شركة سيئة السمعة في جميع أنحاء الولايات المتحدة، ولم يجب كارل بشيء، إلا أنه، منذ تلك اللحظة ظل ملتصقًا بالرجل الأيرلندي، وطلب منه أن يحمل عنه الصندوق قليلًا، وقد فعل الرجل ما طلبه منه، بعد أن توجه إليه كارل بهذا الطلب عددًا من المرات من قبل، إلى أن اتضح أن كل ما كان يريده من الصندوق هذه المرة عندما قبل أن يحمله، كان لحم السالامي الفيرونيزي، الذي يبدو أنه كان قد لاحظ وجوده قبل أن يغادر الحانة، وكان على كارل أن يفض لفة اللحم لكن الرجل الفرنسي، اختطفها، وشرحها قطعًا صغيرة بسكين أشبه بالخنجر، والتهم الجزء الأكبر منها، وحصل روبنسون على قطعة من حين لآخر فحسب، ولم يحصل كارل الذي أجبر بعد ذلك على حمل الصندوق،

على شيء مطلقًا، ولعلهما قد افترضا أنه كان قد حصل على نصيبه من لفة اللحم مقدمًا، وقد بدا له من السخف أن يرجوهما التفضل عليه بشريحة منه، فلم يطلب شيئًا، لكنه كان يشعر بالمرارة مع ذلك لسلوكهما نحوه.

وكان الضباب قد تلاشى عندئذ، وتألق على البعد جبل شاهق، كان يتراجع كقمم الأمواج، إلى الخلف، صاعدًا نحو قمة متباعدة يغلفها غبش ضوء الشمس، وعلى جانبي الطريق كانت تمتد حقول مهملة تحيط بالمصانع الكبيرة، التي كانت ترتفع مجللة بالدخان، في الريف الرحب، وكانت قطاعات من المساكن المنعزلة قد شيدت جزافًا هنا وهناك، وكانت نوافذها التي لا حصر لها تموج بالحركة المتزايدة والأضواء، بينما فوق الشرفات الصغيرة نساء وأطفال مشغولون بأشياء عديدة، نصف مختبئين، ونصف ظاهرين خلف الملابس المغسولة، المعلقة من مختلف الأنواع، المنشورة لكي تجف، والتي كانت ترفرف حولهم عند هبوب نسيم الصباح، وتتموج بشدة، ولو شردت عينا المرء عن البيوت، لرأى العصافير في أعلى الفضاء، وطائر السنونو في الأسفل، ينطلق فوق رؤوس المارة.

كان هناك الكثير مما كان يذكر كارل ببلده، ولم يكن يمكنه أن يقرر هل أصاب بمغادرته نيويورك، وتجوله في الداخل أم أخطأ، ففي نيويورك يوجد البحر الذي يعني الفرصة للعودة في أية لحظة إلى بلده، ولهذا توقف فجأة، وقال لرفيقيه: إنه يشعر برغبته في العودة إلى نيويورك أخيرًا، وعندما بدا له أن ديلامارش كان يسحبه باستخفاف إلى الأمام، رفض أن يساق إلى السير، واحتج قائلًا: إن من شأنه هو أن يقرر بنفسه إن كان يرغب في السير أو يرغب في العودة، وكان على الرجل الأيرلندي أن يتدخل، وأن يوضح أن باترفورد

هي مدينة أفضل من نيويورك، وكان عليهما أن يعاملاه باللين البالغ فترة من الوقت، قبل أن يواصل السير معهما في النهاية، وحتى عندما سار معهما، لم يكن قد أذعن، إلا لأنه كان قد قال في نفسه إنه ربما كان من المستحسن أن يوغل في الابتعاد عن نيويورك؛ حتى لا يعود التفكير في العودة إلى وطنه أمرًا سهلًا، وأنه سوف يعمل بلا شك، ويحاول أن يتقدم من حالة إلى حالة أفضل منها، ما لم تعقه تلك الأفكار المثبطة التي توسوس له أحيانًا بالعودة.

وأصبح الآن هو الذي يتقدم الآخرين في السير، وكانا مغتبطين لحماسه، حتى لقد حملا عنه الصندوق بالتناوب دون أن يطلب إليهما ذلك، ولم يستطع كارل أن يتبين كيف أمكنه أن يحقق لهما تلك السعادة، وكانوا قد بلغوا الآن مكانًا مرتفعًا، وعندما كانوا يتوقفون هنا وهناك، كانوا ينظرون خلفهم إلى مشهد نيويورك وميناءها، وهو يمتد متسعًا تحتهم، وشاهدوا الجسر الذي يربط نيويورك ببروكلين، وكان معلقًا في رشاقة فوق النهر الشرقي، ولو ضيق المرء حدقتي عينيه لبدا له ذلك الجسر وكأنه يرتعش، وكان يبدو خاليًا من الحركة، وتحته امتد لسان أملس من الماء، وكانت كلتا المدينتين الهائلتين تقومان هنالك خاليتين، وبلا معنى، وكان من الممكن تمييز المنازل الهائلة من المنازل الصغيرة المنخفضة، وربما كانت الحياة تمضي على عادتها في أعماق الشوارع غير المرئية، إلا أنهم لم يكونوا يشاهدون فوقهم في السماء سوى دخان خفيف، بدا مع ذلك وكأنه واقف لا يتحرك، وكان يتبدد في سهولة، وكان الهدوء قد عاد إلى الميناء، الذي يعد أكبر موانئ العالم، وكان في مقدور المرء أن يتوهم من حين لآخر، ربما تحت تأثير تذكره لمنظر قريب العهد، أنه يرى باخرة تمخر العباب على مسافة قريبة من الميناء، إلا أنه كان

من الصعب تتبع تلك الباخرة وقتًا طويلًا؛ لأنها كانت تخرج عن مجال الرؤية، ولا يعود في الإمكان رؤيتها ثانية.

وقد رأى ديلامارش وروبنسون أشياء كثيرة في وضوح، وكانا يشيران إلى اليمين وإلى اليسار، وأذرعهم ممتدة تتحرك فوق الميادين والحدائق التي ذكروها بأسمائها، ولم يفهما كيف قضى كارل شهرين في أمريكا، ولم يكد يرى رغم ذلك سوى شارع واحد فقط من المدينة، وقد وعداه بأن يصحباه إلى نيويورك، عندما يحصلان على المال في باترفورد، وأن يتيحا له رؤية كل المشاهد التي تستحق الرؤية، وأماكن التسلية والمتعة بالطبع أيضًا، وعندما بلغ به التفكير إلى هذا الحد، بدأ روبنسون يتغنى بأعلى صوته بأغنية شاركه فيها ديلامارش بالتصفيق، وأدرك كارل أنها كانت أحد ألحان الأوبرا المعروفة في وطنه، وقد سره سماعها في ترجمتها الإنجليزية كما لم يتمتع بسماعها من قبل في بلده، وهكذا فقد كونوا جوقة صغيرة في الهواء الطلق، اشتركوا فيها جميعًا، وبقيت المدينة التي كان عليها أن تشاركهم الاستمتاع بذلك اللحن في لا مبالاتها تحت أقدامهم.

وتساءل كارل في إحدى المرات عن موقع وكالة جيكوب، فدفع ديلامارش وروبنسون بأصبعيهما في الهواء مباشرة يشيران إلى الموقع، وربما إلى موقع آخر يبعد عنه بعديد من الأميال، وعندما استأنفوا سيرهم ثانية سألهما كارل: متى يمكنهم أن يعودوا إلى نيويورك، إذا تمكنوا من الحصول على عمل؟ وأجابه ديلامارش قائلًا: إن بإمكانهم أن يعودوا إليها في خلال شهر، فالعمل متوافر في باترفورد والأجور مرتفعة، وسيضعون نقودهم بالطبع في رأسمال مشترك، حتى يمكن أن يختفي الفرق الذي قد

تسببه الصدفة بين دخولهم، كما ينبغي أن يحدث بين الأصدقاء، ولم ترق لكارل فكرة الرأسمال المشترك، على الرغم من أن أجره كصبي سيقل كثيرًا بالطبع عن أجر العامل الماهر، واستأنف روبنسون الحديث قائلًا: إنهم على أية حال إذا لم يوفقوا في الحصول على عمل في باترفورد، فسوف يتجولون بطبيعة الحال في أماكن أبعد من باترفورد، وربما وجدوا عملًا في المزارع، أو ربما حاولوا الحفر بحثًا عن الذهب في كاليفورنيا، وقد أعجب كارل بهذه الفكرة الأخيرة، بعدما سمعه من حكايات روبنسون عن مناجم الذهب.

تساءل كارل، الذي لم يكن مستعدًا لمزيد من الرحلات المرهقة المشكوك في نتائجها، قائلًا لروبنسون: لكن لماذا تعمل ميكانيكيًّا إذا كنت ترغب في العمل في حقول التنقيب عن الذهب؟

فأجابه روبنسون قائلًا: «لماذا أعمل ميكانيكيًّا؟ لكيلا أموت جوعًا، ومع ذلك فالأموال تتدفق وفيرة في حقول التنقيب عن الذهب».

قال ديلامارش: «كانت تتدفق في وقت من الأوقات».

فقال روبنسون: «ولا تزال تتدفق الآن» وراح يحكي حكايات عن أناس لا حصر لهم من معارفه، أصبحوا هناك الآن من الأثرياء، وما زالوا يقيمون هناك، إلا أنهم لم يعودوا في حاجة بالطبع إلى أن يعملوا الآن، لكنهم سيساعدونه على أن يحقق الثراء لصداقتهم القديمة به، وسيساعدون أصدقائه هم أيضًا بالطبع.

قال ديلامارش: «سنجد أعمالًا في باترفورد دون شك!» وعبر بقوله هذا عن رغبة كارل، مع أن هذا القول لم يكن أمرًا مؤكدًا كل التأكيد.

وتوقفوا في أثناء اليوم مرة عند أحد المطاعم، وجلسوا خارجه في الهواء الطلق، إلى مائدة بدت لكارل وكأنها قد صنعت من الحديد، وأكلوا لحمًا مسلوقًا كان من الصعب تقطيعه إلى شرائح، فكانوا يفرمونه بسكاكينهم وشوكاتهم، وكان الخبز مصنوعًا على هيئة أسطوانة، وقد انغرزت في كل من الرغيفين سكين كبير، وقد ضمت الوجبة أيضًا خمرًا أسود اللون كان يحرق الحلق، إلا أن ديلامارش وروبنسون كانا يستسيغان شربه، وقد ظلا يرفعان كوبيهما بعديد من الأنخاب، ويقرعان الكوبين عاليًا في الهواء من حين لآخر، وإلى مائدة مجاورة كان يجلس بعض العمال في قمصان صفراء، يتناولون نفس الشراب، وكانت العربات تمر من أمامهم بأعداد كبيرة، وتثير الغبار فوق المائدة، وكانت صحف كبيرة توزع على الجالسين، وتثور مناقشات حادة حول إضراب قام به عمال البناء، وكان اسم «ماك» يتردد كثيرًا في خلال تلك المناقشات، وتساءل كارل عن صاحب الاسم، وعلم أنه والد «ماك» الذي يعرفه، وأنه أكبر مقاول للمباني في نيويورك، وقيل إن هذا الإضراب قد يكلفه عدة ملايين، وأنه يهدد وضعه المالي بالخطر، ولم يصدق كارل كلمة واحدة مما كان يقوله هؤلاء الناس المضللون، الحانقون.

وقد أفسد استمتاع كارل بتلك الوجبة قلقه لفكرة دفع ثمن تلك الوجبة بأكملها، وأيهم سوف يدفع، وكان من الطبيعي في رأيه أن يدفع كلٌّ منهم ثمن وجبته فقط، إلا أن ديلامارش وروبنسون كانا قد أشارا عرضًا إلى أن أجر مبيتهما عن الليلة الماضية قد أفرغ جيبيهما، ولم يكن لديهما ساعة أو خاتم أو أي شيء ليبيعاه، ولم يستطع كارل أن يواجههما بأنهما كانا قد احتجزا لنفسيهما جانبًا من ثمن بدلته، فقد كانت مواجهتهما بذلك تعد إهانة، وفراقًا إلى الأبد.

إلا أن ما أثار دهشة كارل أكثر، هو أن ديلامارش وروبنسون، لم يزعجا نفسيهما بأمر الدفع، بل على العكس، كانا في حالة معنوية مرتفعة، حتى أنهما راحا يحاولان مغازلة الجرسونة التي كانت تتحرك في خيلاء متبخترة من مائدة إلى أخرى، وكان شعرها يتهدل على كتفيها، وفوق حاجبيها وخديها، فكانت ترميه إلى الخلف بيديها، حتى تقدمت أخيرًا نحو مائدتهم، فظنا أنهما سيفوزان منها ببعض الكلمات الودية، لكنها وضعت يديها فوق المنضدة، وتساءلت: «من الذي سيدفع؟» فأشارت يدا ديلامارش وروبنسون بغاية السرعة إلى كارل، ولم يفاجأ كارل لأنه كان يتوقع ذلك، ولم يجد بأسًا من أن يدفع مرة حساب رفيقيه اللذين ينتظر منهما المساعدة بدوره، على الرغم من أنه كان يفضل بالطبع لو ناقشا معه الأمر بصراحة قبل اللحظة الحاسمة، وشغله كذلك أمر إخراج النقود من جيبه السري، فقد كان ينوي الاحتفاظ بنقوده لتنفعه في حالة الاحتياج البالغ، ولكي تنفعه الآن أيضًا، فيتمكن من أن يبدو ندًّا لصديقيه، كان التفوق الذي يتفوق به عليهما لامتلاكه هذا المال، وإخفائه كذلك عنهما، يبدو في وضوح تفوقًا راجحًا؛ لأنهما على عكسه، كانا قد عاشا في أمريكا منذ طفولتهما، ولأنهما كانا يتمتعان بالمهارة الكافية والخبرة التي تعينهما على كسب المال، ولأنهما لم يتعودا على حياة أفضل من الحياة التي يمارسانها الآن، ورأى كارل أن خطته في التوفير يجب ألا تتأثر لاضطراره إلى دفع الحساب الآن، فيمكنه ببساطة أن يستغنى عن ربع دولار، يضعه أمامهما فوق المنضدة، ويخبرهما بأنه هو كل ما يملك، وأنه كان ينوي أن يقتسمه معهما في طريقهم إلى باترفورد، ذلك أن ربع دولار يكفي جدًّا لرحلة على الأقدام، إلا أنه لم يكن يدري هل كان ما يحمله من العملات الصغيرة يكفي حتى يخرج من بينها الربع

دولار، ولقد كانت العملات الصغيرة التي يحملها موجودة على أية حال في تجويف جيبه السري هي أيضًا إلى جانب أوراق البنكنوت، وكان من الصعب أن يخرج ما يريده دون أن يفرغ كل محتويات جيبه فوق المنضدة، ولم يكن يريد أن يعرف رفيقاه شيئًا عن الجيب السري على الإطلاق، وبدا صديقاه مشغولين رغم ذلك لحسن الحظ بأمر الجرسونة، دون أن يشغلهما مطلقًا بالطبع، كيف سيتمكن كارل من إخراج النقود لدفع الحساب، وكان ديلامارش قد مد يده وسحب الجرسونة بينه وبين روبنسون متعللًا بأن عليها أن تكتب فاتورة الحساب، فلم يكن أمامها لكي تتخلص من توددهما العنيف إلا أن دفعت وجهيهما بعيدًا بباطن راحتيها، عندئذ جمع كارل وهو يتصبب عرقًا بإحدى يديه تحت المنضدة قطع النقود التي تحسسها، وأخرجها من جيبه السري قطعة بعد قطعة بيده الأخرى.

وشعر كارل بالامتنان لهما؛ لأنهما لم يذكرا شيئًا عن نقوده عندما غادر ثلاثتهم المطعم، وقرر كارل في إحدى اللحظات أن يعترف لهما بما يحمله من المال، لكنه تراجع عن ذلك في الحال؛ لأنه لم يجد ما يدعوه إلى هذا الاعتراف. وبلغوا عندما أوشك الليل على الحلول منطقة خلوية خصبة، وكانت الحقول حولهم على امتداد الرؤية لا نهاية لها، كانت تمتد فوق تلال منخفضة تكتسي بالخضرة الزاهية، وفيللات ريفية فاخرة تزين الطريق على الجانبين، وساروا عدة ساعات بين أسوار الحدائق المذهبة، وعبروا نفس المجرى البطيء عددًا من المرات، وكثيرًا ما كانوا يسمعون ضوضاء القطارات التي كانت تنطلق فوق الكباري المرتفعة.

كانت الشمس قد أوشكت أن تختفي خلف قمم الغابات البعيدة، عندما

صعدوا مرتفعًا مدرجًا، يعلوه دغل من الأشجار الكثيفة، ومددوا أنفسهم فوق العشب؛ لكي ينالوا شيئًا من الراحة بعد رحلتهم الطويلة، استلقى ديلامارش وروبنسون فوق العشب في استرخاء تام، وجلس كارل وأخذ يرقب الطريق الذي كانوا يرتفعون فوق مستواه ببضع ياردات، وإلى السيارات التي كانت تنطلق فوقه بخفة، والواحدة خلف الأخرى، كما كانت تنطلق طوال اليوم، وكان عددًا هائلًا منها ينطلق باستمرار من مكان ما بعيدًا كل البعد، بينما تنتظر سيارات أخرى في مثل عددها في مكان بعيد آخر، ولم ير كارل طوال اليوم كله أن سيارة منها قد توقفت ولا رأى راكبًا واحدًا هبط من إحدى تلك السيارات.

واقترح روبنسون أن يقضوا الليل في هذا المكان؛ لأنهم كانوا مجهدين غاية الإجهاد، ولأنهم سيتمكنون بمبيتهم هنا أن يواصلوا راحلتهم في الصباح الباكر، كما أنهم لن يجدوا علاوة على ذلك، مكانًا مناسبًا أرخص من هذا المكان لقضاء الليلة، قبل أن يهبط الظلام، وكان ديلامارش يرى نفس الرأي، فاضطر كارل إلى التصريح بأنه يحمل نقودًا تكفي لدفع أجر مبيتهم جميعًا في أحد الفنادق، وأجابه ديلامارش قائلًا: إنهم لا يزالون في حاجة إلى النقود، وأنه يحسن الاحتفاظ بها في الوقت الحاضر، لم يحاول إخفاء حقيقة أنهما كانا يتطلعان إلى الاستعانة بنقود كارل، ومضى روبنسون بعد قبول اقتراحه الأول، فاقترح اقتراحًا آخر، قائلًا إن عليهم قبل أن يتأهبوا للنوم، أن يتناولوا وجبة كاملة؛ لكي تجدد نشاطهم في الصباح، وأن على أحدهم أن يذهب ليحضر طعامًا لثلاثتهم من الفندق القريب الذي يقوم في الطريق الرئيسي، ويحمل اللافتة المضاءة التي كتب عليها «الفندق الغربي»..

ولما كان كارل أصغر الثلاثة، ولم يبد أي من الآخرين استعداده للقيام بهذه المهمة، فقد تطوع كارل من فوره بأن يقوم هو بها، وانطلق عبر الشارع في طريقه إلى الفندق، بعد أن أعلن الآخران أنهما يريدان لحم خنزير، وخبزًا، وبيرة.

ولابد أنهم كانوا على مقربة من إحدى المدن الكبيرة؛ لأن أولى ردهات الفندق التي دخلها كارل كانت تمتلئ بضوضاء حشد صاخب، وكان يقف بداخل البوفيه، الذي كان يمتد بطول تلك الردهة على الجانبين، عدد كبير من السفرجية كانوا يرتدون مرايل بيضاء، ويندفعون بلا توقف هنا وهناك، دون أن يتمكنوا من تلبية كل طلبات زبائنهم الذين نفد صبرهم؛ فارتفعت اللعنات في أصوات صاخبة، وكانت دقات القبضات فوق المائدة تتعالى دون توقف من جميع الجهات، ولم يلق أحد بالًا إلى كارل، ولم يوجد أي نوع من أنواع الخدمة في الصالون بأكمله، وكان على الزبائن الذين تجمعوا إلى موائد صغيرة، كانت تتسع كل منها لثلاثة أشخاص تقريبًا، أن يبحثوا بأنفسهم عما يريدونه في البوفيه، وفوق كل مائدة كانت تستقر زجاجة كبيرة ممتلئة بالزيت أو الخل أو شيء من هذا القبيل، وكان الزبائن يصبون شيئًا من تلك الزجاجة فوق الطعام الذي يحضرونه من البوفيه قبل أن يتناولوه، فلو استطاع كارل أن يبلغ ذلك البوفيه أولًا، حيث ستواجهه الصعوبات الحقيقية بعد ذلك؛ لكثرة عدد الزبائن الذين كانوا يتزاحمون عليه، فربما استطاع أن يشق لنفسه طريقًا بين تلك الموائد التي لا حصر لها، ولم يكن ليصل إلى شيء من هذا بالطبع مهما حرص دون أن يتسبب في كثير من الإزعاج للزبائن، الذين كانوا يتقبلون مع ذلك أي إزعاج بتبلد تام، وحتى عندما اندفع

كارل بعنف بجانب إحدى تلك الموائد فقلبها رأسًا على عقب، مع ثقته بأنه لم يكن هو السبب في انقلابها، ثم اعتذر دون أن يفهم أحد على ما يبدو معنى لهذا الاعتذار، كما أنه لم يتمكن هو أيضًا من إدراك هدف تلك الصيحات التي حاصرته في هياج، لم يجد عند البوفيه مكانًا غير بضع بوصات قليلة في صعوبة بالغة، وظل مختفيًا في الزحام لفترة طويلة؛ لأن مرافق الرجال كانت تدفعه من كلا الجانبين، وبدا كما لو كان التقليد المتبع هنا هو أن تضع مرفقك على إفريز البوفيه، وتسند رأسك على يدك، ولم يستطع كارل أن يدفع ذكرى الدكتور كرامبال مدرس اللغة اللاتينية من خياله وكيف كان يكره ذلك الوضع، وكيف كان ينسحب في هدوء ويضرب على غير توقع، مرفقك من فوق الدرج مازحًا، بالمسطرة التي كانت تظهر فجأة من حيث لا تدري.

كان كارل قد انضغط إلى حافة إفريز البوفيه؛ لأنه ما كاد يبلغه حتى وضعت مائدة خلفه، وظلت إحدى القبعات تتحرك خلف ظهره كلما انحنى صاحبها إلى الخلف قليلًا في أثناء حديثه، وبدا كذلك أن الأمل في حصوله على أي شيء من هؤلاء الجرسونات كان قد تلاشى، حتى بعد أن انصرف جاراه الشرسان، وهما يحملان ما طلباه، وتمكن كارل مرة أو مرتين من أن يجذب مريلة أحد الجرسونات عبر حاجز البوفيه، إلا أن الجرسون كان يندفع مخلصًا مريلته من بين أصابع كارل في ضيق، ولم يتوقف واحد منهم ليستمع إليه، مع أنهم لم يكونوا مشغولين إلا بمجرد الاندفاع هنا وهناك، فلو كان أمكن وجود شيء من المأكولات المطلوبة في متناول يد كارل، لحمل ما يريده منها، وسأل عن الثمن، ثم دفعه وتخلص من ذلك الزحام

وهو يتنفس الصعداء، لكن لم يكن أمامه سوى الأطباق التي تمتلئ بالأسماك الشبيهة بالرنجة بجوانبها القاتمة، التي تشع بلون ذهبي عند حوافها، وربما كانت تلك الأطباق مرتفعة الثمن، مع أنها لم تكن لتغني من جوع، وكان أمامه كذلك كثير من زجاجات الروم، إلا أنه لم يرغب في أن يحمل الروم إلى صديقيه؛ لأنهما كانا يتناولان المشروبات الروحية الشديدة كلما واتتهما الفرصة، ولم تكن عند كارل أدنى رغبة في تشجيعهما على التمادي في ذلك.

وهكذا لم يبق أمام كارل إلا أن يبحث عن مكان آخر يمكنه أن يحصل منه على طلبه، فعاد أدراجه ثانية، إلا أن الوقت كان قد تقدم بصورة واضحة، وكانت الساعة المعلقة على الحائط المواجه، تلك الساعة التي كان على المرء أن يدقق النظر إليها حتى يتبين في وضوح عقربيها من خلال الدخان المتكاثف، كانت تشير إلى ما بعد التاسعة، إلا أن بقية الحاجز الذي كان أمام البوفيه كان أكثر ازدحامًا بالزبائن من المكان الذي كان يقف فيه من قبل، ذلك المكان المنعزل في ركن الردهة، وظلت الردهة تزدحم أكثر فأكثر كلما تقدم الوقت، وظل الزبائن الجدد يتدافعون وهم يشقون طريقهم عبر الباب الرئيسي وتتزايد بازديادهم صيحات التهليل المرتفعة، وفي أماكن متعددة أخلى بعض الزبائن الإفريز الذي أمام البوفيه في جرأة، وجلسوا فوقه وراحوا يتبادلون الشراب، وقد كان ذلك الإفريز الذي جلس فوقه هؤلاء، هو أفضل الأماكن في تلك الردهة على الإطلاق، فمن فوقه كان يمكنك أن تشمل الردهة كلها بنظرتك.

وظل كارل يتقدم تحت ضغط الزحام إلا أن أمله في الحصول على أي شيء كان قد تلاشى تمامًا، ووجه كارل اللوم إلى نفسه؛ لأنه تطوع بأداء هذه

المهمة، دون أن يكون على دراية بالأحوال هنا على الإطلاق، ولسوف يصرخ صديقاه في وجهه- ومن حقهما أن يفعلا ذلك- وربما تبادر إلى ذهنهما الظن بأنه لم يحضر معه شيئًا فقط لمجرد الاحتفاظ بنقوده لنفسه، وكان قد بلغ جانبًا من جوانب الردهة رأى فيه أطباقًا ممتلئة باللحم الساخن، والبطاطس المسلوقة تغطي كل الموائد، وينهمك الزبائن في التهامها، فلم يفهم كيف تمكن هؤلاء الزبائن من الحصول على تلك الأطباق.

ثم لمح أمامه على بعد بضع خطوات سيدة مسنّة، كان يبدو عليها بوضوح أنها تتبع هيئة موظفي الفندق، كانت تلك السيدة تتحدث وتضحك مع أحد الزبائن، وظلت في أثناء حديثها تغرز دبوسًا في شعرها، وقرر كارل في الحال أن يتقدم إلى تلك المرأة بطلباته؛ لأنها كانت تقف متميزة كاستثناء وسط الهرج المختلط، ولأنها كانت هي المرأة الوحيدة في الردهة كلها، ولسبب بسيط آخر هو أنها كانت هي الوحيدة من بين موظفي الفندق التي استطاع كارل أن يصل إليها، هذا إذا لم تندفع مبتعدة عنه لشئونها الخاصة عند أول كلمة يتوجه بها إليها، إلا أن العكس تمامًا هو ما حدث، فما كاد كارل يهم بالحديث إليها بل يحوم حولها فحسب للحظات، عندما نظرت جانبًا ولمحته حتى قطعت حديثها- كما يحدث غالبًا في خلال مناقشة من المناقشات- لتسأله في رقة، وفي لغة إنجليزية واضحة كوضوح الإنجليزية التي في «كتاب القواعد» إن كان يريد شيئًا.

قال كارل: «نعم، في الحقيقة، فلا يمكنني أن أحصل على شيء من أي مكان في هذه الردهة».

قالت: «إذن تعال معي يا بني»، ثم ودعت محدثها الذي رفع لها قبعته

كدلالة على التأدب، لم تكن معقولة مطلقًا في هذه الردهة، ثم أخذت كارل من يده، ومضت نحو البوفيه فدفعت أحد الزبائن جانبًا، ورفعت مصراعًا إلى أعلى، وتقدمت بطول ممر خلف البوفيه، حيث كان عليهما أن يتفاديا الاصطدام «بالجرسونات» الذين كانوا يندفعون هنا وهناك بلا كلل، وفتحت بابًا مزدوجًا كان مخبئًا في الحائط، أدى بهما مباشرة إلى مخزن واسع رطب، وقال كارل لنفسه: «عليك أن ترقب كيف تجري الأمور في هذه الأماكن».

وسألته المرأة وهي تنحني إليه في حنان: «حسنًا ماذا تريد؟» كانت غاية في البدانة حتى أن جسدها ارتعش عندما انحنت، إلا أن وجهها كان بالمقارنة إلى جسدها رقيق التكوين، وأحس كارل وهو يتطلع إلى الأنواع التي لا حصر لها من المأكولات التي رصت في عناية فوق الأرفف، والمناضد، بإغراء هذه الأصناف العديدة يدفعه إلى محاولة التفكير في وجبة أخرى يختارها من وحي اللحظة وأن يحملها بدلًا من طلبه الأصلي، خاصة أنه قد يحصل عليها بثمن رخيص إلى حد ما من تلك السيدة الواسعة النفوذ، إلا أنه في النهاية لم يذكر شيئًا سوى لحم الخنزير، والخبز، والبيرة، ولم يمكنه أن يذكر شيئًا آخر أفضل من هذه الأشياء.

تساءلت المرأة: «ألا تريد شيئًا آخر؟».

فأجابها كارل قائلًا: «لا شكرًا.. إلا إنني أريد كمية تكفي ثلاثة أشخاص».

وعندما سألته المرأة عمن يكون الآخران؟ أخبرها كارل في كلمات قليلة مختصرة عن رفيقيه، وأحس بشيء من السرور لتوجيهها بعض الأسئلة إليه.

قالت المرأة: «لكن هذا الطعام هو وجبة السجون!»، كانت تنتظر منه فيما يبدو أن يطلب شيئًا آخر، إلا أن كارل الذي أصبح يخشى أن ترفض هذه المرأة ثمن الوجبة وأن تمنحه إياها كهدية، ظل صامتًا.

قالت المرأة: «لن يستغرق إعداد هذا الطلب وقتًا طويلًا». وتقدمت نحو إحدى المناضد، في نشاط غريب على سيدة في مثل بدانتها، وقطعت بسكين طويل رفيع حاد قطعة كبيرة من لحم الخنزير تمتلئ في غزارة ببقع الدهن، وتناولت رغيفًا من فوق أحد الرفوف، ورفعت ثلاث زجاجات بيرة من الأرض ووضعتها جميعًا في سلة خفيفة من القش ناولتها إلى كارل، وأوضحت له بينما كانت تفعل ذلك أنها قد أحضرته إلى هنا لأن طعام البوفيه على الرغم من أنه طعام دسم بالفعل، إلا أنه يفقد طزاجته بسبب الدخان والبخار اللذين تمتلئ بهما الردهة، إلا أن أي طعام يعد طعامًا جيدًا بالنسبة لهؤلاء الذين في الخارج، وقد أصيب كارل بالذهول البالغ عندئذ؛ لأنه لم يكن يدري كيف تمكن من أن يحوز مثل تلك المعاملة الخاصة، وفكر في رفيقيه اللذين لم يكونا ليبلغا هذا المخزن على الإطلاق، على الرغم من خبرتهما الأمريكية، بل كان عليهما أن يقنعا بطعام البوفيه الذي لا طعم له. لم تكن ضوضاء حجرة الصالون تصل مطلقًا إلى هنا، وربما كانت الجدران سميكة للغاية حتى تحتفظ تلك الحجرة المقبية بهذه الرطوبة، وكان كارل يمسك الآن بالسلة المصنوعة من القش في يده، وكانت قد انقضت بضع لحظات، إلا أنه لم يفكر لا في الدفع ولا في الانصراف إلا عندما همت المرأة بأن تضيف إلى السلة- كهبة- زجاجة شبيهة بتلك الزجاجات التي تستقر فوق الموائد في الخارج، عندئذ تحرك كارل، وهو يرفضها في رجفة.

وتساءلت المرأة: «هل أمامك رحلة طويلة أخرى أبعد من هنا؟» فأجابها كارل قائلًا: «إلى باترفورد».

فقالت المرأة: «لكن هذه الرحلة رحلة شاقة أخرى عليك أن تقطعها».

قال كارل: «إنها رحلة تستغرق يومًا آخر».

فقالت المرأة: «ألا تستغرق أكثر من ذلك؟».

قال كارل: «أوه.. لا».

ورتبت المرأة بعض الأشياء فوق المنضدة، ودخل أحد السفرجية وتطلع حوله متسائلًا، فأشارت له إلى قصعة هائلة كانت تستقر فوقها كومة عالية من السردين، وقد نثر فوقه قليل من البقدونس فحملها السفرجي عندئذ إلى داخل الصالون بين يديه المرفوعتين.

وتساءلت المرأة قائلة: «ولماذا تقضي الليلة في الهواء الطلق؟لدينا هنا متسع لك، فتعال وأقض الليلة معنا في الفندق».

وبدت الفكرة مغرية لكارل جدًّا، وخاصة بعد أن قضى الليلة السابقة مرهقًا غاية الإرهاق، فقال في تردد لكن في شيء من الفخر: «إن أمتعتي هناك في الخارج».

فقالت المرأة: «عليك إذن أن تحضرها إلى هنا، فليست عقبة تعوقك عن المجيء».

فقال كارل: «لكن ماذا عن رفيقيّ»، وكان يدرك بالفعل أنهما عقبة دون أدنى شك.

قالت المرأة: «يمكنهما أن يقضيا الليلة هنا أيضًا، بالطبع، فتعال لا تكن

مُتعِبًا إلى هذا الحد!».

قال كارل: «إن صديقيّ رفيقان لا بأس بهما، إنهما الآن ليسا في غاية النظافة».

فتساءلت المرأة فى تجهم: «ألم تلاحظ القذارة في الصالون، إننا مستعدون تمام الاستعداد لأسوأ الحالات».. حسنًا، سوف أخلي ثلاثة أسِرَّة فى الحال، فقط أخشى ألا يوجد مكان إلا فوق السطح؛ لأن الفندق مكتظ بالنزلاء، ولقد كان عليّ أن أنتقل إلى حجرة بالسطح أنا أيضًا، ولكنها على أيّة حال أفضل من قضاء الليلة فى الخارج.

قال كارل: «لا يمكنني أن أحضر صديقيّ هنا»، وتخيل بنفسه الضجة التي سوف يحدثها الرجلان في ممرات الفندق الفخم، وسوف يتسبب روبنسون فى تلطيخ كل شيء، ولن يتردد ديلامارش فى معاكسة هذة المرأة نفسها».

قالت: «لست أدري لماذا لا يبدو ذلك ممكنًا! ولكن إذا كنت تصر على ذلك، فاترك إذن صديقيك، وتعال بمفردك».

قال كارل: لن يحدث ذلك إنهما صديقاي، ولا يمكنني إلا أن أرتبط بهما».

قالت المرأة وهى تدير عينيها بعيدًا عنه: «إنك عنيد جدًّا، فعندما يعاملك الناس، معاملة طيبة، ويبدون شيئًا من الاهتمام بأمرك، تفعل أنت كل ما في وسعك لكي تعوقهم عن ذلك».

وأدرك كارل ذلك كله، إلا أنه لم يجد مخرجًا، وعلى هذا فقد قال:

- أشكرك غاية الشكر على كرمك، ثم تذكر إنه لم يدفع ثمن طلباته، فسأل عن المبلغ الذي عليه أن يدفعه؟

قالت المرأة: يمكنك أن تدفع لي عندما تعيد إليَّ السلة، ولابد أن تعيدها إليَّ فى صباح الغد على الأكثر».

قال كارل: «أشكرك..» وفتحت له بابًا يؤدي مباشرة إلى الخارج، وقالت له وهو يهم بالخروج منحنيًا: «طابت ليلتك.. وإن كنت لم تفعل ماكان يجب عليك أن تفعله..» وعندما أصبح على بعد بضع ياردات قليلة، صاحت خلفه مرة أخرى قائلة: «إلى صباح الغد».

وعندما أصبح في الشارع، سمع مرة أخرى الصخب الشديد الصادر من الصالون، وكان يختلط الآن بزئير الرياح، وكان سعيدًا لأنه لم يخرج عن طريق الصالون المزدحم، وكانت طوابق الفندق الخمسة مضاءة لحظتها وقد أنارت الطريق أمام الفندق حتى الجانب الآخر، وكانت السيارات تمرق فى الطريق، وإن لم تكن تتتابع فى استمرار، إلا أنها كانت تبدو أسرع منها فى أثناء النهار، وهى تتحسس طريقها بواسطة الأشعة البيضاء التي تصدر عن مصابيحها الأمامية، تلك المصابيح التي كان ضوؤها يشحب فى المنطقة المضاءة أمام الفندق؛ لكي يتوهج مرة أخرى عندما تندفع بعيدًا فى داخل الظلام.

وجد كارل صديقيه مستغرقين في النوم، إلا أنه كان منشغلًا بما هو أهم من ذلك، وبينما كان يهم لحظتها بوضع الطعام الذي أحضره بصورة مغرية فوق قطعة من الورق، ويعد كل شيء بصورة كاملة قبل أن يوقظ صديقيه، لمح فى فزع صندوقه الذي كان قد تركه مغلقًا فى سلام، مفتوحًا وحوله فوق العشب تتناثر حوالي نصف محتوياته.

صاح قائلًا: «انهضا، لقد مر اللصوص من هنا، وأنتما مستغرقان فى النوم!».

تساءل ديلامارش: «لماذا؟ هل فقد شيء؟» لم يكن روبنسون قد استيقظ تمامًا لكن امتدت يده على الرغم من ذلك إلى البيرة.

صاح كارل: لست أدري، إلا أن الصندوق مفتوح، وإنه لإهمال بالغ أن تستغرقا فى النوم، وتتركا الصندوق هنا تحت رحمة من يشاء!».

وضحك ديلامارش وروبنسون، وقال ديلامارش: «إذن فلا تتغيب طويلًا مرة أخرى فى أي مكان، إنها لم تكن سوى خطوة أو خطوتين إلى الفندق، ومع ذلك فقد استغرقت منك ثلاث ساعات أنفقتها لكي تذهب إلى الفندق وتعود ثانية، ولقد كنا جائعين، وظننا إنك ربما كنت تحتفظ بشيء من الطعام فى داخل الصندوق، ولهذا فقد داعبنا القفل حتى انفتح، إلا أننا لم نجد شيئًا بداخله في النهاية، ومن السهل إعادة أشيائك إلى داخله مرة أخرى».

قال كارل: «هذا هو الأمر إذن، كان يحدق فى السلة التي أفرغت فى الحال، ويستمع إلى الضجة الغريبة التي كان يحدثها روبنسون، وهو يشرب، لأن البيرة بدت وكأنها تغطس إلى أسفل حلقه، ثم تفور إلى أعلى مرة أخرى فى صوت كالصفير قبل أن تهبط إلى معدته».

تساءل عندما هدأ الآخران ليلتقطا أنفاسهما: «هل نلتما كفايتكما الآن؟».

فتساءل ديلامارش: «لماذا.. ألم تتناول عشاءك في الفندق؟» كان قد اعتقد أن كارل يطالب بنصيبه في الطعام.

وقال كارل، وهو يتجه نحو صندوقه: «إذا أردتما المزيد، فأسرعا إذن!».

قال ديلامارش لروبنسون: «يبدو عليه الحنق!».

فقال كارل: «لست حانقًا، لكن هل تعتقد أنه من الصواب أن تفتحا صندوقي عنوة، وتطوحا بحاجياتي هنا وهناك في أثناء غيابي؟ إنني أعلم أن على المرء أن يتوقع الكثير من أصدقائه، وكنت قد تهيأت لذلك، إلا أن هذا قد فاق كل ما توقعته، وسوف أذهب لقضاء الليلة في الفندق ولن أرافقكما إلى باترفورد، فانتهيا من تناول العشاء بسرعة لأنني يجب أن أرد السلة!».

قال ديلامارش: «استمع إليه الآن يا روبنسون، إن أسلوبه في الحديث إلينا أسلوب رائع، إنه ألماني بالفعل ولقد حذرتني أنت منه في البداية، إلا أنني أحمق طيب القلب، وعلى هذا فقد سمحت له بالحضور معنا رغم ذلك، لقد منحناه ثقتنا، وصحبناه معنا طوال النهار وأضعنا نصف يوم على الأقل بسببه، والآن- لمجرد أن شخصًا ما في الفندق قد خدعه- يدير لنا ظهره، يدير لنا ظهره ببساطة، لكن لأنه ألماني كاذب فهو لا يفعل ذلك صراحة، لكنه يتخذ صندوقه علة، ولأنه ألماني خبيث فهو لا يتركنا دون أن يطعننا في شرفنا، ويتهمنا باللصوصية، لمجرد أننا لهونا قليلًا بصندوقه».

قال كارل، وهو يعيد أشياءه داخل الصندوق، دون أن يستدير نحوهما:

- كلما تحدثت أكثر، بدا لي فراقي لكما يسيرًا، إنني أعرف تمامًا معنى الصداقة، ولقد كان لي أصدقاء في أوروبا أيضًا، إلا أن أحدًا منهم لم يحدث أن اتهمني بأنني قد سلكت معه سلوكًا زائفًا أو حقيرًا، ولست على اتصال بأي منهم الآن بالطبع، لكن لو أتيح لي الرجوع مرة أخرى إلى أوروبا فسوف يسرون لرؤيتي، وسوف يرحبون بي في الحال كصديق، أما بالنسبة لكما يا ديلامارش وروبنسون فأنا أبدو وكأنني قد خدعتكما، هل فعلت

بعد أن تصرفتما معي بهذا الكرم- ولن أنسى ذلك أبدًا- فاصطحبتماني، ووعدتماني بالعمل كصبي في باترفورد، إلا أن هذا ليس هو الأمر بالمرة، وإنني لا أنظر إليكما نظرة سيئة لأنكما لا تملكان شيئًا، إلا أنكما تحقدان على الأشياء القليلة التي أمتلكها، وتحاولان أن توجها إليَّ الإهانة بسببها، ولا يمكنني أن احتمل ذلك، لقد فتحتما صندوقي عنوة، ولم تقدما كلمة اعتذار واحدة بل إنكما توجهان إليَّ الشتائم بدلًا من ذلك، وتسبان جنسي أيضًا، وهذا ببساطة يجعل بقائي معكما مستحيلًا، وعلى الرغم من كل شيء فلا ينطبق عليك هذا الكلام يا روبنسون. في الحقيقة فلست ألومك على شيء سوى اعتمادك البالغ على ديلامارش.

قال ديلامارش: «والآن نراك..» وهو يتقدم نحو كارل، ثم يدفعه دفعة خفيفة، كما لو كان يؤكد قصده: «والآن نراك على حقيقتك، لقد ظللت طوال اليوم تركض خلفي، متعلقًا بذيل معطفي، وتفعل كل ما أفعله، وظللت صامتًا كالفأر، لكن الآن، لأن شخصًا ما في الفندق يؤازرك، بدأت في استعراض قوتك، إنك مخادع تافه، ولست واثقًا من أننا سنتحمل هذا النوع من الخداع، لست متأكدًا تمامًا من أننا سنضطرك إلى دفع ثمن ما تعلمته من مراقبتك لنا طوال اليوم، إننا سنتحمل هذا النوع من الخداع، إننا نحسده يا روبنسون، نحسده- هذا ما يقوله- على ممتلكاته، إن أجر يوم عمل واحد في باترفورد- ولا داعي لذكر كاليفورنيا- يتيح لنا أن نحصل على عشرة أضعاف ممتلكاتك الظاهرة لنا حتى الآن، وتلك التي تخفيها أيضًا في بطانة ذلك المعطف، فاحفظ لسانك تمامًا».

ونهض كارل من أمام صندوقه، ورأى روبنسون يتقدم نحوه أيضًا وهو لا يزال تحت تأثير النعاس، إلا أنه كان منتعشًا قليلًا بتأثير البيرة، ثم قال: «إذا

بقيت هنا أكثر من ذلك، فربما حدث ما سوف يزيدني دهشة فوق دهشتي، ويبدو لي أنكما تنويان ضربي».

قال روبنسون: «لا يمكن أن يستمر صبر المرء إلى الأبد».

فقال كارل دون أن يرفع عينيه عن ديلامارش: «يجب عليك أن تظل بعيدًا عن هذا الموضوع يا روبنسون، فإنك في أعماقك تعلم أنني على حق، إلا أنك قد نهضت لتتظاهر بتأييدك لديلامارش».

تساءل ديلامارش: «لعلك تفكر في أن ترشوه».

قال كارل: «لم يخطر ببالي، إنني سعيد لأنني سأترككما، ولا أريد أن أرتبط أكثر من هذا بأي منكما، ثمة شيء واحد فقط، أريد أن أقوله لكما وهو أنكما تلومانني لأنني أمتلك نقودًا أخفيها عنكما، فلنفرض إذن أن ذلك كان صحيحًا، فهل ليس من حقي أن أفعل ذلك مع أناس لم أعرفهم إلا منذ بضع ساعات قليلة فقط، وأليس السلوك الذي تسلكانه نحوي الآن هو الدليل الواضح على مدى صحة تدبيري».

قال ديلامارش لروبنسون: «اصمت»، على الرغم من أن روبنسون لم يكن قد تحرك، ثم قال لكارل: «بما أنك تستعرض تقديرك للأمانة هذا الاستعراض الزائد، فلماذا لا تدعم قليلًا أيضًا هذا التقدير بأن تفتح قلبك لنا على نحو ودي، وتخبرنا بصراحة لماذا تريد أن تذهب إلى الفندق؟».

وكان على كارل أن يتراجع خطوة نحو الصندوق، فقد اندفع ديلامارش حتى لاصقه، ولم يكن ديلامارش ليحيد عن غرضه، لهذا ركل الصندوق جانبًا، ثم تقدم خطوة أخرى، ودق قدمه فوق فوطة بيضاء، كانت ملقاة فوق العشب وردد سؤاله مرة أخرى.

وصعد المرتفع رجل يحمل في يده بطارية كهربائية قوية الضوء، وكان ظهوره إجابة مباشرة على سؤال ديلامارش، كان قادمًا من ناحية الطريق، ومتجهًا نحو الثلاثة، كان الرجل واحدًا من سفرجية الفندق، وعندما لمح كارل هتف قائلًا: «لقد بحثت عنك ما يقرب من نصف الساعة، وقد طفت بكل الأشجار التي على جانبي الطريق، فقد أرسلتني المديرة لأقول لك إنها تريد السلة التي أعارتك إياها».

قال كارل في صوت يرتعش من الهياج: «ها هي..».

وانتحى ديلامارش وروبنسون جانبًا متصنعين الوداعة، كعادتهما دائمًا عند ظهور أحد الغرباء ذوي المظهر الرقيق، والتقط السفرجي السلة وقال: «ولقد طلبت مني المديرة أيضًا أن أسألك إن كنت قد غيرت رأيك، وترغب في قضاء الليلة بالفندق، والسيدان أيضًا مسموح لهما بالمبيت، إذا رأيت أن تصحبهما معك.. إن السرر قد أعدت بالفعل لثلاثتكم، إن الجو دافئ الليلة بالفعل، لكن المرء يجب ألا يأمن المبيت في مكان كهذا، فأنت معرض دائمًا للثعابين».

قال كارل: «بما أن المديرة قد تكرمت بهذه الدعوة، فإنني أقبل دعوتها في النهاية».. وانتظر أن يقول رفيقاه شيئًا، إلا أن روبنسون ظل واقفًا هنالك في صمت تام، وكان ديلامارش يتطلع إلى النجوم، ويداه في جيبيّ بنطلونه، وكانا ينتظران أن يصحبهما كارل معه دونما جلبة.

قال السفرجي: «في هذه الحالة، فإنه عليَّ أن أصطحبك إلى الفندق بمفردك، وأن أحمل أمتعتك إلى هناك».

قال كارل: «أرجو أن تنتظر لحظة من فضلك»، وانحنى كارل ليعيد

الأشياء القليلة التي كانت متناثرة فوق العشب، إلى داخل الصندوق.

واعتدل فجأة، كان يبحث عن الصورة الفوتوغرافية التي كان قد وضعها فوق ملابسه في داخل الصندوق، دون أن يعثر لها على أي أثر، كل شيء آخر كان موجودًا بداخل الصندوق ما عدا تلك الصورة.

قال لديلامارش في توسل: «إنني لا أجد الصورة الفوتوغرافية!».

وتساءل ديلامارش قائلًا: «أي صورة؟».

قال كارل: «صورة والديّ».

فقال روبنسون: «إننا لم نر صورًا بداخل الصندوق مطلقًا يا مستر روسمان».

قال كارل: «إن هذا مستحيل بالفعل!»، واجتذبت نظراته الضارعة السفرجي فاقترب منه، وأضاف كارل قائلًا: «لقد كانت فوق السطح، والآن لا أثر لها، وأرجو ألا تكونا قد عبثتما بصندوقي هنا وهناك».

قال ديلامارش: «إننا لم نرتكب أي خطأ، ولم يكن هناك أي صور في الصندوق».

قال كارل للسفرجي الذي كان يبحث عن الصورة فوق العشب: «لقد كانت أهميتها بالنسبة لي تفوق كل ما عداها؛ ذلك لأنه لا يمكن تعويضها، فليس في إمكاني أن أحصل على صورة أخرى»، وعندما توقف السفرجي عن البحث اليائس، أضاف كارل قائلًا: «لقد كانت الصورة الوحيدة التي كنت أحملها معي لوالديّ».

فقال السفرجي عندئذ في صوت مرتفع، دون أدنى محاولة لتلطيف

الألفاظ:

– ربما أمكننا أن نفتش جيوب هذين السيدين.

قال كارل في الحال: «نعم، لابد لي من العثور على الصورة، لكن قبل تفتيش جيوبهما، دعني أقل لهما، إن من يعيد إليّ تلك الصورة طائعًا، ففي إمكانه أن يأخذ صندوقي بكل ما فيه».

وبعد لحظة من الصمت التام، قال كارل للسفرجي: «يبدو إن صديقيّ يفضلان تفتيش جيوبهما، إلا أنني مازلت عند وعدي بإعطاء الصندوق بكل ما فيه لمن توجد في جيبه الصورة، ولا يمكنني أن أفعل شيئًا أكثر من ذلك».

وشرع السفرجي في تفتيش ديلامارش، الذي بدا أن مهمة تفتيشه أصعب من مهمة تفتيش روبنسون الذي ترك كارل يفتش جيوبه بنفسه، قائلًا لكارل: إنه يجب تفتيشهما في وقت معًا، وإلا تخلص أحدهما من الصورة خلسة. وما إن وضع كارل يده في جيب روبنسون حتى عثرت أصابعه على تلفيعة تخصه لكنه لم يخرجها، ونادى على السفرجي قائلًا له: «لا تنتزع أي شيء يتصادف أن تجده في جيوب ديلامارش، بل اتركه له في مكانه، فلست أريد سوى الصورة، الصورة فقط».

ولامست يد كارل وهو يقوم بتفتيش جيب الصدر في سترة روبنسون، صدر الرجل المسترخي الساخن، فانتابته الخشية من أن يكون قد ظلم رفيقيه، وقد دفعه هذا الخاطر إلى أن يسرع في مهمته ما استطاع. لكن كان ذلك كله عبثًا، فلم يجد أثرًا للصورة لا في جيوب روبنسون، ولا في جيوب ديلامارش.

قال السفرجي: «شيء سيئ».

وأجابه كارل قائلًا: «لعلهما قد مزقا الصورة وألقيا بقصاصاتها بعيدًا، لقد كنت أحسبهما صديقين، إلا أنهما في أعماقهما لا يريدان لي سوى الشر، ولا ينطبق شيء من هذا على روبنسون، فلم يخطر له قط أن تلك الصورة تهمني إلى هذا الحد، وإنما يقع اللوم على ديلامارش».

وكان كارل يرى الآن السفرجي وحده بلمبته التي تضيء دائرة صغيرة أمامهما، في حين اختفى ديلامارش وروبنسون وكل شيء آخر خلفهما في ظلام حالك.

ولم يعد هناك مجال لدعوة الرجلين إلى الفندق مع كارل، ورفع السفرجي الصندوق فوق كتفه، والتقط كارل السلة وانطلقا في السير، وكان كارل قد بلغ الطريق عندما أفاق فجأة من أفكاره، فتوقف، وصاح في الظلام: «استمعا إليَّ، لو كانت الصورة مع أحدكما ورأى أن يحضرها إليَّ في الفندق، فمازال وعدي بإعطائه الصندوق قائمًا أيضًا في هذه الحالة، وأقسم أنني لن أهاجمه إطلاقًا».

لم يتلق ردًّا على ذلك، فقط كلمة مكتومة كان من الممكن سماعها كانت بداية صيحة كان روبنسون سيطلقها، إلا أن فمه أُغلق في الحال، أغلقه ديلامارش فيما يبدو، وانتظر كارل طويلًا، لعل الرجلين اللذين فوق المرتفع يغيران رأيهما، وصاح مرة، بعد مرة: «إنني مازلت هنا».

لكنه لم يتلق ردًّا، فيما عدا أن حجرًا تدحرج إلى أسفل لعله لم يكن قد سُدِدَ بإحكام..

الفصل الخامس

الفندق الغربي

واقتيد كارل عندما بلغ الفندق إلى أحد المكاتب، حيث كانت المديرة تملي خطابًا، وهي تمسك بمفكرة في يدها، على سكرتيرة شابة، كانت تجلس إلى آلة كاتبة. وكان الإملاء بالغ الدقة، والدقات الواثقة الخفيفة تتتابع فوق مفاتيح الآلة الكاتبة، التي كانت تتسابق مع دقات الساعة المعلقة فوق الحائط المقابل، التي كانت تُسمع فقط من حين إلى آخر، بينما عقرباها يشيران إلى ما بعد العاشرة والربع.

– هذا أنت! قالتها المديرة، وهي تغلق مفكرتها، وقفزت السكرتيرة واقفة، ووضعت الغطاء فوق الآلة الكاتبة، دون أن ترفع عينيها عن كارل في أثناء قيامها بتلك الحركات الآلية. كانت تبدو كتلميذة صغيرة، وكان معطفها مكويًّا في عناية، ومثنيًّا بالمكواة كذلك عند الكتفين، وكان شعرها مكومًا، ومرفوعًا إلى أعلى، وكان مما يثير الدهشة إلى حد ما، بعد ملاحظة هذه التفاصيل، أن ترى جاذبية وجهها! بعد أن انحنت للمديرة أولًا، ثم لكارل، غادرت الحجرة، وألقى كارل نظرة لا إرادية مستفسرة نحو المديرة.

قالت المديرة: «إن مجيئك شيء رائع في النهاية، وماذا عن صديقيك؟».

قال كارل: «إنني لم أحضرهما معي».

قالت المديرة، وكأنها تفسر الأمر لنفسها: «إنهما سيرحلان في الصباح المبكر جدًّا فيما أعتقد».

قال كارل في نفسه: لكن ألا تعتقد أن عليَّ أن أرحل مبكرًا أنا أيضًا في تلك الحالة؟ ولكي يضع حدًّا لهذا الالتباس، قال: «لقد افترقنا في ظروف سيئة».

وبدا ذلك للمديرة خبرًا سارًّا، فقد قالت: «إذن فأنت حر الآن؟».

قال كارل: «نعم، إنني حر»، وبدا وكأنه لا يوجد أي شيء آخر أتفه من حريته تلك.

تساءلت المديرة قائلة: «قل لي، ألا تحب أن تحصل على وظيفة هنا في الفندق؟».

قال كارل: «أحب جدًّا، إلا أنني لا أكاد أعرف شيئًا، فأنا مثلًا، لا يمكنني أن أستعمل الآلة الكاتبة!».

قالت المديرة: «لا أهمية لهذا، فسوف تُعطى لك وظيفة صغيرة تبدأ بها حياتك العملية، وسوف يكون شأنك بعد ذلك أن تشق طريقك إلى أعلى عن طريق الكد والانتباه، لكن مهما تكن الأحوال، فإنني أعتقد أنه من الخير لك، ومن الأصوب أن تستقر في مكان ما، بدلًا من التجول على غير هدى، كما تفعل الآن، فلست أعتقد أنك قد خلقت لشيء من هذا!».

قال كارل في نفسه: سوف يرضى خالي عن هذا أيضًا، وأومأ موافقًا، وتذكر في تلك اللحظة نفسها بأنه لم يقدم لها نفسه بعد، على الرغم من أن المديرة قد أبدت مثل هذا الاهتمام بأمره، فقال: «أرجو أن تغفري لي؛ لأنني لم أقدم لك نفسي حتى الآن، إن اسمي هو كارل روسمان».

– إنك ألماني، ألست كذلك؟

قال كارل: «نعم، لم يمض عليّ وقت طويل في أمريكا».

– من أي مكان أتيت إلى أمريكا؟

قال كارل: «من براغ، في بوهيميا».

صاحت المديرة قائلة بالإنجليزية في تحيز بالغ للألمان، وهي تفرد ذراعيها في الهواء:

– لقد توقعت هذا، إذن فنحن مواطنان، فاسمي هو جريتا ميتزلباخ وإنني من ڤيينا، وأعرف براغ جيدًا، فقد عملت نصف عام في «الإوزة الذهبية» في ميدان فنسلاوس، لقد توقعت ذلك بالفعل.

تساءل كارل قائلًا: «متى كان ذلك؟!».

– منذ سنوات بعيدة، بعيدة مضت.

قال كارل: «لقد هدم مبنى «الإوزة الذهبية» العتيق منذ عامين».

قالت المديرة: «حسنًا، حسنًا»، وهي مستغرقة تمامًا في أفكارها عن الأيام الماضية! لكنها فجأة انتعشت ثانية، فأمسكت بكلتا يدي كارل، وصاحت: «والآن وقد ظهر أنك مواطن من نفس وطني، فليس لك أن ترحل من هنا بأي حال من الأحوال، يجب ألا تسيء إليّ بذلك، فما رأيك مثلًا في

أن تعمل كعامل مصعد؟ فقط قلها تكن قد أصبحت عامل مصعد، ولو كنت قد اطلعت على شيء من طبيعة هذا البلد، لتحققت من أنه ليس من السهل الحصول على مثل هذه الوظيفة، فوظيفة عامل مصعد هي أفضل بداية في الحياة يمكن أن تحلم بها، فهي تتيح لك الاتصال المباشر بكل ضيوف الفندق، والناس تراك دائمًا، وتعهد إليك بالقيام ببعض المهام الصغيرة، وباختصار فلديك؛ الفرصة كل يوم لتحسين وضعك، وسوف أرتب كل شيء بنفسي فاترك الأمر لي».

قال كارل، بعد وقفة قصيرة: «أحب جدًّا أن أكون عامل مصعد بالفعل!»

كان من الحمق أن يتردد في قبول وظيفة عامل مصعد، نظرًا لدراسته الثانوية، فلديه هنا في أمريكا أكثر من سبب يدفعه إلى أن يخجل من دراسته الثانوية، وبالإضافة إلى ذلك، فكارل كان يُعجب دائمًا بعمال المصاعد، وكان ينظر إلى وضعهم باعتباره مجرد زينة.

تساءل بعد ذلك قائلًا: «ألا يتطلب هذا العمل الإلمام باللغة؟!».

– إنك تتحدث الألمانية، ولغتك الإنجليزية سليمة، حسنة. وهذا يكفي تمامًا.

قال كارل، الذي رأى أنه من الأفضل ألا يتجاوز عن هذا العمل الوحيد الذي يدعوه للفخر: «لقد تعلمت اللغة الإنجليزية فقط في خلال الشهرين ونصف الشهر التي انقضت على وجودي في أمريكا».

قالت المديرة: «إن هذا في حد ذاته يعد تزكية كافية! تذكرني بالصعوبات التي واجهتني عند بدء تعلمي اللغة الإنجليزية، كان ذلك بالطبع منذ ثلاثين

عامًا، ولقد كنت أتحدث عن ذلك بالأمس فقط، ذلك أن الأمس كان عيد ميلادي الخمسين»، وحاولت بابتسامة أن تقرأ في وجه كارل انطباعه عن مثل هذه السن الوقور.

قال كارل: «إنني أتمنى لك إذن مزيدًا من السعادة».

قالت وهي تهز يد كارل، وتتطلع في كآبة إلى تلك الجملة الألمانية العتيقة التي جاءت تلقائيًا على طرف لسانها: «حسنًا، إن السعادة هي دائمًا النفع»، ثم صاحت فجأة: «إنني أحتجزك هنا، ولابد أنك متعب.. ويمكننا أن نتحدث غدًا عن كل شيء بصورة أفضل، إن سروري بلقاء أحد مواطنيّ قد جعلني أنسى كل شيء آخر، هيا، سوف أدلك على حجرتك».

قال كارل: «أرجو أن تسمحي لي بخدمة أخرى- وهو يتطلع إلى التليفون الذي يستقر فوق المنضدة- من الممكن في صباح الغد أن يحضر لي صديقاي العابران هذان، صورة فوتوغرافية احتاجها جدًّا، فهل تتفضلين بأن تبلغي البواب تليفونيًا بأن يرسل الرجلين إليّ، أو أن يطلبني عندئذ حتى أهبط للقائهما؟».

قالت المديرة: «بلا شك، لكن ماذا لو سلما الصورة إلى البواب؟، وما هي هذه الصورة، لو كان لي أن أسأل؟».

قال كارل: «إنها صورة لوالديّ، ولكنني يجب أن أتحدث بنفسي إلى الرجلين».

ولم تجب المديرة بشيء أكثر من ذلك، وأبلغت أمرها تليفونيًا إلى البواب الذي ذكرت له رقم ٥٣٦، على أنه رقم حجرة كارل.

ثم سارا بعدئذ عبر باب يواجه باب المدخل، وعبر ممر قصير، حيث كان صبي مصعد، صغير السن يستند إلى درابزين أحد المصاعد، مستغرقًا في النوم!، قالت المديرة في رقة، وهي ترافق كارل إلى داخل أحد المصاعد: «قد نفعل ذلك نحن أيضًا!» ثم أضافت بينما يرتفع بهما المصعد إلى أعلى: «فيوم عمل يتراوح بين عشر واثنتي عشرة ساعة، هو بالفعل شيء كثير بالنسبة لطاقة صبي كهذا! إلا أن أمريكا بلد غريب، ولتأخذ هذا الصبي مثلًا، لقد أتى إلى هذا المكان منذ نصف عام فحسب، في رفقة والديه، وهو إيطالي، وهو يبدو الآن، وكأنه لا يتحمل العمل ببساطة، فعلى وجهه يرتسم الإرهاق، وهو ينام في أثناء أداء عمله، مع أنه بالطبع صبي مجتهد جدًّا.. لكن عليك فقط أن تمهله ستة أشهر أخرى، فسوف تراه قادرًا على احتمال عبء العمل في بساطة، وسوف يغدو رجلًا قويًّا، في خلال خمس سنوات أخرى، وفي وسعي أن أنفق الساعات الطوال في سرد مثل تلك الحالات، ولست أنت واحدًا من هؤلاء، لأنك بالفعل فتى قوي الآن، فأنت في السابعة عشر أليس كذلك؟!».

فأجاب كارل: «سوف أتم السادسة عشرة في الشهر القادم».

فقالت المديرة: «لم تبلغ السادسة عشرة بعد أيضًا؟ إذن فلست في حاجة إلى أن تخشى شيئًا!» وفي أعلى المبنى قادت كارل نحو حجرة كانت تبدو واحدة من غرف السطح، ذات سطح مائل ألا إنها كانت تبدو مريحة بالفعل وتضيئها لمبتان.

قالت المديرة: «لا تندهش للأثاث الذي في الحجرة، فليست هذه واحدة من غرف الفندق، لكنها إحدى غرفي الخاصة، ولدي ثلاث غرف

منها، وعلى هذا فلن تسبب لي مطلقًا أي ازعاج، وسوف أغلق الأبواب الداخلية التي توصل هذه الغرف بعضها ببعض، وهكذا يمكنك أن تخلو إلى نفسك، وغدًا ستحصل بالطبع على غرفة خاصة بك، كموظف جديد في الفندق، فلو كان صديقاك قد جاءا معك، لكنت قد وضعتكم معًا في الغرفة العلوية الواسعة، حيث ينام خدم الفندق، لكن لأنك بمفردك، فإنني أرى من الأفضل لك أن تبقى هنا، على الرغم من أنه لا يوجد سوى الأريكة لتستلقي فوقها، والآن نم في راحة، واستجمع نشاطك لعملك، ولن يكون الغد في مثل شدة اليوم، وقسوته».

- أشكرك شكرًا بالغًا حقًّا على عطفك.

قالت وهي تتوقف عند باب الحجرة: «انتظر، سوف أعمل ترتيبي بحيث لا يوقظك أحد في الصباح المبكر!»، واتجهت إلى باب جانبي يفتح إلى خارج الحجرة، وطرقته، صائحة، «تيريز!» فأجاب صوت السكرتيرة: «نعم يا مدام».

- عندما توقظيني في الصباح، فاذهبي إلى حجرتي عن طريق الممر، فثمة ضيف ينام في هذه الحجرة، وهو مرهق غاية الإرهاق، وابتسمت لكارل وهي تقول ذلك: «هل تسمعين؟!»

- نعم يا مدام.

- حسنًا إذن، طابت ليلتك.

- طابت ليلتك.

قالت المديرة، وهي تحاول أن تفسر الأمر لكارل: «لقد عانيت من النوم

السيئ لعدة سنوات، ولي في وضعي الحالي كل الحق في أن أرتاح، ولست احتمل الإزعاج في الحقيقة بأية صورة من الصور؛ لأن كل مخاوفي القديمة لا تزال تنتابني حتى الآن، وتحرمني من النوم، فلو قدر لي أن أستغرق في نومي في الساعة الثالثة صباحًا، فإنني أعتبر نفسي سعيدة الحظ، لكن لما كان عليّ أن أنهض بأعباء عملي في الخامسة.. أو الخامسة والنصف على الأكثر، فلابد من أن يوقظني شخص ما، ولابد له من أن يحاول إيقاظي في رفق بالغ، حتى لا يسبب لي مزيدًا من تلف الأعصاب، فأعصابي تالفة بالفعل غاية التلف.

وهكذا.. فتيريز توقظني، إلا أنني قد أخبرتك الآن بالفعل بكل شيء يمكن أن أخبرك به، ولم أذهب حتى الآن.. طابت ليلتك!» ومرقت إلى خارج الحجرة، على الرغم من ضخامة حجمها!

وكان كارل يريد أن ينام، فقد كان مرهق غاية الإرهاق طوال اليوم، ولم يكن ليتطلع إلى مكان مريح لينام فيه، أفضل من هذا المكان، لم تكن الغرفة غرفة نوم بلا شك، بل كانت غرفة معيشة المديرة، أو حجرة استقبالها على وجه التحديد، وكان ثمة وعاء للغسيل قد وضع خصيصًا من أجل استعمال كارل في تلك الليلة، إلا أنه لم يشعر برغبة في أن يمس أي شيء من محتويات الحجرة في تلك الليلة، كان يتطلع فقط إلى شيء من الإحساس بوجوده، وكان صندوقه هنالك في انتظاره، ولاشك أنه لم يوضع في مكان آمن كهذا المكان لمدة طويلة، وفوق بوفيه منخفض ذي أدراج ينتشر فوقه غطاء من الصوف كالشبكة كانت تستقر بضع صور فوتوغرافية في إطاراتها، وتوقف كارل أثناء تجوله في أنحاء الحجرة ليتطلع إليها.

كانت صورًا قديمة كلها تقريبًا لفتيات في ملابس عتيقة الطراز، غير مريحة، وكانت قبعة صغيرة محلاة بتاج تزين في إهمال رأس كل فتاة من تلك الفتيات، بينما كانت اليد اليمنى لكل منهم، تستند فوق مقبض شمسية، وكانت تلك الفتيات يواجهن من ينظر إلى صورهن، إلا أن عيونهن لم تكن لتلتقي بعينيه، وبين صور الرجال اصطدمت عينا كارل بصفة خاصة بصورة جندي شاب كان قد وضع قبعته فوق منضدة، وكان يقف منتصبًا بخصلات شعره الثائر، الأسود، ونظرة رضا مكبوتة، تنم عن عنجهية، ويبدو أن شخصًا أعاد تلوين أزرار ردائه بنقط من طلاء ذهبي، لعل هذه الصور كلها تكون قد جاءت من أوروبا، وكان من الممكن أن يتأكد كارل من ذلك بالتطلع إلى ظهر تلك الصور، إلا أنه لم يرغب في أن يمد يده إليها، وكان يود لو يضع صورة والديه في الغرفة التي يشغلها، على نحو تلك الصور الموضوعة هنا.

وكان كارل قد تمدد فوق الأريكة، وتأهب للنوم بعد أن اغتسل من قمة رأسه إلى أصابع قدميه، وكان قد فعل ذلك بغاية الهدوء؛ نظرًا لوجود الفتاة التي تجاوره في الغرفة، عندما خيل إليه أنه سمع طرقًا خفيفًا على أحد الأبواب، ولم يستطع أن يكتشف للوهلة الأولى على أي باب من الأبواب كانت تلك الطرقات، ولعلها كانت ضوضاء غير مقصودة، إلا أنها قد تكررت في الحال، ولم يكن كارل قد استغرق في النوم عندما تكرر ذلك الطرق فوق الباب وكانت طرقة واضحة الآن بكل تأكيد.. وظهر أن تلك الطرقة الأخيرة كانت على الباب المؤدي إلى حجرة السكرتيرة، ومشى كارل على أطراف أصابعه إلى الباب، وتساءل في رقة بالغة، حتى إذا كانت الفتاة التي في الغرفة الأخرى نائمة رغم ذلك الطرق، فلا يتسبب في أن يوقظها:

«هل تريدين شيئًا؟»

وجاءه الرد في الحال في نفس الصوت الخافت البالغ الرقة: «ألا تفتح الباب؟» إن المفتاح في الجانب الذي أمامك؟

قال كارل: «بلا شك، إلا أنني يجب أن أرتدي شيئًا من ملابسي أولًا».

مضت فترة قصيرة من الصمت، ثم قالت الفتاة: «لست في حاجة إلى أن تفعل ذلك، افتح الباب، ثم عد إلى فراشك ثانية، سوف انتظر قليلًا أمام الباب».

– حسنًا، قالها كارل ونفذ اقتراح الفتاة وأضاء النور الكهربائي كذلك، ثم قال عندئذ: «إنني في فراشي الآن!»، في صوت مرتفع إلى حد ما. ثم ظهرت السكرتيرة خارجة من ظلام غرفتها في كامل ثيابها، كما كانت عندما غادرت مكتب المديرة، ويبدو أنها لم تكن قد فكرت في النوم.

قالت: «أرجو أن تسمح لي»، وهي تتهادى بصورة ما أمام أريكة كارل: «وأرجو ألا تذكر شيئًا عن زيارتي هذه لك، ولست أريد أن أزعجك طويلًا، فإنني أعلم أنك مرهق غاية الإرهاق».

قال كارل: «لست مرهقًا إلى هذا الحد، لكنني أعتقد أنه ربما كان من الأفضل أن أرتدي شيئًا من ملابسي!» وكان عليه أن يرقد متمددًا تمامًا حتى يمكنه أن يسحب فوقه الغطاء، حتى عنقه؛ لأنه لم يكن لديه رداء للنوم.

قالت: «سأبقى لحظة فقط!» وهي تتطلع حولها باحثة عن مقعد، ثم أضافت تقول: «هل يمكنني أن أجلس بالقرب من الأريكة؟!» وأومأ كارل بالإيجاب ووضعت مقعدها لصق الأريكة، حتى كان على كارل أن يلتصق

بالحائط لكي يتمكن من رؤية وجهها جيدًا. كان لها وجه مستدير، رقيق التكوين، فيما عدا أن حاجبيها كانا يبدوان مرتفعين بصورة ملحوظة، وربما كان ذلك بتأثير تسريحة شعرها التي لم تكن تناسبها، وكانت ملابسها نظيفة جدًّا، ومرتبة، وكانت تعتصر منديلًا في يدها اليسرى.

وتساءلت: «هل ستمكث هنا طويلًا؟!».

فأجابها كارل قائلًا: «لم يستقر الرأي في هذا الشأن بعد، لكنني أعتقد أنني سأبقى».

قالت: «سيكون هذا رائعًا»، ومرت بمنديلها فوق وجهها، «وذلك لأنني أشعر بالوحدة القاسية هنا».

قال كارل: «إن هذا يدهشني، إن المديرة تعطف عليك عطفًا زائدًا، أليس كذلك؟! إنها لا تعاملك كموظفة مطلقًا، ولقد ظننت بالفعل أنك إحدى قريباتها!».

قالت: «أوه.. لا، إن اسمي هو تيريز بيرشتولد، وقد أتيت من بوميرانيا».

وقدم كارل أيضًا نفسه، وتطلعت إليه مباشرة للمرة الأولى، وكأنه بدا فجأة غريبًا أكثر مما كان عندما ذكر لها اسمه، وظلا صامتين لفترة قصيرة، ثم قالت: «يجب ألا تظن أنني ناكرة للجميل!، فلولا المديرة، لكنت الآن في حال أسوأ كثيرًا من حالتي الحاضرة، ولقد كنت أعمل بين فتيات المطبخ هنا في الفندق، وكنت معرضة جدًّا للفصل من عملي هنا؛ لأنني لم أكن احتمل العمل الشاق، فإنهم يتوقعون منك في المطبخ أن تقوم بمجهودات خارقة، منذ شهر أُغْمِيَ على واحدة من فتيات المطبخ، أُغْمِيَ عليها ببساطة

تحت ضغط الإرهاق، وكان عليها أن تمكث في المستشفى أسبوعين، وأنا نفسي لست في صحة جيدة، ولقد كنت دائمة المرض في طفولتي، وكنت بطيئة في النمو لهذا، ولعلك لا تتخيل.. هل تتخيل أنني في الثامنة عشرة؟ إلا أنني أزداد قوة الآن».

قال كارل: «لابد أن العمل هنا شاق بالفعل، ولقد رأيت صبي مصعد في الطابق الأسفل ينام واقفًا فوق قدميه».

قالت: «إن عمال المصاعد قد اعتادوا بالفعل على ذلك! كما أنهم يحصلون على مبالغ كبيرة من منح البقشيش، ومع ذلك فليس عليهم أن يبذلوا جهدًا من قبيل الجهد الذي يتطلبه العمل الذي تقوم به فتيات المطبخ. ولقد كنت سعيدة الحظ بالفعل لأول مرة في حياتي كلها، فقد أرسلت المديرة ذات يوم في طلب فتاة؛ لتقوم بترتيب فوط السفرة استعدادًا لمأدبة، وكان هناك ما يقرب من خمسين فتاة في المطبخ، وتصادف أن كنت أنا التي انطبقت عليها شروط المديرة، فتم اختياري! حسنًا.. ولقد قمت بالعمل الذي أسندته إليَّ بصورة حازت رضاها، فقد كنت ماهرة دائمًا في ترتيب فوط السفرة، وهكذا احتفظت بي إلى جانبها منذ ذلك اليوم، وقامت بتمريني، على مراحل حتى أصبحت سكرتيرتها ولقد تعلمت منها الكثير!».

تساءل كارل: «هل توجد أعمال كتابية كثيرة هنا؟».

وأجابته قائلة: «أوه.. توجد أعمال كثيرة جدًّا أكثر مما يمكنك أن تتصور، ولقد رأيت بنفسك أنني كنت أقوم بعملي حتى الحادية عشرة والنصف هذه الليلة، وهذا أمر عادي جدًّا، ولست أكتب بالطبع على الآلة الكاتبة طوال الوقت، لكنني أقوم أيضًا بعديد من المهمات في المدينة».

تساءل كارل قائلًا: «هل هي مدينة كبيرة؟».

فأجابته قائلة: «كبيرة جدًّا، إنني لم أتمتع بمشاهدتها كلها، لكن.. ألا تريد الآن بالفعل أن تستغرق في النوم؟».

قال كارل: «لا.. لا.. إنك لم تذكري لي بعد لماذا جئت لزيارتي الآن؟».

– «لأنني لا أجد من أتحدث إليه، إنني لا أشكو، لكن لا يوجد في الحقيقة من يمكنني أن أتحدث إليه. ويسعدني أنني وجدت شخصًا ما في النهاية، شخصًا يسمح لي بأن أحادثه.. ولقد رأيتك في الصالون، في الطابق الأسفل.. كنت قد دخلت لحظتها أبحث عن المديرة عندما اصطحبتك إلى داخل المخزن».

قال كارل: «إن ذلك الصالون مكان مزعج!».

أجابته: «إنني لا أراه إلا نادرًا في هذه الأيام، لكنني أريد فقط أن أقول إن المديرة تعطف عليّ كما لو كانت أمي، لكن هناك اختلافًا هائلًا بين وضعينا، حتى إنني لا أستطيع أن أتحدث إليها في شيء من الحرية. ولقد كانت لي صديقات من بين فتيات المطبخ، غير أنهن قد غادرن هذا المكان منذ زمن بعيد، ولا أكاد أعرف الفتيات الجديدات اللاتي حللن مكانهن، وبالإضافة إلى ذلك، فإنه غالبًا ما يبدو لي العمل الذي أقوم به الآن عملًا مرهقًا بصورة تفوق عملي السابق في المطبخ، حتى أنني لا أتمكن من القيام به على خير وجه، كما كنت أفعل في عملي السابق، ويخيل لي غالبًا أيضًا أن المديرة تحتفظ بي فقط بدافع الشفقة، وفوق هذا كله فإن هذا العمل يحتاج إلى دراسة أفضل من الدراسة التي تلقيتها، ولابد لي من ذلك لكي أصلح

كسكرتيرة، من الخطأ أن أصرح بذلك، لكنني غالبًا ما أشعر بهذا كله وأحسه إلى حد يوشك أن يؤدي بي إلى فقدان عقلي، «بحق الإله»، واندفعت تتكلم في سرعة وتلمس في حركات خاطفة كتف كارل لأنه كان يخفي يديه تحت البطانية.. «لا تذكر للمديرة كلمة من هذا، وإلا فإنني بهذا أكون قد قضي عليّ، فلو سببت لها ألمًا، بالإضافة إلى انشغالها بأمري، فسوف يكون ذلك شيئًا يزيد عن طاقتها على أن تحتملني».

فأجابها كارل قائلًا: «لن أذكر لها بالطبع أي شيء..».

قالت: «كل شيء إذن على ما يرام ويجب عليك أن تبقى هنا، فسوف أكون في غاية السرور لو بقيت، ويمكننا أن نصبح صديقين لو شئت، فعندما رأيتك، أحسست بأن في إمكاني أن أثق بك، إلا أنني- وتأمل إلى أي حد أبدو ملعونة- كنت خائفة أيضًا من أن تجعلك المديرة سكرتيرها بدلًا مني، وتفصلني. ولقد قضيت وقتًا طويلًا وأنا جالسة إلى نفسي في الحجرة المجاورة، أقلب الأمر من كل وجوهه بينما كنت أنت في مكتب المديرة في الطابق الأسفل، حتى انتهيت أخيرًا إلى أنه قد يكون من الخير لك أن تأخذ مكاني، لأنك ستؤدي هذا العمل دون شك بكفاءة لا تتوافر لي، فلو لم ترغب في القيام بالمهمات التي ترسل بسببها إلى المدينة، فسوف أواصل أنا القيام بهذه الخدمات، لكنني فيما عدا ذلك سأكون أكثر نفعًا بعودتي إلى المطبخ خاصة وأنني قد أصبحت الآن أقوى مما كنت..».

قال: لقد تقرر كل شيء الآن بالفعل، فسأكون أنا عامل مصعد وسوف تبقين أنت في عملك كسكرتيرة، لو أنك لمحت للمديرة بخططك هذه، فسوف أخبرها بما قلته لي الآن، وإنني آسف مقدمًا على أنني سأقول لها

هذا كله..

وأخافت لهجة كارل تيريز خوفًا شديدًا، حتى أنها ألقت بنفسها أرضًا إلى جوار الأريكة، وهي تبكي وتخفي وجهها في ملابس نومه.

قال كارل: «أوه.. سوف لا أخبرها بشيء، لكن يجب ألا تقولي لها شيئًا أنت أيضًا».

ولم يستطع أن يمنع نفسه الآن من أن يخرج إلى حد ما، من تحت غطائه ويتحسس ذراعها في رقة، إلا أنه لم يجد الكلمات المناسبة التي يمكنه أن يهدئها بها، أمكنه فقط أن يدرك أن حياة هذه الفتاة حياة مريرة، وأخيرًا واساها ما استطاع حتى لقد خجلت من بكائها، وتطلعت إليه في امتنان، ونصحته بأن يستغرق في النوم حتى الصباح، ووعدته أن تأتي إليه في الساعة الثامنة لتوقظه إن وجدت أمامها متسعًا من الوقت.

قال لها كارل: «إنك ماهرة غاية المهارة في إيقاظ الناس».

قالت: «نعم.. يمكنني أن أفعل بعض الأشياء»، ومرت بيدها في رفق فوق ملابس نومه، وكأنها تصافحه مودعة، ثم اندفعت نحو حجرتها.

وأصر كارل في اليوم التالي على أن يبدأ عمله في الحال، على الرغم من أن المديرة كانت قد أشارت عليه بأن يقضي اليوم في زيارة المدينة فأخبرها في صراحة أنه سيجد أمامه فرصًا عديدة لرؤيتها فيما بعد، إلا أن أهم شيء أمامه الآن هو أن يبدأ العمل، فقد كان قد قطع دراسته في أوروبا بلا هدف. وها هو ذا يبدأ الآن مرة أخرى حياته كعامل مصعد في سن لعل الطموحين من أقرانه أن يكونوا قد أصبحوا فيها مهيئين لعمل أكثر خطورة، ولقد كان

من الخير، ومن الضروري له أن يبدأ حياته كعامل مصعد، لكن من الضروري له أيضًا أن يتقدم بغاية السرعة في مثل هذه الظروف.. لم يرق له مطلقًا أن يتسكع في شوارع رمسيس، ولم يقبل أيضًا أن يتمشى قليلًا مع تيريز عندما اقترحت عليه ذلك، إنه لم يكن يستطيع أن يطرد من رأسه تلك الفكرة الثابتة التي تتلخص في أنه ربما هبط، إن لم يعمل بكل قواه، إلى مستوى ديلامارش وروبنسون.

وعدّل ترزي الفندق على مقاس كارل زيًّا كان لواحد من عمال المصاعد! وكان زيًّا مثقلًا للغاية بالأزرار المذهبة والشرائط الذهبية، إلا أنه جعل كارل يرتجف قليلًا عندما ارتداه، فقد كانت الجاكتة القصيرة ضيقة تحت الذراعين بوجه خاص وجامدة تفوح منها رائحة العرق الذي لا حيلة في إزالته، ذلك العرق الذي نضح على الجاكتة من أجساد الصبية العديدين الذين ارتدوها قبله، وكان لابد أن تُعدّل مقاسات الجاكتة حتى تناسب كارل، وخاصة بالنسبة للصدر، لأن جاكتة واحدة من الجاكتات الثماني الأخرى لم تناسب مقاسه.. على الرغم من بعض الإصلاحات الضرورية، ومع أن رئيس الترزية كان يراجع مقاييس تلك الجاكتة، ولقد طوحها إلى الخلف مرتين داخل المشغل، بعد أن كانت قد انتهت على ما يبدو، ورغم ذلك كله، تم الإصلاح والتعديل في نحو خمس دقائق، وغادر كارل حجرة الترزي مرتديًا- بالفعل- بنطلونًا ضيقًا يناسبه، وجاكتة، كانت محكمة عليه جدًّا بالرغم من كل التأكيدات القاطعة التي كان رئيس الترزية ينفي بها ذلك، فأغرت كارل على الانهماك في القيام بتمرينات التنفس، لأنه كان يريد أن يطمئن إن كان في وسعه أن يتنفس بالفعل وهو يرتديها.

ثم أوضح كارل ذلك لرئيس السفرجية، الذي كان يرأسه، وهو رجل نحيل وسيم، له أنف كبير، ويبدو في العقد الخامس من عمره، ولم يكن لدى رئيس السفرجية وقت لتبادل كلمة واحدة معه، ودق الجرس ببساطة طالبًا أحد عمال المصاعد، الذي تصادف أن كان نفس صبي المصعد الذي رأه كارل بالأمس.

ناداه رئيس السفرجية باسمه الأول جياكومو الذي كان كارل قد قضى وقتًا حتى تبينه، ذلك أنه لم يكن يمكن تمييزه في النطق الإنجليزي، ووجهت التعليمات إلى الصبي بأن يدل كارل على الواجبات التي على عامل المصعد أن يقوم بها، إلا أنه كان صبيًّا خجولًا ومتعجلًا حتى أن كارل لم يكن يفهم شيئًا من تلك المعلومات القليلة التي كان عليه أن يذكرها له. ولاشك في أن جياكومو كان مستاء أيضًا لأنه قد نقل من عمله في المصعد، بسبب كارل فيما يبدو، وتعين عليه أن يساعد الفتيات في ترتيب الحجرات، ذلك النقل الذي بدا له تخفيضًا في وضعه، وكان يدرك هذا بسبب بعض الخبرات الخاصة التي لم يبح بها رغم ذلك. وكأن خيبة الأمل التي أصيب بها كارل هي اكتشافه أن عامل المصعد لا شأن له فيما يتعلق بميكانيكية المصعد، لكن عليه فقط أن يحركه بالضغط فوق بعض الأزرار، على حين يقوم ميكانيكيو الفندق بأداء كل الإصلاحات التي يحتاج إليها أي مصعد في حالة تعطله.. فمثلًا، على الرغم من أن جياكومو قد قضى نصف عام في الخدمة كعامل مصعد، فإنه لم ير مطلقًا بعينيه لا المحرك الموجود في داخل القبو ولا أجزاء المصعد الداخلية التي تسهم في حركته، مع أن ذلك، كما قال هو نفسه، كان سيسره! وكان العمل في الحقيقة مملًّا ونوبات العمل التي تمتد اثنتي عشرة

ساعة وتتغير نهارًا مرة وأخرى ليلًا، تعد نوبات مرهقة جدًّا، حتى أن المرء لا يمكنه ببساطة تبعًا لقول جياكومو، أن يحتملها إذا لم ينم واقفًا على قدميه بضع دقائق من حين لآخر، ولم يعقب كارل بشيء على هذا القول، إلا أنه كان يدرك تمامًا أن هذه الحيلة نفسها هي التي كلفت جياكومو وظيفته.

وكان كارل في غاية السرور لأن المصعد الذي سيعمل به كان مخصصًا للأدوار العليا؛ لأنه لم يكن عليه أن يتعامل مع الضيوف الأثرياء، الذين يعدون أكثر الزبائن إرهاقًا لعامل المصعد وتشديدًا في أوامرهم، ولم يكن له أن يعرف الكثير من المصاعد الأخرى، لهذا بدا له هذا العمل طيبًا كمجرد بداية.

وأدرك بعد انقضاء الأسبوع الأول أنه كان كفئًا تمامًا للوظيفة، وكانت اللوحة النحاسية في مصعده أكثر لمعانًا من مثيلاتها في المصاعد الأخرى، ولم يكن يوجد في أي من المصاعد الثلاثين الأخرى أي شيء يجعله جديرًا بأن يقارن بمصعد كارل، وربما بقي المصعد لامعًا على الدوام، لو أن الصبي الآخر الذي يتناوب معه العمل فيه بذل شيئًا من الجهد يقرب مما يبذله كارل من الجهد الخارق دون أن يزداد إهمالًا كلما ازداد انتباه كارل إلى واجباته. كان هذا الصبي مواطنًا أمريكيا يدعى رينيل، وهو فتى مغرور ذو عينين سوداوين، وخدود ناعمة مجوفة إلى حد ما، وكان يرتدي بذلة خاصة جميلة في الليالي التي كان يخلو فيها من العمل، عندما كان يهرع إلى المدينة متعطرًا، وكان أكثر من هذا يسأل كارل من حين لآخر أن يقوم بعمله أمسية من الأمسيات متعللًا بأن عليه أن يذهب إلى مكان ما لظرف عائلي، دون أن يلقي بالًا إلى تناقض تلك الحجج التي كان يلفقها مع مظهره المبتهج. ورغم

ذلك فقد أحبه كارل، وكان يسره أن يرى رينيل وهو يقف إلى جانب المصعد ببذلته الرائعة قبل أن يغادر الفندق في أحد تلك الأمسيات، وهو يتعلل بالمعازير مرة أخرى، بينما يجذب قفازيه ثم يتسلل خارجًا عبر الردهة. وبالإضافة إلى ذلك فقد رأى كارل أنه من الطبيعي له أن يرضي زميلًا أكبر منه على هذا النحو في البداية. ولم يكن كارل ينوي أن يجعل ذلك تقليدًا ثابتًا، ذلك أن تحريك المصعد إلى أعلى وإلى أسفل، كان عملًا مرهقًا في ذاته إلى حد كاف، وخاصة في الأمسيات، حيث لا يتاح له أن يتوقف لحظة واحدة عن الحركة.

وهكذا تعلم كارل أيضًا كيف يؤدي تلك الانحناءة العميقة السريعة التي يتعين على صبية المصاعد أن يؤدوها، وأن يتناول منح البقشيش بغاية الخفة، فكانت تلك المنح تختفي فورًا في جيب صديريته، دون أن يتمكن أحد من أن يستشف من تعبير وجهه إن كان البقشيش كبيرًا أو زهيدًا، وكان يفتح باب المصعد للسيدات في شيء من الرقة، ويدخل إلى المصعد خلفهن متباطئًا؛ لأنهن في عنايتهن بقبعاتهن وملابسهن وزينتهن، يستغرقن وقتًا طويلًا في الحركة، بخلاف الرجال، إلى داخل المصعد.. ويظل في أثناء تحرك المصعد، ملتصقًا ببابه؛ لأنه أكثر الأماكن حيادًا ويعطي ظهره إلى النزلاء، ويظل ممسكًا في يده بمقبض الباب لكي يكون مستعدًا عند لحظة بلوغ الطابق المطلوب لأن يفتح الباب على مصراعيه على كلا الجانبين دون تعطيل النزلاء أو مفاجأتهم، وما أن يربت أحدهم فوق كتفه ليسأله في أثناء الصعود عن شيء ما، حتى يستدير إليه في لباقة كما لو كان يتوقع السؤال ويجيبه في صوت مرتفع، وفي أحيان بعد انتهاء حفلات المسرح خاصة،

أو وصول أحد القطارات السريعة يكون الزحام شديدًا، على الرغم من وجود كل تلك المصاعد العديدة بالفندق، فلم يكن كارل يفرغ من توصيل مجموعة من النزلاء إلى الطابق الذي يريدونه، حتى يقفل راجعًا مرة أخرى إلى هؤلاء الذين ينتظرونه في الطابق الأسفل، وكان في مقدوره أن يجذب سلكًا كهربائيًا كان يمر خلال المصعد يزيد من سرعة المصعد العادية، على الرغم من أن ذلك كان ممنوعًا طبقًا للتعليمات، وكان يعد أمرًا على جانب كبير من الخطورة، كذلك فلم يكن كارل يفعل ذلك عندما يكون المصعد مشغولًا بالنزلاء، لكنهم ما إن يغادروا إلى الطابق الذي يقصدونه، وتتعين عليه العودة لإحضار عدد من النزلاء الآخرين حتى يجذب كارل ذلك السلك دون أدنى تردد، مصعدًا تنهيدات قوية منتظمة كالبحارة، وكان يعلم بالإضافة إلى ذلك أن صبية المصاعد الآخرين يفعلون ذلك هم أيضًا. ولم يكن يريد أن يلجأ النزلاء الذين ينتظرونه إليهم، وكان بعض الضيوف الذين يمكثون لفترات طويلة في الفندق- وهي عادة شائعة هنا- يقولون في ابتسامة، عندما يلمحونه: «إنه هو عامل مصعدهم» وكانت هذه البوادر التي تنم عن العطف تجد قبولًا رزينا من كارل، لا يفتقر إلى الشعور تجاههم بالعرفان، وكان يقوم أحيانًا إذا لم يكن متعجلًا غاية العجلة كعادته بأداء بعض الخدمات الصغيرة، باحثًا عن شيء أو آخر يكون النزيل قد نسيه في حجرته، ولا يريد أن يتكلف مشقة العودة إلى الحجرة مرة أخرى للبحث عنه، فكان كارل يحلق وحده عاليًا بمصعده الذي يبدو مصعده الخاص بالفعل في تلك الحالات، ويدخل الحجرة الغريبة، حيث تواجهه أشياء عجيبة لم يكن قد رأى شبيهًا مثلها من قبل متناثرة هنا وهناك أو تتدلى من شماعات الملابس، ويشم رائحة مميزة

لنوع غير مألوف من الصابون أو العطر، أو معجون الأسنان، ويسرع بالعودة، فلا يتباطأ دقيقة واحدة دون داع، وفي يده الشيء المطلوب، مع أنه لم يكن قد تلقى سوى معلومات غامضة في العادة لا يمكن أن تحدد على وجه الدقة ذلك الشيء المطلوب البحث عنه، وكان كارل يأسف في أحيان كثيرة؛ لأنه لم يكن يعهد إليه بقضاء خدمات تستغرق وقتًا أطول، من قبيل تلك الخدمات التي كان يعهد بأدائها إلى المساعدين بعينهم، أو سعاة مزودين بالدراجات وأحيانا بالموتوسيكلات، وكان أقصى ما كان يكلف به هو عمل من الأعمال البسيطة في حجرة الطعام أو حجرة القمار.

وبعد انتهاء نوبة عمل تستغرق اثنتي عشرة ساعة، يفرغ من أداء عمله في الساعة السادسة مساء لمدة ثلاثة أيام، وفي السادسة صباحًا في الأيام الثلاثة التي تليها، كان كارل يفرغ من نوبة عمله حينئذ مرهقًا غاية الإرهاق، حتى أنه كان يتوجه مباشرة إلى فراشه دون أن يلتفت إلى أي شخص، وكان فراشه في عنبر نوم صبية المصاعد، وكانت المديرة التي تبين له أنها لم تكن تتمتع بكل تلك السلطة التي تخيلها في ليلتها الأولى، قد حاولت أن تخصص له غرفة مستقلة، ولعلها كانت لتنجح في ذلك، إلا أنه عندما رأى الصعوبات التي واجهت هذه الرغبة.. ورأى أنه كان عليها أن تتصل برئيسه المباشر- رئيس السفرجية- بصورة متواصلة، رفض هو ذلك بنفسه، وأقنعها بصدق نيته في رفض هذه الغرفة المستقلة قائلًا لها: إنه لا يرغب في إثارة حسد الصبية الآخرين له لحصوله على ميزة لم يحققها بالفعل بمجهوده.

وكان العنبر ينقصه الكثير دون شك، حتى يصبح مكانًا هادئًا صالحًا للنوم، فقد كان لكل صبي جدوله الخاص الذي يتضمن مواعيد أكله، ونومه

وتسليته والخدمات الطارئة التي قد يعهد إليه في خلال ساعات راحته الاثنتي عشرة، وعلى هذا فقد كان المكان يعج دائمًا بالضجيج فكان بعض الصبية ينام، والبطاطين تغطي آذانهم محاولين أن يتفادوا الصخب الدائر، ولو نهض واحد منهم فإنما ينهض لكي يصرخ في غضب محتجًا على الضوضاء التي يحدثها الآخرون، حتى لقد كان النائمون يستيقظون على صراخه مهما كان نومهم عميقًا، وكان لكل صبي تقريبًا غليون يستغرق في تدخينه كنوع من الرفاهية، وحصل كارل أيضًا على غليون لنفسه، وسرعان ما اعتاد على تدخينه، وكان التدخين بالطبع ممنوعًا في وقت العمل، ونتيجة لذلك كان كل فرد يمارس التدخين في عنبر النوم إن لم يكن نائمًا بالفعل؛ ولهذا كانت سحابة كثيفة من الدخان تحيط بكل فراش وكانت الحجرة كلها تكاد تغرق في ضباب شامل. ومع أن الجميع كانوا قد اتفقوا على إضاءة المصابيح فقط في أحد جانبي العنبر في أثناء الليل، إلا أن تنفيذ ذلك كان مستحيلًا، فلو كان لهذا الاقتراح أن ينفذ لكان في مقدور كل من يرغب في النوم، أن ينام في هدوء في جانب العنبر الغارق في الظلام.. وقد كان العنبر فسيحًا يتسع لأربعين فِراشًا، بينما يمكن للباقين أن يلعبوا النرد أو الورق، أو يفعلوا كل ما يحلو لهم من أمور أخرى يلزم الضوء لممارستها في الجانب الآخر المضاء، وكان على كل من يرغب في النوم، على حين يقع فراشه في دائرة الضوء، أن يستلقي فوق أي فراش شاغر في نصف العنبر الغارق في الظلام، فالأماكن الشاغرة تتوافر دائمًا، ولا يمكن لأحد أن يعترض على أن يستعمل غيره فراشه الخاص بصفة مؤقتة، لكن كان من المستحيل الالتزام بهذا النظام، ولو لليلة واحدة، فقد يصادف أن يدعى اثنان من الصبية إلى مكان مظلم ليختطفا

لحظات يستغرقان فيها في النعاس، ثم فجأة يشعران بالرغبة في أن يلعبا دورًا من الورق فوق لوح من الخشب يمدانه في المساحة الخالية بين فراشيهما، ويفتحان النور القريب منهما بالطبع، فيتسبب الضوء في إيقاظ النائمين، الذين يتصادف أن تتقابل وجوههم مع أشعة ذلك الضوء، ويتلوى الواحد منهم بطبيعة الحال مستديرًا على جانبه الآخر ليبتعد عن مواجهة الضوء لفترة قصيرة، لكنه لا يجد أمامه في نهاية الأمر، سوى أن ينهض ليشرع بدوره في لعب الورق مع جاره المرهق، فيضيء ضوءًا آخر، وينتشر بهذا أيضًا تدخين الغليون في كل مكان. ويوجد- للحقيقة- بعض من يتعمدون النوم هنا وهناك- وكان كارل عادة من بين هؤلاء- وكان هؤلاء يضطرون إلى دفن رؤوسهم تحت الوسائد بدلًا من أن يضعوها فوق تلك الوسائد، لكن من أين للنوم أن يأتي لأي منهم! إذا نهض من يشغل الفراش المجاور في منتصف الليل، وتأهب للخروج لكي يعربد في المدينة بضع ساعات قليلة يختطفها قبل أن يحل موعد عمله، فيغسل وجهه محدثًا كثيرًا من الضجة، وينثر الماء حول حوض الغسيل المثبت عند رأس كل فراش، ولا يرتدي فردتي حذائه أيضًا إلا في ضجة، بأن يدقهما بقدميه على الأرض لكي يدخل فيهما قدميه جيدًا، وقد كانت أغلب أحذية الصبية ضيقة جدًّا على الرغم من طرازها الأمريكي، ولكي يتمكن في النهاية من استكمال تأهبه للهو، لا يجد أمامه بدًّا من أن يرفع وسادة من على وجه جاره، تلك الوسادة التي حاول الجار أن يحتمي بها طويلًا حتى يتمكن من النوم منتظرًا أن ينهض ذلك الجار لكي يثور في وجهه محتجًا، وكان الصبية الذين يغرمون بالألعاب الرياضية، صبية صغار السن، مفعمين بالنشاط غالبًا، ويحرصون على ألا تفوتهم الفرصة

لأداء التمرينات في مثل ذلك الوقت أيضًا، فإذا حدث أن نهضت فزعًا من نومك في الليل، على هدير أصوات صارخة، فتأكد من أنك ستواجه مباراة كاملة للملاكمة بجانب فراشك في أرضية العنبر، بينما يتحلق تلك المباراة جمع من النظارة الخبيرين بقواعد اللعبة جالسين فوق السرر والنور مضاء في كل مكان.. وقد حدث ذات مرة في مباراة للملاكمة من تلك المباريات التي تحدث في منتصف الليل أن وقع أحد الملاكمين فوق كارل، عندما كان مستغرقًا في النوم، وكان أول ما وقعت عليه عينا كارل عندما استيقظ هو نهر من الدم كان يتدفق من أنف الصبي، فلطخ- قبل أن يجد كارل الفرصة ليتلاشى التلوث- ملابس كارل وأغطية فراشه، وكان كارل يقضي أغلب ساعات راحته الاثنتي عشرة في محاولة الاستغراق في النوم.. وكان يجد نفسه معرضًا لإغراء شديد في مشاركة الآخرين في استمتاعهم العميق بوقتهم، لكن كان يشغل باله عندئذ أن هؤلاء الآخرين قد تمكنوا في حياتهم العملية من أن يبلغوا حدًّا لم يبلغه بعد، وأن عليه أن يلحق بهم عن طريق العمل الشاق والانصراف عن اللهو بقدر الإمكان.. ومع هذا فعلى الرغم من شوقه وحاجته الملحة إلى أن يحصل على كفايته من النوم لانهماكه في العمل بكل قواه، إلا أنه لم يلجأ إلى الشكوى للمديرة ولا لتيريز عن تلك الأحوال التي تجري في عنبر النوم في الوقت المخصص للراحة، ذلك أن الآخرين يعانون جميعهم من تلك الأوضاع دون أن يتذمروا منها بالفعل، وبالإضافة إلى ذلك فقد رأى كارل أن صعوبة الحصول على الراحة في عنبر النوم كانت جزءًا من الوظيفة التي قبلها شاكرًا عندما عرضتها المديرة عليه.

وقد حدث منذ أسبوع، عند تغيير نوبة عمله، من النوبة النهارية، إلى

النوبة الليلية أن حصل على فترة راحة لمدة أربعة وعشرين ساعة، قضى جانبًا منها في زيارة المديرة مرة أو مرتين. وفي تبادل بضع كلمات قلائل مع تيريز في ركن أو آخر كالعادة، أو في الردهة، ونادرًا ما كان يتحدث إليها- في الحقيقة- في داخل غرفتها، كلما التقى بها بعد فراغها من عملها لدقيقة أو دقيقتين. وقد رافقها في أحيان أخرى كذلك إلى المدينة، حيث كانت تقوم بأداء بعض المهام بها، وكانت تلك المهمات تتم دائمًا في أسرع ما يمكن من الوقت، فكانا يندفعان إلى أقرب محطة من محطات الأنفاق، في خطوات متعجلة تقارب الجري، وكان كارل يحمل السلة، وكانت رحلة القطار تنتهي في لحظة، وكأن القطار يندفع بهما في الفراغ، فسرعان ما يغادرانه، ويصعدان السلالم جريًا في الجانب الآخر من المحطة دون أن ينتظرا المصعد، الذي كان يعد بطيئًا جدًّا بالقياس إلى تعجلهما، ثم تظهر الميادين الفسيحة التي تتفرع منها الشوارع، فيبدو الميدان أشبه بالنجمة، بالشوارع التي تتفرع عنه، وتصلهما ضجة المرور المتدفقة على الفور من كل جانب، بلا توقف، إلا أن كارل وتيريز كانا يلتصقان ببعضهما ويسرعان الخطا نحو المكاتب المختلفة، ومحلات الغسيل والكي، ومخازن البضائع، والمحال التجارية؛ لينجزا المهمات التي لم يكن في الإمكان طلبها بسهولة بالتليفون، وغالبًا ما تكون عبارة عن مشتريات بسيطة، أو مجرد تقديم شكاوى عارضة، وسرعان ما لاحظت تيريز أن معونة كارل، كانت معونة لا يستهان بها بالفعل، وأنها كانت تسهل مهمتها في أحيان كثيرة، ففي صحبته لم تكن تضطر إلى الانتظار طويلًا، حتى يلتفت إليها البائعون المنهمكون في العمل، كما كان يحدث لها قبل ذلك؛ لأن كارل كان يتجه مباشرة نحو طاولة البيع ويدق

فوقها بقبضته حتى يأتي إليه أي شخص، فيتوجه إليه بالطلبات، في إنجليزيته التي لم يتمكن منها بعد، والتي كانت تتسم لهذا بالحذاقة إلى حد ما، فكان يسهل تمييزها وسط مائة لهجة أخرى، كان يلوح عبر حواجز عالية من البشر، ويتقدم دون تردد نحو الأشخاص الذين قد ينسحبون في غطرسة إلى أركان المحال الواسعة مبتعدين عنه، فكان يتعقبهم. ولم يكن يفعل هذا كله بدافع الغرور، ولا لعدم تقديره للمصاعب، بل لأنه كان يشعر بأنه في وضع مرموق يمنحه بعض الامتيازات، فلم يكن «الفندق الغربي» زبونًا يستهان به، وكانت تيريز فوق هذا، في أشد الحاجة إلى المعونة على الرغم من خبرتها بهذه الأعمال.

كانت تقول له غالبًا، في سعادة، عند عودتهما من مهمة ناجحة نجاحًا ملحوظًا: «يجب عليك دائمًا أن تأتي معي».

وكان كارل قد دخل حجرة تيريز، خلال فترة الشهر والنصف التي انقضت على وجوده في رمسيس، ثلاث مرات فقط، في زيارات طويلة، كانت تستغرق كل منهما بضع ساعات، وقد كانت حجرة تيريز أصغر بالطبع من حجرات المديرة، وكانت محتوياتها القليلة مكومة حول النافذة، لكن كارل كان قد استطاع أن يقدر مزايا العزلة، في حجرة هادئة خاصة، حق قدرها، بعد خبرته بعنبر النوم، ومع أنه لم يعلن ذلك، فقد لاحظت تيريز إلى أي حد كان يحب البقاء في داخل حجرتها. ولم تكن تكتم عنه شيئًا من أسرارها، ولم يكن من السهل عليها في الحقيقة أن تطلعه على شيء من أسرارها عند زيارته لها في الليلة الأولى. كانت طفلة غير شرعية، وكان والدها ملاحظ عمال بناء، قد أرسل في طلبها هي وأمها من بوميرانيا. وبدا

وكأن كل واجب والدها قد انتهى عند هذا الحد، أو كما لو كان التقاؤه بالمرأة المنهمكة بالعمل، والطفلة العليلة في الميناء قد خيبا كل توقعاته، فقد رحل إلى كندا بعد فترة قصيرة من وصولهما إلى أمريكا دون أدنى تفسير لرحيله، ولم تتلقيا خطابًا منه، ولا أمكنهما أن تتصلا به بصورة من الصور، ولم يكن ذلك يثير شيئًا من الدهشة، في الحقيقة؛ لأنهما كانتا قد ضاعتا، ولم يعد من السهل العثور على مقرهما وسط مساكن الحي الشرقي من نيويورك.

وفي إحدى المناسبات روت تيريز لكارل- الذي كان يقف إلى النافذة بجوارها، يتطلع إلى الشارع تحتهما- قصة موت أمها، وكيف كانتا تهرولان هي وأمها ذات ليلة شتوية- ولابد أنها كانت في الخامسة من عمرها عندئذ- خلال الشوارع، وكل منهما تحمل صرة في يدها، باحثتين عن مأوى تقضيان فيه ليلتهما، وكيف أمسكت أمها بيدها في البداية، فقد كانت عاصفة ثلجية قد هبت، ولم يكن من السهل التقدم في السير، حتى تخدرت يد تيريز، ثم تركتها أمها دون مبالاة بما قد يحدث لها، حتى لقد تشبثت الطفلة بذيل رداء أمها، وكانت تيريز تتعثر دائمًا، بل لقد كانت تسقط على الأرض، إلا أن أمها كانت تبدو وكأنها قد غابت عن الوعي، وتابعت سيرها دون أن تتوقف، وأية قسوة تلك التي تواجهها في نهاية الأمر، خلال شوارع نيويورك المستقيمة في أثناء تلك العواصف الثلجية! لم يكن لكارل عهد بالشتاء في نيويورك، فلو سرت في عكس اتجاه الريح، التي تظل تدوم، وتدوم، فلن يمكنك مطلقًا أن تفتح عينيك ولو للحظة، فالريح تسوط وجهك بالثلوج طوال الوقت، وتظل تسير، وتسير، إلا أنك لا تتمكن من أن تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، كانت تلك الرياح تدفعك إلى اليأس، وتتميز الطفلة بالطبع عن المرأة، ففي

إمكان الطفلة أن تنحني تحت الريح، وتنفذ من خلالها، ولعلها تجد شيئًا من السرور في تلك المقاومة، ولهذا فلم تكن تيريز تدرك حقيقة حال أمها في تلك الليلة، وهي تعتقد الآن اعتقادًا راسخًا، بأنها لو كانت قد سلكت سلوكًا أكثر تعقلًا تجاه أمها- لقد كانت بالطبع مجرد طفلة صغيرة جدًّا- فلعل أمها لم تكن تلقى مثل تلك الميتة البائسة. لم تكن أمها قد عثرت على أي عمل خلال يومين، وكانت قد أنفقت آخر ما معها من نقود، وأمضيتا اليوم في العراء دون أن تتبلغا بشيء، ولم تكن الصرتان اللتان تحملانهما تحتويان على شيء سوى بضع نفايات لا نفع فيها، ولم تجرؤا على إلقائهما ربما تحت تأثير بعض الأوهام عن احتمال نفعهما. وكان لدى أمها أمل العثور على عمل في الصباح التالي، في بناء جديد، إلا أن والدة تيريز كانت تخشى- كما حاولت أن تشير إلى ذلك طوال النهار- من أنها قد لا تتمكن من أن تستفيد من تلك الفرصة، لأنها كانت تحس بالإنهاك الشديد، ولأنها كانت قد تقيأت في ذلك الصباح نفسه كمية كبيرة من الدم في الشارع، أثارت فزع المارة، وكانت تأمل فقط في أن تبلغ مكانًا يتاح لها فيه شيء من الدفء والراحة، وكان من المستحيل في تلك الليلة بالذات أن تجدا ركنًا في أي مكان. وفي أحيان لم يكن البواب يسمح لهما بالدخول إلى مدخل أي منزل، حيث تحتميان إلى حد ما من شدة البرد، على الأقل، لكنهما لو استطاعتا أن تغافلا البواب، فقد كانتا تمرقان حينذاك خلال ردهات ثلجية، مرهقة، وتصعدان درجات لا حصر لها، وتدوران حول شرفات ضيقة، تطل على أفنية، وتطرقان الأبواب عبثًا، ولم تواتهما الجرأة لحظة واحدة في التحدث إلى أي شخص، ثم كانتا في أحيانًا أخرى تلحان في التوسل إلى كل من

تلتقيان به، وجلست أمها مرة أو مرتين، فاقدة التنفس فوق إحدى درجات السلالم المنعزلة الصامتة، وجذبت تيريز التي راحت تتمنع، إلى صدرها، وقبلتها في عنف مؤلم، على شفتيها، وعندما تحققت تيريز فيما بعد، من أن تلك القبلات، كانت هي آخر قبلات أمها لها دهشت جدًّا من غبائها البالغ، حتى أنها لم تتمكن من أن تدرك ذلك في حينه، على الرغم من أنها لم تكن في ذلك الوقت سوى مخلوقة صغيرة للغاية. وانفتحت بعض الأبواب التي مرا بها، لكي يخرج منها ضباب مكبوت، وفي البخار المشبع بالدخان الذي كان يملأ تلك الحجرات، كما لو كانت تحترق، لم يمكنهما أن تتحققا من وجود شيء، سوى مجرد شبح يلوح في الطرقة، لم يشجعهما على أن تتوقعا شيئًا من الضيافة في داخل المكان، لا بصمته البليد، ولا بغمغمته المقتضبة. وعندما تتأمل تيريز الماضي، تذكر أن أمها كانت تبحث فقط في الساعات الأولى من تلك الليلة عن مأوى بالفعل؛ لأنها لم تتحدث بعد منتصف الليل إلى أحد مطلقًا، مع أنها كانت لا تزال تقف على قدميها، لم توجه حتى كلمة مقتضبة إلى أي مخلوق، حتى الفجر، ومع أن تلك المساكن لم تغلق أبوابها طوال الليل، وكانت خطوات الناس لا تكاد تنقطع إلا أنها لم تكن تقوى على مواجهتهم، ولم تكونا تسيران مسرعتين من مكان إلى مكان، إلا أنهما كانتا تتحركان بآخر ما في وسع قواهما الواهنة أن تسمحا به، بنوع من الزحف المتثاقل في حقيقة الأمر، ولم يسع تيريز أن تحدد إن كانا قد طافا بنحو عشرين مسكنًا منذ منتصف الليل حتى الساعة الخامسة صباحًا، أم الثانية، أم الواحدة فقط بعد منتصف الليل، كانت ردهات تلك المساكن تتسع، وتتسع في خبث، ويبدو من الصعب أن يجد المرء طريقه عبر تلك

المساحات الخاوية، وكم بدا لهما أنهما كانتا تزحفان المرة بعد المرة خلال الردهة نفسها التي لم تكن تتغير، وكأنهما لم تنتقلا من منزل إلى منزل آخر. ولا تكاد تذكر تيريز، سوى ذكرى غامضة، خروجهما من باب ذلك المنزل الذي طافا بردهاته بلا نهاية، فقط لمجرد أن تقفلا راجعتين، أو هكذا بدت لها نتيجة طوافهما، حتى بلغا الشارع، وغابا فيه ثانية. وكان ذلك بالطبع عذابًا لا معنى له بالنسبة لطفلة مثلها، فإن تسحبها أمها أحيانًا، وتتشبث هي في أحيان أخرى بذيل رداء أمها، دون كلمة تشجيع واحدة، كان يبدو لها أمرًا محيرًا، وفي حيرتها تلك، كان التفسير الوحيد الذي كان يسعها أن تتوصل إليه، هو أن أمها تريد أن تهرب منها، ولهذا فإن تيريز خوفًا على نفسها شددت قبضتها على ذيل رداء أمها بإحدى يديها، فلم تتركه، حتى عندما كانت أمها تمسك بيدها الأخرى.

وكانت تنخرط في البكاء من حين لآخر؛ لأنها لم تكن تريد أن تتركها أمها وحيدة وسط هؤلاء الناس، الذين كانت خطاهم تتردد فوق درجات السلالم أمامهما، أو الناس الذين كانوا يأتون خلفهما، أو هؤلاء الذين يختفون في منحنى السلم أسفلهما، أو هؤلاء الناس الذين يتشاجرون في الردهات، أمام أحد الأبواب، ويدفعون بعضهم بعضًا إلى داخله، والرجال السكارى كانوا يتجولون كذلك حول المكان، وهم يرفعون عقيرتهم بالغناء في كآبة، وكانت أمها محظوظة وهي تنسل وتيريز في يدها من بين أذرعهم الممدودة التي كانت تكاد تسد الطريق. وفي مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل، عندما لا يلقي أحد انتباهًا بالغًا إلى أي شيء، وعندما يصبح تشديد كل امرئ على حقوقه أمرًا لا يستحق العناء، كان يمكنهما دون شك أن تجدا

لنفسيهما مكان في أحد الفنادق الرخيصة الشائعة التي يديرها أصحابها، والتي كانا قد مرا بالعديد منها، إلا أن تيريز لم تكن تدرك ذلك، وكانت أمها أبعد ما تكون عن التفكير في الراحة، ووجدهما الصباح، مستندتين في فجر يوم شتوي صحو إلى جدار أحد المنازل، وربما كانتا قد استغرقتا في النوم لفترة قصيرة في مكانهما، وربما كانتا تحملقان حولهما بعيون مفتوحة، واتضح أن تيريز كانت قد فقدت صرتها، وراحت أمها تضربها عقابًا على إهمالها، إلا أن تيريز لم تسمع، ولم تحس بأية صفعة من تلك الصفعات التي تلقتها، ثم سارتا مرة أخرى في طريقهما في الشوارع التي كانت قد بدأت تستيقظ، وكانت أم تيريز تسير بجوار الحائط، وعبرتا إحدى القناطر، حيث ظلت كف أمها تمسح الصقيع من فوق الدرابزين، وتوجهتا، في النهاية– وقتها واجهت تيريز ذلك كأمر واقع، إلا أنها الآن لا يمكنها أن تفهمه– إلى نفس المبنى الذي كان يتعين على أمها أن تتوجه إليه في ذلك الصباح. ولم تخبرها أمها بما إذا كان عليها أن تنتظرها، أو أن عليها أن تمضي إلى حيث تشاء، واعتبرت تيريز ذلك أمرًا بالانتظار؛ لأن ذلك هو ما فضلت أن تفعله، وهكذا جلست فوق كومة من الطوب، وراحت تتطلع حولها بينما كانت أمها تفك صرتها، وتأخذ منها قطعة زاهية من القماش، شدتها حول ثوبها الذي قضت فيه ليلتها، وكان الإرهاق قد نال من تيريز حتى أنها لم تستطع أن تعاون أمها. ودون أن تدلي أمها لملاحظ عمال البناء باسمها، كالعادة، ودون أن تستفسر من أحد عن أي شيء، شرعت تصعد السلم، كما لو كانت بالفعل تعلم العمل الذي يتعين عليها أن تقوم بأدائه. ودهشت تيريز لذلك؛ لأن حاملة المونة تعمل عادة على الأرض، تخلط الجير، وتحمل الطوب،

وتقوم ببعض الأعمال المتواضعة الأخرى. ولهذا فقد ظنت تيريز أن أمها سوف تضطلع اليوم بأداء نوع مختلف من العمل يعود عليها بأجر أكبر، فابتسمت لها وهي تغالب نعاسها!

لم يكن البناء قد ارتفع كثيرًا، كان قد بلغ الطابق الأول فوق الأرضي فحسب، ولهذا فقد كانت السقالة المرتفعة التي ترتفع إلى باقي الهيكل، لا تزال بدون تلك العوارض الخشبية التي تشدها بعضها إلى بعض، وكانت ترتفع عاليًا نحو السماء الزرقاء. وعندما بلغت أمها قمة الحائط، دارت بمهارة حول البنائين الذين راحوا في بلادة يضعون الطوبة فوق الطوبة، فلم يلقوا بالًا إليها لسبب غير مفهوم، وبأصابع رقيقة تحسست طريقها بحذر بطول حاجز خشبي كان يستعمل كدرابزين، وكانت تيريز مندهشة، وهي تغالب نومها أسفل البناء، لتلك المهارة، وتهيأ لها أن أمها كانت ترمقها في عطف، لكن أمها كانت قد بلغت الآن في أثناء سيرها كومة صغيرة من الطوب، كان الحاجز ينتهي خلفها، ويبدو أن الحائط كان ينتهي أيضًا بعدها إلا أنها لم تتوقف عند ذلك الحد، بل سارت في طريقها لا تلوي على شيء، حتى تجاوزت كومة الطوب، ويبدو أن مهارتها قد زايلتها بعد ذلك لأنها أسقطت تلك الكوم من الطوب وسقطت خلفها إلى الأرض، وسيل من قوالب الطوب في أعقابها، ثم بعد لحظات قليلة، انفصلت كتلة كثيفة من الخشب من مكان ما، وتهاوت فوقها إلى الأرض، وكان آخر ما تذكره تيريز عن أمها هي رؤيتها لها وهي ممددة هنالك في ردائها الذي شدت فوقه تلك الخرقة، ذلك الرداء الذي كانت قد أتت به من بوميرانيا، وكانت ساقاها منفرجتان على اتساعهما في رقدتها، تغطيهما تقريبًا تلك الكتلة

الخشبية الثقيلة التي كانت قد سقطت فوق الجزء الأعلى من جسمها، بينما هرع الناس مسرعين من كل صوب، وصاح رجل في غضب، من فوق قمة الحائط.

كان الوقت متأخرًا عندما فرغت تيريز من قصتها. وكانت قد روتها بفيض من التفاصيل، على غير عادتها، وخصوصًا في بعض أجزائها القليلة الأهمية، كما فعلت عند وصفها لأعمدة السقالة وكل منها ترتفع على حدة نحو السماء، وكانت تضطر إلى أن تتوقف من آن لآخر، بينما تترقرق الدموع في عينيها، كانت أدق تفاصيل أحداث ذلك الصباح لا تزال ماثلة في ذاكرتها في قوة بعد مرور أكثر من عشر سنوات، ولأن رؤيتها لوالدتها فوق حائط المنزل غير الكامل، كانت هي آخر ذكرى حية لها، فقد أرادت أن تستحضرها بغاية ما يمكنها من الوضوح أمام صديقها، وحاولت أن تعود إليها بعد أن فرغت من قصتها، لكن صوتها تهدج بعد ذلك، ودفنت وجهها بين راحتيها، ولم تتفوه بكلمة أخرى.

وكانت أمامهما ساعات مرحة كذلك في حجرة تيريز، فقد رأى كارل عند زيارته الأولى لها، كتابًا مدرسيًّا في المعاملات التجارية مُلقى بداخل الحجرة، فسألها أن تعيره إياه، واتفقا في الوقت نفسه أيضًا على أن يقوم كارل بحل التمرينات الواردة بالكتاب، ثم يحضرها إلى تيريز، التي كانت قد درستها بالفعل من خلال ما أملته عليها احتياجات عملها، لتقوم بتصحيحها، وكان كارل يستلقي في فراشه بعنبر النوم، ليالي بطولها، وقد وضع قطعتين من القطن في أذنيه، وراح يتقلب بين الحين والآخر متخذًا كل ما يمكن تصوره من الأوضاع التي قد توفر له الراحة في استلقائه فوق الفراش، ليقرأ

في الكتاب، ويكتب حلول التمرينات في سرعة، في مفكرة صغيرة، بقلم حبر كانت المديرة قد أعطته له، كتشجيع على قيامه بعمله بانتظام، وقيامه كذلك بكتابة قائمة جرد طويلة منسقة كلفته بكتابتها، وقد استطاع أن يستفيد من أغلب المضايقات المذهلة التي كان يسببها له الصبية الآخرون، ذلك بأن راح يسألهم دائمًا عن تذليل بعض الصعوبات الصغيرة التي كانت تواجهه في استعمال اللغة الإنجليزية، حتى تعبوا من أسئلته وتركوه في سلام، وغالبًا ما كانت الدهشة تنتابه، وهو يرى أن الآخرين، قد قنعوا بحظهم الحاضر من الحياة، وأنهم لا يشعرون بأن وضعهم هذا يجب أن يكون وضعًا مؤقتًا، وأنهم كانوا لا يستطيعون كذلك أن يدركوا معنى الحاجة إلى اتخاذ قرار حاسم بشأن مستقبلهم، وعلى الرغم من أن كارل كان قدوة لهم، في هذا كله، إلا أنهم لم يقرأوا شيئًا مطلقًا فيما عدا بضع نسخ قذرة، وبالية، من الروايات البوليسية، كانت تنتقل من فراش إلى فراش.

وفي لقائتهما كانت تيريز تقوم بتصحيح تمرينات كارل، ربما بشيء من العناء أيضًا، وكانت تقوم بينهما خلافات في الرأي، فكان كارل يستشهد بآراء أستاذه العظيم الذي كان كارل يدرس على يديه في نيويورك لتدعيم رأيه، إلا أن آراء السيد لم تلق من اهتمام تيريز أكثر مما كان يلقاه من اهتمامها اختراعات صبية المصاعد- الذين كان كارل يستعين بهم- في قواعد اللغة، ولهذا كانت تتناول القلم الحبر من يد كارل وتشطب الفقرات التي كانت مقتنعة بخطئها، لكن كارل كان في مثل تلك الحالات التي تحتمل الشك، لأنه لم يكن له أن يعرض الأمر على سلطة أعلى من تيريز، ويشطب لمجرد الاحتياط الخطوط التي كانت تخطها تيريز في مفكرته، على نقيض ما كتبه

هو، وكانت المديرة تظهر أحيانًا، وتعطي قرارها في المشكلة لصالح تيريز، لكن ذلك لم يكن ليحسم الخلاف بما أن تيريز كانت سكرتيرتها، وكانت تيريز تصدر مع ذلك في الوقت نفسه عفوًا عامًّا، ذلك لأن الشاي كان قد حان موعد إعداده، كما يكون قد تم أيضًا الإرسال في طلب الكعك، ويلح كارل على أن يقص حكايات عن أوروبا، كانت المديرة تقاطعه كثيرًا في أثنائها، فتظل تستفسر، وتندهش، حتى لقد تحقق كارل من مدى التغيير الشامل الذي طرأ على أوروبا في وقت قصير نسبيًّا، ومدى التغيير الذي لعله أن يكون قد حدث منذ رحيله هو عن أوروبا، والتغيير الذي سوف يستمر دائمًا.

وربما كان كارل قد أمضى نحو شهر في رمسيس، عندما قال له رينيل ذات ليلة وهو يمر به، إن رجلًا يدعى ديلامارش قد استوقفه أمام الفندق، وسأله عن كارل، ولما لم يكن ثمة سبب يدعوه إلى الامتناع عن التصريح له بالحقيقة، فقد أجابه رينيل في صدق أن كارل يعمل صبي مصعد، وإن كانت لديه آمال في تحسين وضعه كثيرًا، إلى الأحسن، بسبب الاهتمام الذي تبديه المديرة نحوه، ولاحظ كارل الاهتمام الذي أبداه ديلامارش نحو رينيل؛ لأنه كان قد دعاه بالفعل إلى تناول الطعام في تلك الليلة.

فقال كارل: «لست أريد أن أعرف ديلامارش أكثر من ذلك، ومن الأفضل لك أن تحترس منه أنت أيضًا!».

قال رينيل، وهو يتمطى: «أنا؟»، ثم أسرع مبتعدًا.

كان رينيل أحسن الصبية مظهرًا، في الفندق، وكان يشاع بين الصبية الآخرين- مع أن أحدًا لم يعرف من الذي بدأ بسرد تلك القصة- أن سيدة كانت قد أقامت بالفندق منذ فترة من الوقت، كانت قد قبّلته في المصعد،

وهذا هو فقط الشيء الذي اتضح أمره على الأقل حتى الآن، بين السيدة ورينيل، وكان الذين يعلمون بتلك الشائعة يجدون لذة كبرى في التطلع إلى تلك السيدة المتحررة وهي تمر بخطواتها الهادئة، الخفيفة، ونقابها الرقيق، وجسدها المحبوك في ردائها الدانتيل، ذلك أن مظهرها الخارجي لم يكن يشير أقل إشارة، إلى أن هذا التصرف من الممكن أن يصدر عنها.

وكانت تلك السيدة قد أقامت في الطابق الأول، الذي لم يكن يخدمه مصعد رينيل، إلا أن المرء لم يكن يسعه بالطبع أن يمنع النزلاء من دخول أي مصعد آخر، إذا كان مصعدهم مشغولًا في تلك الأثناء، وعلى هذا فمن حين لآخر كان يحدث أن تستعمل تلك السيدة مصعد كارل ورينيل، لكن فقط عندما يكون رينيل في نوبة عمله، وربما كان ذلك قد حدث مصادفة، إلا أن أحدًا لم يصدق ذلك، وعندما تحرك المصعد بهما، حدثت فتنة بين صبية المصاعد لم يسعهم أن يضبطوا فيها جماح أنفسهم، وكان من الضروري أن يتدخل رئيس السفرجية، وقد فعل، ذات مرة، وأخيرًا سواء كانت السيدة، أو الشائعة هي السبب، فقد بقيت الحقيقة الواقعة وهي أن رينيل كان قد تغير، فأصبح أكثر ثقة بنفسه، وترك تلميع المصعد كلية لكارل، الذي كان ينتظر فقط حتى تتاح له الفرصة المناسبة لسماع تفسير جذري لهذه النقطة، ولم يعد من الممكن رؤية رينيل في عنبر النوم، لم يحدث أن هجر أي صبي آخر مجتمع صبية المصاعد بهذه الصورة، لأنهم كانوا بصفة خاصة- فيما يختص بالعمل على الأقل- يتكاتفون تمامًا بعضهم مع بعض، وكانت لهم جمعية خاصة بهم كانت ترعاها إدارة الفندق.

ومضى كل هذا في ذهن كارل، في نفس الوقت، مختلطًا ببعض

الأفكار التي تدور حول ديلامارش، إلا أنه مضى في عمله كالمعتاد، وعند منتصف الليل، كانت تنتظره مفاجأة صغيرة، فقد أحضرت له تيريز، التي كانت تدهشه دائمًا بهداياها الصغيرة، تفاحة كبيرة، وقالبًا من الشيكولاتة! تحدثا معًا للحظات، وهما منتبهان إلى رحلات المصعد التي كانت تقطع حديثهما من حين لآخر، ثم تحدثا عن ديلامارش، وأدرك كارل أنه لابد أن يكون قد خضع لتأثير تيريز حقًّا، عندما انتهى كما انتهت من الحديث عنه إلى أنه رجل خطير، لأن هذا كان هو رأيها في ديلامارش، بعد أن سمعت ما ذكره لها كارل، وكان كارل يعتقد أنه كان مجرد إنسان عديم التدبير، فقد سمح لعزيمته أن تنهار أمام النحس الذي واجهه، ومن السهل عليه أن ينقذ نفسه من هذا الوضع، إلا أن تيريز عارضته في عنف، وأصرت، بعد أن ألقت عليه خطبة طويلة، على أن يعدها بألا يتحدث إلى ديلامارش مرة أخرى، وبدلًا من أن يعدها راح كارل يجادلها، طالبًا منها أن تذهب إلى فراشها، فقد جاوز الوقت منتصف الليل، وعندما رفضت هددها بأن يترك عمله، ويأخذها إلى حجرتها، وعندما أبدت استعدادها أخيرًا للذهاب، قال: «لماذا تزعجين نفسك إلى هذا الحد، دون داع يا تيريز؟ وعلى أية حال فإنني على استعداد لأن أعدك بألا أتحدث إلى ديلامارش، ما لم يصعب عليّ أن أتجنب ذلك، إن كان وعدي هذا يساعدك على أن تنامي مرتاحة البال».

ثم وصل حشد من النزلاء، وكان الصبي الذي يعمل بالمصعد المجاور قد دعي للقيام بمهمة أخرى، فأصبح على كارل أن يعمل بالمصعدين معًا وتذمر بعض النزلاء لتعطيلهم، وربت سيد كان يرافق إحدى السيدات، بالفعل على كتف كارل، بعصاه التي يتوكأ عليها، في رقة، يطلب منه

الإسراع!، تنبيه لم يكن ثمة ما يدعو إليه بالمرة! ولم يكن يضير هؤلاء النزلاء مطلقًا، إذا وجدوا مصعدهم معطلًا، أن يتوجهوا مباشرة إلى مصعد كارل، إلا أنهم بدلًا من ذلك، اندفعوا إلى المصعد الآخر، وتوقفوا أمامه، وقد أمسك أحدهم بمقبض الباب، وفي أحيان كانوا يدخلون المصعد مباشرة، وهو تصرف كان صبية المصاعد ممنوعون من السماح به لأحد، صراحة، طبقًا للتعليمات، ومهما كانت الظروف.

وهكذا كان على كارل أن يندفع من هذا المصعد إلى ذاك، حتى أُجهد غاية الإجهاد، دون أن يتبادر إلى ذهنه، أنه قد قام بالفعل بأكثر من واجبه، وطلب منه فوق هذا كله، في حوالي الساعة الثالثة صباحًا، حمَّال عجوز كانت قد ربطته به صداقة وطيدة، أن يؤدي له مساعدة بسيطة، إلا أن كارل لم يتمكن من تلبية طلبه؛ لأن النزلاء كانوا يقفون أمام كلا المصعدين، وكان ذلك يتطلب منه بديهة سريعة لكي يقرر في الحال أي المجموعتين يبدأ بها أولًا، ولهذا ارتاح كارل عند عودة الصبي الآخر، وصاح في وجهه، موجهًا إليه بضع كلمات يلومه بها على غيابه طوال تلك الفترة، على الرغم من أنه، ربما لا يكون مسئولًا عن ذلك التأخير.

وجاءت فترة من الهدوء بعد الساعة الرابعة صباحًا، كان كارل في أشد الحاجة إليها، فاستند مُجهدًا إلى الدرابزين بجوار مصعده، وراح يقضم التفاحة متأنيًا، وفاحت منها رائحة قوية عندما قضمها، وراح يحدق أمامه إلى مدخل غارق في الضوء، تحيطه نوافذ المخازن المرتفعة، التي كانت تتدلى خلفها كميات هائلة من الموز كانت تسطع في خفوت وسط الظلام.

الفصل السادس

مرض روبنسون

ثم ربت شخص ما على كتفه، فدس كارل التفاحة مسرعًا في جيبه، وقد ظن أنه لابد بالطبع نزيل من نزلاء الفندق، وهرول إلى المصعد، دون أن ينظر إلى الرجل.

قال الرجل: «مساء الخير يا مستر روسمان، إنني روبنسون!».

فقال كارل وهو يهز رأسه: «ولكنك تبدو مختلفًا تمام الاختلاف!».

قال روبنسون، وهو يتأمل ملابسه، التي كانت تتألف من قطع مختلفة، قد تبدو كل منها، فاخرة للغاية في حد ذاتها، لكنها كانت غاية في التنافر بعضها مع بعض، حتى لقد بدت رثة بالفعل، وكان أول ما يستدعي الانتباه صديرية بيضاء، كانت تستعمل للمرة الأولى في وضوح، وكانت محلاة بأربعة جيوب صغيرة ذات حروف سوداء، حاول روبنسون أن يلفت إليها انتباه كارل بأن نفخ صدره: «نعم.. لقد تحسنت حالي».

فقال كارل، وهو يتذكر عندئذ بدلته البسيطة الجيدة، التي ربما كان يبدو بها على قدم المساواة مع رينيل، تلك البدلة التي باعها صديقاه اللئيمان: «لكن ملابسك هذه ملابس غالية».

فأجابه روبنسون قائلًا: «نعم، إنني أشتري لنفسي شيئًا تقريبًا كل يوم، ما رأيك في الصديرية؟».

قال كارل: «إنها جيدة جدًّا».

فقال روبنسون: «إلا أن هذه الجيوب، ليست جيوبًا حقيقية لقد صنعت فقط لتبدو كذلك»، وتناول يد كارل، وأدناها من جيوبه لكي يتفحصها بنفسه، إلا أن كارل تراجع من فوره، ذلك أن رائحة لا تطاق، هي رائحة البراندي، كانت تنبعث من فم روبنسون.

قال كارل، وهو يتراجع إلى الدرابزين: «لقد بدأت تشرب ثانية!».

فقال روبنسون: «لا، إنني لا أفرط في الشراب»، ثم أضاف قائلًا في لهجة أخرى، تناقض حالة انبساطه السابقة: «وأي شيء آخر يمكن أن يفعله المرء في هذه الدنيا؟!»، وقطعت حديثهما رحلة للمصعد، وما كاد كارل يعود ثانية إلى الطابق الأسفل، حتى تقدم نحوه عامل تليفون يطلب منه أن يبحث عن طبيب الفندق؛ لأن سيدة في الطابق السابع قد أُغْمي عليها، وخلال قيامه بهذه المهمة، تمنى كارل في نفسه أن يختفي روبنسون قبل عودته؛ لأنه لم يكن يحب أن يراه أحد معه، وعندما تذكر تحذير تيريز، لم يرغب في أن يتصل به ديلامارش أيضًا، إلا أن روبنسون كان في انتظاره، بجمود الرجل الذي أفرط في الشراب، ومر في تلك اللحظة أحد كبار موظفي الفندق،

وكان يرتدي الفراك، والقبعة العالية، إلا أنه لم يلتفت لحسن الحظ، على ما يبدو إلى ذلك الدخيل.

قال روبنسون، وهو يغمز لكارل في إغراء: «ألا ترغب في زيارتنا يا روسمان؟ إننا نحيا حياة راقية الآن».

فتساءل كارل قائلًا: «هل هذه الدعوة موجهة إليّ منك، أو من ديلامارش؟!».

قال روبنسون: «مني ومن ديلامارش، من كلينا معًا».

– إذن دعني أقل لك، ويمكنك أن تنقل هذا إلى ديلامارش، إن ما بيننا إن لم يكن قد اتضح لك هذا حتى الآن، قد انتهى.

ولقد سببتما لي ضررًا لم يسببه لي غيركما من قبل، فهل عزمتما على ألا تتركاني في سلام، حتى الآن؟

قال روبنسون مشمئزًا، وقد ترقرقت في عينيه دموع سريعة: «ولكننا صديقاك، وقد طلب مني ديلامارش أن أخبرك بأنه يترك لك حرية القبول أو الرفض، إننا نعيش الآن مع برونيلدا، وهي مغنية فاتنة»، وعند ذكر اسمها، شرع في الغناء بصوت راعش مرتفع، إلا أن كارل أسكته في الحال، هامسًا: «أغلق فمك على الفور، ألا تدري أين أنت؟!».

فقال روبنسون فزعًا غاية الفزع لغنائه بذلك الصوت المرتفع:

– روسمان، إنني صديقك، إنني صديقك بالفعل، فقل لي ما تشاء، ولكنك تشغل الآن تلك الوظيفة الممتازة هنا، فهل يمكنك أن تقرضني شيئًا من النقود؟!.

قال كارل: «سوف تشرب بها فقط، ولماذا؟، إنني أرى زجاجة براندي في جيبك، ولابد أنك كنت تشرب منها عندما ذهبت أنا، فقد كنت في تمام وعيك قبلها!».

فقال روبنسون: «إنني أشرب فقط حتى يمنحني الشراب شيئًا من العزم، عندما أكون مكلفًا بمشوار خارج البيت».

فقال كارل: «حسنًا، لن أهتم بأمرك أكثر من هذا».

فقال روبنسون وهو يفتح عينيه على اتساعهما: «لكن ماذا عن النقود؟!».

قال كارل متسائلًا، وهو يضع يده في جيب صديريته، لأنه كان قد قرر أن يضحي بما جمعه من البقشيش في تلك الليلة: «أظن أن ديلامارش قد كلفك بأن تعود إليه بالنقود؟ حسنًا، سأعطيك شيئًا منها، لكن فقط بشرط أن تنصرف في الحال، وألا تعود ثانية إلى هنا، فلو أردت أن تتصل بي، فيمكنك أن ترسل لي خطابًا، «كارل روسمان، عامل مصعد، الفندق الغربي»، وسيصلني حتمًا، إلا أنني أخبرك مرة أخرى، بأنه لا يجب عليك أن تأتي مطلقًا إلى هنا للبحث عني، فهذا مكان عملي، ولا وقت لديّ هنا للزوار، حسنًا، هل تقبل النقود بتلك الشروط؟!».

وأطرق روبنسون فقط، ردًّا على ذلك التساؤل الذي وجهه إليه كارل، وهو يتنفس في جهد، فلم يفهم كارل معنى إطراقته تلك، فعاد يسأله: «نعم، أم لا؟!».

وعندئذ أومأ روبنسون إليه، طالبًا منه أن يقترب، وهمس إليه وهو يتلوى بصورة تدل على حقيقة حالته: «روسمان، إنني أشعر بوطأة المرض الشديد».

فصاح كارل: «يا للشيطان!»، وسحبه بكلتا يديه إلى درابزين السلم، واندفع سيل من القيء من فم روبنسون إلى الأرض، وفي اللحظات التي كان يتمالك فيها نفسه، كان يمد يده باحثًا عن كارل في ضعف، وتخبط.

وكان يقول عندئذ: «إنك فتى طيب القلب!، أوه، لقد توقف الآن!»، ولم يكن يقصد بهذا مرضه، رغم ذلك، أو يقول: «الخنازير، أي نوع من الخمر هذا الذي صبوه في جوفي؟!»، ولم يكن كارل يطيل البقاء إلى جانبه لحيرته، واشمئزازه أيضًا، فراح يذرع المكان ذهابًا وجيئة، من الممكن ألا يرى أحد روبنسون لو بقى هنا في ذلك الركن بجور المصعد، لكن ماذا يحدث لو تصادف ورآه أحدهم، واحد من هؤلاء النزلاء الأثرياء الصخّابين، الذين يتأهبون دائمًا للشكوى كلما وقعت عيونهم على أي موظف من موظفي الفندق، فيثور هذا، ناقمًا في ثورته على كل شيء، وماذا لو رآه أحد مفتشي الفنادق، الذين يتغيرون دائمًا، ولا يكاد يتعرف عليهم سوى أعضاء هيئة إدارة الفندق، حتى إن المرء قد اعتاد أن يشتبه في أي شخص يتلفت حوله، ويحسبه مفتشًا من مفتشي الفنادق، مع أنه قد لا يكون سوى مجرد شخص مصاب بقصر النظر؟ وقد يتصادف أن يمر أحد السفرجية الذين في الطابق الأرضي، في طريقه إلى المخازن ليحضر شيئًا- ذلك أن البوفيه يعمل طوال الليل- فتصدمه رؤية ذلك الخليط المقزز فوق أرضية المدخل، فيتصل بكارل تليفونيًا ليسأله: «بحق الإله» عما حدث! فهل يسع كارل أن ينكر معرفته بروبنسون في تلك الحالة؟ ولو استطاع أن ينكر معرفته به، فهل يمكن ألا يكون روبنسون من الغباء والانهيار، بحيث لا يتعلق بخناق كارل بدلًا من أن يعتذر؟ وهل من الممكن ألا ينتهي ذلك بفصل كارل من

عمله في الحال؟ بما أنه كعامل مصعد، ليس سوى شخص بسيط لا يؤبه به؛ لأنه أقل هيئة من موظفي الفندق الضخمة كلها شأنًا، وأسهلهم جميعًا استبدالًا بغيره، فهل يحتمل وضع كوضعه، أن يسمح لأحد أصدقائه بأن يلوث الفندق؟ بالإضافة إلى أن هذا قد ينتج عنه أيضًا هرب الزبائن؟ فهل يمكن التسامح مع صبي مصعد له مثل هذا الصديق؟ ويسمح له فوق ذلك بزيارته بالفعل في وقت عمله؟ ألا يبدو صبي مصعد على هذه الصورة، سكيرًا هو نفسه، وربما أسوأ من ذلك؟ وقد لا يبدو أي افتراض آخر معقولًا، كأن يظنوا أنه يتخم أصدقاءه بطعام الفندق حتى لا يتمكنوا من أن يمنعوا أنفسهم من التقيؤ، كما فعل روبنسون في كل أنحاء الفندق البالغ النظافة؟ وكيف يمكن أن يحصر صبي كهذا نفسه في حدود سرقة الطعام والشراب، طالما أن فرص السرقة تتوافر له بالفعل بغير حد، نظرًا لإهمال النزلاء البالغ، فالدواليب تظل مفتوحة في كل مكان، والأشياء الثمينة تتناثر فوق المناضد، وعلب المجوهرات تبقى مفتوحة، والمفاتيح تلقى حيثما اتفق؟.

وعند ذلك أحس كارل على البعد بخطوات عدد من النزلاء يصعدون درجات مشرب البيرة في القبو، حيث انتهت لحظتها حفلة من حفلات المنوعات، فتوقف بجوار مصعده، ولم يجرؤ على أن يتطلع نحو روبنسون خوفًا مما قد يراه.

وقد ارتاح كارل قليلًا، عندما لم يسمع صوتًا، ولا حتى نأمة من الناحية التي كان يقبع فيها روبنسون، فخف إلى خدمة النزلاء، وراح يصعد، ويهبط في مصعده، إلا أنه لم يتمكن من أن يتخلص من شروده، وكان يتهيأ، عندما كان يهبط بمصعده إلى الطابق الأرضي، في كل مرة، لمواجهة كارثة مفاجئة.

واتسع لديه الوقت في النهاية، للعناية بروبنسون الذي كان قد خرّ على ركبتيه في وضاعة، في ذلك الركن، وقد أكب بوجهه فوق ركبتيه، وكان قد دفع قبعته المستديرة الجامدة إلى مؤخرة رأسه.

قال له كارل في لين، لكن بشيء من الحزم: «يجب أن تذهب الآن بالفعل، وها هي النقود، فلو أسرعت، فيمكنني أن أجد بعضًا من الوقت لكي أدلك على أقصر طريق للخروج من هنا!».

فقال روبنسون وهو يمسح جبهته بمنديل صغير: «إنني لا أقوى على الحركة مطلقًا، وسوف أقضي نحبي هنا، فلا يمكنك أن تتصور مدى ما أشعر به من المرض، لقد صحبني ديلامارش إلى جميع أوكار الشراب الفاخرة التي يرتادها، إلا أنني لا أكاد أطيق ذلك الشراب الذي يقدمونه هنالك، ولقد قلت له ذلك مرارًا!».

قال كارل: «حسنًا، لا يمكنك ببساطة أن تبقى هنا، تذكر أين أنت، ولو اكتشف أحد وجودك هنا، فسوف تواجهني المتاعب، وسوف أفقد عملي، فهل تريد لي ذلك؟!».

قال روبنسون: «لا أقوى على النهوض فوق قدميّ، وسوف أزحف إلى هذا المكان على أية حال!»، وأشار بيده إلى المكان الخالي بين درابزين السلم، وبئر المصعد: «سوف أبقى هنالك بقدر ما يمكنني أن أبقى في حالتي هذه، يمكنني أن أحتمل البقاء في هذا المكان، إلا أنني لا أقوى على النهوض، ولقد حاولت أن أنهض عندما صعدت بنزلائك».

فقال كارل وهو يجذب ساقيّ روبنسون قليلًا، لأن روبنسون كان يبدو

معرضًا لخطر الاستغراق في النوم العميق في أية لحظة: «إذن فسوف أبحث عن تاكسي ليقلك إلى المستشفى!»، فشرع روبنسون في البكاء، عندما سمع كلمة «المستشفى» التي بدت وكأنها قد أثارت في نفسه مخاوف رهيبة، ورفع ذراعيه نحو كارل، وكأنه يسترحمه.

فقال كارل، وهو يضرب يدي روبنسون الممدودتين نحوه: «اهدأ!»، وأسرع نحو الصبي الذي كان قد قام بعمله في تلك الليلة، ورجاه أن يحل محله لفترة قصيرة بدوره، وعاد مسرعًا إلى روبنسون الذي كان لا يزال ينشج بالبكاء، ورفعه بعنف على قدميه، وهمس في أذنه قائلًا: «روبنسون، لو أردتني أن أساعدك، فيجب عليك أن تتماسك، وتحاول أن تسير بمفردك في توازن، لمسافة قصيرة، سوف أصحبك إلى فراشي، حيث يمكنك أن تبقى إلى أن تشعر بالتحسن، ولسوف تدهش للسرعة التي سوف تشفى بها، لكن عليك أن تتعقل الآن بالفعل، لأن الناس يتجولون في الممرات، كما أن فراشي يوجد في عنبر كبير للنوم، فلو أثرت انتباه هؤلاء الناس، فلن أتمكن عندئذ من أن أفعل لك شيئًا آخر، كما أنني لا يمكنني أن أحملك فوق كتفي، ولو بدا عليك أنك تشرف على الموت».

قال روبنسون: «سأفعل كل ما تطلبه مني، إلا أنك لن تتمكن من أن تسندني وحدك، فهلا استدعيت رينيل أيضًا ليعاونك؟».

قال كارل: «رينيل غير موجود».

فقال روبنسون: «نعم، بالطبع، إن رينيل الآن مع ديلامارش وقد أرسلني كلاهما إليك، لقد اختلط عليّ الأمر تمامًا!». وراح كارل يدفعه في أثناء انشغال روبنسون بهذا الحديث، وغيره من أحاديثه غير المفهومة التي

كان يحدث بها نفسه، إلى الأمام، وتمكن من أن يبلغ به أحد الأركان في سلام، ومن ذلك الركن يبدأ ممر خافت الإضاءة، يؤدي إلى عنبر نوم صبية المصاعد، وهرع أحد الصبية مسرعًا نحوهما، وتجاوزهما بأقصى سرعته لحظتها، وكان كارل وروبنسون قد اشتبكا في بضع مشاجرات بسيطة حتى الآن، وكان الوقت عندئذ بين الرابعة والخامسة صباحًا هو أشد الأوقات هدوءًا، وأدرك كارل أنه إن لم يتخلص من روبنسون الآن، فلن يكون أمامه مطلقًا أدنى أمل في التخلص منه في الصباح الباكر، بعد أن تبدأ نوبة عمل النهار.

وفي أقصى نهاية عنبر النوم، كانت معركة هائلة، أو تسلية من نوع ما، قد قامت على قدم وساق، وكان يمكن سماع التصفيق، ودقات الأقدام المتهيجة، وصيحات التشجيع، وفي الجانب الآخر من العنبر، ناحية الباب، كان عدد قليل جدًّا من الصبية المستغرقين في النوم في أسرتهم، وكان أغلب الصبية الباقين يستلقون فوق ظهورهم، يحدقون في السقف، بينما كان هنا وهناك، صبي يرتدي ملابسه، أو صبي يخلعها، حيثما اتفق، أو يقفز أحد الصبية المستيقظين من فراشه ليتطلع إلى ما كان يجري في الجانب الآخر من العنبر.. وهكذا تمكن كارل من أن يقود روبنسون الذي كان قد تعود الآن على السير، حتى بلغا فراش رينيل دون أن يلفتا إليهما الأنظار، فقد كان الفراش قريبًا جدًّا من الباب، وكان خاليًا لحسن الحظ، أما فراش كارل، كما تبينه كارل من على البعد، فقد كان يشغله صبي غريب لا يعرفه، قد استغرق في النوم في هدوء، وما إن أحس روبنسون بالفراش تحته حتى تأهب للنوم في الحال، وتدلت إحدى ساقيه خارج الفراش.

وسحب كارل البطاطين حتى غطى بها وجه روبنسون تمامًا، وظن أنه ليس بحاجة إلى أن يخشى شيئًا الآن؛ لأن الرجل لم يكن ليستيقظ قبل السادسة، على الأقل، وسيكون هو بنفسه هنا وقتها، وربما أمكنه بمساعدة رينيل أن يجدا وسيلة من الوسائل لتهريبه إلى خارج الفندق.. لم تكن السلطة العليا في الفندق تقوم بأي تفتيش على عنبر النوم إلا في حالات نادرة، وكان صبية المصاعد قد نجحوا منذ سنوات عديدة في إلغاء التفتيش النظامي الذي كان يحدث قبلها، وهكذا فلم يكن ثمة ما يدعو إلى الخوف من هذه الناحية.

وعندما عاد كارل إلى مصعده ثانية، تبين أن مصعده، والمصعد الذي يجاوره كانا قد اختفيا في أعلى الفندق، فانتظر في رجفة حتى يتضح الأمر، ووصل مصعده إلى الطابق الأرضي أولًا، وخرج منه الصبي الذي كان قد مرق بجانبه في الممر منذ فترة قصيرة.

قال له متسائلًا: «أنت، أين كنت يا روسمان؟ لماذا تركت مصعدك؟ ولماذا لم تبلغ عن غيابك؟!».

قال كارل وهو يشير إلى الصبي الذي يعمل بالمصعد المجاور، والذي كان قد وصل لتوه: «لقد طلبت منه أن يعمل بمصعدي للحظات، ولقد فعلت ذلك بدلًا منه لمدة ساعتين كاملتين، عندما كانت حركة النزلاء على أشدها!»

فقال الصبي المقصود بهذا الكلام: «كل هذا لا بأس به، إلا أنه خطأ، ألا تعلم أنه يجب عليك أن تبلغ عن غيابك عن مكان عملك مهما قصر، إلى مكتب رئيس السفرجية، لقد وضع التليفون هناك من أجل ذلك، ولقد كان يسرني أن أقوم بعملك، لكنك تعلم أنت نفسك أن الأمر لم يكن بهذه

السهولة، فقد كان هنا جمع من النزلاء الجدد، وصلوا بقطار الرابعة والنصف السريع، وكانوا يقفون أمام كلا المصعدين، ولم أستطع أن أستعمل مصعدك أولًا وأترك من يقفون أمام مصعدي في الانتظار، هل كان في مقدوري أن أفعل ذلك؟ وهكذا فقد صعدت بمصعدي أولًا!».

قال كارل متوترًا، بينما لجأ الصبيان الآخران إلى الصمت: «حسنًا!».

فقال الصبي الذي يعمل بالمصعد المجاور: «حسنًا، وقد كانت تلك اللحظة بالذات هي اللحظة التي قدم فيها رئيس السفرجية، ورأى الناس ينتظرون أمام مصعدك، ولم يجدك، فاستشاط غضبًا، وسألني عن المكان الذي ذهبت أنت إليه، ولما لم أكن موجودًا وقت ذهابك، فلم تكن لدي بالطبع أية فكرة عن مكانك، لأنك لم تخبرني حتى عن المكان الذي توجهت إليه، وهكذا فقد اتصل تليفونيًا بعنبر النوم مباشرة، وطلب صبيًّا آخر ليحل محلك في الحال».

وتساءل الصبي الآخر قائلًا: «لقد التقيت بك في الطرقة، أليس كذلك؟!».

وأطرق كارل..

وأكد له الصبي الذي يعمل بالمصعد المجاور: «ولقد قلت له بالطبع في الحال أنك قد طلبت مني أن أحل محلك، لكن هل يستمع هو إلى أي اعتذارات؟ لا يبدو أنك تعرفه، ولهذا علينا أن نخبرك بأن تتوجه إلى مكتبه في الحال، ولا يجب عليك ألا تنتظر أكثر من ذلك، اذهب إلى حجرته، فلعله يعفو عنك في النهاية، فإنك لم تترك مصعدك سوى دقيقتين بالفعل،

ويجب عليك أن تصر على أنك قد طلبت مني أن أحل محلك، ومن الأفضل ألا تذكر أنك قد حللت محلي بالمثل قبلها، هذه هي نصيحتي لك، فلا شيء يمكن أن يحدث لي، لأنني كنت قد استأذنت في الغياب، إلا أنه لا داعي لذكر ذلك، وخلطه بهذا الموضوع، الذي لا علاقة له به».

قال كارل: «إنها أول مرة أترك فيها مصعدي!».

فأجابه الصبي الآخر، قائلًا، وهو يهرول إلى مصعده، فقد كان بعض النزلاء قد توجهوا نحوه: «إن الأمر يحدث دائمًا على هذه الصورة، إلا أن أحدًا لا يصدق ذلك!».

وقال الصبي الذي حل محل كارل في أثناء غيابه، وهو يشعر بالأسف الواضح، من أجل كارل، وكان صبيًّا في حوالي الأربعة عشرة من عمره: «لقد فصلوا صبيانًا من هذا العمل بالفعل، عدد كبير منهم قد فصل في ظروف كهذه، إلا أن المتبع عادة هو أن يحولوك إلى عمل آخر.. وعلى قدر علمي فقد حدث مرة واحدة فقط أن قاموا بطرد صبي ارتكب مثل هذا الخطأ الذي ارتكبته، فيجب عليك أن تجد عذرًا مقبولًا، لكن لا تحاول أن تقول له إنك شعرت فجأة بالمرض، فسوف يدفعه ذلك إلى الضحك فقط، ومن الأفضل أن تقول أن نزيلًا من النزلاء قد أرسلك في طلب عاجل إلى نزيل آخر، وإنك لا تذكر النزيل الأول، ولم تستطع كذلك أن تعثر على الآخر».

قال كارل: «حسنًا، لن يبلغ الأمر هذا الحد من السوء!» لم يمكنه أن يعتقد بعد كل ما سمعه أن الأمر سينتهي بسلام، وحتى لو تم الصفح عن إهماله، فإن روبنسون لا يزال يستلقي هناك في عنبر النوم، كغلطة حيّة، ومن المحتمل جدًّا ألا يقنع رئيس السفرجية المحب للانتقام بالتقصي السطحي

للأمر، ولابد له أن يكتشف وجود روبنسون في نهاية الأمر، ولم يكن هناك حقًّا حظر صريح يمنع استقبال الغرباء في عنبر النوم، إلا أن هذا الحظر لم يوجد ببساطة، لأنه لم يوجد ما يدعو لذكر شيء بعيد الاحتمال من هذا القبيل.

وعندما دخل كارل المكتب، كان رئيس السفرجية يحتسي قهوة الصباح، فكان يرتشف رشفة من حين لآخر، وفي نفس الوقت يتفحص قائمة، يبدو أن رئيس البوابين كان قد أحضرها إليه، فقد كان بداخل الحجرة هو أيضًا، وهو شخص طويل، أكرش، كان رداؤه الفاخر المفرط الزينة- حتى الأكمام والأكتاف كانت مثقلة بالسلاسل الذهبية والأشرطة- يجعله يبدو أعرض منكبًا مما هو في الحقيقة، وكان شاربه الأسود اللامع مرفوع إلى قمتين مدببتين على الطريقة الهنغارية، ولا يتحرك لأعنف حركة مفاجئة من رأسه، وكانت ملابسه الثقيلة المنشأة تجعله هي أيضًا يبدو بتلك الهيئة، ولم يكن ذلك الرجل يستطيع الحركة إلا بصعوبة، وكان يقف دائمًا وساقاه متباعدتان جدًّا، حتى يتمكن من توزيع ثقل جسمه فوقهما في شيء من التوازن.

ودخل كارل في جرأة وسرعة كما اعتاد أن يفعل في الفندق، ذلك أن التباطؤ، والوقت الضائع الذي ينقضي في المجاملات بين الأشخاص الفارغين، كان يعد تكاسلًا يتصف به صبية المصاعد، وبالإضافة إلى ذلك، فإنه لا يجب أن يبدو كما لو كان يحس بالذنب في لحظة دخوله، وتطلع رئيس السفرجية في سرعة إلى أعلى، عندما فتح الباب، ثم عاد فورًا إلى احتساء قهوته، وإلى قراءة القائمة دون أن يعير كارل أدنى التفات.. إلا أن رئيس البوابين الذي كان يتلقى بعض التعليمات السرية على ما يبدو، أو كان

يكلف بإبلاغها، قد بدا عليه الضيق لوجود كارل، فحملق فيه في غضب، وكان يعاود تلك النظرة الساخطة كل بضع دقائق نحو كارل، برأسه المحني في تصلب، وعندما كانت عيناه تلتقيان بعيني كارل، ويبدو أنه كان يحرص على ذلك، كان يديرهما في الحال نحو رئيس السفرجية ثانية.. إلا أن كارل ظن أنه لم يكن يريده أن يدخل الحجرة لوجوده هو فيها، ولأن رئيس السفرجية لم يأذن له بالدخول.. كان رئيس السفرجية لا يزال يقرأ القائمة، ويتناول قطعة من الكعك في أثناء قراءته، كان ينفض عنها السكر بين الحين والآخر دون أن يرفع عينيه عن القائمة، وقد وقعت منه في مرة ورقة من أوراق القائمة على الأرض، فلم يحاول رئيس البوابين أن يلتقطها، لأنه كان يعلم إنه لا يستطيع أن ينحني، ولأنه لم يكد يرى ما يدعوه إلى ذلك، لأن كارل كان قد انقض على الورقة، وناولها لرئيس السفرجية، الذي تسلمها في حركة عادية لا مبالية من يده، وكأنها كانت قد ارتفعت تلقائيًا من مكانها على الأرض حتى بلغت يده، ولم تنفع كارل تلك الخدمة البسيطة التي تطوع بها في شيء؛ لأن رئيس البوابين قد مضى في توجيه نظراته الغاضبة نحو كارل.

وكان كارل يشعر الآن برباطة الجأش على الرغم من ذلك.. فلأن خطأه قد بدا غير ذي أهمية بالنسبة لرئيس السفرجية إلى هذا الحد، رأى كارل أنه قد يمكنه أن يعتبر هذا دليلًا طيبًا، بالإضافة إلى أن خطأ كهذا هو شيء تافه، كما أن عامل المصعد كذلك يعد شخصًا قليل الأهمية، وليس له على هذا أن يتمتع بشيء من الحرية، إلا أن قلة شأنه بالذات هي النقطة التي يجب بناء عليها ألا تقوم الدنيا لغلطة بسيطة يرتكبها، وفوق كل هذا، فلقد بدأ رئيس السفرجية نفسه حياته العملية عامل مصعد- وأن تقدمه في حياته العملية

هو في الحقيقة فخر الجيل الحاضر من صبية المصاعد- ولقد كان هو أول من نظم جمعية عمال المصاعد، ولا شك إنه هو أيضًا كان يترك مكان عمله من حين لآخر، دون إذن، على الرغم من أحدًا لا يمكنه الآن أن يرغمه على الاعتراف، ومع إنه لا يجب نسيان أن بداية رئيس السفرجية، كصبي مصعد، قد جعلته أشد قسوة في حفظ النظام بين صبية المصاعد، ونزعت من قلبه الرحمة بهم، إلا أن كارل كان يداعب شيئًا من الأمل في خلال تلك الدقائق التي كانت تمر في هدوء.

وكانت الساعة الآن حسب الساعة التي في مكتب رئيس السفرجية، قد تعدت الخامسة والربع، وربما عاد رينيل في أي لحظة، ولعله أن يكون قد عاد بالفعل، لأنه لابد أن يلاحظ أن روبنسون لم يعد حتى الآن، وعلى أية حال فلا يمكن أن يكون ديلامارش وروبنسون في مكان بعيد جدًّا عن الفندق الغربي، وهذا ما خطر ببال كارل، وإلا ما كان لروبنسون في حالته المنهارة، أن يصل إلى الفندق والآن، لو وجد رينيل أن روبنسون ينام في فراشه، وهذا ما قد يحدث، فسوف يكون كل شيء عندئذ على ما يرام، ذلك أن شخصًا عمليًا كرينيل- وخاصة فيما يتعلق بالأمور القريبة من اهتماماته- سوف يجد طريقة أو أخرى لإخراج روبنسون من الفندق، وسوف يسهل عليه ذلك؛ لأن روبنسون لابد أن يكون الآن قد شُفي، وربما كان ديلامارش في انتظاره أمام الفندق لكي يتولى أمره، وما إن يتم التخلص من روبنسون حتى يتسنى لكارل أن يواجه رئيس السفرجية ببال هادئ أكثر، وربما أطلق سراحه عندئذ، بعد شيء من التعنيف الذي سيوجهه إليه رئيس السفرجية، والذي سيكون- بلا شك- تعنيفًا قاسيًا، ثم سيتشاور مع تيريز إن كان عليه

أن يذكر للمديرة الحقيقة كاملة- فهو لم يكن يرى غبارًا على دوره في هذا الأمر- ولو أمكن أن يتم هذا، فسوف يتم إنهاء الموضوع كله في النهاية دون أن يكون قد حدث له أدنى ضرر.

وكان كارل لحظتها يطمئن نفسه بهذه الأفكار، وراح يحصي في ارتياح المنح التي تلقاها في تلك الليلة، فقد كان يحس بأن قطع العملة كانت في جيبه الليلة أثقل من المعتاد. عندما وضع رئيس السفرجية، القائمة التي كان يقرؤها أمامه على المنضدة، قائلًا: «انتظر لحظة أخرى يا فيودور، هل يمكنك أن تنتظر؟!»، ناهضًا على قدميه بقفزة واحدة، وصرخ في كارل بأعلى صوته، حتى أن الصبي قد توقف فقط محملقًا، وقد جمده الرعب، في فتحة فمه المظلمة.

- لقد تركت عملك بدون إذن، فهل تدري ما معنى هذا؟ إن معناه، الفصل ولن أستمع إلى أية اعتذارات، عليك أن تحتفظ باعتذاراتك الكاذبة لنفسك، وتكفيني حقيقة أنك لم تكن في مكان عملك، فلو تهاونت معك هذه المرة، وأطلقت سراحك، فإن كل صبيان المصاعد الأربعين، سوف ينطلقون على هواهم في خلال أوقات العمل، ويتركونني وحدي لكي أحمل ضيوف الفندق الخمسة آلاف، فوق كتفي، وأصعد بهم درجات السلم!.

لم يقل كارل شيئًا، واقترب رئيس البوابين، وجذب جاكتة كارل من الخلف، كانت متكرشة إلى حد ما، قاصدًا بلا شك أن يلفت نظر رئيس السفرجية إلى إهمال كارل في العناية بزيه.

فتساءل رئيس السفرجية قائلًا في خبث: «ربما كان المرض قد دهمك فجأة؟!».

فألقى عليه كارل نظرة فاحصة، وأجابه قائلًا: «لا!» فصاح رئيس السفرجية في صوت أكثر ارتفاعًا: «وهكذا فأنت لم تكن مريضًا أيضًا، لابد إذن في جعبتك كذبة جديدة رائعة فبماذا ستعتذر؟ هيا انطق!».

– لم أكن أعلم أن علي أن أتصل تليفونيًا، لكي أحصل على إذن بترك مكان عملي!

قال رئيس السفرجية: «هذا بالفعل رد لا يكلف شيئًا!»، وقبض على كارل من ياقته، ودفعه عبر الحجرة، حتى واجه كلاهما لوحة التعليمات الخاصة بالمصاعد، التي كانت مثبتة فوق الحائط، وجاء رئيس البوابين في أعقابهما.

قال رئيس السفرجية: «ها هي التعليمات، اقرأها!» وأشار إلى إحدى الفقرات، وظن كارل أن عليه أن يقرأها بينه وبين نفسه، إلا أن رئيس السفرجية صاح فيه قائلًا: «ارفع صوتك!».

وبدلًا من أن يقرأ كارل الفقرة في صوت مرتفع، قال لرئيس السفرجية آملًا أن يهدئه: «إنني أعرف كل تلك الفقرات، فقد حصلت على نسخة من التعليمات، وقرأتها في عناية، وهي تعليمات لا يمكن للمرء أن ينسى شيئًا من تفاصيلها، ولقد عملت هنا لمدة شهرين حتى الآن، ولم أترك مكاني مرة واحدة».

فقال رئيس السفرجية: «حسنًا، سوف تتركه الآن!»، وعاد إلى المنضدة، وتناول القائمة مرة أخرى، كما لو كان ليواصل قراءتها، لكنه خبط قبضته فوقها ثانية فوق المنضدة، وكأن شيئًا ما قد ساءه عندما تناولها، وتصاعد الدم

فوق جبينه، وخديه، وراح يذرع الحجرة بخطواته ذهابًا وجيئة.

– كل هذا الازعاج بسبب صبي أحمق سخيف! كل هذا التعطيل بسبب نوبة عمل الليلة!

صاح بهذه الكلمات عديدًا من المرات، وقد ملأه العجب.

– هل تعلم من الذي ظل واقفًا ينتظر هناك أمام المصعد، عندما غادره ذلك الشخص الذي يقف أمامك، وذهب على هواه؟! تساءل رئيس السفرجية، مستديرًا نحو رئيس البوابين، وذكر اسمًا، أصيب رئيس البوابين، الذي كان يعرف زبائن الفندق جميعًا دون شك، ويعرف أوضاعهم كذلك، أصيب بالرعب، حتى لقد وجد نفسه ينظر إلى كارل نظرة خاطفة، لكي يؤكد لنفسه أن ذلك الصبي، الذي غادر مصعده، وترك صاحب ذلك الاسم ينتظر دون أن يجد من يخف لخدمته، يوجد بالفعل فوق سطح الأرض.

قال رئيس البوابين: «إن هذا مخيف!»، وراح يهز رأسه ببطء في ذهول نحو كارل، الذي كان يرقبه في شرود، وهو يفكر في أن صدمة هذا الرجل الغبية، خطأ آخر عليه أن يدفع ثمنه.

وواصل رئيس البوابين حديثه قائلًا، وهو يسدد إبهامه الضخم السمين المتصلب نحو كارل:

– إنك الصبي الوحيد الذي يرفض أن يؤدي لي التحية، فمن تظن نفسك؟ إن كل صبي يمر بمكتب رئيس البوابين يؤدي لي التحية، يمكن أن تفعل ما يحلو لك مع باقي البوابين، لكنني أصر على ضرورة اتباع أصول اللياقة، وإنني أحيانًا ما أتصنع عدم ملاحظة سلوكك هذا تجاهي، لكن

عليك أن تعلم أنني أعرف تمامًا من الذي يقول لي طاب يومك، ومن الذي لا يقولها، أيها الجلف! واستدار مبتعدًا عن كارل، وهو يخطو في عظمة نحو رئيس السفرجية، الذي جلس ليكمل تناول فطوره، ويتفحص جريدة الصباح التي أحضرها له لحظتها أحد المساعدين.

قال كارل، وهو يدرك أن عليه أن يصفي حسابه أولًا مع رئيس البوابين، بينما يتجاهله رئيس السفرجية، ويدرك كذلك أن اللوم الذي يوجهه إليه الآن رئيس البوابين قد لا يتمخض عن أي ضرر، إلا أن عداءه له يضره بصفة عامة:

«سيدي، لاشك أنني قد مررت بمكتبك على الأغلب دون أن أؤدي لك التحية، إلا أنني مازلت حتى الآن حديث العهد بالحياة في أمريكا، فقد قدمت منذ فترة قصيرة من أوروبا، حيث يحيي الناس بعضهم بعضًا بإفراط بالغ، وهذا شيء معروف جيدًا، وبالطبع لم أتمكن من أن أتخلص من تلك العادة، لماذا، لأنني في خلال شهرين فقط قضيتهما في نيويورك، حيث اتفق لي أن عشت في وسط راق، نبهوني طويلًا إلى أنني أفرط في توجيه تحياتي للناس، وهأنت ذا تتهمني بأنني لا أحييك دون غيرك، لقد وجهت إليك تحياتي كل يوم، عديدًا من المرات في اليوم الواحد، لكن بالطبع، ليس في كل مرة يتصادف أن أراك فيها، لأنني أمر بمكتبك مئات المرات كل يوم!».

– عليك أن تحييني في كل مرة تمر فيها بمكتبي، في كل مرة بالفعل، دون استثناء، عليك أن تقف وقبعتك في يدك، طوال الوقت الذي تتحدث فيه إليّ، ويجب أن تخاطبني دائمًا «بيا سيدي» عندما تتوجه إليّ بالحديث، ولا تقل لي: «أنت!» وعليك أن تفعل هذا كله دائمًا، وفي كل مرة، في كل مرة

بالحرف الواحد.

فردد كارل قائلًا في لين: «في كل مرة؟!» بشيء من الحيرة، لأنه تذكر الآن كيف كان يبدو له، طوال فترة وجوده بالفندق، ذلك التعبير القاسي المفعم باللوم على وجه رئيس البوابين عندما كان يواجهه، منذ الصباح الأول، وهو لا يزال عاملًا جديدًا بالفندق، ولا يزال حرًا في سلوكه، ومنطلقًا على سجيته إلى حد ما، فتقدم إليه في ذلك الصباح مندفعًا، وراح يسأله في إلحاح، وشيء من التشديد إن كان ثمة رجلان قد سألا عنه، أو تركا لديه صورة فوتوغرافية، ليسلمها له؟!.

وقال رئيس البوابين مستأنفًا حديثه: «وهأنت ذا ترى الآن ما جلبه عليك ذلك السلوك!»، بينما كان يتقدم ثانية نحو كارل، ملوحًا بيده نحو رئيس السفرجية الذي كان لا يزال مستغرقًا في تصفح جريدته، كما لو كان ذلك السيد هو أداة انتقامه من كارل:

– سوف تتذكر في عملك المقبل أن تتأدب في معاملة البواب، ولو كان بوابًا لحانة نتنة.

تحقق كارل الآن من أنه قد فقد وظيفته، فقد أشار رئيس السفرجية إلى ذلك منذ لحظات، وها هو ذا رئيس البوابين، يكرر ذلك الآن كحقيقة واقعة.. ولا يبدو أن هناك أهمية لتصديق إدارة الفندق عندما يتعلق الأمر بفصل عامل مصعد.. إلا أن الأمر قد حدث في سرعة خارقة لم يكن يتوقعها، فقد عمل هنا لأكثر من شهرين بكل طاقته على العمل، وبصورة أفضل كثيرًا بلا شك من غيره من الصبية الآخرين، لكن يبدو أن مثل هذه الاعتبارات، لا يلتفت إليها في اللحظات الحاسمة، في كل مكان في العالم، لا في أوروبا، ولا

في أمريكا.. إن الحكم متعمد ومدبر منذ اللحظات الأولى، من أول كلمة تفوه بها القاضي في ثورة غضبه، وربما كان من الأفضل له أن يغادر المكان، ويرحل في الحال، وربما كانت المديرة وتيريز نائمتين حتى الآن، ويمكنه أن يودعهما بخطاب يرسله إليهما، حتى يجنبهما على الأقل الحزن والأسف اللذين ستشعران بهما عندما يودعهما بنفسه، ويمكنه أن يعد أشياءه بسرعة في داخل الصندوق، ويتسلل خارجًا في هدوء.. فلو قدر له أن يمكث في الفندق سحابة اليوم على الأقل- وقد يتسنى له ذلك بأن يأوي إلى النوم بعض الوقت- فلن يفيد هذا سوى تضخيم الحادث، ليصبح فضيحة ولومًا يوجه إليه من كل جانب، كما أنه سيفرض عليه رؤية تيريز التي لن يحتملها، وربما بكت المديرة نفسها، وربما وقع له فوق كل هذا شيء ما على سبيل العقوبة أيضًا، إلا أن أكثر ما أحنقه هو أن يجد نفسه الآن في مواجهة اثنين من الأعداء، يغالطانه في كل كلمة يتفوه بها، فلو كف هذا؛ فلكي يفعل الآخر بدوره ما شاء له العبث بكلمات كارل، ويسيء تأويلها.. ولهذا ظل صامتًا، وارتاح في تلك الأثناء لهدوء الحجرة، فقد كان رئيس السفرجية لا يزال مستغرقًا في قراءة الصحيفة، بينما وقف رئيس البوابين إلى جوار المنضدة، وانهمك في ترتيب أوراق قائمته المتناثرة، تبعًا لتسلسل أرقامها، وهي مهمة كانت تبدو شاقة جدًّا بالنسبه له؛ لقصر نظره الشديد.

ووضع رئيس السفرجية، صحيفته جانبًا في النهاية، وتثائب، وطمأن نفسه إلى وجود كارل في مكانه، بنظرة سريعة إليه ثم أدار قرص تليفونه، وصاح قائلًا عدة مرات: «هاللو..»، إلا أن أحدًا لم يجبه، فقال لرئيس البوابين:

– لا أحد يجيب!، وقال رئيس البوابين، الذي كان يتابع المكالمة التليفونية باهتمام زائد، كما لاحظ كارل: «إنها الساعة السادسة إلا الربع الآن، ولابد أن تكون قد استيقظت من نومها، فدق الجرس بشدة أكثر!»، إلا أن التليفون رد لحظتها، دون مزيد من الدق على الجرس، فقال رئيس السفرجية:

– أنا إيسباري الذي يتحدث! صباح الخير، أرجو ألا أكون قد أقلقت نومك! إنني آسف، نعم، إنها السادسة إلا الربع، إلا أنني في غاية الأسف حقًّا، لو كنت قد أزعجتك، ويجب عليك أن ترفعي سماعة التليفون عن الجهاز عندما تأوين إلى النوم، لا.. لا.. لا عذر لي في الحقيقة، وخاصة أن الأمر الذي أريد أن أتحدث إليك بشأنه، أمر تافه للغاية، إنني أريد أن أبحثه معك، لكن لدي بالطبع متسع من الوقت لذلك، وسوف أنتظرك بالطبع، فاتصلي بي لو تفضلت.

وقال رئيس السفرجية لرئيس البوابين مبتسمًا، بينما كان الأخير ينحني على التليفون وقد ارتسم على وجهه تعبير صارم: «لابد إنها قد هرولت إلى التليفون بقميص نومها! لابد أنني قد أزعجتها بالفعل لأن تلك الفتاة التي تكتب لها على الآلة الكاتبة، توقظها عادة، لكن يبدو أنه قد فاتها أن تفعل ذلك هذا الصباح لسبب أو آخر، إنني آسف لإزعاجها، فهي عصبية بطبيعتها إلى حد كاف».

– لماذا تركت التليفون، وانصرفت؟!

فأجابه رئيس السفرجية، وهو يرفع السماعة ثانية، عندما رن جرس التليفون، «لترى ماذا حدث للفتاة!»، ثم استأنف حديثه قائلًا في التليفون:

«سوف تظهر الفتاة في الحال.. فلا تنزعجي لكل شيء إلى هذا الحد، إنك في حاجة إلى الراحة التامة بالفعل، والآن، لنتحدث في موضوعي البسيط، يوجد هنا صبي مصعد يدعى..»، واستدار حوله بنظرة متسائلة، وجَّهَهَا إلى كارل، الذي كان يستمع بانتباه شديد، فأدلى باسمه في الحال، متابعًا: «يدعى كارل روسمان، ولو كنت أذكر جيدًا، فهو الصبي الذي أوليته شيئًا من اهتمامك، ويؤسفني أن أقول لك إنه قد أساء رد جميلك، فقد ترك عمله دون إذن، وورطني بهذا في صعوبات خطيرة، ولا يمكنني أن أذكر لك النتائج التي قد تترتب على ذلك، وعلى هذا فقد فصلته الآن من العمل، فأرجو ألا يسيئك ذلك، ماذا تقولين؟ فصل؟ نعم، فصل، إلا إنني قد أخبرتك الآن بأنه قد ترك مصعده لا.. هنا لا يمكنني في الحقيقة أن أوافقك يا سيدتي العزيزة، إنها مسألة تتعلق بممارستي لسلطتي، فثمة خطر كبير يترتب على هذا، فصبي مثله من الممكن أن يفسد المجموعة كلها، ولابد من التشدد الذي لا يعرف الرحمة مع صبية المصاعد بالذات، لا.. لا.. لا يمكنني في هذه الحالة أن أجاملك، على الرغم من رغبتي الشديدة في إرضائك، وحتى لو أنني سمحت له بالبقاء على الرغم من ذلك، لمجرد أن أسيطر على أعصابي فحسب، فلن يكون هذا في صالحك، نعم، ليس في صالحك أن تستبقيه هنا، إنك تولينه اهتمامًا لا يستحقه أبدًا، وإنني لأعرفه، وأعرفك أيضًا، وإنني واثق من إنه لن يجلب لك سوى خيبة الأمل البالغة، التي يجب أن تتجنبيها بأي ثمن إنني أقول لك هذا بغاية الصراحة، وتحت سمع الصبي نفسه، لأنه يقف فقط على بعد خطوة واحدة مني، في ثبات هو الوقاحة بعينيها، لابد من فصله، لا.. لا.. لابد من فصله نهائيًا وفي الحال، لا.. لا.. لا يمكن أن

أعهد إليه بعمل آخر، فلا فائدة لي منه على الإطلاق، وبالإضافة إلى ذلك فهنا من يشكون منه أيضًا، إن رئيس البوابين مثلًا، نعم فيودور بالطبع! لقد اشتكى فيودور من عدم تأدبه، ومن وقاحته، ماذا، ليس هذا كافيًا؟ يا سيدتي العزيزة إنك تناقضين طبيعتك باستمرارك في مساندة هذا الصبي، لا.. لا يجب عليك في الحقيقة أن تضغطي عليّ إلى هذا الحد!».

وانحنى رئيس البوابين في تلك اللحظة، وهمس في أذن رئيس السفرجية بشيء ما، فتطلع إليه رئيس السفرجية مندهشًا في البداية، ثم تحدث مسرعًا في التليفون، حتى أن كارل لم يتمكن من أن يسمع ما كان يقوله، فاقترب منه لهذا، قليلًا على أطراف أصابعه.

قال: «عزيزتي المديرة، لكي أكون صريحًا معك غاية الصراحة فإنني أصرح لك بأنني لم أكن أعتقد أنك تخطئين إلى هذا الحد في حكمك على الأشخاص، فلقد علمت الآن شيئًا عن ملاكك البريء، شيئًا لاشك في أنه سيقلب رأيك فيه رأسًا على عقب، ويؤسفني أن أكون أنا الذي أنهي إليك بهذا الخبر.. إن هذا الصبي المدلل الذي تساندينه، هذا المثال الرائع للفضيلة، يندفع إلى المدينة في كل ليلة يخلو فيها من العمل، ولا يعود إلى الفندق قبل الصباح، نعم.. نعم، إن لديَّ الدليل على صدق ذلك، وهو دليل لا يرقى إليه الشك، نعم، والآن هل يمكنك أن تخبريني، من أين له بالمال الذي ينفقه على تلك المغامرات الليلية؟ أو كيف يمكن أن نتوقع منه الالتفات إلى عمله كما يجب في هذه الحالة؟ وهل تريدين مني أن أمضي في ذكر تفاصيل ما يفعله في المدينة؟ إن صبيًّا كهذا لابد من التخلص منه بأسرع ما يمكن، وأرجو أن تعتبري ذلك نذيرًا بأن تحذري العناية بالصبية الذين يظهرون مثله،

فجأة من حيث لا يدري أحد!».

صاح كارل، وقد ارتاح لهذا الخطأ الذي تهيأ له أنهم قد وقعوا فيه عندما ظنوا أنه يغادر الفندق ليلًا في أوقات راحته، ذلك لأن هذا الخطأ قد يتمخض عن تقدم غير متوقع للموقف كله: «لكن يا سيدي، لابد أن خطأ ما قد حدث، لقد فهمت أن رئيس البوابين قد أخبرك بأنني أخرج إلى المدينة كل ليلة، إلا أن هذا ببساطة غير صحيح، إنني أقضي كل ليلة في عنبر النوم، ويمكن أن يؤيد الصبية الآخرون جميعًا كلامي هذا، وعندما لا أكون نائمًا فإنني أنفق وقتي في دراسة المعاملات التجارية، لكنني لم أغادر عنبر النوم ليلة واحدة، إن من السهل إثبات هذا، ولاشك أن رئيس البوابين قد أخطأ فحسبني شخصًا آخر، وأرى الآن أيضًا لماذا ظن أنني أمر به دون أن أحييه».

فصاح رئيس البوابين، وهو يلوح بقبضته بدلًا من إصبعه كما يفعل الآخرون عند التحذير، قائلًا: «هل يمكنك أن تمسك لسانك؟! إذن فقد خلطت أنا بينك وبين شخص آخر؟! هل فعلت ذلك حقًّا؟! كيف لي إذن أن أستمر في عملي هنا كرئيس للبوابين إن كان لي أن أخلط بين شخص وآخر؟ إنني أسألك يا مستر ايسباري، كيف يتسنى لي أن أكون رئيس البوابين هنا لو خلطت بين الناس؟ إنني طوال مدة خدمتي التي امتدت ثلاثين عامًا، لم أخلط مطلقًا بين شخص وآخر، ويمكن أن يخبرك مئات السفرجية الذين كانوا هنا على عهدي، بصدق ذلك، فيبدو كما لو كان عليّ أن أتعلم مهنتي من جديد على يديك، أيها الصبي الحقير! بوجهك هذا الناعم الذي لا يمكن أن يخطئه أحد! وما شأن الخطأ، على كل حال، بهذا الأمر؟ يمكنك أن تتسلل إلى المدينة من وراء ظهري، ولا يتطلب الأمر مني سوى أن أنظر في

وجهك حتى أتبين أنك جلف لا تصلح لشيء».

قال رئيس السفرجية الذي بدا أن حديثه مع المديرة قد انقطع فجأة: «كفى يا فيودور، إنه أمر بالغ البساطة، فلا يعنينا في الحقيقة كيف يمضي لياليه، ولاشك أنه يريدنا أن نقوم بمهمة التحري الشامل عن تفاصيل حياته الليلية، قبل أن يغادرنا.. يمكنني أن أدرك أن هذا يسعده جدًّا، وفي وسع كل صبي من صبياننا الأربعين أن يستعرض نفسه، لو توافرت لديه الرغبة في ذلك، وسيقول لك بالطبع إنهم قد خلطوا بينه وبين غيره أيضًا، وهكذا، فلو حاولنا أن نقبل هذا الهراء، لتعين علينا عندئذ أن نسحبهم جميعًا واحدًا واحدًا كشهود، وسيتوقف العمل بالطبع تمامًا في الفندق كله لبعض الوقت، ومع إنه سيطرد في نهاية الأمر، فلابد له من أن يستمتع قليلًا، وعلى هذا فسنتجاوز عن ذلك، لقد خدع المديرة بالفعل حتى الآن، تلك السيدة الطيبة القلب، وسوف نوقفه عند هذا الحد.. ولن أستمع إلى كلمة أخرى، لقد فصلت الآن بسبب إهمالك لعملك، وسوف أعطيك مذكرة للصراف الذي سيدفع لك أجرك حتى اليوم، ودعني أقل لك إنه بعد الخطأ الذي ارتكبته اليوم، فإن موافقتي على أن تتناول أجرك هو محض رحمة بك، وإنني أفعل ذلك فقط، مجاملة للمديرة!».

وقطع حديث رئيس السفرجية، رنين جرس التليفون مرة أخرى، قبل أن يوقع المذكرة، وبعد أن استمع إلى الكلمات الأولى، صاح في دهشة: «لا شي اليوم سوى متاعب صبية المصاعد هؤلاء!» ثم صاح بعد لحظة: «هذا ما لم نسمع به حتى الآن!»، واستدار بعيدًا عن التليفون، قائلًا لرئيس البوابين: «أرجوك يا فيودور، اقبض على هذا الصبي الآن، فلدينا الكثير مما سنقوله

له»، ثم صاح قائلًا في التليفون: «تعال في الحال».

واستطاع رئيس البوابين الآن، أن ينفس عن غضبه الذي لم يكن قد أظهره شفهيًا، فقد قبض بذراعه على كارل في عنف، لكنه لم يتمكن من أن يحكم قبضته عليه، فكان يخفف قبضته من حين لآخر، ثم شيئًا فشيئًا كان يعود فيشددها على كارل بغاية القسوة، فقد كان قويًا جدًّا، وبدا ضغطه على كارل وكأنه لن يتوقف، حتى لقد غامت الأشياء أمام عينيه، وفوق ذلك فهو لم يكن يقبض فقط على ذراع كارل، بل كان يضغط جسمه أيضًا، وكأنه قد أمر بأن يفعل ذلك، ويرفعه فوق قدميه بين الحين والآخر إلى أعلى، ويدفعه، وهو يقول طوال الوقت في شبه تساؤل لرئيس السفرجية: «هل يمكنني أن أخلط بينه الآن وبين سواه، هل يمكنني أن أخلط بينه وبين سواه الآن؟!».

وقد تمكن كارل من أن يرتاح من ضغط رئيس البوابين على جسده، إلى حد ما، عندما دخل رئيس صبية المصاعد، وهو شاب سمين يدعى «بست»، كان يلهث، فلفت انتباه رئيس البوابين لبعض الوقت، وكان الإرهاق قد نال من كارل حتى إنه لم يتمكن، عندما حضرت تيريز لدهشته خلف الشاب، يبدو عليها الانهيار، ووجهها شاحب كوجوه الموتى، وملابسها متهدلة، وشعرها مصفف في إهمال، لم يتمكن من أن يغتصب ابتسامه لها إلا بصعوبة بالغة، وسرعان ما همست له وهي تقف إلى جواره:

– هل تعلم المديرة؟!

فأجابها كارل: «لقد أخبرها رئيس السفرجية بالتليفون» فقالت في سرعة، وقد التمعت عيناها: «إذن فكل شيء على ما يرام.. كل شيء على ما يرام».

فقال لها كارل: «لا، إنك لا تعرفين ما يتهمونني به، لابد لي من أن أرحل، لقد اقتنعت المديرة نفسها بذلك فعلًا.. فأرجوك ألا تبقي هنا، اصعدي ثانية، وسوف آتي لوداعك فيما بعد».

- ما الذي تعتزمه يا روسمان؟ يمكنك أن تبقى ما شاء لك البقاء هنا.. إن رئيس السفرجية يفعل ما تطلبه منه المديرة، إنه عشيقها، ولقد اكتشفت ذلك بنفسي منذ وقت قصير، فلا تخش شيئًا.

- أرجوك يا تيريز، اذهبي من هنا، فلا يمكنني أن أدافع عن نفسي كما ينبغي في أثناء وجودك هنا، ولابد لي من أن أدافع عن نفسي دفاعًا كاملًا، لأنهم يلفقون لي الأكاذيب، وبقد ما يمكنني أن أهزمهما دفاعًا عن نفسي، كلما اتسعت أمامي الفرصة للبقاء هنا، ولهذا يا تيريز.. لكنه عندئذ لسوء الحظ، أضاف هذه الكلمات لتقلص مفاجئ أصابه، فتألم له ألمًا بالغًا، وإن كان قد قالها في صوت خفيض: «فقط لو يتركني رئيس البوابين! لم تكن لدي أدنى فكرة عن عدائه لي، لكنه لا يكف عن ضغط ذراعي ولويه!»، وفي نفس الوقت كان يفكر قائلًا في نفسه: «لماذا أقول ذلك، لا يمكن ألا تتأثر أي امرأة لسماع مثل هذه الشكوى!»، وبالفعل، وقبل أن يمنعها بذراعه الطليقة، كانت تيريز قد تحولت إلى رئيس البوابين قائلة:

- أرجوك يا سيدي، دع روسمان الآن، إنك تؤلمه، إن المديرة سوف تصل إلى هنا بنفسها، بعد لحظة، وسوف ترى عندئذ أن هذا كله كان مجرد خطأ، دعه، فما هي المتعة التي تجنيها من تعذيبه؟!، وجذبت ذراع رئيس البوابين بالفعل، فأجابها هذا قائلًا: «الأوامر يا فتاتي الصغيرة، الأوامر!»، وجذب تيريز إليه، بيده الطليقة في تودد، بينما اعتصر ذراع كارل بيده

الأخرى بكل قوته، وكأنه لم يكن يريد أن يؤذيه فحسب، بل كانت لديه خطة معينة، لم تكن قد أنجزت كما ينبغي بالنسبة للذراع التي كان يقبض عليها.

وناضلت تيريز بعضًا من الوقت لكي تخلص نفسها من أحضان رئيس البوابين، وكانت تتأهب لكي تلفت انتباه رئيس السفرجية الذي كان يواصل الاستماع إلى «بست» المتباطئ، الثرثار، عندما دخلت المديرة مسرعة.

فصاحت تيريز: «حمدًا لله!»، وساد السكون الحجرة للحظة، سوى تلك الصيحة المدوية، وقفز رئيس السفرجية، واقفًا على قدميه في الحال، ودفع «بست» جانبًا.

– وهكذا جئت بنفسك يا سيدتي العزيزة؟ بسبب هذا الأمر؟ ولقد كنت أخشى بعد حديثنا في التليفون أن تأتي، إلا أنني لم أعتقد أنك ستحضرين بالفعل، ومنذ حديثنا ذاك في التليفون تدهورت الحالة التي تساندينها أكثر فأكثر، وأخشى ألا يكون في وسعي أن أفصله فقط، بل قد أرسله إلى السجن أيضًا، فاستمعي بنفسك إلى تفاصيل الموضوع، وأشار إلى «بست» لكي يدلي بما عنده.

قالت المديرة، وهي تجلس على مقعد أصر رئيس السفرجية على إخلائه لها: «إنني أريد أولًا أن أتحدث قليلًا مع روسمان!»، قالت: «اقترب مني يا كارل لو سمحت!»، فاقترب منها كارل، أو على الأصح، جرجره رئيس البوابين إلى مكانها.

قالت المديرة ساخطة: «اتركه، ألا تتركه؟ إنه ليس قاتلًا!» فتركه رئيس البوابين في الحال، لكنه قبل أن يتركه سحق ذراعه بضغطة أخيرة بغاية

العنف، حتى طفرت الدموع من عينيه هو نفسه، تحت تأثير الجهد.

صاحت المديرة، وهي تضع يداها المطويتان على صدرها في هدوء، بينما أحنت رأسها قائلة في لهجة لم تكن تنم عن الاستجواب مطلقًا: «كارل؟ أريد قبل كل شيء أن أقول لك إنني مازلت أثق بك ثقة كاملة، كما أن رئيس السفرجية هو أيضًا رجل عادل، ويمكنني أن أشهد له بذلك، وإننا نود من أعماقنا أن نستبقيك هنا!»، وهنا تطلعت إلى رئيس السفرجية بنظرة سريعة، كما لو كانت ترجوه ألا يقاطعها، إلا أنه لم يفعل، واستأنفت حديثها قائلة لكارل: «فانس لهذا كل ما قيل لك حتى الآن، وفوق كل هذا، فلا يجب عليك أن تأخذ مأخذ الجد ما قد يكون رئيس البوابين، قد قاله لك، إنه رجل سريع الهياج، ولا عجب في ذلك، إذا نظرنا إلى طبيعة عمله.. إلا أن له زوجة وأطفالًا أيضًا، وهو يعلم أن الصبي الذي يعول نفسه، لا يحتاج إلى مزيد من العذاب؛ لأن العالم كله سيتحقق من أنه يشارك بمجهود ملحوظ في أعبائه».

كان السكون لا يزال يخيم على الحجرة، ونظر رئيس البوابين إلى رئيس السفرجية، كما لو كان يتوقع منه أن يسانده، وتطلع رئيس السفرجية إلى المديرة، وهز رأسه، وابتسم «بست» رئيس صبية المصاعد في سخرية بلهاء، وهو يقف خلف ظهر رئيس السفرجية، وكانت تيريز قد انخرطت في البكاء بصوت غير مسموع، وقد غلبها الأسى والفرح، وكانت تحاول أن تخفي مشاعرها عن الآخرين!

إلا أن كارل على الرغم من أن ذلك كان من الممكن تفسيره كدلالة سيئة، لم يتطلع نحو المديرة، التي كانت تتوقع منه بلا شك أن يفعل ذلك، بل راح ينظر أمامه نحو أرضية الحجرة، وكانت ذراعه لا تزال تؤلمه، وكان كم

قميصه ملتصقًا بالكدمات، حتى إنه كان عليه بالفعل أن يخلع جاكتته لكي يتفحص تلك الكدمات.. وكان ما قالته المديرة بالطبع، شيئًا بالغ العطف، كما أنه بدا له على هذا النحو بسبب الطريقة التي انتهجتها في تناول الأمر، ولابد أن الآخرين سيظنون أن عطفها مجرد حماقة، وأن كارل كان يحظى بصداقتها التي قامت على أسس زائفة طوال شهرين، وأنه لهذا لم يكن يستحق شيئًا أكثر من أن يقع بين يدي رئيس البوابين.

واستأنفت المديرة حديثها قائلة: «إنني أقول هذا، حتى يمكنك أن تعطيني جوابًا شافيًا، ولا شك إنك ستتمكن من أن تفعل ذلك مهما كانت الظروف، لو كنت قد عرفت طباعك حقًّا!».

قال «بست» رئيس صبية المصاعد فجأة في أدب بالغ، لكن في تشويش زائد من الوقت نفسه: «هل يمكنني لو سمحت أن، أذهب؟» ثم تحول إلى المديرة قائلًا: «إن الأمر يتلخص فيما ينزف نزيفًا قاتلًا!».

قال رئيس السفرجية «لبست» الذي اندفع خارجًا في الحال: «اذهب»، ثم تحول إلى المديرة قائلًا: «إن الأمر يتلخص فيما يلي: إن رئيس البوابين لم يكن يقبض على هذا الصبي عبثًا، ففي عنبر نوم صبية المصاعد في الطابق الأسفل، يوجد شخص غريب تمامًا، وثمل للغاية، ولقد اكتشفه الصبية مندسًا في عناية في أحد الأسرة في عنبر نومهم، ولقد أيقظوه بالطبع، وحاولوا أن يطردوه إلى خارج العنبر، ألا أن ذلك الشخص أحدث شغبًا بالغًا، وصاح قائلًا بأن الفراش الذي كان يرقد فوقه هو فراش كارل روسمان، وإنه ضيف روسمان، وإن روسمان هو الذي ذهب به إلى هناك، وإنه سيسحق كل من يتجاسر على أن يلمسه، وبالإضافة إلى ذلك، فإن عليه ببساطة أن ينتظر عودة

كارل روسمان، لأنه قد وعد بأن يعطيه نقودًا، وأنه ذهب لإحضارها، وانتبه إلى ذلك أنت أيضًا ياروسمان!» قال رئيس السفرجية هذا لروسمان ملتفتًا إليه من فوق كتفه، بينما التفت كارل إلى تيريز التي كانت تحدق بدورها في رئيس السفرجية مأخوذة، وهي تلقي بخصلة شعر من فوق جبهتها، أو ترفع يدها بصورة آلية إلى حاجبها، لمجرد أن تفعل أي شيء: «ولعلك لست في حاجة إلى أن نذكرك بارتباطاتك، ذلك أن الرجل الموجود بالطابق الأسفل، قال أيضًا إنك بعد عودتك إليه سوف تذهب بصحبته لقضاء الليلة مع إحدى المغنيات، وهي مغنية لم يتمكن أحد من معرفة اسمها، وإن كنت قد اقتنعت بذلك، لأن الرجل كان يرفع عقيرته بالغناء كلما خطر له خاطر الذهاب إليها».

وتوقف رئيس السفرجية عند هذا الحد، ذلك أن المديرة كان قد شحب لونها بصورة ملحوظة، ونهضت من على مقعدها ودفعته قليلًا إلى الخلف.

فقال رئيس السفرجية: «سوف أعفيك من ذكر بقية التفاصيل!» قالت المديرة وهي تمسك بيده: «لا.. أرجوك، لا.. استمر أرجوك، لابد لي من أن أعرف كل شيء فهذا ما جئت من أجله».

وتقدم رئيس البوابين الآن إلى الأمام، وخبط بصوت مرتفع على صدره، إعلانًا بأنه كان قد توقع كل شيء منذ البداية في الوقت الذي هدأه فيه رئيس السفرجية، مقرًا له بذلك بقوله: «نعم، يا فيودور، لقد كنت على حق تمامًا».

واستأنف رئيس السفرجية حديثه قائلًا: «لا يوجد ما يقال أكثر من ذلك، ولقد ضحك الصبية على عادتهم من ذلك الرجل في البداية، ثم اشتبكوا معه في عراك، ولما كان يتوافر بينهم كثيرون ممن يجيدون الملاكمة، فقد انطرح

الرجل أرضًا ببساطة، ولم أجرؤ على أن أسأل حتى أين كان الرجل ينزف، وفي أي الأماكن العديدة كان نزيفه، فلوث تلك الأماكن، ذلك أن هؤلاء الصبية هم ملاكمون في غاية العنف، ويعد رجلًا سكيرًا كهذا، لعبة طيبة في متناول قبضاتهم».

وضعت المديرة يدها على ذراع المقعد، ونظرت إلى أسفل نحو ذلك المقعد الذي كانت قد نهضت من فوقه لتوها، ثم قالت بعد ذلك: «إنني أفهم ذلك الآن، فأرجوك أن تقول شيئًا يا روسمان!» واندفعت تيريز عبر الحجرة، وتشبثت بسيدتها، وهو ما لم يرها كارل تفعله من قبل، وكان رئيس السفرجية يقف خلف المديرة ملتصقًا بها، وراح يرتب في أناقة ياقتها الصغيرة المزينة بالدانتيلا، التي كانت قد تكرمشت على نحو ما، وقال رئيس البوابين الذي كان يقف بجانب كارل: «انطق!»، لكنه تفوه بهذه الكلمة لمجرد أن يغطي اللكمة التي كالها له على ظهره.

قال كارل: «صحيح!» في قليل من الجرأة التي كان ينويها، بسبب تلك اللكمة: «لقد وضعت الرجل في عنبر النوم».

فقال رئيس البوابين موجهًا حديثه إلى الحاضرين جميعًا: «هذا هو كل ما نود أن نعرفه!»، واستدارت المديرة في صمت نحو رئيس السفرجية ونحو تيريز.

ومضى كارل في حديثه قائلًا: «لم أستطع أن أمنع نفسي، كانت سبقت لي معرفة ذلك الرجل من قبل، ولقد حضر إلى هنا لزيارتي، بعد غياب دام شهرين، إلا أنه كان ثملًا للغاية، حتى إنه لم يتمكن من مغادرة الفندق بمفرده، عائدًا من حيث أتى».

قال رئيس السفرجية الذي كان قد وقف إلى جانب المديرة في نعومة، كما لو كان يتحدث إلى نفسه: «إذن فهو قد حضر لزيارتك، وبعد ذلك ثمل إلى هذا الحد، حتى لم يتمكن من مغادرة الفندق!»، فهمست المديرة من فوق كتفها، إلى رئيس السفرجية، الذي بدا وكأنه سيعترض، لكنه ابتسم لها، ابتسامة لم تبد عليها أن لها صلة بموضوع كارل على الإطلاق، وضغطت تيريز- ثبت كارل عينيه عليها- وجهها في يأس تام إلى جسد المديرة، وتحاشت النظر إلى أي شيء، وكان الشخص الذي أرضاه توضيح كارل، هو رئيس البوابين، الذي ردد عديدًا من المرات: «هذا صحيح تمامًا، يجب عليك أن تساعد زميلك عندما يكون ثملًا»، وحاول أن يؤكد ذلك التفسير بالنظر إلى الآخرين جميعًا، وتلويح يديه.

قال كارل: «إنني الملوم على هذا!»، وتوقف لحظة، كما لو كان ينتظر كلمة طيبة من قضاته لتمنحه الشجاعة على إكمال دفاعه، إلا أنه لم يسمع شيئًا فقال: «إنني الملوم على هذا فقط لأنني أخذت الرجل إلى عنبر النوم- إنه يدعى روبنسون، وهو أيرلندي- إلا أن كل ما قاله بعد ذلك، إنما يرجع إلى أنه كان ثملًا، وهو غير صحيح كله».

فتساءل رئيس السفرجية قائلًا: «إذن فأنت لم تعد بأن تعطيه نقودًا؟».

قال كارل: «نعم!»، فقد أحس بالأسف لأنه نسي ذلك في عجلته واضطرابه، فقد كان عازمًا تمامًا على أن يصرح بكل شيء لتبرئة نفسه: «لقد وعدته بأن أعطيه نقودًا، لأنه سألني أن أعطيه شيئًا منها، لكن لم تكن لدي أدنى نية في البحث عنها، لأنني كنت سأعطيه فحسب المنح التي حصلت عليها الليلة!»، ولإثبات ذلك، أخرج كارل النقود من جيبه، ورفع يده بقطع

العملة الصغيرة التي كانت معه.

قال رئيس السفرجية: «إنك تورط نفسك أكثر فأكثر، فلو قدر لنا أن نصدقك، فعلينا أن نتناسى تمامًا ما قلته قبل ذلك، فأنت أولًا قد اصطحبت الرجل إلى عنبر النوم- وإنني حتى لست مقتنعًا بأن اسمه روبنسون، لأنه لا يوجد أيرلندي بهذا الاسم منذ أن خلقت أيرلندا- أخذته أولًا إلى عنبر النوم، ولهذا وحده، يمكن أن نقذف بك خارجًا، لتدق عنقك خارج الفندق، يمكنني أن أصرح لك بهذا، إلا أنك لم تعد بأن تعطيه نقودًا بالفعل! ليست هذه لعبة محاورة بالسؤال والجواب؛ لأن السؤال عندما طرح عليك، اتضح إنك وعدت بأن تعطيه نقودًا بالفعل، ودعني أذكرك بهذا، ويبدو إنك في حاجة إلى من يوضح لك طبيعة شخصيتك، وفي البداية لم تكن لديك النية في البحث عن النقود؛ لأنك انتويت أن تعطيه المنح التي تلقيتها الليلة، ثم يتضح الآن أنك تحتفظ بهذه المنح معك، وهكذا فلابد أنك قد انتويت أن تحصل على مزيد من النقود لكي تعطيها له، وهو افتراض يدعمه غيابك الطويل.. وبعد كل هذا، فليس غريبًا أن تأخذ بعض النقود من صندوقك لتعطيها له، إلا أن ما يبدو غريبًا بلا شك هو إنك قد أنكرت ذلك بشدة، وإنك ظللت تخفي حقيقة إنك أتحت للرجل أن يثمل هنا في الفندق، وهي حقيقة لا يمكن الشك فيها، لأنك قد صرحت أنت نفسك بأنه كان قد أتى بنفسه إلى هنا، ولكنه لم يتمكن من أن يغادر الفندق بمفرده، كما إنه قد أخبر كل من في عنبر النوم، بأنه ضيفك، وعلى هذا فلا يبقى سوى شيئين فقط هما اللذان ينحصر فيهما الشك، ولا يمكن تقريرهما بكل دقة دون معونتك، أولهما: كيف تمكنت من أن تدخل المخازن، وثانيهما: كيف وصلت يداك إلى المال

الكافي، حتى توزعه على الغير؟».

قال كارل في نفسه: «من المستحيل أن يدافع المرء عن نفسه حيث لا تتوافر النية الحسنة!»، ولم يحر جوابًا بعد ذلك، على أسئلة رئيس السفرجية، وقد آلم هذا تيريز أشد الألم، وقد بدا هذا واضحًا عليها، كان كارل يعلم أن كل ما يمكنه أن يقوله يبدو مختلفًا غاية الاختلاف في نظر الآخرين، وسواء كان هذا حسنًا، أو سيئًا، فإن النتائج التي يمكن استخلاصها من تصرفاته تعتمد أولًا وأخيرًا على أسلوب محاكمته.

قالت المديرة: «إنه لا يرد؟!».

فقال رئيس السفرجية: «إن هذا هو أفضل ما يمكنه أن يفعله!».

وقال رئيس البوابين: «سوف يفكر في الحال في شيء آخر يقوله!»، بينما راح يداعب شاربه بيد بدت حانية الآن، مع أنها كانت قبل قليل في غاية العنف.

قالت المديرة لتيريز: «اهدئي!»، وكانت تيريز قد بدأت تنهنه، وهي تقف إلى جوارها: «إنك ترين إنه لا يجد شيئًا يرد به على ما يوجه إليه من أسئلة، فكيف يمكنني في هذه الحالة أن أفعل له أي شيء؟، وفوق هذا، فلقد كنت أنا التي أخطأت في رأي رئيس السفرجية، فأخبريني يا تيريز، أترين شيئًا قد قصرت في أدائه، بينما في مقدوري أن أفعله من أجله؟».

كيف يتسنى لتيريز أن تعرف ذلك، وما هو الهدف الذي يدفعها إلى التسليم إلى هذا الحد في وجود هذين الرجلين بهذا السؤال العام، وبدعوتها الفتاة إلى أن تسلم هي أيضًا؟.

قال كارل متمالكًا نفسه مرة أخرى: «مدام»، دون أي غرض، سوى مجرد أن يعفي تيريز من عناء الرد: «أعتقد إنني لم أسبب لكي أي خزي، ولو أن بحثًا دقيقًا قد قام، فإن كل شخص آخر سوف يوافقني على كل ما قلته».

قال رئيس البوابين: «كل شخص آخر!»، وهو يسدد إصبعه نحو رئيس السفرجية: «إن هذا يعنيك يا مستر إيسباري!».

قال مستر إيسباري: «والآن يا سيدتي، إنها السادسة والنصف، ولقد استغرقنا في هذا الأمر وقتًا طويلًا، وأعتقد أن عليك أن تتركي لي الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع الذي عالجناه بكثير جدًّا من الصبر!».

ودخل جياكومو الصغير، متجهًا نحو كارل، لكنه وقد ارتاع للصمت المطبق، توقف، وانتظر.

ولم تكن المديرة قد رفعت عينيها عن كارل، منذ آخر كلمة تفوه بها، كما لم يكن هناك أي دليل على إنها قد سمعت ملاحظة رئيس السفرجية، كانت عيناها مثبتتين مباشرة على كارل، وقد كانتا واسعتين وزرقاوين، لكنهما كانتا كابيتين إلى حد ما بفعل السنين، والأحداث، وبينما كانت تقف هناك وهي تدفع المقعد في رقة أمامها، كانت تبدو كما لو كانت على وشك أن تقول في اللحظة التالية: «حسنًا يا كارل، إنني عندما أتمعن في الأمر، يبدو لي أن هذه المشكلة لم تتضح كما ينبغي لها الوضوح، وهي تحتاج كما قلت أنت بحق، إلى بحث كامل لكل دقائقها، وسوف نشرع في ذلك البحث الآن، سواء وافق الجميع على ذلك، أو اعترضوا، ذلك أن العدالة يجب أن تأخذ مجراها».

إلا أن المديرة قد قالت بدلًا من ذلك بعد لحظة قصيرة من الصمت،

لم يجرؤ أحد على أن ينتهكها، كما أن الساعة دقت لحظتها معلنة السادسة والنصف تأكيدًا لقول رئيس السفرجية، وتبعًا لها، كما يعرف الجميع، دقت كل الساعات الأخرى في الفندق بأكمله، ورنت دقاتها في الأسماع كالنذير، كضربة متضاعفة كوقع الجزء البالغ: «لا يا كارل، لا.. لا.. إننا لن نستمع إلى شيء أكثر مما استمعنا إليه حتى الآن، إن الأمور عندما تكون على حق، فإنها تبدو كذلك منذ الوهلة الأولى، وعليّ أن أعترف بأن ملابسات حالتك، لا تبدو كذلك، إن لي أن أقول ذلك، وعليّ أن أقوله، عليّ أن أعترف بذلك، لأنني كنت أنا التي حضرت إلى هنا منحازة إلى صفك انحيازًا تامًّا، وهأنت ترى أن تيريز تلتزم الصمت هي أيضًا!»، إلا أنها لم تكن صامتة، كانت تبكي.

وتوقفت المديرة، وكأنها قد انتهت فجأة إلى قرار، وقالت: «كارل، تقدم إليَّ هنا»، وعندما تقدم نحوها، بدأ رئيس السفرجية، ورئيس البوابين في الحال حديثًا نشطًا خلف ظهره، ووضعت ذراعها اليسرى حوله، وقادته، وتبعتهما تيريز المستسلمة، إلى الجانب الآخر من الحجرة، وقالت: «وإلا فإنني في الحقيقة لا أعرف ماذا سأعرف بشأنك، إن بحثًا ربما أمكنه أن يبرر موقفك، في بعض النقاط الصغيرة المنفصلة، ولماذا لا يحدث ذلك؟!، وربما كنت قد قمت بتحية رئيس البوابين، إنني أحس دون شك بأنك قد فعلت، كما أن لي رأيي الخاص في رئيس البوابين، وها أنت ترى إنني مازلت في غاية الصراحة معك.. إلا أن هذه التبريرات لن تساعدك مطلقًا في شيء.. وإن رئيس السفرجية الذي تعلمت طوال السنين أن أقدر حكمه على الناس، والذي هو أكثر من عرفتهم من الرجال استحقاقًا للثقة، قد أعلن في وضوح إنك مذنب، ويجب أن أقول أن حكمه يبدو لي غير قابل للإنكار،

وربما كنت قد تصرفت بلا تفكير، لكن لعلك أيضًا، لست الصبي الذي كنت أظنه، إلا أن..!» وبهذا قطعت حديثها، وألقت نظرة عابرة من فوق كتفها إلى الرجلين: «إنني لا يمكنني أن أواصل الاعتقاد بأنك صبي نبيل في جوهرك!».

قال رئيس السفرجية محذرًا: «مدام، مدام!»، لأنه كان قد لمح نظرتها إليهما.

قالت المديرة: «سوف ننتهي في خلال دقيقة واحدة!»، وشرعت في إنذار كارل في سرعة أكثر: «استمع إليّ يا كارل، إنني من خلال ما أمكنني أن أستنتجه من هذا الأمر، فإنني راضية بالفعل لأن رئيس السفرجية لا يريد أن يبدأ بحثًا في مشكلتك، لأنه لو كان له أن يفعل، لكان علي أن أمنعه لصالحك، فلا يجب أن يعلم أحد كيف ولا من أين حصلت على الشراب لذلك الرجل الذي لا يمكن أن يكون أحد صديقيك القديمين، كما أعلنت، لأنك كنت قد اشتبكت في عراك عنيف معهما عندما تركتهما، وعلى هذا فلا يمكن أن تكون على علاقة طيبة إلى هذا الحد بأي منهما الآن، وعلى هذا فلابد أن تكون الصداقة قد ربطتك بهذا الرجل ذات ليلة في أوكار الشراب في المدينة، فكيف أمكنك أن تخفي هذه الأمور عني يا كارل؟! فلو كانت حقيقة، لا تحتمل عنبر النوم، وشرعت في التجول هنا وهناك ليلًا لأسباب غير بريئة كهذه الأسباب، فلماذا لم تذكر كلمة واحدة عن ذلك؟ إنك تعلم أنني قد رغبت في أن أخصص لك حجرة خاصة بك، وإنني عدلت عن الفكرة فقط بناء على رغبتك، ويبدو لي الآن أنك قد فضلت عنبر النوم العمومي، لأنك أحسست بأنك تتمتع بحرية أكثر هناك، كما أنك دائمًا تضع نقودك معي، وتسلمني المنح التي تحصل عليها كل أسبوع، فمن

أين بحق السماء، حصلت أيها الصبي على النقود لهذه الجولات، ومن أين كنت تنوي أن تحصل على النقود لصديقك؟ وبالطبع هذه أمور لا يمكنني أن أذكرها لرئيس السفرجية الآن على الأقل، وإلا فإن التحريات في هذه الحالة، قد لا يمكن تجنبها، وعلى هذا فعليك أن تغادر الفندق ببساطة، وبأسرع ما يمكن أيضًا، اذهب رأسًا إلى «بنسيون برينر»- ولقد ذهبت إليه بالفعل بصحبة تيريز، عديدًا من المرات من قبل- وسوف يستقبلونك في الحال بلا مقابل، إذا أطلعتهم على هذه البطاقة»، وكتبت بضعة سطور فوق البطاقة بقلم من الذهب، انتزعته من داخل بلوزتها، لكن بدون أن تقطع اتصال حديثها: «وسوف أرسل صندوقك خلفك في الحال! اذهبي يا تيريز بسرعة إلى حجرة أمانات صبية المصاعد، وأحضري صندوقه»، إلا أن تيريز لم تأت بأية حركة، لأنها بعد أن كابدت كل ذلك الأسى، رغبت أيضًا في أن تشارك إلى النهاية هذه المرة في الاستمتاع بالحظ الحسن الذي شاء أن يكون من حسن طالع كارل، وشكرًا لعطف المديرة.

وفتح شخص ما الباب قليلًا، دون أن يظهر من خلاله، وأغلقه ثانية في الحال، ولابد أن كان شخصًا قد أتى ليستعجل جياكومو فقد تقدم جياكومو إلى الأمام قائلًا: «روسمان، أريد أن أتحدث معك».

قالت المديرة: «بعد لحظة!»، ودست البطاقة في جيب كارل، بينما كان يستمع وهو واقف برأسه المحنية إلى أسفل: «وسوف أحتفظ الآن بنقودك، أنت تعلم أنها في أمان بين يدي، فأبق اليوم في غرفتك هناك، وتدبر وضعك، وغدًا - فليس لدي وقت اليوم، ولقد احتجزت الآن وقتًا طويلًا للغاية هنا أيضًا- سوف أحضر إليك في روبسون برينر، وسوف نرى ما يمكن أن نفعله

من أجلك بعد هذا، إنني لن أتخلى عنك، ويجب أن تعلم هذا جيدًا الآن، ولست في حاجة إلى أن تشغل ذهنك بأمر مستقبلك، لكنك في حاجة إلى أن تتفحص وضعك خلال تلك الأسابيع القليلة الماضية»، وربتت على كتفه، ثم مضت نحو رئيس السفرجية! ورفع كارل رأسه، وحدق خلف المرأة الطويلة الهيئة، بينما كانت تبتعد عنه بخطواتها الخفيفة، وسلوكها الواضح.

قالت تيريز التي بقيت إلى جانبه: «حسنًا، ألست مسرورًا، لأن كل شيء قد انتهى، هذه النهاية الحسنة؟!».

قال كارل: «آه.. بالطبع!»، وابتسم لها، إلا أنه لم يفهم كيف يمكنه أن يكون مسرورًا، لأنه قد فصل من عمله كلص، وشعت عينا تيريز بالفرح الخالص، كما لو لم يكن يهم مطلقًا، أن كان كارل قد ارتكب جريمة أو لا، ويستوي كذلك إن كان قد حوكم محاكمة عادلة أو ظالمة، ما دام قد أتيح له فقط أن يهرب خجلًا، أو فخورًا، ولقد كانت تيريز هي التي تسلك نحوه هذا السلوك، تيريز تلك المتشككة غاية التشكك في كل شيء يتعلق بها، فتقلبه في رأسها، وتتفحص لعدة أسابيع أية كلمة تحتمل الشك، قد تقولها المديرة، وفي تصميم حازم قال: «هل سترتبين أشيائي في الصندوق، وترسلينه إليَّ في الحال؟»، وكان عليه على الرغم منه أن يهز رأسه في دهشة، فما أسرع أن التقطت تيريز التضمينات التي توهمت أن سؤاله لها يتضمنها، وفي اقتناعها بوجود أشياء في ذلك الصندوق، لا يجب أن يراها أي شخص، لم تُضِعْ لهذا وقتًا، ولو لمجرد أن تنظر إلى كارل، أو حتى تشد على يده، لكنها همست فقط: «بلا شك يا كارل، في الحال، سوف أرتب الصندوق في هذه اللحظة ذاتها!»، واختفت! إلا أن جياكومو لم يستطع الآن أن يمنع

نفسه أكثر من ذلك، وفي اضطرابه لطول انتظاره، صاح قائلًا: «روسمان، إن الرجل قد أثار مشاجرة في الممر، ورفض الخروج من الفندق!، إنهم يريدون أن يذهبوا به إلى المستشفى، إلا أنه يعترض على ذلك، ويقول إنك لن تدعهم يأخذونه إليها، إنه يقول إن علينا أن نحضر تاكسيًّا، يقله إلى البيت، وأنك ستدفع أجر التاكسي، فهل ستدفعه؟!».

قال رئيس السفرجية: «يبدو أن الرجل يعول عليك كثيرًا!» فهز كارل كتفيه، وأحصى نقوده في كف جياكومو قائلًا: «هذا هو كل ما معي!».

قال جياكومو، وهو يشخشخ بالنقود: «إن عليّ أن أسأل أيضًا إن كنت ستستقل التاكسي معه؟!».

فقالت المديرة: «لا، إنه لن يذهب».

فقال رئيس السفرجية مسرعًا، دون أن ينتظر حتى يغادر جياكومو الحجرة:

«حسنًا يا روسمان، لقد فصلت الآن من هنا!»، وأطرق رئيس البوابين برأسه عدة مرات كما لو كانت تلك الكلمات كلماته هو، وليس رئيس السفرجية سوى الناطق بلسانه: «إن أسباب فصلك هي أسباب لا يمكنني أن أعلنها على الملأ؛ لأنني في تلك الحالة سأضطر إلى أن أرسلك إلى السجن!»، ونظر رئيس البوابين في وحشية شديدة نحو المديرة؛ لأنه كان يعلم تمامًا أنها كانت هي السبب في تلك المعاملة البالغة الرقة: «والآن اذهب إلى «بست»، وبدل ملابسك وسلم إلى «بست» زيك هذا الذي ترتديه وغادر الفندق في الحال، غادره في الحال».

وأغلقت المديرة عينيها، وكأنها قد رغبت بذلك أن تؤكد لكارل ما قاله رئيس السفرجية، وعندما انحنى، وهمّ بالخروج من الحجرة، رأى رئيس السفرجية، ممسكًا بيد المديرة، وقد راح يتحسسها مداعبًا إياها خلسة، وأوصل رئيس البوابين كارل إلى باب الحجرة بخطوات ثقيلة، ولم يدعه يغلق بابها خلفه، بل أبقاه مفتوحًا، لكي يصيح خلفه قائلًا: «في خلال ربع دقيقة، يجب عليك أن تمر بمكتبي، وأن تغادر الفندق، عن طريق الباب العمومي، فانتبه إلى هذا».

وأسرع كارل بأقصى سرعته، لكي يتجنب أي تكدير عند رحيله، إلا أن كل شيء سار على نحو أكثر بطئًا مما رغب، فلم يجد «بست» أولًا، وفي هذا الوقت، وقت تناول الإفطار كان الفندق يمتلئ بحشود هائلة من الناس، ثم ظهر أن صبيًّا آخر كان قد استعار بنطلون كارل القديم، وكان على كارل أن يفتش كل شماعات الملابس التي بجوار كل السرر تقريبًا قبل أن يعثر على بنطلونه، وعلى هذا فقد انقضت خمس دقائق على الأقل، قبل أن يبلغ الباب العمومي، وأمامه مباشرة كانت إحدى السيدات تسير في رفقة أربعة رجال، واتجهوا جميعًا نحو سيارة كبيرة كانت في انتظارهم، وكان أحد الخدم يفتح الباب بينما فرد ذراعه الطليقة جانبًا، في محاذاة كتفه على امتدادها، وقد بدا ذلك وضعًا بالغ التأثير، إلا أن رغبة كارل في أن يغادر الفندق دون أن يلحظه أحد خلف هذه المجموعة الراقية من النزلاء راحت عبثًا، ذلك أن رئيس البوابين قد أمسكه من ذراعه، وسحبه إلى الخلف من وسط اثنين من السادة، بعد أن وجه إليهما كلمة اعتذار.

تساءل قائلًا وهو ينظر شزرًا إلى كارل، كما لو كان يتفحص ساعة غير

مضبوطة:

«هل تعتبر هذه المدة ربع دقيقة؟! تعال هنا»، أضاف هذا وهو يدفعه نحو مكتب رئيس البوابين الواسع الذي كان كارل متشوقًا في وقت من الأوقات شوقًا زائدًا إلى أن يتفحصه، إلا أنه قد شمل ذلك المكتب الذي دفعه الرجل إلى داخله دفعًا بنظرة ارتياب، وخلف الباب مباشرة، تملص، وحاول أن يدفع رئيس البوابين بعيدًا، ويهرب.

قال رئيس البوابين: «لا.. لا.. إلى هنا، إلى الداخل»! وهو يدفعه ثانية إلى داخل الحجرة.

قال كارل: «ولكنني قد طردت!» وهو يعني بذلك أن أحدًا في الفندق، لا حق له الآن في أن يصدر إليه أي أوامر، فقال رئيس البوابين: «طالما أنني أقبض عليك، فإنك لم تطرد بعد»!، وكان ما قاله حقًّا بالفعل، وبالإضافة إلى ذلك، فإن كارل لم يجد سببًا فعليًّا لمقاومة رئيس البوابين، فما الذي عساه أن يحدث له في نهاية الأمر، أكثر مما قد حدث له بالفعل؟ كما أن جدران المكتب، كانت أيضًا تتألف من ألواح هائلة من الزجاج، يمكنك من خلالها أن ترى تيارات الداخلين والخارجين من النزلاء في البهو، بغاية الوضوح، كما لو كنت تقف بينهم، نعم، كان يبدو، وكأنه لا يوجد بالحجرة كلها أية زوايا أو أركان يمكن أن يختفي فيها كارل عن أعين هؤلاء الناس، ولا يهم مدى السرعة التي كانوا يندفعون بها في حركتهم خارج تلك الحجرة، حيث كانوا يحملون أمتعتهم فوق رؤوسهم بأذرعهم الممدودة إلى أعلى، ورؤوسهم المحنية، وعيونهم المحملقة، بهذه الصورة، كانوا يشقون طريقهم، وكان كل منهم لا يتمكن من أن يلقي نظرة إلا بصعوبة داخل

حجرة رئيس البوابين، ذلك أن الإعلانات والأخبار كانت معلقة كلها خلف الألواح الزجاجية، تلك الإعلانات والأخبار التي كانت تهم نزلاء الفندق وموظفيه معًا، وقد كان البهو، ومكتب رئيس البوابين، بالإضافة إلى ذلك على اتصال مباشر ببعضهما، ذلك أن اثنين من مساعدي رئيس البوابين كانا يجلسان إلى نافذتين هائلتين متحركتين، وكانا مشغولين دائمًا في توجيه المعلومات في كافة الموضوعات، كان هذان الرجلان مثقلين حقًّا بالعمل، وقد استطاع كارل أن يدرك ببصيرة نافذة، أن رئيس البوابين كان قد اخترع تلك الحيلة، على سبيل ترقية نفسه، كان هذان الرجلان اللذان يقومان بالرد على الاستفسارات – من الخارج لم يكن يسعك في الحقيقة أن تتصور كيف كان يجري عملهما– يتحدثان في نفس الوقت إلى عشرة وجوه متسائلة أمام كل منهما على الأقل، ومن هؤلاء العشرة، الذين كانوا يتغيرون باستمرار، كانت ترتفع دائمًا ضجة مكونة من خليط مختلف من اللهجات، كما لو كان كل منهم يستفسرون في وقت واحد عن أشياء مختلفة، بينما كان آخرون يتنافسون أيضًا، بعضهم مع بعض، أكثرهم يريدون أن يودعوا شيئًا في مكتب رئيس البوابين، أو يستردوا منه ودائع كانوا قد أودعوها فيه، ولهذا كنت ترى حركات الأيدي المتشابكة في حركة عنيفة، وهي ترتفع من وسط الجمع، أو رجلًا لا يطيق صبرًا فيتفحص جريدة كانت تنفرد في الهواء للحظة، وهي تصفع الوجوه، كل هذا كان على مساعدي رئيس البوابين أن يتحملاه، لم يكن مجرد الكلام كافيًا لأداء عملهما، كانا يثرثران، وكان أحدهما، بصفة خاصة، وهو رجل حزين، له لحية داكنة، تكاد تخفي كل وجهه، كان يوزع المعلومات، ويرد على الاستفسارات دون أن يتوقف لالتقاط أنفاسه، ولم

يكن لينظر إلى المكتب حيث كان يسلم – بلا توقف– عديدًا من الأشياء التي أصحابها خارج النافذة، ولا كان ينظر في وجوه المتسائلين، بل ينظر أمامه مباشرة، نظرة لا تحيد، لكي يقتصد في مجهوده على الأغلب، ويحتفظ بقواه، وكانت لحيته أحيانًا ما تشارك في توضيح ردوده، وفي أثناء الفترة القصيرة التي قضاها كارل بداخل تلك الحجرة، استطاع أن يتبين إلى حد ما بعضًا مما كان يقال، بقدر ما أمكنه ذلك، على الرغم من غموض الأساليب المختلفة لنطق اللغة الإنجليزية، وكان القليل مما سمعه أيضًا قد سمعه ببعض اللغات الأجنبية التي كانت تتطلبها اللحظة، وكان الاضطراب بالإضافة إلى ذلك هو السبب في أن الجواب عن أي سؤال من تلك الأسئلة كان ينطق في سرعة بالغة في أعقاب الجواب الآخر، حتى أنه لم يكن من السهل تمييز تلك الإجابة من غيرها، ولهذا كان السائل يستمع في انتباه شديد، معتقدًا أن إجابة سؤاله لم تكن قد انتهت بعد، دون أن يتمكن من أن يدرك في اللحظة المناسبة أن إجابة سؤاله كانت قد انتهت، وكان عليك أن تعتاد على ما اعتاده مساعدا رئيس البوابين هذان في عدم طلبهما من الجمهور إعادة أي سؤال، حتى ولو كان غامضًا في نصه، طالما كان من الممكن الإحساس بالمقصود منه عامة، وعندئذ كان المساعد يأتي بحركة من رأسه لا تكاد تبين، معلنًا بها أنه لن يجيب عن هذا السؤال بصيغته الراهنة، وأن من شأن السائل أن يكتشف وجه النقص في السؤال، وأن يعيد السؤال مرة أخرى في صورة أكثر دقة، وكان هذا يتسبب في تعطيل كثير من الناس لوقت طويل أمام نافذة الاستعلامات، وكان لكل من المساعدين هذين صبي صغير يعمل كساع خاص لمساعدته، كان عليه أن يندفع هنا وهناك ليحضر من خزانة ما، شيئًا يحتاجه المساعد، ويبحث كذلك

عن الطلبات في عدد من مختلف الدواليب الأخرى، كانت هذه الوظيفة من أكثر الوظائف أجرًا، وإن كانت أيضًا من أشد الوظائف التي يحصل عليها صبية الفندق إرهاقًا في العمل، وكان الصبية يجهدون أنفسهم إلى حد كبير في تلك الوظيفة، ويتكلفون جهدًا يتفوق كثيرًا على جهد المساعدين اللذين لم يكن عليهما سوى أن يفكرا ويتحدثا، بينما كان على الصبية أن يفكروا وأن يهرولوا هنا وهناك لإحضار الطلبات في وقت معًا، فلو حدث أن أحضر أحدهم شيئًا غير ما طُلب منه إحضاره، فإن المساعد كان يضطر إلى أن يلقي عليه محاضرة طويلة، وبلطشة خفيفة من يده كان يطوح بالشيء الذي أحضره الصبي أرضًا، بعد أن يضعه الصبي على الطاولة التي أمام نافذة الاستعلامات، وكان تغيير نوبات عمل هؤلاء المساعدين أمرًا شائقًا، وقد حدث بعد فترة قصيرة من دخول كارل إلى تلك الحجرة، وكانت تلك التغييرات تحدث كثيرًا في خلال نوبات عمل النهار على الأقل، لأنه ربما لا يتسنى لأي رجل في هذه الدنيا أن يحتمل البقاء أمام طاولة نافذة الاستعلامات تلك أكثر من ساعة، وعند حلول لحظة الراحة يدق جرس ما، فيظهر في الحال من خلال أحد الأبواب الجانبية، المساعدان اللذان حل دورهما الآن في العمل، يتبع كل منهما الصبي المكلف بمساعدته، فيجلسان عندئذ في تكاسل إلى النافذتين، ويتأملان الناس الذين يقفون خارج النافذتين للحظة، حتى يمكنهما أن يكتشفا على وجه الدقة نوع الأسئلة التي عليهما أن يجيبا عنها، وعندما تبدو اللحظة مناسبة للاستفسار، كان القادم الجديد يربت على كتف المساعد الذي عليه أن يرد على أسئلته، فيجيبه في الحال، على الرغم من أنه لا يكون قد ألقى مجرد نظرة إلى ما كان يجري خلف ظهره، وغادر السائل مكانه، ويحدث هذا

كله بغاية السرعة لدهشة الناس الذين يقفون في الخارج، هؤلاء الذين كانوا ينزعجون عندما يفاجأون بشخص آخر غريب أمامهم فجأة، أما الرجلان اللذان تكون قد حلت نوبة راحتهما من العمل، فإنهما يمددان جسديهما ثم يصبان الماء فوق رأسيهما الملتهبين عند حوضين من أحواض الغسيل أُعدا لهما، لكن لا يكون للصبيين اللذين يساعدانهما أن يتمددا مثلهما على الفور؛ لأنهما يكونان مشغولين لبعض الوقت في التقاط الأشياء المتناثرة، المختلفة التي تناثرت في خلال نوبة عملهما، وإعادتها إلى مكانها السابق.

راقب كارل هذا كله بانتباه شديد، عن قرب، في خلال بضع دقائق، ثم أصابه بعد ذلك صداع خفيف فتبع في هدوء، رئيس البوابين الذي قاده إلى داخل الحجرة، وكان رئيس البوابين قد لاحظ في وضوح، التأثير العميق الذي تركه أسلوب ذلك العمل، في الرد على استفسارات النزلاء، فقد لوح بذراعه فجأة قائلًا:

– هذه هي الطريقة التي يسير عليها العمل هنا كما ترى!، ولم يكن كارل بلا شك عاطلًا في الفندق، إلا أنه لم تكن لديه فكرة عن هذا العمل، وتطلع أمامه، وقد نسي تمامًا أن رئيس البوابين كان عدوه اللدود، وأطرق في إعجاب صامت، فبدا هذا مرة أخرى لرئيس البوابين تقديرًا زائدًا للمساعدين، وتهيأ له في هذا شيء من التقليل من قدره، فصاح دون أن يحفل بأن الجميع كانوا يسمعونه، محاولًا على ما يبدو أن يستغل سذاجة كارل.

– إن العمل هنا بالطبع أكثر الأعمال غباء في الفندق بأكمله، ولا تحتاج لكي تقوم بهذا العمل سوى أن تستمع لمدة ساعة، لكي تعلم تمامًا كل الأسئلة التي يمكن أن توجه إليك، فيما عدا ذلك من الأسئلة فليس عليك

أن ترد عليها مطلقًا، ولو لم تكن بمثل تلك الوقاحة، وسوء الطبع، ولو لم تكذب، وتتكاسل، وتعربد، وتسرق، فربما كنت وضعتك أمام إحدى هذه النوافذ، بما أنها وظيفة تناسب ذوي الرؤوس الصماء! وتجاهل كارل الإهانة التي وجهها إليه رئيس البوابين، فلقد كان الأخير في حالة من السخط، بدا له فيها العمل الشاق، الشريف الذي كان يقوم به المساعدان، شيئًا يمكن الاستهانة به، والسخرية منه، مع أنه - هو الذي يسخر من هذا العمل- لو خطر له أن يجازف بالجلوس إلى إحدى هاتين النافذتين، فسوف يكون هدفًا للسخرية في خلال دقائق قليلة، ولتعين عليه أن يترك هذا العمل في الحال لعجزه عن احتماله.

قال كارل، وكان اهتمامه بمكتب رئيس البوابين قد أشبع الآن للغاية:

- دعني، فلست أرغب في أن يربطني بك أي شيء، أكثر من ذلك.

فقال رئيس البوابين، وهو يسحق ذراع كارل، حتى تخدرت، وهو يجره إلى الطرف الآخر من المكتب، فهل تمكن الناس الذين في الخارج أن يروا هذا التهديد، ولو كانوا قد لمحوه، فماذا كان ظنهم بما قد يترتب عليه، طالما أن أحدًا منهم لم يعترض على ذلك، ولا دقّ آخر على الزجاج، لكي يلفت نظر رئيس البوابين إلى أنه يرقبه، وأنه ليس له - أمام كل هؤلاء الناس- أن يعامل كارل كما يحلو له؟ إلا أن كارل سرعان ما فقد الأمل في تلقي أية معونة من هؤلاء الناس الذين يملأون ذلك البهو، فقد جذب رئيس البوابين أحد الحبال، فسقطت في الحال فوق الألواح الزجاجية التي تغطي أحد جوانب حجرة المكتب ستائر سوداء، كانت تمتد من السقف إلى الأرض، بسرعة البرق، وفي هذا الجانب من المكتب كان يوجد أيضًا بعض الناس،

إلا أنهم كانوا مشغولين بعملهم، بأقصى سرعة، فلم يكن يسعهم أن يروا أو يسمعوا أي شيء لا يتعلق بعملهم، وكانوا هم أيضًا يتبعون مباشرة رئيس البوابين، ولهذا كانوا على استعداد لإخفاء أي شيء ينوي رئيس البوابين أن يفعله، لقد كان هناك ستة من البوابين المساعدين يجلسون إلى ستة تليفونات، وكان نظام عملهم يتضح من النظرة الأولى، فقد كان واحد من كل اثنين، يدون المحادثات، ويعطي هذه المذكرات لزميله الذي يرسلها عن طريق تليفون آخر، وكانت أجهزة التليفونات حديثة الطراز، فلم تكن تلك الأجهزة في حاجة إلى صناديق؛ ذلك لأن رنين جرس التليفون، لم يكن يرتفع عن مجرد الذبذبة، وكان مجرد الهمس في «المرسل» يتضخم بواسطة أجهزة كهربائية، حتى يبلغ الطرف الآخر من الخط التليفوني في صوت كقصف الرعد، ولهذا السبب لم يكن المرء يكاد يسمع أصوات الرجال الثلاثة الذين كانوا يتحدثون في التليفونات، وربما ظن المرء أنهم كانوا يهمسون لأنفسهم في المرسل، بالحديث عن تفاصيل بعض الأحداث، بينما كان الثلاثة الآخرون صامتين، وكأنما أسكتهم الصوت القاصف الذي كان يصلهم عن طريق السماعات التي كانوا يضعونها على آذانهم، على الرغم من أن أحدًا سواهم لم يكن يسمع تلك الأصوات الراعدة مطلقًا، وكانوا مطرقين برؤوسهم على الأوراق التي كانوا يدونون عليها ملاحظتهم، وكان ثمة صبي يعمل كمساعد، هنا أيضًا، لكل من الرجال الثلاثة الذين كانوا يهمسون فى التليفونات، ولم يكن هؤلاء الصبية الثلاثة يفعلون شيئًا سوى أن يحنوا بالتناوب رؤوسهم نحو رؤسائهم الثلاثة فى وضع تَسَمُّع لما قد يقولونه لهم، ثم يتحولون فى الحال إلى البحث- كما لو كانوا قد لدغوا

لمجرد سماعهم بالأوامر الموجهة إليهم- عن أرقام بعض التليفونات فى دفاتر ضخمة صفراء، وكانت خشخشة تلك الكتل من الأوراق الكثيرة، تكتم فى سهولة أي صوت يصدر عن تلك التليفونات.

لم يستطيع كارل أن يمنع نفسه عن مراقبة هذا كله، على الرغم من أن رئيس البوابين الذي كان قد جلس الآن، ظل ممسكًا بتلابيبه، وكأنه يحتضنه.

قال رئيس البوابين، وهو يهز كارل، وكأنه يريد منه فقط أن يدير وجهه ناحيته لكي ينتبه إلى ما سوف يقوله: «إنه واجبي، فلو أن رئيس السفرجية أهمل في ملاحظة إنجاز أي شيء، لأي سبب من الأسباب، معللًا إهماله، بانشغاله فى المشاركة فى إدارة الفندق، فإنني أقوم بالإشراف على إنجازه بأقصى ما يسعني من الاهتمام، إننا نبذل أقصى جهدنا، لكي نساعد بعضنا بعضًا، فلو لم يطرد سير العمل على هذا النحو، فليس من الممكن أن يتصور المرء كيف تنسجم هذه الهيئة الهائلة التي تعمل فى أنحاء الفندق كله، وقد تقول إنني لست رئيسك المباشر، حسنًا، وأنا أقول لك بدورى إنه يتساوى لدي أن أضطلع بعملي أو بأي أعمال أخرى قد يهملها الآخرون، وبالإضافة إلى ذلك، فإنني كرئيس للبوابين، أعد بصورة ما، أهم من أي شخص آخر هنا؛ لأننى المكلف بحراسة جميع أبواب الفندق، هذا الباب العمومي، والأبواب الوسطى الثلاثة، ولا داعى لذكر باقي الأبواب الأخرى التي لا حصر لها، والفتحات التي لا أبواب لها، وبالطبع يتعين على جميع أفراد طاقم الخدمة الذين يصلهم عملهم بي، أن يطيعوا أوامري، طاعة تامة، ولي بالإضافة إلى هذا أيضًا تصريح من إدارة الفندق، بألا أدع أي شخص- يثير مظهره أدنى ريبة- يخرج من باب الفندق، وإنك بالتحديد، الشخص الذي

يثير ارتيابي، والذي يبدو مريبًا للغاية بصفة عامة»، كان فرحًا جدًّا بنفسه، حتى لقد رفع يده، ونزل بها فى خبطة موجعة على كارل، وأضاف قائلًا: وقد بلغ الفرح بنفسه حدًّا حسب نفسه معه ملكًا من الملوك «من المستحيل أن تخرج من الفندق، عن طريق أي باب من الأبواب الأخرى، وإنني لم أكلف نفسي بالطبع مشقة إصدار أية أوامر بخصوصك، وحيث إنك الآن أمامي هنا، فسوف أصفي كل حسابي معك، إننى لم أشك مطلقًا فى أنك ستحرص على لقائنا هنا عند الباب العمومي، فمن القواعد الثابتة أن الأشخاص الوقحين، المشاغبين، يبدون فى ثوب الفضيلة عندما يتضح لهم أنهم على وشك أن يواجهوا نتائج أعمالهم، ولا شك أنك ستتمكن من ملاحظة ذلك، ملاحظة كافية، من خلال تجربتك الشخصية».

قال كارل، وهو يستنشق الرائحة الغريبة المثيرة، التي كانت تفوح من رئيس البوابين، والتي لم يلاحظها، حتى أتيح له أن يقف ملتصقًا به على هذا النحو، تلك الفترة الطويلة: «لا تتصور أنني تحت رحمتك تمامًا؛ لأنني أستطيع أن أصرخ».

فقال رئيس البوابين، بغاية الهدوء والسرعة، التي ربما كان قد اعتاد أن يصطنعها كلما دعته الحاجة إلى ذلك: «وفى استطاعتي أن أخرس صوتك! هل تظن حقيقة، إذا تسببت بصراخك في إحضار أي شخص إلى داخل هذا المكتب، أن تجد شخصًا واحدًا يمكن أن يصدق كلمة واحدة مما قد تقوله ضدي، ضد رئيس البوابين؟ يمكنك الآن أن ترى أي آمال حمقاء، تلك التي تأملها! ودعنى أخبرك، بأنك كنت تبدو شخصًا محترمًا عندما كنت ترتدي زي الفندق، لكنك الآن فى ملابسك هذه، التي لا يمكن أن تصنع إلا في أوروبا»!

وجذب كارل من ملابسه التي كانت تبدو- مع أنها كانت جديدة تمامًا منذ خمسة أشهر- رثة، ومتكرمشة وملوثة أيضًا، بسبب إهمال صبية المصاعد، الذين كان يتعين عليهم طبقًا للتعليمات العامة أن يحتفظوا بنظافة أرضية عنبر نومهم، وتلميعها، وإزالة الأتربة التي تغطيها، لكنهم كانوا لتكاسلهم، وبدلًا من أن يقوموا بتنظيفها كما ينبغي، كانوا يلطخون تلك الأرضية كل يوم بمختلف أنواع الزيوت، ويلطخون أيضًا جميع الملابس المعلقة فوق المشاجب، وكان في مقدور كل منهم أن يلقي بملابس الآخر حيث يشاء، وكان هناك من لا يستعمل ملابسه الخاصة، لكنه لا يخطئ فى العثور على ملابس جاره المخبأة، وسرعان ما يستعيرها في الحال، كان هذا الصبي، هو الذي كان عليه الدور في تنظيف عنبر النوم، اليوم، ولهذا فلم تكن ملابس كارل ملطخة فقط بالبقع الزيتية، بل كانت غارقة فيها بالفعل من أعلاها إلى أسفلها، وكان رينيل هو الشخص الوحيد الذي كان قد اكتشف مكانًا سريًّا، كان يخفي فيه ملابسه الغالية، فكان من الصعب اكتشافها واكتشاف مكانها، ولم يكن الخبث أو البخل الذي يدفع الصبية إلى استعارة الملابس، لكن كان يدفعهم إلى ذلك، التعجل والإهمال، فقد كانوا يرتدون، فى بساطة، أي ملابس يتصادف وجودها أمامهم، وكانت بدلة رينيل قد أصابتها بقعة حمراء مستديرة، من الزيت، في وسط الظهر، وكان من السهل في المدينة، أن تدرك العين الخبيرة فى وضوح، من تلك البقعة، أن ذلك المتألق الصغير المختال بنفسه، ليس سوى صبى مصعد فى نهاية الأمر.

وعندما تذكر كارل هذا كله، قال لنفسه إنه قد عانى ما فيه الكفاية في عمله كصبي مصعد، وكانت معاناته تلك، قد ضاعت عبثًا كلها؛ لأن وظيفته لم تساعده، كما كان يأمل على أن يتقدم خطوة إلى الأمام، بل لقد جرته بدلًا

من ذلك، إلى وضع أشد بؤسا من وضعه الأول، ولقد أوشكت فوق هذا كله أن تؤدي به إلى السجن، وكان لا يزال علاوة على هذا، فى قبضة رئيس البوابين، الذي كان بلا شك، يبحث عن الوسيلة التي تتيح له أن يهينه أقصى إهانة ممكنة، فصاح كارل، ناسيًا تمامًا أن رئيس البوابين، هو آخر شخص يمكنه أن يحتكم إلى العقل، ضاربًا جبهته عدة مرات، بيده الطليقة: «وحتى لو فرضنا أنني قد مررت بك دون أن أوجه إليك التحية، فكيف يمكن لرجل ناضج مثلك، أن تبلغ به الرغبة في الانتقام، إلى هذا الحد من العنف، لمثل هذا الإهمال البسيط؟».

قال رئيس البوابين: «لا رغبة لدي في الانتقام، ولكنني أرغب فقط فى تفتيش جيوبك، وتأكد، من أنني مقتنع تمام الاقتناع، بأننى لن أعثر فيها على أي شيء لأنك ربما كنت حذرًا فسلمت كل شيء إلى صديقك أولًا بأول، شيئًا فشيئًا كل يوم، لكن لابد من تفتيشك مع ذلك».

ودفع يده داخل أحد جيوب معطف كارل، بغاية العنف، حتى لقد تفتقت الخياطة الجانبية للجيب، وقال: «إذن فلا شيء هنا»، وراح يقلب في يده الأشياء التي وجدها بداخل الجيب، وكانت تتألف من نتيجة جيب يصدرها الفندق، وقطعة من الورق عليها تمرين في المعاملات التجارية، وبضعة من أزرار المعطف، والبنطلون وبطاقة المديرة، ومبرد أظافر، ألقاه إليه أحد النزلاء عندما قام بتعبئة صندوق ملابسه، ومرآة جيب قديمة، كان رينيل قد أعطاه إياها، كهدية لقيامه بعمله حوالى عشر مرات متتالية، وبعض الأشياء التافهة الأخرى، قال رئيس البوابين ثانية، وهو يلقى بها جميعًا تحت المنضدة، كما لو كان ذلك المكان، هو المكان المناسب لكل ما يحمله

كارل من أشياء، ولو اتضح أنها لم تكن مسروقة: «إذن فلا شيء هنا!».

قال كارل في نفسه، ولابد أن وجهه كان قد تضجر: «هذه هي القشة الأخيرة»!، وبينما كان رئيس البوابين قد انتقل إلى تفتيش جيبه الآخر في لهفة، فاندفع كارل مخلصًا كم قميصه من قبضة الرجل، في حركة مفاجئة، وارتطم بأحد مساعدى البوابين، في قفزته العشوائية الأولى، فطرح الرجل في عنف، على تليفونه، واندفع يجري في الحجرة المكتظة بالأشياء المختلفة، نحو الباب، في سرعة ليست خارقة في الحقيقة، كما كان يود، لكن في سرعة كانت كافية لخروجه من الحجرة قبل أن يتمكن رئيس البوابين من أن ينهض من مكانه بمعطفه الثقيل، ولم يكن نظام الفندق بالغ الدقة، ولقد دقت بضعة أجراس، هذا حق، إلا أن السماء وحدها كانت تعلم لأي غرض دقت تلك الأجراس؟ وكان بعض موظفي الفندق قد اندفعوا نحو المدخل فى هذا الاتجاه، وفي ذاك، في أعداد كبيرة، حتى كان للمرء أن يظن أنهم قد عزموا على ألا يسمحوا مطلقًا لأي شخص بالخروج لشدة الزحام، ورغم ذلك، فسرعان ما أصبح كارل في الخارج، إلا أنه ظل واقفًا أمام الفندق، لأن سيلًا لا ينقطع تدفقه من السيارات كان يتحرك فى بطء أمام مدخل الفندق، فلم يتمكن كارل من أن يبلغ الشارع، وكانت السيارات التي كانت تتأهب للانطلاق إلى الأمام، تلامس بعضها بعضًا بالفعل، وتدفع بعضها إلى الأمام، وكان ثمة من يحاول أن يعبر الطريق هنا وهناك فى عجلة، ومن ثم يلقي بنفسه داخل أقرب عربة، كما لو كانت تلك العربات وسائل عامة لعبور الشارع، دون أن يعبأ مطلقًا بما إذا كان بداخلها سائق أو اثنين فقط من الخدم، أو مجموعة من السادة، كان يبدو هذا السلوك في رأي كارل سلوكًا

يتصف بالصلف، ورأى أن على المرء أن يكون واثقًا تمامًا لكي يغامر مثل تلك المغامرة، فربما ألقى بنفسه داخل عربة يتفق أن يستاء راكبوها لسلوكه، فيلقون به خارجها، وقد يحدث شجار بينهم، على أن شيئًا لم يكن ليشغل بال كارل أكثر مما قد حدث له حتى الآن، وما الذي يمكن أن يشغل بال صبي مصعد بائس ومشبوه مثله، وفوق هذا، فإن صف العربات لا يمكن أن يستمر في تدفقه إلى الأبد، وطالما ظل بالقرب من الفندق، أبعد ذلك عنه نظرات الارتياب، حتى بلغ أخيرًا، مكانًا لم يكن صف العربات قد انقطع فيه تمامًا، لكنه كان قد استدار مبتعدًا فى وسط الشارع، كما ابتعدت العربات قليلًا بعضها عن بعض، وكان على وشك أن ينسل من خلال حركة المرور التي كانت قد هدأت الآن فى الشارع، عندما لفت نظره وجود أشخاص أشد منه إثارة للريبة، وربما كانوا قد أطلق سراحهم حديثًا، ثم سمع من يدعوه باسمه، من مكان قريب، فاستدار، ولمح في مدخل باب صغير منخفض، كان يبدو أشبه بمدخل إلى قبو، اثنان من عمال المصاعد، كان يعرفهما جيدًا، كانا يرفعان، وقد نال منهما الإجهاد، نقالة يستلقي فوقها- كما أدرك الآن- روبنسون، وكانت رأسه، ووجهه، وذراعاه، مربوطة كلها بالضمادات الكثيفة، وقد فزع عندما رآه وهو يرفع يديه إلى عينيه ليمسح دموعه بطرف الضمادات، دموع الألم، أو الأسى، أو لعلها أن تكون دموع الفرح لعثوره ثانية على كارل.

صاح قائلًا فى عتاب: «روسمان، لماذا تركتني انتظرك طول هذا الوقت، لقد ظللت ساعة كاملة، أصارعهما لكي أمنعهما من الذهاب بي، قبل أن تصل، إن هذين الشخصين- ولطم أحد الصبيين على رأسه، كما لو كانت

ضمادته تحميه من أن يتلقى منه لطمة ردًّا على لطمته تلك له- آه يا روسمان لقد كان عليّ أن أدفع غاليًا ثمن هذه الزيارة!»، قال كارل، وهو يتقدم نحو المحفة التي وضعها الصبيان على الأرض، لكي يسترخيا قليلًا: «لماذا؟، ماذا فعلا بك؟».

فتأوه روبنسون قائلًا: «أتسأل هذا السؤال، بينما ترى حالتي! تأمل منظري، يبدو أنهم قد أصابوني بالعرج الذي سيلازمني طوال حياتي، إنني أعاني آلامًا فظيعة من هنا إلى أسفل، حتى هنا- وأشار أولًا إلى رأسه، ثم إلى أصابع قدميه- ولقد كنت أريدك فقط أن ترى كيف كان ينزف أنفي، إن صديريتي قد تلفت تمامًا، ولقد اضطررت إلى أن أطوح بها خلفي أيضًا، وبنطلوني أصبح خرقة مهلهلة، إننى الآن فى سروالي الداخلي»، ورفع البطانية قليلًا، وطلب من كارل أن ينظر تحتها، «فما هو مصيري بحق الجحيم؟ إننى سوف أرقد فى فراشي لعدة شهور على الأقل، ولعلني أقول لك الآن، إنه لا يوجد أحد ليعني بتمريضي سواك، إن ديلامارش قليل الصبر جدًّا، فلا تتركني يا روسمان»!، ومد روبنسون ذراعه إلى كارل الذي تباعد عنه، أملًا أن يحظى بعطفه، عن طريق مداعبته له: «لماذا حضرت يا كارل؟»، ردد روبنسون ذلك عددًا من المرات، لكي يُذَكِّر كارل، بأنه كان مسئولًا إلى حد ما عما لاقاه من سوء، ولم يتطلب الحال من كارل سوى دقيقة واحدة لكي يتبين أن عويل روبنسون لم يكن بسبب جراحه، لكن كان سببه وخمة السُكر المرهقة التي كان لا يزال يعاني منها؛ لأنه بعد أن استغرق فى النوم، ثملًا حتى الموت، كان قد أوقظ، ليجد اللطمات لدهشته تنهال عليه في وحشية، حتى أفقدته كل شعوره بالواقع، وكان من الممكن تبين طبيعة جروحه البسيطة

من الخرق القديمة التي استعملت كضمادات، والتي كان صبية المصاعد، قد ربطوا جروحه بها، على سبيل المزاح، لفة بعد لفة، في شيء من المبالغة، وكان الصبيان اللذان وقفا على كلا جانبي المحفة قد استغرقا في نوبات من الضحك، إلا أن هذا لم يكن هو المكان المناسب لإعادة روبنسون إلى وعيه، فقد كان الناس يتدفقون حولهم، دون أن يلقوا بالًا إليهم، ولا إلى المحفة، وكثيرًا ما كان بعض الأشخاص يتخطون روبنسون فى قفزات بارعة، بينما ظل سائق التاكسي، الذي كان كارل قد دفع أجره، يصيح قائلًا: «هيا.. هيا»!، واستجمع صبيا المصعد قوتهما، ورفعا المحفة، وأمسك روبنسون بيد كارل فى مداهنة: «هيا معنا، هيا!»، وعندما تذكر كارل ذلك الشخص الذي كان قد فر من بين يديه الآن! أليس من الممكن أن يأويه ظلام التاكسي بعيدًا عن الأنظار؟ وهكذا ألقى كارل بنفسه إلى جوار روبنسون، الذي أسند رأسه على كتفه، وشد الصبيان على يد كارل فى حرارة، من خلال نافذة التاكسي، وهما يودعان زميلًا لهما، قضى معهما فترة من الوقت. واستدار التاكسي فى دائرة حادة، إلى الطريق العمومي، وبدا وكأن حادثة ما لابد أن تقع، إلا أن سيل المرور المتدفق المختلط، ذاب بعضه في بعض، وذاب فيه كذلك اندفاع عربتهما كاندفاع السهم، إلى الأمام.

الفصل السابع

مأوى

بدا الشارع الذي توقف فيه التاكسي شارعًا من شوارع إحدى الضواحي المنعزلة، فقد كان كل شيء هادئًا، وكان الأطفال يجلسون فوق حافة الرصيف، وثمة رجل يحمل فوق كتفه كومة من الملابس القديمة، كان واقفًا ينظر في إمعان إلى نوافذ المنزل التي كانت تعلوه، وراح ينادي على بضاعته، وكان كارل مجهدًا غاية الإجهاد، حتى لقد شعر بوعكة عند هبوطه من السيارة إلى أسفلت الشارع، الذي كان دافئًا، ومتألقًا تحت أشعة شمس الصباح.

وهتف قائلًا لروبنسون الذي كان يجلس بداخل التاكسي: «هل تسكن هنا حقيقة؟!».

وهمهم روبنسون الذي كان قد استغرق في النوم خلال الرحلة كلها، مؤكدًا بكلمات غامضة، وبدا عليه وكأنه كان ينتظر من كارل أن يحمله إلى خارج التاكسي.

قال كارل: «إذن فأنت لا تحتاج إليَّ بعد ذلك، وداعًا»! وهمَّ بالسير، نحو منحدر الشارع.

فصاح روبنسون، وقد انزعج انزعاجًا بالغًا، حتى لقد قام واقفًا فى داخل التاكسي، إلا أن ركبتيه كانتا ترتجفان: «لكن يا كارل إلى أين تذهب بحق الجحيم؟!».

قال كارل، وهو يلاحظ تحسن روبنسون السريع: «عليَّ أن أذهب الآن».

فتساءل روبنسون قائلًا: «وليس عليك فقط سوى قميصك!»، فأجابه كارل قائلًا: «سأتمكن في الحال من أن أشتري لنفسي جاكتة»، وأومأ مؤكدًا ذلك لروبنسون، ورفع له يده مودعًا، وهمَّ بالسير في عزم، إلا أن السائق ناداه لحظتها قائلًا: «دقيقة واحدة يا سيدي!».

واتضح لسوء الحظ أن الرجل يطالبه ببقية الأجر، في مقابل الوقت الذي أنفقه في الانتظار أمام الفندق.

وصاح روبنسون من داخل التاكسي، مؤيدًا حق السائق في طلبه: «بالطبع، لقد أرغمتني على انتظارك تلك الفترة الطويلة هناك، ولابد لك أن تعطيه شيئًا علاوة على ما تقاضاه!».

وقال سائق التاكسي: «نعم، إن الأمر كذلك».

فقال كارل: «نعم، فقط لو كان معي أي نقود لكي أعطيها لك» وراح يبحث في جيوب بنطلونه، مع أنه كان يعلم أنه لن يجد شيئًا فيها.

فقال سائق التاكسي، وهو يقف أمام كارل: «ليس أمامي سواك لكي أطالبه ببقية أجري، ولا يمكنني أن أطلب شيئًا من رجل مريض!».

وخرج صبي صغير، له أنف متآكل من باب أحد المنازل، واقترب ووقف على بعد بضع خطوات قليلة، وراح يستمع إلى ما يقال، وأحنى أحد رجال الشرطة في أثناء مروره بهما رأسه، وتفحص الشخص الذي يرتدي القميص، ثم توقف بجواره.

وأخطأ روبنسون الذي كان لاحظ الشرطي، بالصياح نحوه، من نافذة التاكسي الأخرى، قائلًا: «لا شيء في الأمر، لا شيء»!،كما لو كان الشرطي شخصًا يمكن التخلص منه كذبابة، وتركز انتباه الأطفال الذين كانوا يرقبون الشرطي في البداية، أخيرًا على كارل، وعلى سائق التاكسي، واندفعوا جريًا نحوهما، وعند مدخل أحد الأبواب فى الجانب الآخر من الشارع توقفت امرأة عجوز ببلادة، وراحت تحملق في الجميع.

وصاح صوت ما من أعلى قائلًا: «روسمان»!، كان صوت ديلامارش، الذي كان يقف في شرفة الطابق الأعلى، وكان من الصعب رؤيته بالتطلع إلى أعلى نحو السماء الزرقاء الشاحبة، لكنه كان يرتدي روبًا منزليًّا، بدا واضحًا، وكان ينظر إلى الشارع من خلال نظارة من نظارات الأوبرا، وبجانبه كانت توجد شمسية حمراء كبيرة، كانت ثمة سيدة تبدو جالسة تحتها، وصاح ديلامارش بأعلى صوته، لكي يسمعه كارل: «هالو! هل روبنسون هنالك أيضًا؟».

فأجابه كارل قائلًا: «نعم، ها هو»! كان كارل قد تشجع للحظة، وصاح روبنسون من داخل التاكسي في صوت أكثر ارتفاعًا: «نعم، ها أنذا!»، فصاح ديلامارش قائلًا: «هالو!، سوف أهبط إليكما حالًا».

ومال روبنسون خارج التاكسي، قائلًا: «ها هو ذا رجل!»، كان يوجه

هذا المديح لديلامارش، إلى كارل، وإلى سائق التاكسي، وإلى الشرطي، وإلى كل من يهمه سماع ذلك، ونهض كيان ضخم، في الشرفة العليا، حيث ظلوا يتطلعون جميعًا، مع أن ديلامارش كان قد غادرها لحظتها، واتضح أنها كانت امرأة بالفعل، وقفت تحت الشمسية، كانت ترتدي رداء فضفاضًا أحمر اللون، ورفعت منظار الأوبرا من على إفريز الشرفة، وراحت تتطلع من خلاله إلى الناس الذين تجمعوا في الشارع حول التاكسي، وبدا هؤلاء يحولون أنظارهم عنها، في بطء، وتطلع كارل إلى باب المنزل حيث يتوقع أن يظهر منه ديلامارش، ثم تطلع إلى الفناء الداخلي، الذي كان يعبره طابور لا يكاد ينقطع من العمال، كان كل منهم يحمل صندوقًا صغيرًا فوق كتفه، لكنه كان ثقيلًا فيما يبدو، وكان سائق التاكسي قد تقدم نحو عربته، واستغل الوقت في تلميع مصابيحها بخرقة قديمة، وأحس روبنسون بدهشة بالغة لتحسن أطرافه جميعًا، فعلى الرغم من فحصه الدقيق لها، لم يستطيع أن يحس إلا ببعض الآلام الخفيفة، ثم انحنى عندئذ، وراح يفك في حذر أحد الأربطة الثقيلة التي كانت تلتف حول ساقه، ورفع الشرطي عصاه السوداء في وضع مائل أمامه، وانتظر في هدوء، بذلك الصبر العميق الذي يتصف به رجال الشرطة، سواء كانوا في واجبهم العادي، أو في نوبة حراستهم، وجلس الصبي ذو الأنف المتآكل، فوق عتبة أحد الأبواب، ومدد ساقيه أمامه، وزحف الأطفال الباقون نحو كارل، مسافة أخرى قصيرة، فقد بدا لهم لحظتها أكثر الموجودين جميعًا في الأهمية، لقميصه الأزرق، مع أنه لم يلق بالًا إليهم.

وكان في استطاعة المرء، في الفترة التي انقضت قبل وصول ديلامارش

أن يقدر ارتفاع المنزل، ووصل ديلامارش في عجلة شديدة، وتوقف لحظة فقط لكي يحكم الرباط حول روبه، وصاح قائلًا: «هذا أنت إذن!»، وكانت لهجته تجمع بين المرح والقسوة، وفي كل خطوة كان يخطوها، كانت تبدو من تحت الروب بيجامته ذات الألوان الفاقعة، ولم يفهم كارل كيف كان ديلامارش يتجول في هذا الزي المنزلي في شوارع المدينة، وفي هذا المسكن الضخم، وفي الشارع العمومي، كما لو كان يتجول في فيللته الخاصة، وكان ثمة تغيير كبير كان قد طرأ على ديلامارش، كما طرأ تغيير كبير كذلك على روبنسون، وكان وجه ديلامارش الأسمر الحليق، البالغ النظافة، باستدارة عضلاته الخشنة، يوحى بالاعتذار، وبالاحترام، وكان لمعان عينيه القاسيتين، اللتين كان قد أغفلهما قليلًا، يشع بنظرة مفزعة، وكان روبه المنزلي البنفسجي اللون يبدو قديمًا بلا شك، وممتلئًا بالبقع، وكان يبدو واسعًا عليه كذلك، لكن كان يبرز أيضًا من تحت هذا الروب القذر، عند العنق، طيات ربطة عنق هائلة من الحرير السميك، الداكن اللون.

تساءل وهو يوجه حديثه إلى الجميع: «حسنًا!»، وتقدم الشرطي قليلًا نحوه، وانحنى على السيارة، وتطوع كارل بتقديم تفسير مقتضب للموقف قائلًا:

«إن روبنسون خائر القوى إلى حد ما، إلا أن في وسعه أن يصعد السلالم بسهولة لو حاول ذلك، أما هذا السائق، فإنه يطلب شيئًا علاوة على الأجر الذي نقدته إياه بالفعل، أما أنا فراحل الآن، وداعًا».

قال ديلامارش: «إنك لن ترحل!».

وأعلن روبنسون من داخل التاكسي، قائلًا: «هذا ما قلته له أنا أيضًا!».

وقال كارل، وهو يخطو بضع خطوات قليلة إلى الأمام: «إلا أنني سأرحل رغم ذلك!».

وكان ديلامارش قد أصبح عندئذ بجانبه، فأمسك به، وجذبه إلى الخلف بشدة، وصاح فيه قائلًا: «ولكنني أقول إنك ستبقى هنا!».

فقال له كارل: «دعني!»، وحاول أن يتخلص منه، مستخدمًا قبضتيه، عند اللزوم، ولم يكن لديه سوى قليل من الأمل في التغلب على رجل مثل ديلامارش، إلا أن الشرطي، كان يقف بجوارهما، كما كان يقف سائق التاكسي أيضًا، ولم يكن الشارع خالٍ كذلك من الناس، كانت تلك المجموعات من العمال تعبره، فهل يتغاضى كل هؤلاء، ويتجاهلونه، لو حدث أن أساء إليه ديلامارش الآن؟ إنه لا يرغب في أن يصبح وحيدًا مع ديلامارش في حجرة واحدة، فلماذا يترك الآن هذه الفرصة تفلت منه، لكي يتخلص من ديلامارش؟ كان ديلامارش يدفع الآن للسائق ما طلبه في هدوء، ووضع ذلك السائق تلك الزيادة التي لم يكن يستحقها، في جيبه، بكثير من الانحناءات التي انحناها أمام ديلامارش، وزيادة في الامتنان، اتجه نحو روبنسون، وراح ينصحه بأفضل الوسائل للخروج من التاكسي، وأحس كارل بأن أحدًا لا يلاحظه، وأن ديلامارش ربما لن يهتم لو انسل هاربًا في تلك اللحظة، وكان يريد أن يتجنب أية مشاجرة معه، إن استطاع أن يتجنبها، ولهذا انسل نحو الطريق محاولًا أن يسرع بالهرب، إلا أن ديلامارش لم يكن في حاجة إلى التدخل، ذلك لأن الشرطي كان قد رفع عصاه لحظتها، ودفعها في الهواء إلى الأمام، قائلًا: «قف!».

وتساءل وهو يدفع عصاه تحت إبطه، وشرع فى انتزاع مفكرة من جيبه

ببطء قائلًا لكارل: «ما اسمك؟».

وتطلع إليه الآن، في إمعان للمرة الأولى، كان رجلًا متين البنيان، إلا أن شعره كان يغلب عليه البياض أجابه كارل قائلًا: «كارل روسمان».

وردد رجل البوليس ما قاله كارل، لا شك لأنه كان رجلًا هادئًا، ومدققًا في تقصي الحقائق: «روسمان!»، إلا أن كارل الذي كان يواجه الآن البوليس الأمريكي لأول مرة، لاحظ في تكراره للكلمات التي كان يجيبه بها، شيئًا من الارتياب، وربما كان وضعه في الحقيقة وضعًا مزعزعًا، ذلك أن روبنسون، على الرغم من انشغاله البالغ بمشكلة خروجه من التاكسي، كان يتوسل من داخل السيارة إلى ديلامارش في حركات خرساء، يرجوه بها أن يهرع لمساعدة كارل، إلا أن ديلامارش أبى أن يستجيب إليه بهزة سريعة لا مبالية من رأسه، وتطلع أمامه، دون أن يأتي بأدنى حركة، وقد وضع يداه في داخل جيبي روبه الكبيرين.

وشرح الصبي الذي كان قد جلس على عتبة الباب، لامرأة كانت قد خرجت لحظتها من ذلك المنزل، تفاصيل الموقف كله منذ بدايته، وتوقف الأطفال في نصف دائرة خلف كارل، وراحوا يتطلعون في صمت إلى الشرطي.

قال الشرطي لكارل: «أرني الأوراق التي تثبت شخصيتك؟»، قد يكون هذا مجرد سؤال رسمي، ذلك أن المرء بلا جاكتة، لم يكن بالطبع ليحمل في جيوب بنطلونه شيئًا من الأوراق الرسمية التي تثبت الشخصية، ولهذا ظل كارل صامتًا، وكان قد قرر بينه وبين نفسه أن يجيب عن السؤال التالي إجابة وافية، وإذا أمكنه، فسوف يفسر عندئذ أيضًا عدم وجود تلك الأوراق

الرسمية التي تثبت شخصيته، معه الآن.

إلا أن السؤال التالي كان: «إذن فأنت لا تحمل ما يثبت شخصيتك؟!».

وكان على كارل أن يجيب بقوله: «ليست معي الآن!»!.

فقال الشرطي: «لكن هذا أمر سيئ»!، وراح يتطلع حوله، وهو مستغرق في التفكير، بينما كان ينقر بأصبعه على غلاف مفكرته ثم تساءل أخيرًا: «هل لك وظيفة؟».

قال كارل: «كنت أعمل صبي مصعد».

«كنت تعمل صبي مصعد، وعلى هذا فلا عمل لك الآن! وفي هذه الحالة فما الذي تعتمد عليه في معيشتك؟».

«سأبحث عن عمل آخر».

«هكذا، فهل فصلت إذن لتوك؟!».

«نعم، منذ ساعة فقط».

«فجأة؟!».

قال كارل: «نعم»، ورفع يده كما لو كان يعتذر عن ذلك، لم يكن يمكنه أن يسرد القصة كاملة هنا، وحتى لو أمكنه ذلك، فقد كان واضحًا أنه لا جدوى من الاعتقاد بإمكان تجنب الألم الذي قد يعاوده، لو تعرض ثانية لسرد الإساءات التي كان قد عانى مرارتها لتوه، وإذا كان لم يتمكن من أن يحصل على رد اعتباره عندما أعلنت المديرة عطفها نحوه، وواجهها رئيس السفرجية برأيه في الموقف، فليس له بلا شك أن يأمل في أن يحصل على ما فاته هنا، في هذا الشارع، ومن هذا الحشد الذي تجمع حوله الآن!.

وتساءل الشرطي قائلًا: «وهل فصلت دون أن تتمكن من الحصول على جاكتتك؟».

فقال كارل: «نعم»، وهكذا ففي أمريكا أيضًا، من طبع السلطات أن تتساءل عما يتراءى لها، وأن توجه ما يحلو لها من الأسئلة! «كم كان سخط والده، على تلك الأسئلة العقيمة التي راح الموظفون يوجهونها إليه عندما كان يستخرج جواز سفر كارل»!، وأحس كارل بالرغبة في أن يجري، ويختبئ في مكان ما، لكي يتحاشى فقط الإجابة عن المزيد من تلك الأسئلة، لكن الشرطي وجه إليه لحظتها، نفس السؤال الذي كان كارل يخشى أن يوجهه إليه أكثر مما كان يخشى أن يسأله عن أي شيء آخر، ذلك السؤال الذي كان كارل يتوقع سماعه في قلق من ذلك الشرطي، حتى إنه ربما يكون قد سلك سلوكًا أقل حذرًا بسبب قلقه ذاك، وما كان ينبغي له أن يسلكه، وربما يكون سلوكه المضطرب ذاك الذي لا يدرى كنهه على التحديد، هو الذي عجل بتوجيه هذا السؤال إليه.

أطرق كارل برأسه إلى أسفل، ولم يجب، كان هذا هو آخر سؤال يمكنه الإجابة عنه، ولم يكن يرغب أن يصحبه الشرطي ثانية إلى الفندق الغربي، ليبدأ هناك في الاستفسار عن الحكاية بأكملها، ذلك الاستفسار الذي سيشترك في الإجابة عنه كل أصدقائه وأعدائه، وتنهار كذلك بقية ثقة المديرة فيه، انهيارًا تامًا، بعد أن يتضح لها أن الصبي الذي كانت تظنه الآن في بنسيون برنير، قد جاءها في حراسة الشرطة، في قميصه فقط، وبدون البطاقة الخاصة التي كانت قد أعطتها له، ولعل رئيس السفرجية أن يطرق عندئذ إطراقة تشير إلى إدراكه لهذا كله، وقد يصرح رئيس البوابين بأن يد الله لم تفلت ذلك

الشرير في النهاية.

قال ديلامارش، وهو يخطو نحو الشرطي: «لقد كان يعمل في الفندق الغربي»!، وصاح كارل قائلًا: «لا!»، وراح يدق الأرض بقدمه قائلًا: «ليس هذا صحيحًا!»، ونظر إليه ديلامارش، وهو يمط شفتيه في سخرية، كما لو كانت لديه أسرار عديدة يمكنه أن يفشيها، وأثار اضطراب كارل الذي لم يكن متوقعًا، الأطفال الذين تجمعوا خلفه إثارة بالغة، فاصطفوا جميعًا بجوار ديلامارش؛ لكي يتمكنوا من رؤية كارل جيدًا، وأخرج روبنسون رأسه تمامًا، خارج التاكسي وظل ساكنًا تمامًا، حتى أنه لم يأت بأدنى حركة فيما عدا حركة جفنيه التلقائية، وصفق الصبي الذي كان يجلس على عتبة باب المنزل المواجه في اغتباط، ولكزته المرأة التي كانت قد توقفت إلى جواره بكوعها لكي يصمت، وكان الحمالون الذين كانوا يذرعون فناء المنزل الذي يسكنه ديلامارش، قد توقفوا لحظتها عن العمل؛ لكي يتناولوا إفطارهم، فتجمعوا وهم يحملون في أيديهم صفائح عديدة صغيرة ممتلئة بالقهوة السوداء، ظلوا يقلبونها بقطع مستديرة من الخبز، وجلس بعضهم على حافة الرصيف، وراحوا يتجرعون جميعًا قهوتهم في صوت مسموع.

سأل الشرطي ديلامارش قائلًا: «هل تعرف هذا الصبي؟».

وقال ديلامارش: «إننى أعرفه معرفة تامة، ولقد أسديت إليه من قبل خدمات لا حصر لها، قابلها هو بقليل من العرفان، ولعلك أن تلاحظ ذلك الطبع فيه، خلال لقائك القصير به الآن!».

قال الشرطي: «نعم، إنه يبدو وغدًا صغيرًا عنيدًا».

فقال ديلامارش: «إنه هكذا بالفعل، إلا أن ذلك ليس هو أسوأ ما فيه مع ذلك!».

فقال الشرطي: «إلى هذا الحد؟!».

فأجابه ديلامارش الذي كان قد تحمس الآن لرأيه في كارل، وهو يطوح بطرف روبه هنا وهناك، بيديه اللتين كان قد دسهما في جيبه: «أوه.. إنه صبي رائع هذا الذي أمامك، ولقد كنا، أنا وصديقي الذي هناك في داخل التاكسي قد التقطناه من الطريق ذات مرة، وكان ضائعًا شريدًا، ولم تكن لديه في ذلك الحين، أدنى فكرة عن الحياة والأحوال في أمريكا، فقد كان قادمًا لتوه من أوروبا، حيث لم يكن يحتاج إليه أحد كذلك، حسنًا! لقد اصطحبناه معنا، واتحنا له فرصة العيش بيننا، وفسرنا له كل شيء، وحاولنا أن نجد له عملًا، وكنا نظن على الرغم من كل شيء، أن في مقدورنا أن نخلق منه كائنًا إنسانيًّا رقيقًا، إلا أنه فاجأنا في النهاية بخدعته التي خيبت أملنا فيه ذات ليلة واختفى ببساطة، وفي ظروف لن أذكرها الآن، هل هذا صحيح أم لا؟!». تساءل ديلامارش في النهاية، وهو يجذب كم قميص كارل.

وصاح الشرطي قائلًا: «عودوا إلى أماكنكم أيها الأطفال».

فقد كان الأطفال قد زحفوا إلى الأمام، حتى لقد تعثر ديلامارش في أحدهم، واكتشف الحمالون في ذلك الوقت، أن هذا الاستجواب كان أكثر إثارة للاهتمام، مما ظنوه في بداية الأمر فشرعوا في الانتباه إلى تفاصيله، وتجمعوا في حلقة خلف كارل مباشرة، ولهذا لم يكن كذلك من الاستماع إلى ثرثرة هؤلاء الحمالين، التي لم تتوقف، فقد كانوا يهذون فى رطانة غير مفهومة لعلها كانت إنجليزية ركيكة تتخللها بضع كلمات من اللغة السلافية.

قال الشرطي: «شكرًا لهذه المعلومات!»، وحيا ديلامارش، «وعلى كل حال، فسوف أصحبه معي، وأسلمه إلى إدارة الفندق الغربي».

فقال له ديلامارش: «هل لى أن أسألك معروفًا، بأن تترك الصبي معي الآن؛ لأن لدي بعض الأمور عليّ أن أسويها معه، وأعدك بأنني سوف أصحبه بنفسي إلى الفندق فيما بعد».

وقال الشرطي: «لا يمكننى أن أفعل ذلك».

فقال له ديلامارش، وهو يناوله بطاقته: «هذه هي بطاقتي!».

وتفحصها الشرطي في عناية، لكنه قال في ابتسامه مؤدبة: «لا، لا يمكننى ذلك»، وبقدر ما كان كارل حذرًا من ديلامارش حتى الآن، فقد وجد لحظتها، رغم ذلك، فيه خلاصه الوحيد الممكن، وقد كانت الطريقة التي كان يتفاهم بها مع الشرطي طريقة مريبة بلا شك، إلا أن ديلامارش على كل حال، من الممكن أن يقتنع بعدم تسليمه إلى الفندق، وهو ما لا يمكن أن ينثني عنه الشرطي، وحتى لو عاد كارل إلى الفندق في صحبة ديلامارش، فلن يكون الأمر سيئًا، إلى الحد الذي سيكون عليه من السوء، لو أنه عاد إليه في صحبة الشرطي، ولا يجب على كارل في تلك اللحظة بالطبع أن يوضح رغبته في عدم البقاء مع ديلامارش بالفعل، وإلا ضاع كل شيء.

وراقب كارل يد الشرطي في شيء من القلق، تلك اليد التي قد ترتفع في أية لحظة لتقبض عليه.

وقال الشرطي أخيرًا: «لابد لى على الأقل من أن أبحث هناك عن السبب الذي فصل بسببه!»، بينما راح ديلامارش يتطلع بعيدًا، وعلى وجهه شعور

بالاستياء، وهو يطوي البطاقة بين أطراف أصابعه.

وصاح روبنسون لدهشة الجميع قائلًا: «لكنه لم يفصل مطلقًا»، وكان قد انحنى إلى خارج التاكسي، بقدر ما استطاع أن يظهر خارجه، وقد استند بإحدى يديه على كتف السائق: «إن هذا لم يحدث مطلقًا، إنه له وظيفة محترمة للغاية هناك، كما أنه أبرز الصبية جميعًا في عنبر النوم بالفندق، ويمكنه أن يستضيف من يشاء هناك في ذلك العنبر، إلا أنه فقط مرهق بالعمل، فلو أردت أن تسأله شيئًا، فإن عليك أن تنتظر عودته وقتًا طويلًا، فهو دائمًا في اجتماعات مع رئيس السفرجية، ومع المديرة، إن له وضعًا استثنائيًا هناك! إنه لم يفصل مطلقًا، بلا شك، ولست أدري لماذا قال إنه قد فصل، فكيف يمكن أن يفصل؟ ولقد تعرضت لأشد الأذى في الفندق، ووجهت إليه التعليمات بأن يصحبني إلى منزلي، ولأنه لم يكن يرتدي جاكتته لحظتها، فقد صحبني إلى هنا بدونها، فلم يكن في استطاعتي أن أنتظره حتى يبحث عنها».

قال ديلامارش: «حسنًا، الآن»!، وهو يفرد ذراعيه على امتدادهما في لهجة بدت كأنها لهجة لوم موجهة إلى الشرطي، لعدم فطنته، وبدا وكأن هاتين الكلمتين اللتين نطق بهما، قد أسهمتا في توضيح الأمر وضوحًا لا يقبل الجدل، وكشفتا ما غمض من تقرير روبنسون عن الموقف.

فتساءل الشرطي، وهو يوشك أن يضعف بالفعل: «لكن هل هذا صحيح؟! ولو كان صحيحًا، فلماذا صرح الصبي نفسه بأنه قد فصل؟».

قال ديلامارش: «من الأفضل أن توجه إليه هو هذا السؤال!».

وتطلع كارل إلى الشرطي الذي كان واجبه هو حفظ النظام هنا بين

الأجانب، وأن يراعي ما يراه في صالحهم، وأدرك على نحو ما بعض الصعوبات التي كانت تواجه الرجل، وقد جعله هذا راغبًا عن الكذب، ولهذا فقد وقف عاقدًا يديه خلف ظهره بشدة، وظهر في مدخل باب المنزل الذي يسكنه ديلامارش ملاحظ عمال، فاحتسى هؤلاء ثمالة قهوتهم من العلب الصفيحية التي كانوا يمسكونها، وخيم عليهم الصمت، وهم يجرجرون أقدامهم على مضض نحو ردهة النزل.

وقال الشرطي: «لن نصل إلى أية نتيجة، على هذا النحو..!»، وتأهب للقبض على ذراع كارل، فتراجع كارل قليلًا إلى الخلف دون أن يدري، ولاحظ المسافة الخالية، التي تركها رحيل العمال خلفه، واستدار، وبقفزات قليلة هائلة في البداية، انطلق بأقصى سرعته، وأطلق الأطفال صيحة واحدة، وانطلقوا يجرون بمحاذاته، وقد فردوا أذرعهم، لمسافة قصيرة لا تزيد على بضع خطوات.

وصاح الشرطي في الشارع الطويل الخالي: «أمسكوه!»، وانطلق في ترديد هذه الصيحة بانتظام بين الحين والآخر، وهو يجري خلف كارل، في سرعة أظهرت قوته ومرانه، وكان من حسن حظ كارل أن المطاردة كانت تجري في حي عمالي، فلم يكن لدى هؤلاء العمال شيء من التعاطف مع الشرطة، وظل كارل يجري وسط الطريق، فلم تكن تصادفه كثير من العقبات في وسط الطريق، وكان يرى بين الحين والآخر بعض العمال يقفون في هدوء على الرصيف، ويرقبونه، بينما استمر الشرطي في ترديد صيحته: «أمسكوه»!، وهو يسدد عصاه نحو كارل ويجري بمحاذاته، ملتزمًا في خبث، جانب الطريق الممهد، وكان لدى كارل أمل واهٍ، وإن كان في

بعض الأحيان، قد فقد غالبًا ذلك الأمل عندما شرع الشرطي- وكانا قد بلغا أحد مفارق الطرق، حيث من الممكن أن توجد بعض دوريات الشرطة- في إطلاق الصفارات التي كانت تصم الآذان، وكانت ميزة كارل الوحيدة التي كان يتفوق بها على الشرطي هي خفة ملابسه، فكان يطير، أو بالأحرى، يختفي في منحدر الشارع الذي كان يهبط أكثر فأكثر، لكنه في اضطرابه لقلة نومه في الليلة الماضية،كان يقفز أحيانا قفزات متعثرة، عالية جدًّا في الهواء، وكان وقته يضيع عندها عبثًا، وكان الشرطي بالإضافة إلى ذلك يرى هدفه ماثلًا أمام عينيه، فلم يكن عليه أن يفكر في شيء، بينما كان على كارل أن يفكر أولًا، وأن يواصل جريه فقط في الفترات التي كان يراها، وكانت خطته، وهي خطة يائسة إلى حد ما، هي أن يتجنب مفترق الطرق الآن على الأقل، لأنه لم يكن يدري ماذا كانت تخبئه له، فقد ينطلق مثلًا، في جريه عندها، مباشرة نحو مركز من مراكز البوليس، وكان يريد بقدر الإمكان أن يواصل جريه في هذا الشارع العمومي، الذي يمكنه أن يشمله بنظراته من أوله إلى آخره، طالما أنه لم يكن ينتهي إلا في نهاية منحدره، إلى كوبري، كان يختفي فجأة في غلالة من الضباب، بينما تسطع الشمس أعلاه، وعندما قرر أن يلتزم بتنفيذ تلك الخطة، اندفع في جريه، دفعة أشد سرعة حتى يتمكن من أن يعبر مفترق الطرق الأول الذي صادفه في سرعة خاطفة، عندما لمح أمامه على مسافة قريبة شرطيًا آخر، كان قد توارى في حذر إلى جوار حائط غارقًا في الظلال، وتأهب للانقضاض عليه في اللحظة المناسبة، فلم يكن أمامه لحظتها بدًّا من أن يستدير نحو الشارع المتقاطع، وعندها ناداه شخص ما باسمه في صوت خافت- ظن كارل ذلك وهمًا في بداية الأمر، ذلك أن الرنين كان

يطن في أذنيه طوال الوقت- فلم يتردد طويلًا واستدار دورة مفاجئة، لكي يباغت الشرطي أقصى مباغتة يمكنه أن يصيبه بها، واستدار إلى اليمين بزاوية حادة على إحدى قدميه متجها نحو الشارع المتقاطع، وما كاد يخطو في ذلك الشارع خطوتين- وكان قد نسي بالفعل أن أحدًا كان قد ناداه باسمه، ذلك الشرطي الآخر، كان ينفخ في صفارته هو أيضًا، وبدا له في وضوح أن بعض المارة النشطين المتباعدين أمامه، كانوا قد أسرعوا في خطواتهم- عندما اندفع ذراع شخص ما من أحد الأبواب الصغيرة، وأمسك به، وانسحب كارل إلى مدخل مظلم، بينما جاءه صوت ما يقول له: «لا تتحرك!»، كان صوت ديلامارش، وكان متقطع الأنفاس هو أيضًا، ووجهه محمر، وشعره متبلد فوق رأسه، ولم يكن يرتدي سوى قميصه وسرواله الداخلي، وكان روبه المنزلي مدسوسًا تحت ذراعه، ولم يكن الباب سوى بابًا جانبيًّا غامضًا، لم يكن من السهل تمييزه، وقد أغلقه ديلامارش وأحكم رتاجه في الحال.

قال: «انتظر لحظة»!، واستند إلى الحائط، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، ورأسه ملقاة إلى الخلف، وكان كارل يكاد يكون مستلقيًا بين ذراعيه، وضغط وجهه في صدر ديلامارش، دون أن يدري ما يفعل.

قال ديلامارش، وهو يتسمع بانتباه، ويشير بإصبعه إلى الباب، كان الشرطيان يبتعدان بالفعل، وكانت أقدامهما تدق الشارع الخالي، كوقع دقات الصلب على الحجر: «لقد ابتعدا»!، وقال موجهًا حديثه إلى كارل الذي كان يجاهد لالتقاط أنفاسه ولا يستطيع النطق بكلمة: «لقد تورطت في تلك المطاردة»، وأرقده ديلامارش في عناية على الأرض، وركع بجانبه، ومر بيده عدة مرات فوق رموشه، وراح يتطلع إليه.

وقال كارل وهو ينهض متألمًا: «إنني على ما يرام الآن»!.

فأجابه ديلامارش الذي كان قد ارتدى الآن روبه ثانية: «إذن فهيا بنا!»، ودفع كارل، الذي كان مطرقًا برأسه إلى أسفل من شدة الإرهاق، أمامه، وهو يهزه بين الحين والآخر لكي ينشطه، قائلًا: «إنك تقول إنك مرهق؟!، ولقد انطلقت تعدو بطول الشارع كله كالحصان، لكن كان علي أنا أن أجتاز هذه الممرات اللعينة والأفنية، ومن حسن الحظ أنني عداء ممتاز إلى حد ما أنا أيضًا»!، وفي غمرة فخره بنفسه، دفع كارل دفعة شديدة على ظهره: «إن سباقًا كهذا مع رجال الشرطة، يعد مرانًا طيبًا بين الحين والآخر».

قال كارل: «لقد كنت في غاية الإرهاق قبل أن أبدأ الجري»، فقال ديلامارش: «لا يوجد أدنى عذر للجري السيئ، فلو لم أكن قد أسرعت لنجدتك لكانا قد لحقا بك في الحال!».

فقال كارل: «إنني أعتقد هذا أنا أيضًا، وأنا مقدر جدًّا صنيعك».

وأجابه ديلامارش قائلًا: «لا شك في هذا».

واجتازا ممرًا طويلًا، ضيقًا، بالطابق الأرضي، كان مبلطًا، ببلاطات حجرية ملساء، وكان ثمة سلم يبدأ هنا، وسلم هناك على كلا الجانبين، أو ممر يؤدي إلى ردهة فسيحة، وكان من النادر رؤية أشخاص كبار، وكان الأطفال يلعبون فوق درجات تلك السلالم الخالية، وبجانب درابزين أحد السلالم، كانت تقف طفلة صغيرة، تبكي في حرقة، حتى أن وجهها كانت تغطية الدموع تمامًا، وعندما لمحت ديلامارش، اندفعت صاعدة درجات السلم، وهى تجاهد لالتقاط أنفاسها، وفمها مفتوح على اتساعه، ولم تهدأ

إلا عندما بلغت قمة الدرج، بعد أن نظرت من فوق كتفها المرة بعد المرة؛ لكي تتأكد من أحدًا لا يطاردها، أو يهم بمطاردتها.

قال ديلامارش ضاحكًا: «لقد اندفعت تهبط السلم أمامي منذ دقيقة واحدة فقط!»، ورفع قبضته نحوها، فاندفعت ثانية إلى أعلى، وراحت تصرخ. وكانت الأفنية التي مرا بها مهجورة تمامًا، هي أيضًا، وكان ثمة امرأة تملأ جردلًا بالماء من طلمبة، وساعي بريد يدور دورته، ورجل عجوز ذو شارب أبيض قد جلس أمام باب زجاجي، وراح يدخن غليونًا، وساقاه متعانقتان، وكانت السلال يفرغها الحمالون أمام إحدى الوكالات التجارية، بينما كانت الخيل المتكاسلة تهز رؤوسها في رتابة من جانب إلى آخر، ورجل يرتدي «أفرول» كان يشرف على سير العمل، وهو يحمل ورقة في يده، وخلف النافذة المفتوحة في حجرة مكتب، كان يجلس أحد الكتبة إلى مكتبه، وقد رفع رأسه، وتطلع أمامه خارج النافذة مستغرقًا في التفكير، عندما مر به لحظتها كارل وديلامارش.

قال ديلامارش: «إن هذا المكان مكان هادئ، كما يجب أن يكون المكان الهادئ، وقد تضغي عليه الضوضاء في المساء لمدة ساعة أو ساعتين، إلا أنه مثال للهدوء طوال اليوم»!، وأطرق كارل فقد كان المكان يبدو له هادئًا بالفعل غاية الهدوء، وقال ديلامارش: «إنني لا يمكنني أن أعيش إلا في هذا المكان، ذلك أن برونيلدا لا تحتمل ببساطة أية ضوضاء، هل تعرف برونيلدا؟، حسنًا، سوف تراها الآن، وعلى كل حال، فإنني أنصحك بأن تلزم الهدوء ما استطعت».

وعندما بلغا بداية السلم الذي يؤدي إلى شقة ديلامارش، كان التاكسي

قد ذهب لحظتها، وأعلن الصبي ذو الأنف المتآكل، ودون أن تبدو عليه أقل دهشة لعودة كارل، أنه قد ساعد روبنسون في صعود السلم، وأومأ له ديلامارش فحسب، كما لو كان خادمًا قد قام فقط بأداء واجبه، ثم سحب كارل لكي يصعد السلم معه، وكان كارل قد تردد لحظتها وتطلع إلى الخارج نحو الشارع المشمس، وقال ديلامارش مرددًا أكثر من مرة: «سوف نصبح الآن هناك في الحال»، إلا أن نبوءته كانت بطيئة التحقيق، فقد كان يوجد أمامهما دائمًا سلم آخر جديد يعلوهما، يتجه اتجاها آخر، يمكن إدراكه في وضوح قبل بلوغه، وقد توقف كارل بالفعل مرة، لا من التعب، بل من اليأس، أمام تلك السلالم التي لا نهاية لها.

قال له ديلامارش، وهما يواصلان صعودهما: «إن الشقة مرتفعة ارتفاعًا بالغًا، إلا أن لهذا الارتفاع ميزته أيضًا، فهذا الارتفاع، لا يشجعنا على الخروج كثيرًا، ولهذا نظل نتسكع طوال النهار بملابسنا المنزلية في أنحاء الشقة، إنها شقة مريحة جدًّا، وبالطبع، فلا أحد يزورنا قط في تلك الشقة، فليس من السهل أن يصعد الزوار إلى شقة على هذا الارتفاع!».

وفكر كارل في نفسه قائلًا: «ومن هم الزوار الذين يمكن أن يكونوا قد تعرفوا بهما، حتى يقوموا بزيارتهما؟!».

وفي النهاية لمحا روبنسون على بسطة السلم في أحد الطوابق، وهو يقف أمام باب مغلق، وكانا قد بلغا الآن مكانه، ولم تكن السلالم قد انتهت بعد، رغم ذلك، بل كانت تمتد إلى أعلى في الظلام، دون أدنى دلالة تدل على أن نهايتها كانت في مجال الرؤية.

قال روبنسون في صوت لا يكاد يبين، وكأنه لا يزال يعاني من آلامه:

«لقد ظننت هذا! إن ديلامارش قد أحضره، روسمان، إلى أين ستذهب بعيدًا عن ديلامارش؟»، كان روبنسون يقف في ملابسه الداخلية، وقد لف حول جسده البطانية الصغيرة التي كان قد حصل عليها من الفندق الغربي، ولم يكن هناك سبب واضح يبرر وقوفه في الخارج أمام باب الشقة ولا يدخلها، بدلًا من أن يقف في مكانه هكذا كأضحوكة لمن يتصادف أن يمر به.

تساءل ديلامارش قائلًا: «هل هي نائمة؟!».

فقال روبنسون: «لا أظن ذلك، إلا أنني رأيت أن من الأفضل أن أنتظر عودتك».

فقال ديلامارش: «يجب أولًا أن نرى إن كانت نائمة!»، وانحنى لكي ينظر من ثقب المفتاح، وبعد أن حدّق خلاله طويلًا، وهو يدير رأسه في هذا الاتجاه، وفي ذاك، نهض واقفًا، وقال: «لا يمكنني في الحقيقة أن أراها بوضوح؛ لأن الستائر مسدلة، إنها جالسة على الأريكة، وربما كانت نائمة!».

فتساءل كارل قائلًا: «لماذا، هل هي مريضة؟!»، فقد كان ديلامارش يقف في مكانه، كما لو كان في حاجة إلى النصيحة، إلا أنه زام في صوت حاد جدًّا: «مريضة؟!».

وقال روبنسون، محاولًا تهدئة ديلامارش: «إنه لا يعرفها».

وخرجت امرأتان من أحد الابواب التي تعلوهما ببضع درجات، ومسحتا أيديهما في مريلتهما، ونظرتا نحو ديلامارش وروبنسون، وبدا عليهما وكأنهما كانتا تتحدثان عنهما، ثم خرجت فتاة صغيرة من أحد الأبواب، واندست بين المرأتين، وتعلقت بذراعيهما.

قال ديلامارش: «هاتان امرأتان قذرتان!»، وكان صوته خفيضًا، وبدا أنه راعى ذلك حتى لا يتسبب في إزعاج برونيلدا النائمة، «وسوف أبلغ عنهما البوليس إن عاجلًا أو آجلًا، وعندئذ سأتخلص منهما بضع سنوات، لا تتطلع نحوهما»، وجذب كارل وهو يقول له ذلك، إلا أن كارل لم يجد بأسًا في أن يتطلع نحو المرأتين، طالما كان عليه على أية حال أن ينتظر واقفًا في الممر حتى تستيقظ برونيلدا، وهز رأسه في غضب، وكأنه يرفض أن يستمع إلى تحذيرات ديلامارش، بل لقد خطا بضع خطوات في اتجاه المرأتين، لكي يوضح رأيه، عندما أمسك به روبنسون من كم قميصه، قائلًا: «انتبه يا روسمان!»، بينما كان ديلامارش قد عصف به الغضب، بسبب الضحكة التي أطلقتها الفتاة الصغيرة، حتى لقد قفز، وهو يحرك ساقيه وذراعيه نحو المرأتين، اللتين دخلتا بابهما ثانية، كما لو كانتا قد انجرفتا خلاله في التو واللحظة، وقال ديلامارش عند عودته: «هذه هي الطريقة التي أخلي بها هذا الممر عادة»، ثم تذكر أن كارل قد تمرد عليه، فقال: «إلا أننى كنت أتوقع منك سلوكًا مختلفًا تمامًا، وإلا كان عليك أن تظهر لى عداءك صراحة!».

ثم جاء صوت رقيق من داخل الشقة، متسائلًا في إرهاق: «هل هذا أنت يا ديلامارش؟!».

فأجاب ديلامارش قائلًا: «نعم»، وتطلع في رقة إلى الباب: «هل يمكننا أن ندخل؟!».

وجاءه الجواب: «أوه!.. نعم»، وبعد أن ألقى نظرة على الآخرين اللذين كانا يقفان إلى جانبيه، فتح ديلامارش الباب في بطء.

وتقدم ثلاثتهم في الظلام الحالك، كانت الستارة التي تغطي باب الشرفة- لم تكن هناك أية نوافذ- مسدلة تمامًا، ولم تكن تسمح بدخول سوى القليل من الضوء، إلا أن حقيقة امتلاء الحجرة بالأثاث المتراكم، والملابس المعلقة في كل مكان، كانتا قد أسهمتا إلى حد كبير في إظلام الحجرة، فوق ظلامها، وكان الهواء فاسدًا، وكان في وسع المرء أن يتنفس التراب بالفعل، ذلك التراب الذي كان قد تجمع في الأركان، التي كانت تبعد فيما يبدو عن متناول اليد، وكان أول ما لاحظه كارل عند دخوله، هو ثلاثة من صناديق الملابس، كانت تستقر بعضها بجوار بعض.

وفوق الأريكة كانت تستلقي المرأة التي كانت تنظر من الشرفة، من قبل، وكان رداؤها الأحمر قد تثني تحتها على نحو ما، وانحدر حتى بلغ الأرض، وكان من الممكن رؤية ساقيها حتى الركبتين، كما كانت ترتدى جوارب صوفية بيضاء سميكة، ولم تكن تنتعل حذاء.

قالت: «ما أشد حرارة الجو يا ديلامارش!»، ومدت ذراعها نحو ديلامارش في وهن، وهي تدير وجهها نحوه، وتناول ديلامارش يدها، وقبّلها، واستطاع كارل أن يرى ذقنها، التي كانت تتكون من ذقنين، والتي كانت تلتف في انسجام مع دوران رأسها.

تساءل ديلامارش: «هل ترغبين في أن أرفع الستارة؟!» قالت في نبرة تبدو يائسة، وهي تغلق عينيها: «أوه.. لا تفعل هذا، فسوف يزيد الجو سوءًا!».

وكان كارل قد تقدم مباشرة إلى الأريكة لكي يرى المرأة جيدًا، كان مندهشًا لنواحها؛ لأن الحرارة لم تكن زائدة عن المألوف.

وقال ديلامارش في قلق: «انتظرى فسوف أريحك أكثر».

وفك بضعة أزرار حول رقبتها، وفتح الثوب حول عنقها، حتى تعرى جزء من صدرها، وكانت حروف الدانتلا الناعمة الصفراء التي تزين قميصها الداخلي قد بدت كذلك.

قالت المرأة فجأة، وهي تشير بأصبعها إلى كارل: «من هذا، ولماذا يحدّق نحوي بهذه القسوة؟!».

فقال ديلامارش، وهو يدفع كارل جانبًا: «إنك محسنة كبيرة، ألست كذلك؟!» وراح يؤكد للمرأة قائلًا: «إنه ليس سوى الصبي الذي أحضرته معي لكي يقوم على خدمتك!».

فصاحت المرأة قائلة: «ولكنني لا أريد أحدًا، فلماذا تحضر الغرباء إلى داخل المنزل؟!».

فقال ديلامارش، وهو يركع على الأرض، فلم يكن ثمة مكان له على الأريكة بجوار برونيلدا، بالرغم من اتساعها: «لكنك ظللت تطلبين مني دائمًا شخصًا يتولى خدمتك!».

قالت: «أوه، يا ديلامارش، إنك لا تفهمني، إنك لا تفهمني مطلقًا!».

فقال ديلامارش: «إذن، فليكن الأمر كذلك، فأنا لا أفهمك!»، وتناول وجهها بين راحتيه: «إلا أن ذلك لا يهم في الحقيقة، فيمكنه أن يرحل في الحال، لو شئت!».

قالت أخيرًا: «بما أنه قد جاء، فيمكنه أن يبقى»، وأحس كارل بالامتنان لها، عند سماعه هذه الكلمات، لشدة التعب الذي كان يشعر به، مع أن تلك

الكلمات لم تكن فيما يبدو تحمل شيئًا من الكرم، ذلك أن التفكير في تلك الدرجات التي لا نهاية لها، والتي قد يتعين عليه أن يهبطها ثانية، كان أشد ما كان يخشاه، لهذا تخطى روبنسون الذي استغرق في النوم الآن فوق بطانيته، وقال لها، على الرغم من إيماءات ديلامارش الغاضبة: «إنني أشكرك على أية حال؛ لسماحك لي بالبقاء هنا لفترة قصيرة فقط، لأنني لم أذق طعم النوم طوال الأربع والعشرين ساعة الماضية، ولقد قمت بأشياء كثيرة جدًّا، وقد أزعجتني كذلك بعض الأمور، وكدرتني، إنني مرهق غاية الإرهاق، ولا أكاد أدري أين أنا، لكني بعد أن أغفو ساعة أو ساعتين يمكنك أن تلقي بي خارجًا، وسوف أرحل في الحال مسرورًا».

قالت المرأة: «يمكنك أن تبقى ما شاء لك البقاء»، ثم أضافت قائلة في سخرية: «إن لدينا أكثر من متسع لك هنا، كما ترى» فقال ديلامارش: «إذن من الأفضل أن ترحل الآن، فليست لنا أية حاجة إليك!».

فقالت المرأة جادة هذه المرة: «لا، دعه يبقى».

وقال ديلامارش، وكأنه يلبي أمر المرأة: «حسنًا إذن، فاذهب واستلق في مكان ما».

- يمكنه أن يستلقي فوق الستائر، لكن عليه أن يخلع حذاءه حتى لا يتسبب في تمزيقها.

وأشار ديلامارش لكارل إلى المكان الذي قصدته المرأة، فبين الباب والصناديق الثلاثة، كانت توجد كومة هائلة من مختلف أنواع الستائر، ملقاة، وكانت مطوية جميعًا بغاية العناية، الستائر الثقيلة في أسفل، والخفيفة فوقها،

وكانت كل القضبان التي تتحرك فوقها الستائر، وكل الحلقات الخشبية المتناثرة خلال الكومة قد أخرجت منها، وربما كانت هذه الستائر تكون في النهاية أريكة لا بأس بها، لكنها كانت في الحقيقة عبارة عن كومة مهتزة غير صالحة للنوم، وقد استلقى كارل فوقها مع ذلك، في الحال؛ لأنه كان متعبًا غاية التعب ولا يقدر أن ينتظر لكي يعيد ترتيب هذه الكومة من الستائر، وكان عليه، كذلك، أن يحذر المزيد من الأحاديث مع مضيفه، ومضيفته.

ولقد استغرق في النوم العميق، حتى سمع صيحة مرتفعة، وفزع من نومه ليجد برونيلدا تجلس فوق الأريكة، وهي تفرد ذراعيها على آخرهما، وتلقيهما فوق كتفي ديلامارش، الذي كان راكعًا أمامها، وصدم كارل لهذا المشهد، واستلقى ثانية على ظهره، وتكوم على نفسه فوق الستائر لكي يواصل نومه، وقد اتضح أنه لن يحتمل هذا المكان لمدة يومين، لكن كان من الضروري له أن ينام نومًا كافيًا الآن؛ حتى يمكنه أن يستعيد نشاطه، ومن ثم يقرر بعد ذلك ما ينبغي عليه أن يفعله.

إلا أن برونيلدا كانت قد لمحت عيني كارل، اللتين كان الإرهاق قد زاد من اتساعهما، وكانتا قد أفزعتاها بالفعل، فصاحت: « ديلامارش، لا يمكنني أن أحتمل هذه الحرارة، إنني أكاد أحترق، ويجب علي أن أخلع ملابسي، يجب أن أخذ حمامًا، فأخرج هذين الشخصين، إلى حيث تشاء، إلى الممر، أو إلى الشرفة، أو أي مكان آخر لا يمكن أن تقع عليهما فيه عيناي! فهاأنذا في منزلي، ولكن لا يمكنني أن أحصل على الراحة مطلقًا، فلو أمكن لنا أن نكون وحدنا يا ديلامارش! أوه، يا إلهي، إنهما لا يزالان هنا، انظر إلى هذا الوقح المدعو روبنسون، وهو يتمدد في ملابسه الداخلية في وجود سيدة،

وانظر أيضًا إلى هذا الصبي، هذا الغريب الذي يحدّق فيَّ بوحشية، وكيف يتظاهر بأنه قد استغرق ثانية في النوم، لكي يخدعني، اطردهما يا ديلامارش، إنهما عبء على كاهلي، إنهما ثقل فوق صدري، فلو مت الآن فسوف يكون ذلك بسببهما!».

قال ديلامارش وهو يتقدم نحو روبنسون، ويهزه بقدمه التي وضعها فوق صدره: «هيا اخرجا من هنا، اخرجا في الحال!»، ثم صاح موجهها حديثه إلى كارل: «انهض يا روسمان، اخرجا إلى الشرفة كلاكما، وسوف تكون جنازتكما قد حانت إن دخلتما هنا قبل أن ندعوكما إلى الدخول، والآن تحرك يا روبنسون». وعند ذلك ركل روبنسون بقسوة أشد، وقال: «وأنت يا روسمان، هيا إلى الخارج، وإلا جئت فتصرفت معك أنت أيضًا!»،وصفق بيديه مرتين في صوت مرتفع.

صاحت برونيلدا من مكانها على الأريكة قائلة: «لماذا تتلكآن» كانت قد فردت ساقيها على اتساعهما حيث جلست لكي تتيح مكانًا لجسدها غير المتناسق، بمجهود شديد، وهي تتنفس، وتتوقف كثيرًا لكي تلتقط أنفاسها، حتى استطاعت أن تنحني إلى الأمام لكي تمسك بجواربها، وتخلعها، ولم تستطع أن تخلع ملابسها، فقد كان على ديلامارش أن يقوم بذلك، وكانت تجلس الآن في انتظاره، بفارغ الصبر؛ لكي يخلع عنها ملابسها.

وزحف كارل، وهو يكاد يكون فاقد الوعي من شدة التعب إلى أسفل من فوق كومة الستائر، واتجه في بطء نحو باب الشرفة، وكانت قطعة من قماش الستائر قد التفت حول ساقه، فجرجرها معه بلا مبالاة، وفي شروده قال بالفعل لبرونيلدا، وهو يمر أمامها: «أرجو لك ليلة سعيدة» ثم

مر بديلامارش الذي كان يحرك الستائر جانبًا، من أمام باب الشرفة، وخرج كارل إلى الشرفة، ووصل روبنسون في الحال خلفه، وكان يبدو مستغرقًا مثله في النوم؛ لأنه كان يغمغم قائلًا لنفسه: «معاملة سيئة دائمًا، فلو لم تأت برونيلدا لما كان علي أن أذهب إلى الشرفة!».

إلا أنه قد خرج في غاية الوداعة، على الرغم من هذا التصريح، إلى الشرفة، حيث استلقى فوق الأرض الحجرية؛ لأن كارل كان قد تكوم فوق المقعد ذي المساند.

وعندما استيقظ كارل كان المساء قد حل، وكانت النجوم قد ظهرت في السماء، وخلف البيوت العالية المواجهة كان القمر قد ارتفع في السماء، ولم يكن كارل يكاد يدرك أين كان، قبل أن يتفحص الأماكن المهجورة التي كانت تحيط به الآن، وقبل أن يستنشق الهواء الرطب المنعش، وكيف كان قد بلغ به الإهمال حدًّا، أهمل معه نصائح المديرة، وكل تحذيرات تيريز، وكل مخاوفه الخاصة، وهنا حيث كان يجلس في هدوء في شرفة ديلامارش، حيث نام نصف يوم، بدا له وكأن ديلامارش عدوه اللدود لم يكن يوجد بالفعل على بعد خطوات قليلة منه، خلف تلك الستارة، وروبنسون هذا، الضائع الكسول، الذي كان يتمدد على أرضية الشرفة، والذي كان قد راح يشد قدمه، ويبدو أنه قد أيقظه بهذه الطريقة من نومه، فقد كان يقول له الآن: «كيف يمكنك أن تنام يا روسمان، إن هذا هو تمامًا معنى أن يكون المرء صغيرًا، وعديم المبالاة، وإلى متى تريد أن تواصل النوم، لقد تركتك تستغرق في النوم، إلا أننى كنت قد ضقت أولًا بالاستلقاء فوق أرضية الشرفة، وثانيًا فقد جعت غاية الجوع، هيا، انهض في الحال، فلقد عثرت على شيء كان

مخبئًا تحت مقعدك، شيئًا من الطعام، وأريد أن أخرجه من مكانه، وسوف أعطيك بعضه».

وعندما نهض كارل، تطلع حوله، بينما زحف روبنسون– دون أن ينهض على قدميه– على بطنه، حتى بلغ أسفل المقعد، لكي يجذب صينية فضية، كتلك التي تستعمل في حمل بطاقات الزيارة، وكان فوق تلك الصينية قطعة من السجق الأسود، وبضع سجائر رفيعة، وعلبة سردين مفتوحة، لا تزال ممتلئة تقريبًا، ومغطاة بالزيت، وبضع قطع من الحلوى، أغلبها مكومة في قطعة واحدة، ثم ظهرت أيضًا قطعة كبيرة من الخبز، ونوع من زجاجات العطر، يبدو أنها كانت ممتلئة بشيء آخر غير العطر، ورغم ذلك، لأن روبنسون عرضها في رضا زائد على كارل، وهو يمتص شفتيه ويتطلع نحو كارل بنظرة راضية.

قال روبنسون، وهلم يلتهم السردينة بعد الأخرى، ويمسح الزيت بوشاح من الصوف يبدو أن برونيلدا كانت قد نسيته في الشرفة: «انظر يا روسمان، انظر، هذا ما تحتاج إليه في الحقيقة، إن لم تكن تحب أن تتضور جوعًا، وأقول لك، لقد ألقي بك على هامش الحياة، ولو عاملك الناس دائمًا ككلب، فإنك سوف تبدأ، فتظن أنك كلب بالفعل، إنه شيء طيب وجودك هنا معي يا روسمان، فسوف أجد على الأقل شخصًا يمكنني أن أتحدث إليه، لا أحد في هذا المنزل كله يتحدث إليّ، إنهم يكرهوننا وكل هذا بسبب برونيلدا، إنها امرأة رائعة الطبع، وإنني..!» وهنا أشار إلى كارل بأن يميل نحوه، لكي يهمس إليه بشيء ما: «لقد رأيتها عارية ذات مرة، أوه..» وعندما عاودته ذكرى تلك المتعة، راح يقرص ساق كارل، ويصفعها، حتى صاح

كارل فيه قائلًا: «روبنسون، لقد جننت!»، ودفع يده في عنف بعيدًا.

قال روبنسون: «إنك مازلت طفلًا يا روسمان!»، وأخرج من تحت قميصه خنجرًا، كان يعلقه بحبل حول عنقه، وأخرجه من جرابه، وراح يقطع به قطعة السجق الجامدة: «إن أمامك الكثير الذي يجب عليك أن تتعلمه، إلا أنك قد جئت إلى أصلح الأماكن التي يمكنك أن تتعلم فيها هذه الأشياء، وأنت لا تريد أن تشرب أيضًا! وعلى هذا فأنت لا تريد شيئًا مطلقًا، كما أنك لا تميل كذلك إلى الحديث، إلا أننى لا يهمني من الذي أجلس معه في الشرفة، طالما أن هناك شخصًا معي في نهاية الأمر، ذلك أنني أُطرد دائمًا إلى هذه الشرفة، وتسر برونيلدا سرورًا هائلًا لذلك، وما عليها سوى أن تعلن أية فكرة تخطر على بالها، كأن تقرر مثلًا أنها تشعر بالبرد، أو أنها تشعر بالحرارة الشديدة، أو أنها تريد أن تنام، أو تريد أن تمشط شعرها، أو تريد أن تفك الكورسيه أو ترتديه، وهكذا تتسبب دائمًا في طردي إلى الشرفة، أحيانًا تفعل ما تقوله حقًّا، إلا أنها في أغلب الأحيان، تبقى جالسة فوق الأريكة، كما هي، ولا تتحرك. وقد اعتدت في بعض الأحيان أن أزيح الستارة جانبًا، وأسترق النظر من خلالها، إلا أن ديلامارش في إحدى تلك المرات- وأنا أعلم تمام العلم، أنه لم يكن يريد أن يفعل ذلك، وإنه قد فعله فقط، لأن برونيلدا كانت قد طلبت منه أن يفعله- ضربني فجأة على وجهي عديدًا من المرات بالسوط- هل يمكنك أن تتبين آثار تلك الضربات؟ ومنذ ذلك الحين، لم أجرؤ على أن أسترق النظر ثانية، وعلى هذا فقد اعتدت على أن أستلقي هنا فقط، في هذه الشرفة، ولا أفعل شيئًا سوى الأكل، والليلة قبل الماضية كنت أستلقي هنا وحيدًا طوال الليل، وكنت أرتدي تلك الملابس الفاخرة التي

شاء سوء الحظ أن أفقدها في فندقك- فلقد مزق الخنزير، تلك الملابس الثمينة من على ظهري- حسنًا، بينما كنت أستلقي هنا وحيدًا، وأتطلع إلى الشارع من خلال الدرابزين، وبدا لي كل شيء بائسًا غاية البؤس، حتى لقد شرعت فجأة في البكاء، ثم حدث- دون أن ألاحظ ذلك- أن خرجت برونيلدا إلى الشرفة في ردائها الأحمر- الذي يناسبها أكثر من بين كل ملابسها الأخرى- وتطلعت إليّ قليلًا، وقالت: «روبنسون، لماذا تبكي؟!»، ثم رفعت ذيل ردائها ومسحت دموعي، ومن يدري ما عساها كانت تفعل أيضًا، لو لم ينادها ديلامارش، وكان عليها أن تعود إلى الحجرة ثانية في الحال، لقد ظننت بالطبع لحظتها أن دوري كان قد حان، وتساءلت من خلال الستارة، إن كان عليّ أن أدخل، فماذا تظن أن برونيلدا قد قالت؟ لقد قالت: «لا!»، ثم أضافت قائلة: «وما الذي تظنه؟!».

وتساءل كارل قائلًا: «لكن لماذا تبقى هنا إذا كانا يعاملانك على هذا النحو؟!».

فأجابه روبنسون قائلًا: «اسمح لي يا روسمان، أن أقول لك إن هذا سؤال غبي، لأنك سوف تبقى هنا أنت أيضًا، حتى لو عاملاك بصورة أسوأ كثيرًا من هذه، وبالإضافة إلى ذلك فليست معاملتهما لي إلى هذا الحد من السوء!».

قال كارل: «لا.. إنني سأرحل بلا شك، وهذه الليلة نفسها إن أمكن ذلك، إنني لن أبقى معك».

-وكيف ستتمكن من الرحيل الليلة؟! تساءل روبنسون، وهو يستخرج لب الرغيف الطري، ويغمسه في الزيت، داخل علبة السردين: «كيف يمكنك

أن ترحل إذا كان عليك ألا تدخل الحجرة؟!».

- ولماذا لا يجب عليَّ أن أدخل الحجرة؟!

فقال روبنسون، وهو يفتح فمه على اتساعه، ويلتهم الخبز المنقوع في الزيت، بينما يتلقى قطرات الزيت المتساقطة في راحة يده الأخرى، كوعاء كان يغمس فيه بقية الخبز من حين لآخر: «لأنه ليس لنا أن ندخل الحجرة، ما لم يدق الجرس، إيذانًا بالدخول، إن الأمور أكثر حزمًا الآن، وقد كانت على الباب في البداية، ستارة رقيقة، لم يكن يمكنك بالفعل أن ترى من خلالها، لكن كان في استطاعة المرء في الأمسيات أن يلاحظ شبحيهما من خلالها، إلا أن ذلك لم يرق لبرونيلدا، وعلى هذا، كان عليّ أن أحول إحدى ملابسها الليلية الثقيلة إلى ستارة، وأن أعلقها على باب الشرفة بدلًا من الستارة القديمة، فلا يمكنك الآن أن ترى شيئًا بالمرة، ثم كنت في أحد الأوقات أسأل من مكاني هنا، إن كان لي أن أدخل الحجرة، وكان يأتيني الجواب، بنعم، أو لا، حسب الظروف، لكن يبدو أن هذا الوضع كان قد راق لي كثيرًا، فقد كنت أسألها أسئلة متلاحقة في كل مرة، ولم تحتمل برونيلدا ذلك- ومع أنها في غاية السمنة، إلا أنها في غاية الرقة، وهي كثيرًا ما تصاب بالصداع، وبالنقرس في ساقيها- وعلى هذا فقد تم القرار بعدم السماح لي بالسؤال ثانية، وفي استطاعتي أن أدخل الحجرة فقط عندما يرن جرس ثبتاه فوق المنضدة لهذا الغرض، ويرن هذا الجرس رنينًا مرتفعًا جدًّا، حتى ليوقظني أنا نفسي من نومي، وقد كانت لي قطة في أحد الأوقات، كانت تسليني في وحدتي، إلا أنها قد فزعت من صوت الجرس، فانطلقت تجري، ولم تعد ثانية قط، ولم يرن هذا الجرس اليوم كما ترى، ذلك لأنه عندما يرن،

فإنه لا يكون مسموحًا لى عندئذ فقط بالدخول، بل إنه يتحتم علي أن أدخل الحجرة- وعندما ينقضي مثل هذا الوقت الطويل دون أن يرن الجرس، فمن الممكن في هذه الحالة ألا يرن بالفعل إلا بعد انقضاء فترة طويلة أخرى».

قال كارل: «نعم، إلا أن ما يوافقك، لا يوافقني بالضرورة، وبالإضافة إلى ذلك، فإن مثل هذا الوضع لا يناسب إلا الذين يمكنهم احتماله!».

فصاح روبنسون قائلًا: «لكن، لماذا لا يوافقك أنت أيضًا؟ بالطبع أنه يوافقك أنت أيضًا، ومن الأفضل أن تستلقي في هدوء معي، هنا حتى يرن الجرس، ثم يمكنك عندئذ، على الأقل، أن تحاول الرحيل».

- ما الذي يبقيك هنا حقًّا، إن ديلامارش ببساطة صديقك، أو أنه بالأحرى كان صديقك، هل تسمي هذه حياة؟ ألم يكن من الأفضل لك الذهاب إلى باتر فورد، حيث كنت تنوي الذهاب في البداية؟ أو حتى إلى كاليفورنيا حيث يوجد أصدقاؤك؟».

قال روبنسون: «حسنًا، لم يكن لأحد أن يتوقع حدوث ذلك!»، ثم قال قبل أن يكمل عبارته: «في صحتك الغالية يا عزيزي روسمان». وارتشف رشفة طويلة من زجاجة العطر: «لقد كنا في غاية الضنك، خلافًا للمتوقع، عندما تركتنا إذ ذاك عامدًا، ولم نتمكن من أن نجد عملًا على الإطلاق، في اليوم الأول، أو اليومين الأولين، وبالإضافة إلى ذلك، فلم يكن ديلامارش يرغب في العمل، كان في استطاعته لو شاء أن يحصل على عمل ما بسهولة، إلا أنه كان يرسلني لكي أبحث أنا لنفسي عن عمل، ولم يصادفني الحظ مطلقًا، كان يتسكع فقط هنا وهناك، وكان كل ما أحضره معه في المساء، حقيبة سيدة، كانت حقيبة فاخرة للغاية مصنوعة من اللآلئ، وقد أهداها

لبرونيلدا فيما بعد- إلا أننا لم نجد فيها شيئًا، ثم قال إنه من الأفضل لنا أن نتسول أمام الأبواب- يمكنك أن تحصل على شيء أو آخر بهذه الطريقة- وهكذا مضينا في التسول، وكنت أغني أمام أبواب البيوت لكي أجعل أسلوبنا في التسول أفضل قليلًا، ويبدو أنه كان حظ ديلامارش هذه المرة، لأننا ما كدنا نمضي دقيقة أو دقيقتين في التسول، بالتحديد أمام الباب الثاني الذي وقفنا أمامه، وكان باب شقة هائلة في الطابق الأرضي، وغنيت أغنيتين للطاهي، وللساقي، عندما ظهرت أمامنا السيدة صاحبة الشقة، وقد كانت هي برونيلدا نفسها، ظهرت على الدرجات الأولى، وربما كانت ترتدي وقتها فستانًا محبوكًا جدًّا من الدانتيلا، وعلى أية حال فإنها كانت قد بدت فوق تلك الدرجات، فكم بدت رائعة، يا روسمان!، كانت ترتدي رداء أبيض اللون، وكانت تمسك في يدها شمسية حمراء اللون، كنت تشعر بأنك تريد أن تلتهمها، تشعر بأنك تريد أن تشربها، يا إلهي، لقد كانت فاتنة! يا لها من امرأة! أخبرني أنت، كيف يمكن وجود مثل تلك المرأة؟ ولقد اندفع الطاهي والساقي بالطبع نحوها في الحال، وكادا يحملانها من فوق الأرض، وقد وقفنا على كلا الجانبين، ورفعنا قبعتينا، كما يفعل الناس هنا، ولقد توقفت لبرهة قصيرة، لأنها لم تكن قد التقطت أنفاسها، ولم أدر مطلقًا ما كنت أفعله، وكانت هي أمامي غاية في الوسامة، عريضة الجسد جدًّا، لكنها كانت رشيقة غاية الرشاقة بسبب تلك المشدات الخاصة التي كانت تشد بها كل أجزاء جسمها، ويمكنني أن أطلعك على تلك المشدات في صندوق ملابسها، حسنًا، لم أستطع أن أمنع نفسي من أن ألمس ظهرها، لكن كان ذلك في غاية الرقة، أنت تعرف، مجرد لمسة خفيفة، وأنه لأمر فظيع بالطبع أن يلمس

متسول سيدة ثرية، ولقد كنت فقط قد لمستها لمسة خفيفة عارضة، إلا أنني كنت قد لمستها بالفعل في نهاية الأمر، ومن يدري ماذا كانت النهاية التي من الممكن أن ينتهي إليها ذلك الحدث، لو لم يلطمني ديلامارش لحظتها على أذني، ثم أتبعها بتلك الصفعة العنيفة التي ارتفعت لها يداي إلى وجهي»..

قال كارل: «ياللأمر العجيب!» كان قد استغرق تمامًا في الاستماع إلى القصة، وجلس على أرضية الشرفة: «إذن فقد كانت هذه هي برونيلدا؟».

قال روبنسون: «نعم، لقد كانت هي برونيلدا!».

فتساءل كارل قائلًا: «هل قلت مرة إنها كانت مغنية؟» أجابه روبنسون قائلًا: «بالتأكيد، إنها مغنية، ومغنية كبيرة» وكان يلوك قطعة كبيرة من الحلوى في فمه، وراح يدفع بين الحين والآخر، بقاياها التي كانت تخرج من فمه إلى الداخل، قائلًا: «لم نعرف ذلك بالطبع وقتها، كنا قد أدركنا فقط أنها كانت سيدة ثرية ورائعة للغاية، ولقد تصرفت وكأن شيئًا لم يحدث، وربما لم تكن قد شعرت بأي شيء عندما لمستها، لأنني كنت قد لمستها بالفعل بأطراف أصابعي، إلا أنها ظلت تتطلع إلى ديلامارش، الذي حدق في عينيها مباشرة، كعادته، ثم قالت له: «تعال معي إلى الداخل قليلًا» وأشارت له بمظلتها إلى داخل الشقة، وكان على ديلامارش أن يتقدمها، ودخل، وأغلق الخدم الباب خلفهما، ونسياني في الخارج، ولما كنت أظن أن الأمر لن يستغرق وقتًا طويلًا، فقد جلست على الدرج في انتظار ديلامارش، لكن الساقي خرج إليّ، بدلًا من ديلامارش، وهو يحمل لي وعاء ممتلئًا بالشوربة، قلت في نفسي: «إنه تحية من ديلامارش!»، ووقف الرجل إلى جانبي بعض الوقت، بينما كنت أتناول تلك الشوربة، وأخبرني ببعض الأشياء عن برونيلدا،

وعندها أدركت مدى أهمية تلك الزيارة بالنسبة لنا، ذلك أن برونيلدا كانت قد طلقت زوجها، وكانت بالغة الثراء، ومنطلقة تمامًا على سجيتها!، كان زوجها السابق، وهو صاحب مصنع للكاكاو، وللعلم، فهو لا يزال يحبها، إلا أنها رفضت العودة إليه بالمرة، رغم ذلك.

وكان غالبًا ما ينادي عليها أمام الشقة وهو يرتدي دائمًا أفخر الثياب، كما لو كان متأهبًا للذهاب إلى حفلة زفاف- هذا صدق، بكل كلمة فيه، ولقد عرفت الرجل بنفسي- لكن رغم المنح الضخمة التي كان يحصل عليها الساقي منه، فإنه لم يكن يجرؤ على أن يخبر برونيلدا، بأنه كان يلتقي بزوجها، لأنه كان قد سألها مرة أو مرتين من قبل إن كان له أن يستقبله، فكانت تلتقط أي شيء تقع عليه يدها، وتقذفه به على رأسه، ولقد صبت فوقه ذات مرة وعاء الماء الساخن الضخم الذي كان يجهز دائمًا من أجلها، وتسببت في تحطيم أحد أسنانه الأمامية، نعم يا روسمان يمكنك أن تحدق في ما شاء لك التحديق!».

وتساءل كارل قائلًا: «وكيف تمكنت من أن تتعرف بزوجها؟!» فقال روبنسون: «إنه يأتي إلى هنا غالبًا».

-هنا! وضرب كارل أرضية الشرفة بيده، ضربة خفيفة، لدهشته.

ومضى روبنسون في حديثه قائلًا: «قد تصيبك الدهشة، ولقد دهشت أنا نفسي عندما كان الساقي يقف بجواري خارج الشقة، وهو يحكي لي عن هذا كله، فكر في هذا فقط، فعندما تكون برونيلدا في الخارج، كان الزوج يرجو الساقي دائمًا أن يدخله إلى حجرتها، وكان يأخذ منها دائمًا شيئًا تافهًا أو آخر، كتذكار، ويترك لها بدلًا منه شيئًا نادرًا، وغاليًا، وكان يحذر الساقي تحذيرًا

مشددًا من أن يذكر لها شيئًا عن شخصية من ترك لها تلك الأشياء، لكن عندما ترك لها ذات مرة- وقد أقسم لي الساقي بصدق ذلك، وقد صدقته- قطعة نادرة من الخزف، لا تقدر بثمن، ولابد أن برونيلدا كانت تحققت منها بصورة ما، إلا أنها قد طوحت بها إلى الأرض في الحال، وداستها بقدمها، وبصقت فوقها، وفعلت فوقها أشياء أخرى أيضًا، حتى أن الخادم، لم يتمكن من أن يرفع حطامها من على الأرض إلا بصعوبة بالغة لشدة قرفه».

فتساءل كارل قائلًا: «وماذا فعل زوجها بعد هذا الحادث؟»، فقال روبنسون: «لست أدري في الحقيقة، إلا أنني لا أظن أنه فعل شيئًا ذا بال، فربما لم يكن قد علم بهذا الأمر وقتها في الحقيقة مطلقًا، ولقد تحدثت معه كثيرًا عن هذا الحادث، وكنت ألتقي به كل يوم في أحد أركان الشارع، لو استطعت أن أخرج لمقابلته، وكان عليّ دائمًا أن أنهي إليه بآخر الأخبار، وإذا لم أتمكن من الخروج إليه، فقد كان ينتظر حوالي نصف الساعة، ثم ينصرف بعد ذلك من حيث أتى، وقد كانت في هذه اللقاءات فائدة كبيرة لي في البداية، لأنه كان يدفع كسيد، ثمنًا لكل ما كنت أوافيه به من الأخبار، لكن بعد أن علم ديلامارش بالأمر، كان عليّ أن أسلم له النقود التي كنت أحصل عليها من ذلك الرجل، وعلى هذا فلم أعد أحرص على الخروج كثيرًا الآن».

تساءل كارل: «لكن ما الذي يسعى إليه هذا الرجل؟ ما الذي يسعى إليه بحق الجحيم، إنه يعلم بلا شك أنها لا تريده!».

تنهد روبنسون قائلًا، وهو يشعل سيجارة، وينفث دخانها عاليًا في الهواء، ويعبث بيده في دخانها المتطاير: «نعم!»، ثم تحول عن رأيه قائلًا: «وماذا يعني هذا الأمر بالنسبة لي؟ كل ما أعرفه هو أنه على أتم استعداد لأن

يدفع مبلغًا هائلًا من المال، لكي يتمكن من أن يستلقي هنا في هذه الشرفة مثلنا!».

نهض كارل، ومال إلى الدرابزين، وتطلع نحو الشارع، كان القمر واضحًا الآن، إلا أن ضوءه لم يكن قد نفذ بعد إلى أعماق الشارع، ومع أن الشارع كان خاليًا تمامًا أثناء النهار، إلا أنه كان مزدحمًا الآن بالناس، وخاصة أمام أبواب المنازل، وقد كانوا يتدافعون جميعًا إلى الأمام في بطء وتثاقل، وكانت قمصان الرجال، وملابس النساء الخفيفة، تبدو خافتة وسط الظلام، وكانوا جميعًا حاسري الرؤوس. وكانت مختلف الشرفات التي كانت تطل على الشارع، تمتلئ الآن بالناس، كانت العائلات بأكملها تجلس فيها، تحت ضوء المصابيح الكهربائية، وحول مناضد صغيرة، إذا كانت الشرفة فسيحة بدرجة كافية، أو في صف من المقاعد المتجاورة ذات الذراعين، أو تبرز رؤوسهم فقط من خارج نوافذ الحجرات، وكان الرجال يجلسون في ارتياح، وقد مددوا سيقانهم ودسوا أقدامهم بين قضبان الدرابزين، وهم مستغرقون في قراءة الصحف التي كانت تمتد حتى تبلغ أرضية الشرفات، أو يلعبون الورق، دون أن يتكلموا على ما يبدو، وكان لعبهم يصحبه خبطات عنيفة فوق المنضدة، وكانت حجور النساء تمتلئ بكثير من أعمال التطريز، ولم يكن يفعلن شيئًا سوى أن يوجهن نظرات مقتضبة بين الحين والآخر على ما يحيط بهن، أو إلى الشارع تحتهن، وكانت ثمة أمرأة رقيقة جميلة في الشرفة المجاورة، قد راحت تتثاءب، وهي تدير عينيها إلى أعلى، وترفع إلى فمها قطعة من الملابس الداخلية، كانت ترتقها، وحتى في الشرفات البالغة الصغر، تمكن الأطفال من مطاردة بعضهم بعضًا، وكانوا يثيرون صخبًا

يزعج والديهم، وفي داخل الكثير من الحجرات، كان يمكن سماع أصوات الجراموفونات، وهي تطلق الأغنيات، أو الموسيقى الأوركسترالية، فيما عدا أن رب الأسرة كان يعطي إشارة ما بين الحين والآخر، فيهرع شخص ما إلى داخل الحجرة لكي يضع أسطوانة أخرى، وعند بعض النوافذ كان من الممكن رؤية الأزواج العشاق يقفون بلا حراك، وكان ثمة عاشقان من بين هؤلاء العشاق، يقفان أمام نافذة مواجهة، وكان الشاب يلف ذراعه حول الفتاة، ويعتصر خصرها.

سأل كارل روبنسون، الذي كان قد نهض هو أيضًا واقفًا على قدميه، وقد التف في دثار برونيلدا، عندما شعر بالبرد بالإضافة إلى بطانيته:

- هل تعرف أحدًا من جيرانك هنا؟!..

فقال روبنسون: «لا أكاد أعرف أحدًا منهم!» وجذب كارل نحوه حتى التصق به، لكي يهمس إليه قائلًا: «وإلا ما كان أمامي ما أشكو منه الآن، لقد باعت برونيلدا كل ما لديها لكي ترضي ديلامارش، وانتقلت إلى هذه الشقة في هذه الضاحية بكل ما تبقى لديها؛ لكي تهب نفسها كلية له، دون أن يعكر صفوهما أحد، وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا هو ما كان يريده ديلامارش أيضًا!»، تساءل كارل: «وهل طردت خدمها؟».

فقال روبنسون: «أجل لقد طردتهم، ومن أين لها ما تنفقه على هؤلاء الخدم هنا؟!، إن أمثال هؤلاء الخدم يتوقعون وجود كل أنواع الخير بلا حساب، ولقد ركل ديلامارش ذات مرة، في شقة برونيلدا القديمة، واحدًا من هذه المخلوقات المرفهة، خارج الحجرة وظل يركله أمامه حتى أصبح الرجل خارج الشقة كلها، وقد انضم بقية الخدم بالطبع إلى جانب زميلهم،

وأثاروا شغبًا أمام الباب، ثم خرج إليهم ديلامارش، لم أكن أنا قد أصبحت خادمًا حينئذ، لكنني كنت صديقًا للأسرة فقط، إلا أنني طردت معهم إلى الخارج على الرغم من ذلك، وسألهم ديلامارش قائلًا: «ماذا تريدون؟!».

وأجابه أكبر الخدم سنًّا، وهو رجل يدعى إيزيدور: «لا شأن لك بنا، إننا نعمل في خدمة السيدة!»، أعتقد أنك تدرك من هذا أنهم كانوا يحترمون برونيلدا غاية الاحترام، إلا أن برونيلدا لم تلق بالًا إليهم، وانطلقت نحو ديلامارش- لم تكن على تلك السمنة، وثقل الحركة عندئذ، كما هو حالها الآن- واحتضنته، وقبلته أمامهم جميعًا، ونادته قائلة: «عزيزي ديلامارش!» ثم قالت: «والآن أطرد هؤلاء الحمقى من هنا!»، الحمقى! ذلك هو ما دعت به خدمها، ولك أن تتخيل التعبير الذي ارتسم على وجوههم، ثم أمسكت برونيلدا يد ديلامارش وسحبتها نحو كيس نقودها، الذي كانت تعلقه في حزامها، ووضع ديلامارش يده في داخل الكيس، وراح ينقد الخدم أجورهم، ولم تفعل برونيلدا شيئًا، لكنها بقيت واقفة في مكانها هنالك إلى جواره، والكيس مفتوح في وسطها، وكان على ديلامارش أن يضع يده في داخل الكيس المرة بعد المرة، لأنه كان يوزع النقود دون أن يحصيها، ودون أن يستمع إلى شكواهم، وفي النهاية قال ديلامارش: «بما أنكم لا شأن لكم بي، فأنني أقول لكم باسم السيدة، اخرجوا في هذه اللحظة»، وهكذا فصلوا، وقد كانت ثمة عواقب قانونية فيما بعد، وكان على ديلامارش أن يذهب إلى المحكمة في إحدى المرات، إلا أنني لم أعلم عن هذا الأمر أكثر من ذلك، فيما عدا أن ديلامارش قد قال لبرونيلدا، بعد طرد الخدم: «وهكذا فليس لك خدم الآن؟!» لكنها قالت له: «ولكن روبنسون لا يزال موجودًا!»، وعندها

لطمني ديلامارش على كتفي، وقال: «حسن جدًّا، إذن، فسوف تصبح خادمنا!»، وعندئذ ربتت برونيلدا على خدي، فلو أتيحت لك الفرصة، فقط، ياروسمان، فلعلها أن تربت على خدك في يوم ما، وسوف يدهشك كم يبدو ذلك ممتعًا».

فقال كارل، ملخصًا الأمر: «وهكذا فقد تحولت إلى خادم لديلامارش، أليس كذلك؟!».

ولاحظ روبنسون الأسف في صوت كارل، فأجابه قائلًا: «قد أكون خادمًا، إلا أن قليلًا من الناس هم الذين يعلمون بذلك، وهأنت ذا ترى، فلم تكن تعلم أنت نفسك، على الرغم من أنك قد قضيت هنا بعض الوقت. لماذا؟ لأنك ترى فخامة الثياب التي كنت أرتديها الليلة الماضية في الفندق، لقد كنت أرتدي أفخر الملابس، فهل يرتدي الخدم مثل تلك الملابس؟ إن الشيء الوحيد الذي يضايقني هو فقط أنني لا أتمكن من مغادرة هذا المكان إلا نادرًا، فيجب أن أكون دائمًا تحت أمرهما، ويوجد دائمًا الكثير مما يجب علي أن أفعله هنا في الشقة، إن رجلًا واحدًا لا يكفي في الحقيقة لكي يقوم بكل العمل، ولعلك قد لاحظت أن لدينا أشياء كثيرة تتراكم في الحجرة، فما لم نستطع أن نبيعه عند انتقالنا إلى هذه الشقة، أحضرناه معنا إلى هنا، وقد كان من الممكن بالطبع إلقاؤه بعيدًا، إلا أن برونيلدا لا تلقي بأي شيء، ويمكنك أن تتخيل معنى أن تحمل هذه الأشياء على السلالم إلى هنا!».

صاح كارل قائلًا: «روبنسون، هل حملت بنفسك كل تلك الأشياء، وصعدت بها السلالم إلى هنا؟».

فقال روبنسون: «ماذا؟ وأي شخص آخر غيري كان هنا لكي يحملها،

لقد كان ثمة رجل لمساعدتي في ذلك، إلا أنه كان وغدًا كسولًا، وكان عليَّ أن أقوم بكل العبء وحدي، ووقعت برونيلدا بجوار عربة نقل العفش، وكان ديلامارش هنا لكي يقرر في أي الأماكن توضع الأشياء، وكان عليَّ أن أظل مندفعًا إلى أعلى وإلى أسفل. وقد استمر العمل لمدة يومين كاملين، وقت طويل، أليس كذلك، لكنك لا تعلم شيئًا عن الأشياء العديدة التي تحتويها تلك الحجرة، إن كل الصناديق الخاصة بالملابس تمتلئ بملابس برونيلدا، وخلف الصناديق تتكوم الأشياء في أنحاء الحجرة حتى تبلغ السقف، فلو كانا قد استأجرا عددًا قليلًا من الرجال لنقل تلك الأشياء لكان كل شيء قد انتهى بغاية السرعة، إلا أن برونيلدا لم تكن تطمئن إلى غيري في حمل حاجياتها، ولقد كان هذا تملقًا لي بالطبع، إلا أنني قد أهدرت قواي تمامًا خلال هذين اليومين إلى الأبد، وماذا تفيدني صحتي في غير ذلك؟!، إن أقل شيء أحاول أن أقوم بأدائه هنا الآن يسبب لي آلامًا هنا وهناك، وهنا. هل تتذكر هؤلاء الصبية الذين في الفندق، تلك الآلات النطاطة- ذلك أنهم ليسوا سوى مجرد آلات تقفز بغير معنى- إنهم لم يكونوا ليتمكنوا مني لو أنني كنت في كامل صحتي! لكن لما كنت محطمًا بحالتي الراهنة، فلن أستطيع أن أقول كلمة واحدة لديلامارش أو برونيلدا، وسوف أستمر في العمل طالما كان في مقدوري أن أعمل، وعندما لا أصبح قادرًا على العمل، فسوف أستلقي أرضًا، وأموت، وعندئذ سوف تكتشف، متأخرة جدًّا، أنني كنت مريضًا بالفعل، ولكنني رغم ذلك واصلت العمل، وأهلكت نفسي حتى الموت في خدمتها، أوه، يا روسمان»، وانتهى من حديثه مجففًا دموعه في كم قميص كارل، ثم قال بعد برهة: «ألا تشعر بالبرد، وأنت تقف هنا في

قميصك هذا فقط؟!».

قال كارل: «استمر في حديثك يا روبنسون، إنك تبكي دائمًا، وأنا لا أعتقد أنك مريض إلى هذا الحد، إنك تبدو صحيحًا إلى درجة كافية، لكنك باستلقائك في الشرفة طول الوقت فإنك تتوهم مختلف الأوهام، وربما كنت تشعر بألم عارض في صدرك، وهذا ما أشعر به أنا أيضًا، ويشعر به كل شخص، فلو بكى كل الناس مثلك لأتفه الأمور، فلن يكون هناك أي شيء سوى البكاء في كل تلك الشرفات».

قال روبنسون، وهو يمسح دموعه بطرف بطانيته: «إنني أعلم جيدًا أنني مريض، إن الطالب الذي يقيم بجوارنا مع صاحبة المنزل التي تطهو طعامنا، قد قال لي منذ فترة قصيرة مضت، عندما كنت أحضر الأطباق: «انتبه يا روبنسون، إنك مريض، ألست مريضًا؟!»، لم يكن لي أن أتحدث مع هؤلاء الناس، وهكذا فقد وضعت الأطباق في بساطة، وغادرت المكان، لكنه تبعني في الحال، وقال: «استمع إليّ يا رجل، لا تدفع الأمور إلى مداها، إنك رجل عليل!» فسألته: «حسنًا إذن، وماذا أفعل في هذا؟!»، فقال وهو يستدير مبتعدًا عني: «هذا شأنك!»، وضحك الآخرون فحسب، ضحك هؤلاء الذين كانوا يجلسون لحظتها إلى المائدة، إنهم جميعًا أعداؤنا، كل من يحيطون بنا، وهكذا فكرت في أنه من الأفضل لي أن أصمت.

- وعلى هذا فأنت تصدق أي شخص يحاول أن يستغلك، بينما لا تصدق شخصًا يرجو لك الخير؟!.

فقال روبنسون متعجبًا: «ولكنني أعرف شعوري بالتأكيد!» وشرع في الصراخ، ساخطًا مرة أخرى.

- إنك لا تدري في الحقيقة ما يضرك، ولابد لك من أن تبحث لنفسك عن عمل شريف، بدلًا من أن تعمل خادمًا لديلامارش هنا، وإنني أقول لك استنادًا إلى ما قلته أنت نفسك، وإلى ما أراه هنا الآن، إنها ليست خدمة تلك التي تقوم بها، ولكنها استعباد، ولا يمكن أن يتحمل ذلك أحد، وإنني أصدقك في كل ما قلته، إلا أنك تعتقد أنك لا تستطيع أن تترك ديلامارش لأنك صديقه، إن هذا هراء، فلو لم يكن يرى أية حياة حقيرة تحياها، فليس عليك أن تحمل له أقل شعور ودي!.

- «إذن فأنت تعتقد يا روسمان أنني من الممكن أن أسترد صحتي، لو تركت العمل هنا؟!».

قال كارل: «بالتأكيد».

وتساءل روبنسون ثانية: «بالتأكيد؟!».

فقال كارل مبتسمًا: «بالتأكيد تمامًا».

فقال روبنسون وهو يتطلع إلى كارل: «إذن فإنني من الممكن أن أبدأ في محاولة استرداد صحتي في الحال!».

فتساءل كارل: «وكيف ذلك؟!».

وأجابه روبنسون قائلًا: «ماذا؟ لأن عليك أن تقوم بعملي هنا».

فتساءل كارل قائلًا: «من الذي أخبرك بهذا، بحق الجحيم؟!».

- أوه.. إنها خطة قديمة، وقد بحثت هذه الخطة أيامًا طويلة، وقد بدأت عندما عنفتني برونيلدا لعدم قيامي بتنظيف الشقة على الوجه الأكمل، وقد وعدتها بالطبع بأن أقوم بعمل كل شيء على الوجه الأكمل

في الحال، لكن.. حسنًا، لقد كان هذا صعبًا للغاية، فلم يكن في مقدوري، مثلًا، في حالتي الصحية الراهنة أن أزحف إلى كل الأركان لكي أكنس الأتربة، إنني أتحرك بغاية الصعوبة في وسط الحجرة، ولا أكاد أتمكن من الوصول إلى ما خلف الأثاث، وأكوام الأمتعة، ولو كان للحجرة أن تنظف تنظيفًا شاملًا، فلابد من نقل الأثاث كله من مكانه، وكيف لي أن أفعل ذلك بمفردي؟ بالإضافة إلى ذلك، فيجب أن يتم هذا كله بغاية الهدوء، حتى لا تتضايق برونيلدا، وهي نادرًا ما تغادر الحجرة، وعلى هذا فقد وعدت بأن أنظف كل شيء، إلا أنني لم أستطع بالفعل أن أنظف كل شيء، ولمّا لاحظت برونيلدا ذلك، أخبرت ديلامارش أن الحال لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال، وأن عليه أن يستخدم مساعدًا، يساعدني في أعمال الشقة، قالت له: «لا أريدك يا ديلامارش أن تلومني في أي وقت من الأوقات على عدم استطاعتي إدارة شئون البيت كما ينبغي، فلا يمكنني أن أجد نفسي مطلقًا، وأنت تعلم ذلك تمام العلم، ولم يعد روبنسون كافيًا للقيام وحده بأعباء العمل، لقد كان نشيطًا في البداية، وكان يقوم بأداء كل شيء على خير وجه، لكنه الآن متعب دائمًا، ويجلس أغلب الوقت في أحد الأركان، لكن حجرة مكتظة بالأشياء كحجرتنا هذه، في حاجة إلى أن تكون منظمة باستمرار!»، وعلى هذا فقد اهتم ديلامارش بأمر ترتيبها، لأنه لا يمكن بالطبع أن نسمح بدخول أي شخص، مهما كان إلى منزلنا، ولا حتى كمجرد تجربة، طالما أن الناس جميعًا من حولنا، يتجسسون علينا، لكني لما كنت صديقًا مخلصًا لك، وكنت قد سمعت من رينيل عن العبودية التي كان عملك في الفندق قد كبلك بأغلالها، فقد رشحت

اسمك، ووافق ديلامارش في الحال، على الرغم من أنك كنت وقحًا معه غاية الوقاحة من قبل، ولقد سررت بالطبع غاية السرور، عندما تمكنت من أن أكون نافعًا لك، ذلك لأن هذه الوظيفة تبدو كأنها قد خلقت لك، فأنت صغير، وقوي، وسريع، بينما لا نفع فيّ لأحد، لكن لابد لي من أن أخبرك بأنك لم تقبل كخادم هنا بصورة نهائية، فلو لم ترض برونيلدا عنك، فمعنى هذا أن لا مكان لك هنا، وعليك لهذا أن تبذل كل جهدك حتى ترضى عنك، وسأدبر أنا أمر ما يبقى بعد ذلك.

فتساءل كارل قائلًا: «وما الذي ستفعله، لو قبلت هذا العمل؟!».

وكان كارل قد أحس بالحرية التامة بعد أن تخطى الصدمة الأولى التي سببها له تصريح روبنسون، وعلى هذا فلم يكن ديلامارش ينوي به شرًّا أكثر من أن يحوله إلى خادم له، ولو كانت لديه أية نوايا أخرى شريرة، فلا شك أن روبنسون الثرثار كان سيثرثر بها حتمًا، لكن لو كانت هذه هي نية ديلامارش حقيقة، فقد رأى كارل عندئذ أن عليه أن يغادر المكان في تلك الليلة نفسها، ولا يمكن أن يجبره أحد على قبول عمل لا يريده، وعلى الرغم من أنه كان يخشى في بداية الأمر أن يعوقه فصله من الفندق، عن الحصول على وظيفة مناسبة، ومحترمة لو أمكن، بسرعة تحفظه من التضور جوعًا، فقد بدت له الآن كل الأعمال محترمة غاية الاحترام إذا قورنت بهذا العرض، الذي أثار اشمئزازه، ولو لم يجد عملًا، فليبق جائعًا، ومعدمًا، ولكنه لن يقبل هذا العمل، إلا أنه لم يحاول أن يصرح بهذا لروبنسون، خاصة أن عقل روبنسون كان مشغولًا الآن بأمل التخلص من أعبائه، ونقلها إلى كاهل كارل.

وقال روبنسون، وهو يؤكد كلماته، بإشارة من يده تصاحب كل كلمة يتفوه بها: «لكي تبدأ العمل- وكان قد اعتمد بمرفقيه على الدرابزين- فسوف أشرح لك كل شيء، وأريك كل ما لدينا من أشياء، ولقد تلقيت تعليمًا جيدًا، وأنا متأكد من أن تمكنك من الكتابة مسألة لا جدال فيها، وعلى هذا ففي وسعك أن تعد في الحال قائمة بكل ما لدينا في الشقة من أشياء، ولو كان الطقس صافيًا غدًا، فسوف نسأل برونيلدا أن تجلس في الشرفة، ويمكننا عندئذ أن نتابع عملنا بداخل الحجرة في هدوء، دون أن نسبب لها إزعاجًا، ذلك أن هذا الأمر هو ما يجب أن يكون موضع اهتمامك الأول، يا روسمان، لا يجب إزعاج برونيلدا، إن سمعها حاد جدًّا، وربما كان هذا لأنها مغنية أن أذنيها بالغتا الحساسية، ولنقل مثلًا، إنك تدحرج برميلًا صغيرًا ممتلئًا بالبراندي، وهو يوضع عادة خلف صناديق الملابس، إنه يسبب كثيرًا من الضوضاء لأنه ثقيل، ولأن كل مختلف الأشياء تتراكم حوله على الأرض، ولهذا لا يجب عليك أن تدحرجه لكي تخرجه من مكانه، إن برونيلدا، ولنقل ذلك أيضًا، تستلقي على الأريكة تطارد الذباب، الذي يسبب لها ضيقًا شديدًا، وتظن أنت أنها لا تلقي انتباهًا إليك، وتدحرج هذا البرميل، بينما تظل هي مستلقية هنالك في هدوء تام، لكنها فجأة، ودون أن تتوقع ذلك منها، وبينما لا تصدر بسببك أدنى ضجة، تجدها قد وقفت فجأة، وراحت تضرب الأريكة بيديها، حتى لا يمكنك أن تراها، لكثرة الأتربة- فمنذ أن جئنا إلى هنا، لم أنفض الأتربة عن تلك الأريكة، لم أستطع أن أفعل ذلك فهي تستلقي فوقها دائمًا في الحقيقة- وتبدأ في الصراخ بشراسة، وكأنها رجل، وتواصل صراخها لعدة ساعات، ولقد منعها الجيران من الغناء، إلا أن أحدًا

لم يستطع أن يمنعها من الصراخ، فلابد لها أن تصرخ، مع أن هذا لم يحدث كثيرًا الآن، ذلك لأننا قد أصبحنا الآن- أنا وديلامارش- أكثر حذرًا، وقد ساءها هذا للغاية كذلك، وقد أغمى عليها ذات مرة- وكان ديلامارش في الخارج عندئذ- وكان عليّ أن أبحث عن الطالب الذي يسكن بجوارنا، وقد رش عليها سائلًا ما من زجاجة كبيرة، أعادها إلى وعيها في الحال، إلا أن هذا السائل كانت له رائحة مخيفة، ويمكنك الآن أن تشم أثر هذا السائل، لو وضعت أنفك على الأريكة، ولاشك أن هذا الطالب، هو عدو من أعدائنا، مثله مثل الجميع هنا، ويجب عليك أن تحذره هو أيضًا، وألا تحاول أن تختلط بأي منهم.

فقال كارل: «لكنني أقول لك يا روبنسون إن هذا برنامج حافل جدًّا، وإنها لوظيفة رائعة تلك التي تنصحني بقبولها!».

فقال روبنسون وهو يغلق عينيه، ويهز رأسه، كما لو كان يحاول طرد كل مخاوف كارل: «لا تخش شيئًا، إن لهذه الوظيفة بعض الميزات أيضًا، وهي ميزات لا يمكنك أن تجدها في أية وظيفة أخرى، فسوف تكون دائمًا في حضرة سيدة مثل برونيلدا، وقد تنام أحيانًا في نفس الحجرة التي تنام هي فيها، وثمة كثير من المتعة في ذلك، كما يمكنك أن تتخيل، وسوف تحصل على أجرٍ مجزٍ، إن النقود هنا كثيرة، وأنني لا أحصل على أجر لأنني صديق ديلامارش، لكنني في كل مرة أخرج فيها من المنزل، أتلقى دائمًا شيئًا من النقود، تعطيها لي برونيلدا، لكنك ستحصل بالطبع على أجرك كأي خادم آخر، هذا هو وضعك في نهاية الأمر، إلا أن أهم هذه الأشياء جميعًا هو أنني سأحاول أن أجعل وظيفتك هذه سهلة جدًّا عليك، ولن أفعل أي شيء

بالطبع في البداية؛ لكي أعطي لنفسي فرصة لاسترداد صحتي، لكنني ما إن أتماثل للشفاء، حتى يمكنك أن تعتمد عليّ، وعلى أية حال فسوف أقوم بكل خدمات برونيلدا في أثناء تناول طعامها، وسأقوم كذلك بتصفيف شعرها، وأساعدها على ارتداء ملابسها، وأفعل ما لا يفعله ديلامارش من قبيل هذه الخدمات، وهكذا يكون عليك فقط أن تهتم بأمر نظافة الحجرة، وتحضر لنا ما نحتاج إليه من الخارج، وتقوم بالأعمال المنزلية التي تتطلب مجهودًا».

قال كارل: «لا يا روبنسون، إن هذا كله لا يغريني بالبقاء».

فقال روبنسون وهو يدني من وجه كارل: «لا تكن أحمق يا روسمان، لا تضيع هذه الفرصة الرائعة! أين ستجد وظيفة أخرى بمثل هذه السرعة؟ من يعرفك؟ ومن تعرف أنت من الناس؟ إننا أنا وديلامارش، وكلانا رجل ناضج ذو خبرة عملية وتجربة، قد تجولنا لمدة أسابيع أربعة دون أن نجد عملًا، إن الحصول على العمل ليس أمرًا سهلًا، بل هو صعب في الحقيقة صعوبة شيطانية!».

أطرق كارل وهو يتعجب لأن روبنسون يتحدث بهذا الإدراك، وإن كانت نصيحته تلك أبعد من أن تجد لديه قبولًا، فلم يكن يمكنه البقاء، ولابد من أن يجد لنفسه مكانًا في المدينة الكبيرة، إنه يعرف الليل جيدًا، وكل الفنادق الممتلئة بالنزلاء لدرجة الانفجار، هؤلاء النزلاء الذين يحتاجون إلى الخدمة، ولديه بعض الخبرة في هذا الشأن، ولابد من أن يجد بسرعة وبكل ترحاب وظيفة أخرى، فعبر الشارع مباشرة كان ثمة مطعم في الطابق الأرضي، كانت تنبعث منه الموسيقى، وكان مدخله الرئيسي تغطيه فقط ستارة كبيرة صفراء، كانت تطير في الشارع من حين لآخر، عندما كان يلعب

بها الهواء، وفيما عدا ذلك، فقد كان كل شيء هادئًا غاية الهدوء في الشارع كله.

وكانت أغلب الشرفات مظلمة، وعلى البعد، فحسب كان ثمة ضوء ينبعث من هنا، ومن هناك، لكن ما إن يركز المرء بعينيه عليه، حتى ينهض الناس الذين يجلسون تحت هذا الضوء، ويتدافعون إلى داخل مساكنهم، بينما مد الرجل، الذي بقي في الخارج وحده، يده أخيرًا إلى مفتاح النور، وأطفأه بعد نظرة قصيرة إلى الشارع.

قال كارل في نفسه: «لقد تقدم الليل بالفعل، ولو بقيت هنا أكثر من هذا، فسوف أصبح واحدًا منهم».

واستدار لكي يجذب الستارة جانبًا عن باب الشرفة، فقال روبنسون وهو يعترض طريق كارل، ويحول بينه وبين الستارة:

«ما الذي تفعله؟!».

قال كارل: «إنني راحل، دعني، دعني».

فصاح روبنسون: «لكنك بالتأكيد لن تحاول أن تزعجها، ماذا تظن، وألقى ذراعيه حول عنق كارل، وتعلق به بكل ثقله، ولف ساقيه حول ساقي كارل، وهبط به في لمحة فوق أرضية الشرفة، إلا أن كارل كان قد تعلم شيئًا من فنون العراك بين صبية المصاعد، وهكذا فقد سدد قبضته إلى ذقن روبنسون، دون أن يضغط عليها بكل قوته، حتى لا يؤذي روبنسون، وبسرعة بلا أدنى تردد لكمه روبنسون في بطنه بركبته، قبل أن يبدأ في تدليك ذقنه براحتيه، وأطلق صيحة مرتفعة، حتى أن رجلًا في الشرفة المجاورة، قد

صفق بيديه غاضبًا، وصاح قائلًا: «اصمت!» واستلقى كارل ساكنًا، وعاجزًا عن الحركة أمام الحجرة الغارقة في الظلام! كان يبدو وكأن أحدًا لم يكن بداخلها الآن، ولعل ديلامارش أن يكون قد خرج بصحبة برونيلدا، ولعل الطريق خال الآن، ذلك لأن روبنسون الذي كان يسلك ككلب الحراسة تمامًا، كان قد تراخى أخيرًا.

ثم ارتفعت من أقصى نهاية الشارع في انفجارات واضحة، أصوات الطبول والأبواق، وصيحات بعض الأفراد، في وسط الجموع، وسرعان ما تحولت إلى هدير شامل، وحول كارل رأسه ثانية ليرى أن كل الشرفات قد عادت إليها الحياة مرة أخرى، نهض ببطء، ولم يتمكن من أن يقف معتدلًا تمامًا، وكان عليه أن ينحني بتثاقل إلى الدرابزين، وعلى الرصيف، كان الصبية الصغار في الشارع يلوحون بقبعاتهم على امتداد أذرعهم، وينظرون إلى الخلف من فوق أكتافهم، وكان وسط الشارع لا يزال خاليًا، وكان بعضهم يرفع قضبانًا طويلة ثبتت بأعلاها الفوانيس التي كان يحيطها دخان أصفر اللون، وكان قارعو الطبول ونافخو الأبواق ينتظمون في صفوف عريضة، وكانوا قد بلغوا الجانب المضيء من الشارع في حشود هائلة، حتى لقد دهش كارل عندما سمع أصواتًا تأتي من خلفه أيضًا، فاستدار ليجد ديلامارش يرفع الستارة الثقيلة، وبرونيلدا تخطو خارج ظلام الحجرة في ردائها الأحمر، وحول كتفيها وشاح من الدانتيلا، وقلنسوة سوداء فوق شعرها، الذي لعلها لم تكن قد رتبته بعد، كانت فقط قد جمعته في عجلة، ذلك أن أطراف خصلاته الطليقة كانت تتطاير هنا وهناك، وكانت تحمل في يدها مروحة صغيرة، كانت قد فتحتها إلا أنها لم تستعملها، وكانت تضغط على صدرها.

وتحرك كارل جانبًا ملتصقًا بالدرابزين، لكي يفسح مكانًا لهما، لن يجبره أحد بلا شك على البقاء هنا، وحتى لو حاول ديلامارش أن يستبقيه، فإن برونيلدا ستسمح له بالذهاب في الحال، لو طلب منها ذلك، فهي لا تحتمله فوق كل شيء، وعيناه ترعبانها، إلا أنه عندما تقدم خطوة نحو الباب، لاحظته برونيلدا في الحال، وتساءلت: «إلى أين أنت ذاهب أيها الصبي؟!».

وجمدت نظرة ديلامارش القاسية حركة كارل للحظة، وجذبته برونيلدا نحوها.

قالت له: «ألا تريد أن تشاهد الموكب الذي في الشارع؟!».

ودفعته أمامها نحو الدرابزين، وهي تقول: «هل تعرف ما هو هذا الموكب؟!».

وسمعها كارل تتساءل خلفه، وتفزع في محاولة تلقائية فاشلة لكي يتخلص من ضغط جسدها، وتطلع إلى أسفل في حزن، كما لو كان سبب حزنه يكمن هناك في الشارع.

ووقف ديلامارش لحظة خلف برونيلدا، عاقدا ذراعيه، ثم هرول داخلًا الحجرة، وأحضر لها نظارة من نظارات الأوبرا، وفي الشارع كان الموكب قد وضح للرؤية، تتقدمه جوقة الموسيقى، وفوق كتفي رجل هائل الحجم، جلس سيد، لم يكن يظهر منه على الارتفاع الشاهق سوى البريق الخافت لتاج بسيط.

وكان يرفع فوقه قبعة عالية يحيي بها الجماهير، تحيات متصلة، وحوله كانت لافتات خشبية ترتفع عالية في الهواء، كانت تبدو من الشرفة بيضاء

تمامًا، وكانت الجموع تنوى فيما يبدو، أن تقيم متراسًا بشريًّا مستديرًا ينحدر بانحدار الشارع، حول الشخصية الشهيرة التي كانوا يناصرونها فيما يبدو، لكن لما كان حاملو تلك اللافتات، يتحركون إلى الأمام طوال الوقت، فإن حاجز اللافتات ظل يهبط ويرتفع لإدخال بعض الإصلاحات على تلك اللافتات، ثم يعود ذلك الحاجز الذي تكوّنه تلك اللافتات المتراصة ثانية، إلى نظامه السابق وخلف حاجز اللافتات، بقدر ما كان يمكن للمرء أن يرى في الظلام، كان عرض الشارع كله، على الرغم من أن الحشد كان يشغل جزءًا عارضًا من امتداده، يمتلئ بأعوان ذلك السيد، الذين كانوا يصفقون بأيديهم في إيقاع، ويهتفون في نغم غنائي شيئًا ربما كان هو اسم ذلك السيد، وقد كان اسمًا قصيرًا جدًّا، لكنه لم يكن مفهومًا، وكان الأعوان قد انتشروا وسط الحشد في براعة، وكانوا يحملون مصابيح قوية كمصابيح السيارات راحوا يسلطونها إلى أعلى، وإلى أسفل واجهات المنازل على جانبي الشارع، ولم يكن ذلك الضوء محتملًا على الارتفاع الذي كان يقف عنده كارل، لكن في الشرفات السفلى، كان يمكنه أن يرى الناس وهم يرفعون أيديهم فوق عيونهم، كلما سلط ذلك الضوء على وجوههم.

وتلبية لطلب برونيلدا استفسر ديلامارش من الناس الذين كانوا يقفون في الشرفة المجاورة، عن غرض تلك المظاهرة، وكان كارل شغوفًا بملاحظة الطريقة التي كانوا سيجيبون بها عن سؤاله، وكان على ديلامارش بالفعل أن يكرر سؤاله ثلاث مرات قبل أن يتلقى إجابة، كان قد انحنى على الدرابزين في وضع استفزازي، وكانت برونيلدا قد راحت تدق بقدمها لحنقها على جيرانها، فقد أحس كارل بحركة ركبتها، وأخيرًا سمعوا ردًّا غامضًا، وانطلق

كل الناس الذين كانوا في الشرفة المجاورة لحظتها في الضحك بأعلى أصواتهم. وعند هذا صرخ ديلامارش بأعلى صوته ردًّا على إهانتهم له، حتى أن الشارع لو لم يكن ممتلئًا بكل تلك الحشود لحظتها، فإن كل الناس الذين يسكنون تلك المنطقة لابد كانوا سيرهفون أسماعهم في دهشة، وعلى أية حال فقد كان لتلك الصيحة أثر حاسم في إنهاء ذلك الضحك فجأة.

وقال ديلامارش في هدوء تام وهو يستدير نحو برونيلدا: «إن قاضيًا سينتخب غدًا في حيّنا، والرجل الذي يجلس فوق الأكتاف هو أحد المرشحين»، أضاف قائلًا وهو يحتضن كتفي برونيلدا: «أوه، لقد فقدنا كل فكرة، عما يجري في العالم!».

وقالت برونيلدا وهي تعود إلى سلوك جيرانها مرة أخرى: «ديلامارش، كم أكون سعيدة لو تمكنت من أن أنتقل من هنا، لو لم يكن ذلك يكلف مجهودًا كبيرًا، لكنني لسوء الحظ لا أستطيع مواجهة هذا الانتقال إلى مسكن آخر!»، وراحت، وهي تتنهد في عمق، تجذب في قلق وشرود قميص ديلامارش، وعلى الرغم منه، ظل يدفع يدها الصغيرة الممتلئة بعيدًا عنه المرة بعد المرة، وقد كان ذلك أمرًا سهلًا، ذلك لأن برونيلدا، لم تكن تنتبه إليه، وإنما كانت تشغلها أمور أخرى مختلفة تمامًا.

إلا أن كارل كان قد انشغل عنها في الحال، وأحس بثقل ذراعيها فوق كتفيه، ذلك لأن الموكب كان قد استولى على كل اهتمامه، وكانت ثمة مجموعات صغيرة العدد من الرجال يهتفون ويتقدمون الموكب أمام المرشح، بدا أن آراءهم كانت لها أهمية خاصة، فقد كان في إمكان المرء أن يلاحظ وجوهًا عديدة منتبهة تتجه نحوهم من كل الجهات، وقد أعلن

أفراد هذه المجموعات قرارهم بالوقوف أمام المطعم الصغير، وأشار أحد أفراد تلك المجموعات إشارة ما، بيده المرفوعة إلى أعلى، فبدت تلك الإشارة، وكأنها موجهة إلى الحشد وإلى المرشح أيضًا، وخيم الصمت على الجماهير، وحاول المرشح عددًا من المرات أن يقف على قدميه، وسقط عدة مرات من فوق الأكتاف التي كانت تحمله، وألقى خطبة مقتضبة، وهو يلوح بقبعته العالية إلى الأمام، وإلى الخلف، بسرعة خاطفة، كان من الممكن رؤيته في وضوح تام، ذلك لأن كل اللمبات الضخمة كانت مسلطة عليه وهو يلقي خطبته، حتى أصبح في مركز حلقة مشعة من الضوء الساطع.

وكان في استطاعة المرء أن يتحقق الآن أيضًا من الاهتمام الذي بدا على الشارع كله، بهذا الحدث، ففي الشرفات التي امتلأت بأنصار المرشح اشترك الناس في الترنم باسمه، وهم يفردون أذرعهم على امتدادهم خارج الدرابزين، ويصفقون في انتظام آلي، وفي الشرفات المواجهة التي كانت تكتظ بالفعل بالجماهير، ارتفعت صيحات تردد الهتافات باسم المرشح، تلك الصيحات التي لم تكن واضحة منسجمة، لأنها كانت تصدر عن أنصار متنافسين لعدد من المرشحين، إلا أن كل أعداء ذلك المرشح الموجود في الشارع فوق الأكتاف، كانوا قد اشتركوا في صفير استهجان واحد مرتفع، وكان كثير من الجراموفونات قد بدأت ثانية في إذاعة الأغاني، وبين الشرفات المختلفة كانت النزاعات السياسية قد قامت على أشدها، وقد أكد عنفها سكون ذلك الوقت المتأخر من الليل، وكان أغلب الناس يرتدون بالفعل ثياب نومهم، وقد ارتدوا المعاطف فوقها، وكانت النساء تتشح بأوشحة داكنة، هائلة الحجم، وكان الأطفال، الذين لم يكن ينتبه إليهم أحد،

قد صعدوا فوق أسوار الشرفات على نحو ينذر بالخطر، وكانوا يخرجون من داخل الحجرات المظلمة التي كانوا ينامون فيها في أعداد تتزايد وتتزايد، وكانت تتطاير هنا وهناك أشياء لا يمكن تمييزها، كان يلقيها خاصة أولئك الأتباع المتحمسون نحو خصومهم، وكانت هذه الأشياء تبلغ هدفها أحيانًا، لكن أكثرها يسقط في الشارع، حيث ترتفع بسببها صيحات الغضب من وسط الجمهور، وعندما ازدادت الضجة حتى لم يعد يحتملها قائد المظاهرة، وأصدر هذا الرجل أوامره إلى الطبول والأبواق لكي تتدخل، فانطلق دويها المتصل عاليًا، حتى غطى على كل الأصوات البشرية، حتى ما كان يصدر منها من شرفات الأدوار العليا، ثم فجأة توقف ذلك الدويّ الهائل، على غير توقع، فبدأت الجماهير التي كانت تملأ الشارع، والتي كانت تنتظر، على ما يبدو، أن تنتهي تلك الضجة المفاجئة، في الهتاف بالأناشيد المختلفة، خلال ذلك الصمت المؤقت، وكان في إمكان المرء أن يرى الأفواه المفتوحة على اتساعها في ضوء اللمبات القوية الشبيهة بمصابيح السيارات، وظلوا على ذلك الصخب، حتى ثاب خصومهم ثانية إلى وعيهم، فانطلقوا في الهتاف عشر مرات متتابعة بأقصى طاقة حناجرهم، من كل الشرفات والنوافذ، وبدا كأن الصمت كان قد أطبق على أتباعهم المنتشرين في الشارع، بعد هذا الانتصار المؤقت مباشرة، أو هكذا بدا الأمر لمن كان يقف على الارتفاع الذي كان يقف عنده كارل.

تساءلت برونيلدا التي كانت تستدير وتتلوى خلف كارل، لكي تحاول أن ترى الموكب جيدًا من خلال منظارها: «هل يروق لك هذا المشهد أيها الصبي؟!».

وأجابها كارل فقط بايماءة من رأسه، وقد لاحظ بنظرة من جانب عينه أن روبنسون كان منهمكًا في الحديث إلى ديلامارش على انفراد، ويبدو أن حديثه كان يدور حول نوايا كارل، لكن بدا أن ديلامارش لم يهتم اهتمامًا ملحوظًا بما قاله روبنسون، لأنه ظل يدفع روبنسون جانبًا بيده اليسرى، وكان قد لف ذراعه اليمنى حول خصر برونيلدا.

وتساءلت برونيلدا، وهي تضرب كارل على صدره، لكي توضح له أنها تعنيه بقولها: «ألا تريد أن تنظر من خلال النظارة؟!».

قال كارل: «إنني أرى جيدًا».

فقالت: «حاول أن تنظر من خلالها، فسوف ترى في وضوح أكثر!».

فأجابها كارل قائلًا: «إن لي عينين قويتين، ويمكنني أن أرى بهما جيدًا!».

ولم يرى كارل في عرضها هذا شيئًا من الاهتمام بأمره، بل اعتبره إزعاجًا ثقيلًا، عندما وضعت النظارة أمام عينيه، وهي تقول له:

- «هنا، أنت!» إلا أن كارل لم يستطيع أن يرى شيئًا مطلقًا خلالها.

قال: «لا يمكنني أن أرى أي شيء»، وحاول أن يبعد النظارة عن عينيه، إلا أنها قبضت عليه بشدة، وكان رأسه مضغوطًا إلى صدرها، ولم يستطع أن يحركه إلى الخلف، أو إلى أي من الجانبين.

قالت وهي تحرك المسمار: «قد يمكنك أن ترى الآن!».

فقال كارل: «لا، لا أرى أي شيء!»، وظن أنه قد أراح على الرغم منه- في نهاية الأمر- روبنسون من أعبائه، لأن نزوات برونيلدا التي لا تطاق كانت

قد تركزت الآن عليه.

قالت: «متى، بحق الجحيم، سترى إذن؟» وأدارت المسمار ثانية، وكان وجه كارل معرضًا لتنفسها الثقيل، وتساءلت:

- الآن؟

فصاح كارل: «لا.. لا.. لا!»، مع أنه كان قد تمكن من أن يميز كل شيء من خلال النظارة لحظتها بالفعل، وإن يكن في شيء من الغموض، وفكرت برونيلدا، عندئذ في شيء تقوله لديلامارش، فرفعت المنظار بخلاعة أمام وجه كارل، الذي تمكن دون أن تلاحظه من أن يختلس النظرات إلى الشارع من تحت المنظار، ولم تستمر في إصرارها على أن تحمله على النظر من خلال المنظار بعد ذلك، وراحت هي تتطلع إلى الشارع من خلاله.

وخرج من المطعم أحد السفرجية، وكان يندفع في عجلة إلى الداخل والخارج، وهو يتلقى الأوامر من قادة المظاهرة، وكان في إمكان المرء أن يراه، وهو يتلقى الأوامر من قادة المظاهرة، وكذلك وهو يقف على أطراف أصابعه؛ لكي يتطلع إلى داخل المطعم، ويستدعي من يجده من سفرجية المطعم ليعاونه في إعداد ما كان يبدو حفلة شراب بالمجان. ولم يتوقف المرشح عن الكلام، وظل الرجل الذي كان يحمله يدور حول نفسه قليلًا قليلًا، بين الحين والآخر، حتى يبدو المرشح وكأنه يوجه خطابه مباشرة إلى كل أنحاء الحشد، وظل المرشح جالسًا القرفصاء أغلب الوقت، وحاول بتلويح يده الطليقة إلى الخلف، وبتحريك قبعته العالية بيده الأخرى، أن يؤكد كلماته على نحو ما، لكن انطلاقه في الخطابة كان يزداد بعد فترات منتظمة تقريبًا، فكان ينهض فاردًا ذراعيه على امتدادهما، ولا يوجه خطابه

عندئذٍ إلى مجموعة واحدة من الناس، بل إلى الجماهير المحتشدة جميعًا، تحدث إلى كل الناس الذين في مساكنهم، حتى أعلى الطوابق، كان يوجه حديثه إلى من يسكنونها، لكن كان يبدو في وضوح أن أحدًا لم يكن يسمعه حتى سكان الطوابق السفلى، وحتى لو كان في إمكانهم سماعه، فإن أحدًا لم يكن في حاجة إلى الاستماع إليه، ذلك أن كل نافذة، وكل شرفة، كان يحتلها خطيب واحد على الأقل، يتدفق في الصياح، وكان عدد من السفرجية قد حملوا مائدة كبيرة وضعوها خارج المطعم، وكانت هذه المائدة مغطاة بكؤوس مترعة لا حصر لها، وكان حجم تلك المائدة كحجم ترابيزة البلياردو، ونظم قائد المظاهرة عملية توزيع الشراب على الجمهور، فكان الناس يسيرون أمام المطعم في طابور، يمر بتلك المائدة، وعلى الرغم من أن تلك الكؤوس كانت تُملأ ثانيةً المرة بعد الأخرى، إلا أنها لم تكن تكفي الغوغاء الذين كانوا يملأون الشارع، وكان على فرقتين من السقاة، أن تندسا وسط الحشد على كلا الجانبين لكي توزعا المشروبات على أكبر عدد ممكن. كان المرشح قد توقف بالطبع عن الخطابة، وكان قد استغل السكون الذي ساد المكان في استعادة نشاطه، وتقدم الرجل الذي يحمله ببطء إلى الأمام، وإلى الخلف مبتعدًا به قليلًا عن الزحام، وعن الضوء الشديد، وكان يلتف حوله، ويتبعه حيثما ذهب عدد قليل من مساعديه المقربين، ويشيرون إليه بتعليماتهم.

قالت برونيلدا: «انظر إلى الصبي، إنه مستغرق في الفرجة، حتى لقد نسي تمامًا أين هو!»، وأدارت وجه كارل فجأة بكلتا يديها، إلى ناحيتها، حتى تتمكن من أن تحدق في عينيه، لكن لم يستمر ذلك سوى لحظة قصيرة

فقط، فقد أبعد كارل يدها في الحال، في ضيق لأنهم لا يتركونه في سلام، ولقلقه أيضًا، وتطلعه إلى الهبوط إلى الشارع، ومشاهدة المظاهرة عن كثب، وحاول بكل جهده أن يخلص نفسه من قبضة برونيلدا، قائلًا: «أرجوك دعيني أرحل».

قال ديلامارش: «إنك سوف تبقى هنا!»، دون أن يحول عينيه عن الشارع، بينما مد ذراعه فقط لكي يحول بين كارل وبين الخروج.

فقالت برونيلدا، وهي تبعد يد ديلامارش: «اتركه وشأنه، إنه سيبقى بالفعل!»، وضغطت كارل بشدة إلى الدرابزين حتى اضطر إلى أن يجاهد طويلًا لكي يخلص نفسه من ضغطها، وحتى لو تمكن من أن يتخلص منها فما الذي سيجنيه من ذلك، لقد كان ديلامارش يقف إلى يساره، وكان روبنسون قد تحرك الآن إلى يمينه، وكان هو سجينًا بالفعل بينهم.

قال روبنسون، وهو يربت على كارل بيده التي دسها تحت ذراع برونيلدا: «عليك أن تعد نفسك محظوظًا، لأن أحدًا لم يلق بك إلى الشارع!».

فقال ديلامارش: «يلقي به إلى الشارع؟!، لا يمكنك أن تلقي بلص هارب إلى الشارع، وإنما عليك أن تسلمه إلى البوليس، وقد يحدث له هذا بالفعل في صباح الغد، إن لم يلزم الهدوء!».

لم تعد متعة يمكن أن يجنيها كارل من التطلع إلى المشهد الذي يشغل الشارع بعد ذلك؛ لأنه لم يعد يحتمل التطلع إليه، على حين تضغط عليه برونيلدا، ولم يتمكن من أن يقف منتصبًا، ولذا مال إلى الأمام قليلًا نحو الدرابزين، وراح يتطلع في شرود، إلى الذين في الشارع، لاستغراقه في

همومه الخاصة، وكان الناس يتقدمون نحو المائدة التي أمام المطعم، في جماعات تتألف من عشرين شخصًا، فيتناولون الكؤوس، ويستديرون حول أنفسهم ويلوحون بها في اتجاه المرشح، الذي كان يستريح وقتها من المجهود الذي قام به، ويهتفون بالشعارات الحزبية، ومن ثم يفرغون الكؤوس في جوفهم، ويضعونها فارغة فوق المائدة في صليل كان يحدث عن تصادم الكؤوس ببعضها ببعض، إلا أنه لم يكن مسموعًا بالطبع، عند هذا الارتفاع، ثم يفسحون في الحال مكانًا للمجموعة التالية الصاخبة الفارغة الصبر، وخرجت الفرقة الموسيقية تلبية لرغبة قادة الحزب، من داخل المطعم، إلى الشارع وكانت آلات النفخ تلمع في الظلام وسط الحشود، إلا أن الموسيقى التي عزفتها تلك الفرقة ضاعت وسط الضوضاء التي كانت تسود الشارع كله، وكان الشارع الآن، في الجانب الذي يقع فيه المطعم على الأقل مزدحمًا ازدحامًا شديدًا بالجماهير، وكان الناس يتدفقون من أعلى التل، حيث جاء التاكسي الذي استقله كارل في هذا الصباح، إلى أسفل الشارع ومن أقصى منحدر الشارع من القنطرة التي كان ينتهي الشارع عندها، كان الناس يصعدون المنحدر نحو المطعم، وحتى الناس الذين كانوا في بيوتهم وقتها لم يتمكنوا من أن يقاوموا إغراء المشاركة الشخصية في ذلك الحدث، وفي الشرفات، وفي النوافذ لم يكن قد تبقى أحد تقريبًا، فيما عدا النساء والأطفال، على حين كان الرجال يتدفقون من أبواب المنازل إلى الشارع، وكانت الموسيقى والشراب المجاني قد حققا الآن غايتهما، فقد كان الاجتماع هائلًا جدًّا الآن، وأشار واحد من قادة المظاهرة كانت تحيط به اللمبات الشديدة الضوء على كلا جانبيه، إلى الفرقة الموسيقية

بأن تتوقف عن العزف، وأطلق صفيرًا، واستدار في الحال الرجل الذي كان يحمل المرشح، مسرعًا، وأمكن رؤيته وهو يتقدم خلال ممر مهده له المساعدون وسط الجماهير.

وكان المرشح قد بلغ باب المطعم تقريبًا، عندما شرع في إلقاء خطبة جديدة في ضوء اللمبات الرئيسية، التي ركزت الأضواء عليه الآن في حلقة ضيقة، إلا أنه لم يكن مرتاحًا في وضعه كما كان من قبل، وكان الرجل الهائل الجسم الذي كان يحمله، كاد يكون عاجزًا عن الحركة الحرة، أمام ضغط الزحام البالغ الشدة، ولم يكن في إمكان مساعديه المقربين الذين بذلوا أقصى طاقتهم من قبل في محاولة تعظيم أثر كلماته في الجماهير، أن يبقوا بالقرب منه إلا بصعوبة بالغة، كان عشرون منهم فقط قد تمكنوا من الاحتفاظ بأماكنهم حول المرشح، أما الرجل الضخم الهيئة الذي يحمل ذلك المرشح فلم يكن يخطو الآن خطوة واحدة بكامل إرادته، وكان من المستحيل أن يفكر في محاولة السيطرة على تلك الحشود المندفعة، ولم يتمكن من أن يستدير ليواجه هذا الجانب أو ذاك، ولم يكن له أن يتقدم إذا شاء، أو يتراجع، كان الحشد الغوغائي يندفع فقط إلى الأمام وإلى الخلف بلا خطة، أو هدف واضح، وكان كل شخص يدفع جاره، ولم يكن في مقدور أي شخص مطلقًا أن يثبت لحظة واحدة على قدميه، وبدا كما لو كان الحزب المعارض قد حاز عددًا من الأنصار الجدد، كان الرجل الذي يحمل المرشح، قد ترك نفسه ينجرف الآن في كلا اتجاهي الشارع، دون أن يبذل أدنى مقاومة، بعد أن كان قد قاوم للحظة حركة المد والجزر أمام باب المطعم، وكاد المرشح لا يزال يلقي بكلماته، إلا أنها لم تعد واضحة، فهل كان يسرد الخطوط

الأساسية لبرنامجه، أو كان يصيح طالبًا النجدة؟!، وما لم يكن كارل مخطئًا، فقد رأى مرشحًا منافسًا قد ظهر، أو عددًا من المرشحين المتنافسين فيما يبدو، ذلك لأن بعض الأشخاص كانوا يرتقون فوق أكتاف الجماهير، هنا وهناك، عندما كان الضوء يسطع فجأة، فيلقون الخطب بوجوههم الشاحبة، وقبضاتهم المضمومة، وكان الجمهور يهلل مبتهجًا لخطبهم التي كانوا يلقونها بلا استثناء.

تساءل كارل قائلًا: «ما الذي يحدث في الشارع بحق الجحيم؟».

واستدار في حيرة إلى حراسه، متقطع الأنفاس.

فقالت برونيلدا لديلامارش، وهي تتناول ذقن كارل لكي تدير وجهه ناحيتها:

- كم يثير ذلك اهتمام الصبي!!

إلا أن كارل لم يقبل ذلك، وقد دفعه ما كان يجري أمامه في الشارع، إلى شيء من الطيش، فأتى بحركة مفاجئة، حتى أن برونيلدا لم تتركه فقط بل تراجعت عنه مبتعدة، وتركته في حاله.

قالت له، وقد أغضبها سلوكه على ما يبدو: «لقد رأيت ما يكفيك الآن من هذا المشهد، فادخل إلى الحجرة، ورتب الفراش وجهز كل شيء لليلة!»، وأشارت له نحو الحجرة، وقد كان هذا هو الاتجاه الذي كان يتوق إلى أن يتجه إليه منذ ساعات، فلم يبد اعتراضًا على الإطلاق.

ثم ارتفع من الشارع صوت تحطم زجاج، فلم يستطيع كارل أن يمنع نفسه من العودة، وقفز قفزة سريعة إلى الدرابزين، لكي يلقي نظرة أخيرة إلى

الشارع، كان صدام هائل بين الجوانب المتعارضة، ولابد أنه كان صدامًا حاسمًا، وكانت المصابيح الأمامية للسيارات التي كانت مع أعوان المرشح، والتي كانت تلقي ضوءًا شديدًا على الشخصيات الرئيسية على الأقل، وتتيح بالإضافة إلى ذلك، نوعًا ما من الإضاءة العامة التي تسيطر على الموكب كله بصورة ما، قد تهشمت جميعًا في وقت معًا، وكان المرشح والرجل الذي يحمله قد غابا الآن في إضاءة الشارع العمومي الخافتة، التي كان لها فجأة تأثير الظلام الحالك، بعد اختفاء ضوء اللمبات الساطعة الإضاءة، ولم يستطيع أي شخص أن يدرك، ولو على وجه التقريب مكان المرشح، وقد زاد في وطأة الظلام ارتفاع أصوات فرقة كانت تنشد في تآلف نشيدًا ما، وكانت أصوات تلك الفرقة قد ارتفعت فجأة وأخذت تقترب، صاعدة المنحدر، من ناحية القنطرة.

قالت برونيلدا: «ألم أقل لك ما يجب عليك أن تفعله»، وأضافت قائلة، وهي تمد ذراعيها فوق رأسها، حتى برز صدرها إلى الأمام أكثر مما كان عليه بروزه من قبل: «هيا، أسرع، فإنني متعبة!»، وسحبها ديلامارش الذي كانت ذراعه لا تزال تلتف حولها إلى أحد أركان الشرفة، وتبعهما روبنسون لكي يخلي طريقهما من بقايا عشائه الذي كان يتناثر فوق أرضية الشرفة.

ولم يكن له أن يدع تلك الفرصة المواتية تفلت منه، ولم يعد الآن أمام كارل أن يتطلع إلى الشارع، فسوف يرى الكثير مما يجري فيه عندما يهبط إليه الآن، وسوف يرى تلك المظاهرة بصورة أوضح مما يراها عليه الآن من هذا الارتفاع، وفي قفزتين كان كارل قد عبر الحجرة بضوئها الأحمر القاتم، لكن كان الباب مغلقًا، ولم يكن المفتاح موجودًا فيه، لابد إذن من أن يجد

المفتاح في الحال، لكن من ذا الذي يتوقع أن يجده وسط هذه الفوضى، وفي فسحة ضئيلة من الوقت الثمين فوق ذلك، وقت ربما كان يمكن لكارل أن يدبر فيه أمره كما يحلو له، كان عليه الآن أن يكون فوق درجات السلم، يجري ويجري، لكنه يبحث الآن عن ذلك المفتاح بدلًا من هذا! بحث في كل الأدراج التي كان يمكن فتحها، وفتش فوق المائدة، حيث كانت تتراكم أطباق عديدة، وفوط سفرة، وقطع من القماش قد بدء في تطريزها، ثم بعد ذلك أغراه البحث في تلك الكومة المضطربة المشوشة من الملابس القديمة التي كانت تتكوم فوق المقعد ذي المساند، فلعل المفتاح أن يكون في طياتها، إلا أنه لم يجد له أثرًا، فاندفع أخيرًا نحو الأريكة، التي كانت تفوح منها بالفعل رائحة كريهة، لكي يتحسس كل زواياها وأركانها بحثًا عن المفتاح، ثم توقف عن البحث في وسط الحجرة، وقال لنفسه: «لاشك أن برونيلدا تحتفظ بذلك المفتاح في حزامها، وعلى هذا فمن العبث البحث عنه في كل تلك الأشياء الملقاة هنا».

واختطف كارل سكينين، دفعهما بين مصراعي الباب، أحدهما إلى أعلى، والأخرى إلى أسفل، لكي يضغط على اللسان بأقصى ما يمكنه من القوة من مكانين مختلفين، لكنه ما كاد يضغط على السكينين، حتى انكسر نصلاهما، ولم يكن كارل يأمل في شيء أفضل من هذا، فقد كانت بقية النصلين اللذين يمكنه بهما أن يضغط عن قرب، فوق لسان الكالون، تضغطان الآن على ذلك اللسان بقوة، ولواهما الآن في عنف، وكانت ذراعاه مفرودتين، وقدماه متباعدتين، وكان يلهث من المجهود، لكنه كان يرقب الباب في الوقت نفسه بغاية الاهتمام، لن يتحمل ذلك اللسان طويلًا هذا

الضغط، وقد أدرك كارل ذلك في فرح من خلال تحرك اللسان بصوت مسموع في داخل الكالون، لكن من الأفضل أن يتحرك ببطء، فلا يجب أن يتحرك مرة واحدة، وإلا سمعوا من الشرفة صوت انفتاحه، يجب أن ينفتح بالتدريج، واستمر كارل في محاولته بغاية الحذر، حتى يتم له ذلك، وهو يقترب بوجهه من الكالون أكثر فأكثر.

وسمع صوت ديلامارش يقول: «انظر إلى هذا!»، كان ثلاثتهم يقفون في داخل الحجرة، وكانت الستارة قد أسدلت بالفعل خلفهم، ولم يكن كارل قد أحس بهم عندما دخلوا إلى الحجرة، وترك السكينين عندما وقع نظره عليهم، إلا أنه لم يكد يجد وقتًا لكي يتفوه بكلمة واحدة على سبيل التفسير أو الاعتذار، فقد اندفع ديلامارش نحوه في هياج أشد مما يتطلبه الموقف، وكان رباط ردائه الليلي المفكوك قد طار في الهواء، وزاغ منه كارل في اللحظة المناسبة متجنبًا هذا الهجوم، وكان في مقدوره أن ينتزع السكينين من بين مصراعي الباب ويحتمي بهما، إلا أنه لم يفعل، وغطس بدلًا من ذلك إلى أسفل، ثم قفز إلى أعلى ممسكًا بياقة رداء ديلامارش العريضة، وجذبها، وراح يجذبها أكثر إلى الأمام، وكان الرداء واسعًا على ديلامارش للغاية، فاستطاع كارل عندئذ لحسن الحظ، أن يمسك برأس ديلامارش، الذي فوجئ، وراح يتخبط بيديه في الهواء، في البداية، ثم بعد دقيقة أو دقيقتين راح يضرب كارل بقبضته، فوق ظهره، لكنه لم يملك في وضعه عندئذ أن يضرب بكل قوته، بينما اندفع كارل إلى صدر ديلامارش لكي يحمي وجهه من تلك الضربات، وتحمل كارل تلك الضربات التي كانت تجعله يتلوى من الألم، والتي كانت تزداد عنفًا، ومع ذلك فقد كان في مقدوره أن يحتملها

عندما ظن أن النصر كان يلوح له.

وبيديه حول رأس ديلامارش، وإبهامه فوق العينين، دفع ديلامارش إلى طرف الحجرة المزدحم بالأثاث، وحاول في نفس الوقت بطرف حذائه أن يلف الحبل الذي كان يتدلى من رداء ديلامارش حول ساقيه حتى يتعثر فيه.

ولما كان عليه أن يركز كل انتباهه على ديلامارش، الذي بدأ يشعر بمقاومته له تزداد شيئًا فشيئًا، وكان جسده القوي يرتمي عليه في عنف متزايد، كان قد نسي بالفعل أنه لم يكن وحيدًا في الحجرة مع ديلامارش، فسرعان ما حدث له ما ذكره بهذه الحقيقة عندما طارت قدماه فجأة من تحته، وانزاح جانبًا عندما دفعه روبنسون الذي كان مستلقيًا يصرخ خلفه، فوق الأرض، وخفف كارل قبضته التي كانت تقبض بشدة على ديلامارش، فتراجع هذا وهو يلهث، وكانت برونيلدا، بساقيها المنفرجتين، وركبتيها المخلخلتين تقف بكيانها الضخم في وسط الحجرة، وهي تتابع المعركة بعينيها المتألقتين، كما لو كانت تشترك هي أيضًا فيها، فقد راحت تتنفس في عمق، وهي تسدد نظراتها، وتمد قبضتيها في بطء، وأطاح ديلامارش بياقة ردائه إلى الخلف، فاستطاع أن يرى الآن جيدًا، ولم تعد المسألة عندئذ تبدو في شكل معركة، لكن ببساطة في شكل عقاب، فقد أمسك ديلامارش بصدر قميص كارل ورفعه من على الأرض، ودون أن ينظر إليه، لاستخفافه به، قذفه بغاية العنف نحو صندوق كان على بعد بضع خطوات، حتى لقد ظن كارل في البداية، أن الآلام التي كان يشعر بها في ظهره ورأسه من أثر لكمات ديلامارش، كانت هي النتيجة المباشرة لارتطامه بالصندوق: «أيها السافل!»، كان يمكنه سماع صيحات ديلامارش هذه في الظلام، فقد ارتفعت

تلك الصيحة أمام عينيه اللتين تهتز نظراتهما، وبينما كان يتهاوى فاقد الوعي بجوار الصندوق كان لا يزال يسمع هذه الكلمات: «انتظر فقط قليلًا!».

وظلت هذه الكلمات تتردد في أذنيه في غموض.

وعندما عاد إليه وعيه، كان الظلام يغطي كل شيء حوله، ويبدو أن الوقت كان وقتًا متأخرًا جدًّا من الليل، ومن الشرفة كان لمعان ضوء القمر الخافت يدخل الحجرة من خلال الستارة، وكان يسمع تنفس النائمين الثلاثة بانتظام، وكانت أعلى أصوات تنفسهم ارتفاعًا، هو صوت برونيلدا، التي كانت تشخر في نومها، كما كانت تفعل أحيانًا في حديثها، لكن لم يمكنه أن يحدد أين كان هؤلاء الأشخاص الثلاثة يستلقون، فقد كانت الحجرة كلها تردد أصوات تنفسهم، ولم يفكر كارل في نفسه إلا عندما تفحص ما حوله للحظة قصيرة، ثم فوجئ بشيء انزعج له انزعاجًا بالغًا مع أنه كان عاجزًا تمامًا، وقد تجمد في مكانه من الألم، إلا أنه لم يكن قد تخيل أنه قد أصيب بمثل تلك الجراح التي سالت منها تلك الدماء، ثم أحس الآن بثقل في رأسه، وفي وجهه كله، وعنقه، وصدره تحت القميص بدا كما لو كان مبللًا بالدم، لهذا يجب عليه أن يذهب إلى الضوء لكي يتفحص حالته تمامًا، فربما كانوا قد أصابوه بالعجز التام، وسوف يكون ديلامارش سعيدًا في هذه الحالة عندما يسمح له بالرحيل، لكن ما الذي يأمل فيه لو اتضح أن الأمر كان كذلك، إنه لم يطمح إلى أي شيء على الإطلاق، وتراءى له الصبي ذو الأنف المتآكل، فدفن وجهه للحظة بين راحتيه.

ثم استدار رغمًا عنه إلى الباب الخارجي، وشق طريقه إليه على أطرافه الأربعة، ثم وقعت أصابعه على حذاء، ثم ساق، لابد أن هذا هو روبنسون،

فمن غيره ينام منتعلًا حذاءه؟ ولابد أنهما قد أمراه بأن ينام أمام الباب لكي يمنع كارل من الهرب، لكن ألم يلحظا عندئذ الحالة التي كان عليها كارل؟ لم يكن كارل يفكر الآن في الهرب، كان يريد فقط أن يصل إلى الضوء، فإن لم يستطع لهذا أن يخرج من الباب، فعليه أن يتجه نحو الشرفة.

وفي طريقه وجد أن مائدة الطعام كانت تستقر في مكان مختلف تمامًا عن مكانها في الليلة السابقة، وكانت الأريكة التي اقترب منها بغاية الحذر، خالية لدهشته، لكنه كان قد بلغ كومة عالية من الملابس المضغوطة رغم ارتفاعها، والبطاطين، والستائر، والسجاجيد، وقد ظنها في البداية مجرد كومة صغيرة، كتلك الكومة التي وجدها عند طرف الأريكة في الليلة السابقة، كومة ربما تكون قد سقطت إلى الأرض، إلا أنه اكتشف لدهشته عندما تقدم في زحفه أن حمولة عربة نقل كاملة كانت قد وضعت هنالك، ويحتمل أن تكون قد وضعت لاستخدامها كفراش أثناء الليل، ولابد أنها كانت قد أخرجت من الصناديق التي توضع بداخلها في أثناء النهار، وزحف كارل عن يمين تلك الكومة، وسرعان ما تحقق من أن تلك الكومة كانت تكوِّن فراشًا، فوقه، كما تحسس في حذر، كان ينام ديلامارش وبرونيلدا.

وهكذا أدرك الآن أين كانوا الثلاثة ينامون، فأسرع إلى الشرفة، كانت الشرفة عالمًا مختلفًا تمام الاختلاف في الجانب الآخر من الستارة، ونهض كارل في الحال على قدميه.

وتمشى في الهواء الليلي المنعش عدة مرات في الشرفة ذهابًا وجيئة في ضوء القمر الساطع، وتطلع كارل إلى الشارع، كان هادئًا تمامًا، وكانت الموسيقى لا تزال تنبعث من المطعم، لكنها كانت الآن أشد تأثيرًا.

وكان ثمة رجل يغسل الرصيف أمام باب المنزل، وفي الشارع الذي كانت الضجة الهائلة تغطيه منذ ساعات قليلة، حتى أن صيحات المرشح، لم تكن مسموعة وسط ضجيج آلاف الأصوات الأخرى، كان يسمع الآن في وضوح حفيف المكنسة فوق البلاطات الحجرية.

وكان الصوت الذي أحدثته أرجل المنضدة في الشرفة المجاورة، قد نبه كارل إلى أن شخصًا كان يجلس في تلك الشرفة، مستغرقًا في القراءة، كان شابًّا له ذقن صغيرة مدببة، وراح يفتلها دائمًا وهو يقرأ، وكانت شفتاه تتحركان بسرعة في أثناء ذلك، كان يواجه كارل في جلسته إلى تلك المنضدة الصغيرة المغطاة بالكتب، وكان قد تناول المصباح الكهربائي الذي كان قد وضعه فوق السور، وأسنده بين كتابين ضخمين، وهكذا كان يجلس الآن في ضوء شديد يبهر المنظر.

قال كارل، الذي ظن أن الشاب كان ينظر إليه: «مساء الخير!» لكن لعله كان مخطئًا في ظنه هذا، فقد بدا أن ذلك الشاب لم يكن يدرك وجوده، فقد وضع يديه فوق عينيه، ليظلهما من الضوء، وراح يبحث عمن تحدث إليه فجأة، ثم رفع المصباح الكهربائي إلى أعلى لكي يلقي بعض الضوء على الشرفة المجاورة، وكان لا يستطيع أن يرى أي شيء.

ثم قال عندئذ بدوره، في نظرة فاحصة، مقتضبة: «مساء الخير!»، ثم أضاف قائلًا: «وماذا تريد؟».

تساءل كارل قائلًا: «هل أزعجتك؟!».

فقال الشاب: «بالطبع، بالطبع!»، وهو يعيد المصباح ثانية إلى مكانه السابق.

ولا شك أن هذه الكلمات لم تشجع كارل على أن يحاول مواصلة الحديث، إلا أن كارل لم يغادر في الوقت نفسه ذلك الركن من الشرفة القريب من الشاب، وراح يرقبه في صمت وهو يقرأ، ويقلب الصفحات، أو يتطلع من حين لآخر إلى شيء ما في كتاب آخر، كان يختطفه دائمًا في سرعة البرق، وكان غالبًا ما يكتب بعض المذكرات في مفكرة، كان يكتبها ووجهه ملتصق بالورقة إلى حد يثير الدهشة.

هل يمكن أن يكون هذا الشاب طالبًا؟ كان يبدو طالبًا لا شك، وكان كارل- وإن يكن قد انقضى الآن وقت طويل على هذا- يجلس بهذه الصورة تقريبًا في منزله، إلى مائدة كتابة والديه، لكي يكتب واجباته المدرسية، بينما يقرأ والده الصحيفة، أو يؤدي أعماله التجارية، أو مراسلاته الخاصة بالمؤسسة التي يعمل بها، وتنشغل أمه بالتطريز، وهي تسحب الخيط من القماش بيدها إلى أعلى، ولكي يتجنب إزعاج والده، اعتاد كارل أن يضع كراسة التمرينات المدرسية فقط، وأدواته الكتابية على المنضدة، بينما يرتب بقية كتبه على المقاعد عن يمينه ويساره، فكم كان كل شيء هادئًا هناك! وكان كارل وهو طفل صغير يسر دائمًا سرورًا زائدًا، عندما كان يرى أمه وهي تدير المفتاح في الباب الخارجي لتفتحه أحيانًا، لا شك أنها لا تدري الآن شيئًا عن أن كارل قد بلغ به الأمر حدًّا حاول معه فتح أبواب الغرباء بالقوة باستخدام السكاكين.

وماذا كانت نتيجة استذكاره؟ لقد نسي كل شيء، فلو كانت قد أتيحت له الفرصة مواصلة دراسته هنا، فلابد أنه كان سيجدها عبئًا شاقًا، وقد تذكر الآن أنه كان قد مرض ذات مرة، في منزله، مرضًا استمر شهرًا كاملًا، وتذكر

كم كلفه انقطاعه عن دراسته في أثناء ذلك الشهر، لقد كلفه مجهودًا مرهقًا حتى تمكن من متابعة دراسته التي انقطعت، مرة أخرى، والآن فها هو ذا لم يقرأ كتابًا واحدًا منذ تلك المدة الطويلة، فيما عدا كتاب المعاملات التجارية الذي كان مكتوبًا بالإنجليزية.

وسمع كارل فجأة صوتًا يقول له: «أيها الفتى، ألا يمكنك أن تقف في مكان آخر؟ إنك تزعجني، غاية الإزعاج، وأنت تحدق فيّ على هذا النحو، فبعد الساعة الثانية صباحًا، لاشك أن المرء يتوقع أن يتمكن من العمل في الشرفة، في هدوء، هل تريد شيئًا مني؟!».

فسأله كارل قائلًا: «هل تدرس؟!».

فقال الشاب، وهو يحاول الاستفادة بهذه اللحظات الضائعة في إعادة ترتيب كتبه:

– نعم، نعم.

فقال كارل: «إذن، فلن أعطلك، وسأدخل ثانية إلى الحجرة، وطابت ليلتك على أية حال».

ولم يردّ الشاب مطلقًا، وعاد ثانية إلى كتبه في همة، بعد أن تخلص من ذلك الإزعاج، وكان رأسه يستند بكل ثقله إلى يده اليمنى.

لكن قبل أن يبلغ كارل الستارة، تذكر ما كان قد خرج من أجله، فلم يكن يعلم مدى إصابته، ولم يكن يدري ما الذي كان يحس به ثقيلًا إلى حد ما فوق رأسه، ووضع يده إلى أعلى رأسه، وحملق في دهشة، لم يكن هناك جرح يدمي، كما تصور عندما كان في الظلام داخل الحجرة، لكن فقط عصابة تشبه العمامة كانت لا تزال مبتلة، وتبين من الأهداب الصغيرة التي

كانت تتدلى هنا وهناك، والتي اتضح أنها كانت طرف قطعة من الدانتيلا، تبين كارل أنها كانت خرقة قد مزقت من أحد قمصان نوم برونيلدا القديمة، لابد أن روبنسون كان قد لفها في سرعة حول رأسه، إلا أنه كان قد نسي أن يعتصرها، فبينما كان كارل فاقدًا وعيه، كان الماء يقطر فوق وجهه، ويتسرب تحت قميصه، وكان ذلك هو ما سبب له تلك الصدمة.

تساءل الشاب، وهو يحملق فيه عبر الشرفة: هل ما زلت هنا؟

فقال كارل: «إنني ذاهب الآن بالفعل، لقد كنت أريد فقط أن أتفحص شيئًا ما، إن الظلام شديد جدًّا بالداخل»، فقال الشاب وهو يضع قلمه فوق الكتاب المفتوح أمامه، ويتقدم نحو الدرابزين: «لكن من أنت؟ ما هو اسمك؟ وكيف جئت إلى هؤلاء الناس؟ وهل لك وقت طويل هنا؟ وما الذي كنت تريد أن تتفحصه؟ افتح النور الكهربائي هنالك، ألا تريد، افتحه حتى أتمكن جيدًا من رؤيتك».

ونفذ كارل ما طلبه منه، لكنه قبل ذلك، سحب الستارة، وأحكم إغلاقها لكي يمنع من بالداخل من ملاحظة أي شيء، وقال هامسًا: «اعذرني؛ لأنني لا يمكنني أن أرفع صوتي أكثر من ذلك، لأنهم لو سمعوني، فسوف تحدث ضجة أخرى».

تساءل الشاب قائلًا: «أخرى؟».

فقال كارل: «نعم لقد حدثت بيني وبينهم معركة شديدة هذا المساء، ولابد أنني قد أصبت بضربة شديدة للغاية فوق رأسي»، وتحسس مؤخرة رأسه.

وتساءل الشاب قائلًا: «وما سبب تلك المعركة؟!»، وعندما لم يجبه كارل في الحال، قال له الشاب: «يمكنك أن تصرح لي في اطمئنان، بكل ما لديك ضد هؤلاء الناس، فأنا أمقتهم جميعًا، وخاصة السيدة، وبالإضافة إلى ذلك، فما يدهشني هو أن أجدهم قد حذروك بالفعل مني، إن اسمي هو «جوزيف مندل»، وأنا طالب».

قال كارل: «حسنًا، لقد تحدثوا إليّ عنك بالفعل، لكنهم لم يقولوا شيئًا سيئًا عنك، فأنت قد عالجت برونيلدا ذات مرة، ألم تفعل؟!».

قال الطالب ضاحكًا: «هذا حق! وهل تفوح الأريكة بنتن تلك الرائحة حتى الآن؟!».

فقال كارل: «نعم لا تزال!».

وقال الطالب: «إن هذا يسعدني على كل حال!»، ومر بأصابعه فوق شعره، ثم أضاف قائلًا: «ولماذا وجهوا إليك تلك الضربات فوق رأسك؟!».

قال كارل: «لقد نشبت مشاجرة بيننا»، واحتار في كيفية تفسير الأمر كله له، ثم عاد، فألح مرة أخرى متسائلًا: «لكن ألا أسبب لك إزعاجًا الآن؟!».

قال الطالب: «أولًا، لقد تسببت بالفعل الآن في إزعاجي، وإنني لسوء الحظ شخص عصبي جدًّا، حتى أنني أستغرق وقتًا طويلًا جدًّا لكي أعود إلى حالتي التي كنت عليها من قبل، فمنذ أن رحت تتمشى في الشرفة، لم أتمكن من متابعة قراءتي، ومن ناحية أخرى، فإنني دائمًا أستريح، حوالي الساعة الثالثة صباحًا، وعلى هذا فليس لك أن تتردد في إخباري بما سألتك عنه، وبالإضافة إلى ذلك، فإنني مهتم بهذا الأمر».

قال كارل: «إنه أمر غاية في البساطة، فديلامارش يريدني أن أبقى لكي أعمل خادمًا له، لكنني لا أريد ذلك، وكنت أريد مغادرة هذا المكان الليلة، إلا أنه لم يسمح لي بالرحيل، ولقد أغلق الباب، وحاولت أن أفتحه بالقوة، ثم حدثت المشاجرة، وما زلت هنا لسوء الحظ!».

فتسائل الطالب قائلًا: «ولماذا ترحل، هل عثرت على عمل آخر؟!».

فقال كارل: «لا، إلا أن هذا لا يهمني مطلقًا، لو أمكنني فقط أن أغادر هذا المكان».

فقال الطالب: «ماذا! ألا يهمك هذا مطلقًا؟ ألا يهمك؟!» وصمت كلاهما لحظة، ثم قال الطالب متسائلًا في النهاية: «ولماذا لا تريد أن تبقى مع هؤلاء الناس؟».

وأجاب كارل قائلًا: «إن ديلامارش رجل شرير، ولقد اصطدمت به من قبل، فقد تجولت معه يومًا كاملًا ذات مرة، ثم أسعدني أن أتخلص من صحبته، فهل يمكنني أن أصبح خادمه الآن؟!».

فقال الطالب، وبدا وكأنه كان يبتسم: «لو كان كل الخدم مثلك يدققون طويلًا في اختيار سادتهم! استمع إليّ، إنني أعمل بالنهار كبائع، وهي وظيفة بائسة أقوم فيها بتسليم البضائع إلى المشترين، وهي لا تكاد تفترق في شيء عن وظيفة ساع، في مخزن (منتلي) الكبير، إن منتلي هذا هو شخص سافل، لاشك في هذا، إلا أن هذا لا يثيرني، إن ما يهمني بالفعل هو الأجر، وهو أجر حقير مع هذا، فلتضع هذا في اعتبارك!».

فقال كارل: «ماذا؟ هل تعمل في أثناء النهار كبائع، وتستذكر طوال الليل؟».

قال الطالب: «نعم، لا يمكنك أن تفعل شيئًا آخر، ولقد حاولت أن أعمل كل ما يمكن عمله، إلا إنني وجدت أن هذا هو أفضل الطرق جميعًا، إنني لا أفعل سوى الدراسة ليلًا ونهارًا منذ عدة سنوات، وغالبًا لا أستطيع الانتظام في المحاضرات، فالجرأة لا تواتيني بالذهاب في هذه الملابس التي أملكها، إلا أنني انتهيت من هذا كله الآن».

وقال كارل وهو ينظر إلى الطالب في حيرة: «لكن متى تنام؟!».

قال الطالب: «أوه.. النوم!، إنني أحصل على القليل من النوم عندما أنتهي من مذكراتي، وإنني أعمل على أن أبقى مستيقظًا بتناول القهوة السوداء!»، واستدار حوله، وتناول زجاجة كبيرة من تحت المنضدة وصب القهوة السوداء من الزجاجة في قدح صغير، وصبه في جوفه، كما لو كانت تلك القهوة دواء يتجرعه حتى يمكنه أن يتجنب مرارة طعمه.

قال الطالب: «رائعة تلك القهوة السوداء!، ومن سوء الحظ، أنك تبعد عني كثيرًا، وإلا كنت قد أعطيتك بعضًا منها الآن».

قال كارل: «إنني لا أحب القهوة السوداء».

ورد عليه الطالب ضاحكًا: «ولا أنا، إلا أنني بدونها، ماذا عساي أن أفعل؟ فلو لم أتناول تلك القهوة السوداء، لما رآني منتلي دقيقة واحدة، وأقول منتلي، على الرغم من أنه بالطبع لا يكاد يشعر بوجودي، إنني لا أستطيع ببساطة أن أدخل المحل دون أن أحمل معي زجاجة كبيرة كهذه،

أضعها تحت الطاولة، ذلك أنني لا أجرؤ مطلقًا على المغامرة بالإقلاع عن تناول القهوة، وصدقني، فلو أنني فعلت ذلك لتدحرجت تحت الطاولة في نوم كأنه الموت، ولقد فطن الآخرون لسوء الحظ، إلى ذلك، فأطلقوا عليَّ لقب (القهوة السوداء)، نكتة سخيفة، إلا أنني واثق من أنها قد دمرت حياتي العملية بالفعل».

وتساءل كارل: «ومتى ستنتهي من دراستك؟».

فقال الطالب مطرقًا برأسه: «إنني أتقدم فيها ببطء»، ثم ترك الدرابزين وجلس ثانية إلى المنضدة، ووضع مرفقيه فوق الكتاب المفتوح، ومر بأصابعه خلال شعره، ثم قال: «قد تستمر سنة أخرى، أو سنتين!».

قال كارل: «إنني أريد أن أدرس أنا أيضًا»، قالها وكأن مجرد تصريحه بهذه الرغبة كان يعطيه الحق في أن يتساوى تمامًا مع الطالب، الذي صمت الآن، عندما تبين أنه قد أصبح قدوة.

قال الطالب: «حقًّا؟!»، ولم يكن واضحًا تمامًا لكارل لحظتها، هل كان يعيد قراءة دروسه، أم كان ينظر إليه في شرود! ثم عاد يقول: «لعلك أن تكون سعيدًا لأنك قد تركت دراستك بالفعل، ولقد واصلت أنا دراستي هذه حتى الآن، فقط لمجرد الرغبة في المواصلة، إنني أشعر أحيانًا بشيء من الرضا، ويفعم نفسي في أحيان أخرى أمل واهٍ في المستقبل، فما هو الشيء الذي يمكنني أن أطمح إليه؟ إن أمريكا تمتلئ بالأطباء الدجالين!».

فقال كارل مسرعًا، عندما بدا الطالب وكأنه يفقد اهتمامه بكل شيء: «لقد طمحت إلى أن أكون مهندسًا ميكانيكيًّا».

فقال الطالب، وهو يتطلع لحظة إلى أعلى: «والآن يتعين عليك أن تصبح خادمًا لهؤلاء الناس، وإن هذا يضايقك بالفعل!».

توصل الطالب إلى هذه النتيجة؛ لأنه لم يفهم تمامًا ما كان كارل يقصده، إلا أن كارل أحس لحظتها بأن في إمكانه أن يحول هذه الفكرة لصالحه، ولهذا فقد تساءل قائلًا: «لعلي أجد وظيفة في المخزن أنا أيضًا؟».

وانتزع هذا التساؤل الطالب بعيدًا عن كتابه تمامًا، كانت فكرة مساعدته لكارل في الحصول على وظيفة كتلك أبعد ما تكون عن باله، فقال: «حاول أن تحصل على هذه الوظيفة، أو لا تحاول، إن حصولي على وظيفة عند منتلي هو أعظم نجاح أحرزته في حياتي، فلو كان لي أن أختار إحداهما، فسأختار الوظيفة بالطبع، ويمكنني أن أتخلى في الحال عن دراستي، لقد أنفقت طاقتي كلها في محاولة حسم التردد في هذا الاختيار».

قال كارل محدثًا نفسه، قبل أن يوجه حديثه إلى الطالب: «إذن فمن الصعب إلى هذا الحد أن يجد المرء وظيفة عند منتلي!».

قال الطالب: «إنني أظن أنه من الأسهل أن يتم تعيينك هنا قاضيًا للحي، من أن تعين بوابًا عند منتلي!».

وصمت كارل، إن هذا الطالب الذي يتمتع بهذا القدر الهائل من الخبرة، والذي يكره ديلامارش لسبب غير معروف، والذي لا يحمل له بلا ريب أية ضغينة، لا يستطيع أن يشير له بكلمة واحدة تحمل أي معنى من معاني التشجيع على مغادرة ديلامارش، وهو لا يعلم مع ذلك أي شيء عن الخطر الذي يهدد كارل من البوليس، هذا الخطر الذي لا يستطيع أن يحميه

منه الآن سوى ديلامارش وحده.

- لقد رأيت المظاهرة في الشارع هذه الليلة، ألم ترها؟ إن أي شخص لا يعرف ما هي الحال، يمكنه بسهولة أن يتخيل، ألا يمكنه أن يتخيل أن المرشح لوبستر، وهذا هو اسمه، من الممكن أن يأمل إلى حد ما في النجاح، أو على الأقل في النظر إليه كمرشح جدير بالاعتبار.

قال كارل: «لا أفهم في السياسة».

فقال الطالب: «هذا خطأ، لأن لك عينين في رأسك، وأذنين، أليست لك عينان؟ إن الرجل له أصدقاء وله خصوم، وهذا واضح غاية الوضوح، ولا يمكن أن يكون قد فاتك أن ترى هذا، حسنًا، إن هذا الشخص ليس له في رأيي أقل أمل في التراجع، فقد تصادف أنني أعرف كل شيء عنه، ويوجد رجل يقيم هنا، وهو واحد من معارفه، إنه رجل لا تنقصه الكفاية، أما إذا نظرنا إلى آرائه السياسية، وماضيه السياسي فإنه يبدو لنا بالفعل أفضل شخص يناسب وظيفة قاضي الحي، إلا أن أحدًا لا يمكن أن يتصور أنه سيحصل عليها، ولسوف يسقط على أُم رأسه، كما قد يحدث لأي شخص آخر، وسوف تضيع دولاراته في الحملة الانتخابية، وسيكون هذا هو كل ما في الأمر!».

وحدق كارل والطالب بعضهما في بعض، للحظات قليلة، في صمت، وأطرق الطالب بابتسامته، وضغط راحتيه على عينيه المرهقتين.

ثم تساءل قائلًا: «حسنًا، ألن تذهب إلى الفراش الآن، يجب عليّ أن أستأنف قراءتي، انظر، كم من الصفحات علي أن أقرأها!».

وقلب ما يزيد على نصف صفحات الكتاب، لكي يوضح لكارل ضخامة العمل الذي لا يزال ينتظره!.

فقال كارل، بانحناءة: «حسنًا، إذن... طابت ليلتك».

وقال الطالب الذي جلس ثانية إلى المنضدة: «تعال لزيارتنا في وقت ما، لو راق لك ذلك بالطبع، وستجد دائمًا جمعًا من الأصحاب هنا، ولدي دائمًا وقت لاستقبالك من التاسعة إلى العاشرة مساءًا».

فتساءل كارل: «وعلى هذا فأنت تنصحني بالبقاء مع ديلامارش؟!».

فقال الطالب الذي كان رأسه قد انحنى بالفعل فوق الكتاب: «قطعًا!»، وبدا وكأنه لم يكن هو، بل شخص آخر غيره هو الذي قالها، فلقد تردد صداها في أذني كارل، كما لو كانت قد قيلت بصوت فارغ أجوف لايكاد يشبه صوت ذلك الطالب.

ومضى كارل ببطء نحو الستارة، وتطلع مرة أخرى إلى الطالب الذي جلس الآن بلا حراك، تمامًا تحت دائرة الضوء الذي يغرقه فيها مصباحه الكهربائي، محاطًا بالظلام الحالك، ودخل كارل الحجرة، فاستقبلته أنفاس النائمين الثلاثة، وتحسس طريقه بطول الحائط إلى الأريكة، وعندما بلغها، تمدد فوقها في هدوء كما لو كانت هي فراشه الذي اعتاده، ولما كان الطالب الذي يعرف كل شيء عن ديلامارش، وعن الظروف الغريبة التي تحيط به، والذي كان بالإضافة إلى ذلك شخصًا متعلمًا، قد نصحه بالبقاء هنا، فليس لديه الآن أي أثر للشعور بتأنيب الضمير! ليست له مثل ما لهذا الطالب من الأهداف السامية، ولعله لم يكن ليبلغ النهاية

في تعليمه، حتى في وطنه، إذا كان صعبًا بالنسبة إليه أن ينهي تعليمه في وطنه، فليس لأحد أن يتوقع منه أن يفلح في بلوغ هذا الهدف هنا في بلد غريب! إلا أن طموحه في الحصول على وظيفة يمكنه أن يحقق من خلالها شيئًا يبعث فيه بعض الرضا سوف يزداد، لو أنه قبل الآن أن يكون خادمًا لديلامارش، ويمكنه من هذا المكان الآمن أن يترقب الفرصة المناسبة، ففي هذا الشارع نفسه يبدو أن هناك العديد من مكاتب الوسطاء، والمكاتب التي تطلب عمالًا للأعمال المختلفة، وهي عند الحاجة لا يصعب عليها أن تعثر على بغيتها، وسوف يسره أن يقبل وظيفة بواب، عند الضرورة، لكن ليس من المستحيل تمامًا، رغم كل شيء، ألا يتفق له أن يجد عملًا في وظيفة مكتبية، وقد يجلس في المستقبل إلى مكتبه الخاص، ككاتب نظامي، ويحدق من حين لآخر من خلال النافذة المفتوحة في سعادة، كما كان يفعل ذلك الكاتب الذي رآه هذا الصباح في أثناء رحلته عبر الأفنية، وعندما أغلق عينيه كان مستريحًا إلى فكرة أنه لا يزال صغيرًا، وأنه سيتمكن يومًا ما من أن يفارق ديلامارش، فلا شك أن هذا المنزل لم يكن قد أقيم إلى الأبد، وعندما يتفق له الحصول في وقت من الأوقات على عمل في أحد المكاتب، فسوف يركز اهتمامه في عمله المكتبي، ولن يشتت طاقته، كما يفعل ذلك الطالب، وإذا لزم الأمر فسوف ينذر لياليه أيضًا بالإضافة إلى أيامه لعمله المكتبي، وقد يطلب منه هذا في البداية بالفعل، نظرًا لقلة معلوماته عن شئون هذا العمل، ولسوف يقصر تفكيره فقط فيما يفيد المؤسسة التي سيعمل بها، وسيضطلع بكل ما يعهد به إليه من أعمال، وبالأعمال التي قد يهملها الكتبة الآخرون، وتزاحمت النوايا

الطيبة في رأسه، وكأن صاحب العمل الذي سيستخدمه في المستقبل، كان يقف لحظتها أمام الأريكة، ويستطيع أن يقرأ هذه الأفكار على وجهه. بمثل هذه الأفكار، استغرق كارل في النوم، وأزعجته في لحظات استغراقه الأولى في النوم، تنهيدة عميقة صعدتها برونيلدا، التي كانت على ما يبدو قد أزعجتها بعض الأحلام السيئة، فتمطت، وتقلبت في فراشها.

الفصل الثامن

مسرح أوكلاهوما الطبيعي

في ركن من أركان أحد الشوارع رأى كارل لافتة كتب فوقها الإعلان التالي: «يقبل مسرح أوكلاهوما أعضاء جددًا للانضمام إلى هيئته اليوم، في ميدان سباق كلايتون، من السادسة صباحًا، حتى منتصف الليل، إن مسرح أوكلاهوما العظيم يناديك! اليوم فقط هو آخر فرصة! فلو فقدت الآن هذه الفرصة، فقد فقدتها إلى الأبد! ولو فكرت في مستقبلك، فإن عليك أن تحرص على الانضمام إلينا! مرحبًا بالجميع! لو أردت أن تكون فنانًا فانضم إلى جماعتنا، إن مسرحنا يمكنه أن يوفر عملًا لكل شخص ومكانًا لكل شخص، فلو قررت الانضمام إلينا فنحن نرحب بك هنا الآن، فأسرع حتى يمكنك أن تبلغ المكان قبل منتصف الليل! وستغلق الأبواب في الساعة الثانية عشرة مساءً، ولن تفتح ثانية! وليسقط كل الذين لا يثقون بنا، فهيا إلى كلايتون»

ولاشك أن عددًا كبيرًا من الناس قد توقفوا أمام هذه اللافتة، لكن يبدو أن الكثيرين لم يصدقوا ما تقوله، كان هناك دائمًا الكثير من اللافتات، ولم يعد أحد يصدق تلك اللافتات، وكانت هذه اللافتة، أكثرها جميعًا بعدًا عن التصديق، وفوق هذا، فقد أغفلت هذه اللافتة أمرًا مهمًّا، وجوهريًّا، فهي لم تذكر شيئًا عن الأجر، فلو كان الأجر جديرًا بالذكر، لكانت تلك اللافتة قد ذكرته بالفعل، ولقد كان هذا الأمر هو أكثر ما أثار الانتباه في كل المناقشات التي تناولت ما جاء بتلك اللافتة، وهي مناقشات لا تنسى، فلا أحد يريد أن يصبح فنانًا، لكن كل شخص يريد أن يحصل على أجر في مقابل ما يؤديه من أعمال.

لكن كان ثمة ما يلفت نظر كارل بشدة في تلك اللافتة، فهي تقول: «مرحبًا بالجميع!»، الجميع؟! إن هذا يعني كارل أيضًا، إن هذه اللافتة تتجاهل كل ما فعله كارل حتى الآن، ويبدو أن أحدًا لن يلومه على شيء، فهي تبيح له الحق في الحصول على وظيفة، لا تثير شيئًا من الخجل، بل هي على العكس من ذلك، وظيفة يعلن عنها على الملأ، وكان الوعد بأنه سيجد هو أيضًا قبولًا من أصحاب العمل، يبدو كذلك، وعدًا عامًّا، وهو لا يطلب شيئًا أكثر من هذا، إنه يريد أن يجد سبيلًا ما إلى بداية حياة نظيفة على الأقل، وربما كانت هذه هي فرصته.

وحتى لو كانت كل التقريرات التي تتصف بالمبالغة، والتي تضمنتها اللافتة، ليست سوى مجرد كذبة، وحتى لو كان مسرح أوكلاهوما العظيم هذا ليس سوى مجرد سيرك بسيط متجول، يريد أن يضم إليه أعضاء جددًا، ففي هذا ما يكفي، ولم يقرأ كارل اللافتة كلها مرة أخرى، لكنه التقط ثانية

تلك الجملة: «مرحبًا بالجميع!» وفكر في البداية في أن يذهب إلى كلايتون سيرًا على الأقدام، إلا أن هذا كان معناه، ثلاث ساعات من السير المرهق المتواصل، وربما يصل على كافة الاحتمالات، في الموعد تمامًا، وربما يكتشف أيضًا أنه قد تم شغل جميع الأماكن بالفعل.

لا شك أن اللافتة تشير إلى أنه لا حدّ لمن يمكن قبولهم من الأعضاء الجدد، إلا أن كل الإعلانات التي من هذا القبيل تتحدث دائمًا على هذا النحو، ورأى كارل أنه إما أن ينبذ تلك الفكرة كلية، وإما أن يذهب بالقطار، وأحصى نقوده، التي كانت من الممكن أن تكفيه لمدة ثمانية أيام، إن لم يقم بهذه الرحلة بالقطار، وطوح بقطع العملة القليلة فى راحة يده إلى الخلف وإلى الأمام، وربت سيد ما، كان يرقبه، بيده على كتف كارل قائلا: «أرجو لك رحلة طيبة إلى كلايتون!» أطرق كارل فى صمت، وأحصى نقوده ثانية، ثم سرعان ما اتخذ قراره، وتناول النقود التى تلزم لأجر السفر، واندفع نحو محطة النفق. وعندما خرج من المحطة فى كلايتون، سمع فى الحال أصوات أبواق عديدة، كانت تلك الأصوات عبارة عن ضوضاء مشوشة، ولم يكن النفخ فيها ينسجم بعضه مع بعض، إلا أن كارل لم يهتم بهذا، بل لقد اعتبر هذا تأكيدًا لحقيقة أن مسرح أوكلاهوما كان مسرحًا هائلًا، لكنه عندما خرج من المحطة، واستعرض ذلك العرض بنظراته، تحقق فى الحال مما رآه أمامه، أن ذلك المسرح كان أكبر بكثير جدًّا مما كان قد تصوره، ولم يستطع أن يفهم كيف يتسنى لأية هيئة أن تضطلع بهذا التنظيم الكامل لمجرد أن تستوعب أعضاء جددًا.

وأمام مدخل حلبة السباق، كان قد أقيم ثمة رصيف طويل منخفض،

وقفت فوقه مئات من النساء اللاتي يرتدين ملابس الملائكة، وهي أثواب بيضاء، لها أجنحة هائلة على أكتافهن، وكن ينفخن فى أبواق طويلة كانت تتألق كالذهب، ولم يكن بالفعل يقفن فوق الرصيف، لكنهن كن يعتلين قواعد منفصلة بعضها عن بعض، ولم يكن من السهل رؤية تلك القواعد مع ذلك؛ لأنها كانت تختفي تحت الأقمشة الطويلة المزهرة التي كانت تنسدل إلى أسفل، والتي لم تكن سوى أذيال أثواب الملائكة، ولما كانت تلك القواعد، بالغة الارتفاع- كان يبلغ ارتفاع بعضها ستة أقدام- فإن النساء كن يظهرن، عملاقات، لولا أن صغر رؤوسهن هو ما كان يبعد الإيهام بهذا الحجم الهائل، وكان شعرهن المفكوك، يبدو بالغ القصر، ومتدليًا بطريقة سخيفة بين الجناحين الهائلين، ويحدد وجوههن، وكانت توجد نساء لا يكدن يرتفعن كثيرًا عن ارتفاع الشخص العادى، لكن كانت هناك أخريات بجوارهن، كن يقفن على ارتفاع شاهق، حتى أن المرء كان يشعر بأن أقل لفحة من الهواء يمكنها أن تقلبهن، وكانت القواعد تختلف فى أحجامها ومقاييسها تجنبًا للتكرار، وكانت النساء جميعهن ينفخن فى أبواقهن.

ولم يكن يوجد كثير من المستمعين، كان هناك فقط حوالى عشرة من الصبية، كانوا يتمشون أمام الرصيف، وقد مُسخت أحجامهم بالمقارنة بأحجام أولئك النساء، وكانوا يلفتون أنظار بعضهم بعضًا إلى هذه أو تلك، لكن لم تكن تبدو عليهم أدنى نية للدخول، وعرض خدماتهم، وكان هناك رجل واحد فقط، كان قد توقف قليلًا فى جانب من الجوانب، وكان يصطحب زوجته معه، وطفله فى عربة أطفال، كانت الزوجة تمسك عربة الطفل بإحدى يديها، وتعتمد بيدها الأخرى على كتف زوجها، وكان

واضحًا أنهما كانا معجبين بالمشهد، إلا أن المرء كان فى إمكانه أن يتبين فى الوقت نفسه، أن أملهما قد خاب، وكان يبدو عليهما وكأنهما كانا يتوقعان ما يشير إلى نوع من أنواع العمل، ولقد أثار هذا النفخ فى الأبواق سخطهما، وكان كارل يشعر بنفس ما كانا يشعران به، واتجه كارل إلى حيث كان يقف الرجل، واستمع قليلًا إلى صوت الأبواق، ثم قال بعد ذلك: «أليس هذا هو المكان الذى يطلبون فيه أناسًا للانضمام إلى مسرح أوكلاهوما؟!» .

قال الرجل: «إننى أظن هذا أيضًا! إلا أننا ننتظر هنا منذ ساعة، ولم نسمع شيئا سوى أصوات هذة الأبواق، ولا يوجد هنا لافتات يمكننا أن نعرف عن طريقها أي شىء، ولا يوجد منادون ولا شخص واحد يمكنه أن يدلك على ما يجب عليك أن تفعله!» فقال كارل: «ربما كانوا ينتظرون حتى يصل أناس كثيرون، إن من وصل إلى هنا حتى الآن، هم فى الحقيقة بضعة أفراد قلائل!».

قال الرجل: « قد يكون الأمر كذلك!»، ثم صمتا ثانية، كما أنه لم يكن من السهل أن تسمع شيئًا من خلال الضوضاء التي كانت تحدثها أصوات الأبواق، ثم همست المرأة بشىء ما لزوجها فأطرق هذا، ونادت المرأة كارل فى الحال وقالت له: «ألا يمكنك أن تذهب إلى حلبة السباق، وتسأل أين يتم استقبال طالبى العمل؟».

فقال كارل: «نعم، إن عليّ أن أخترق الرصيف، وسط كل الملائكة!»، فتساءلت المرأة قائلة: «وهل يصعب عليك هذا، إلى هذه الدرجة؟».

وتبدو أنها كانت تظن المكان ممرًّا سهلًا لكارل، لكنها لا تريد زوجها أن يذهب ليسأل بنفسه.

قالت المرأة لكارل: «من السهل عليك أنت أن تذهب!»، وتناولت هي وزوجها يد كارل، وضغطاها، واندفع الصبية جميعًا، ينظرون إلى كارل عن قرب، عندما صعد الرصيف، ويبدو أن النساء قد ضاعفن من شدة نفخهن فى الأبواق؛ كتحية لأول شخص يرغب فى الانضمام إلى هيئة المسرح، وكانت النسوة اللائي كن يقفن فوق القواعد التي مر بها كارل، قد أبعدن الأبواق عن أفواههن وانحنين يتتبعنه بأنظارهن، وعند الجانب الآخر من الرصيف، اكتشف كارل وجود رجل كان يتمشى فى قلق، ذهابًا وجيئة، ويبدو أنه كان ينتظر الناس الذين يطلبون الانضمام؛ لكي يعطيهم التعليمات التي يرغبون فى الحصول عليها، وكان كارل على وشك أن يبدأه بالحديث، عندما سمع صوتًا يناديه من أعلى، صاحت إحدى الملائكة قائلة: «كارل».

وتطلع كارل إلى أعلى فى دهشة منشرحة، انطلق فى الضحك فقد كانت «فاني»، صاح قائلًا فى دهشة، وهو يلوح لها بيده: «فاني!».

صاحت فاني قائلة: «اقترب، لا يمكن أن تمر بي حقًّا هكذا!»، وأزاحت طرف ثوبها جانبًا، فاتضحت القاعدة التى كانت تقف فوقها، وسلم صغير كذلك كان يؤدى إلى أعلى تلك القاعدة . تساءل كارل قائلًا: «هل يُسمح للمرء بأن يصعد هذا السلم؟».

فهتفت فاني قائلة: «ومن ذا الذى يمنعنا من أن نتصافح!»، وتطلعت حولها فى غضب، استعدادًا لمواجهة من قد يتدخل، إلا أن كارل كان يصعد السلم لحظتها بالفعل.

وصاحت فاني قائلة: «ليس بهذه السرعة! وإلا انقلبنا، والسلم أيضًا، إلى الأرض!» إلا أن شيئًا من هذا لم يحدث، وبلغ كارل قمة السلم فى سلام.

قالت فاني: «انظر!» وكان كل منهما قد صافح الآخر: «انظر أي وظيفة هذه التي حصلت عليها هنا!».

فقال كارل وهو يتطلع حوله: «إنها وظيفة رائعة!»، وراحت باقي النساء، اللائي كن يلاحظنه يضحكن ساخرات.

وقال كارل: «إنك أكثر ارتفاقًا منهن جميعًا! وفرد ذراعه محاولًا أن يقيس الفرق في الارتفاع بين مكانها، ومكان الأخريات.

وقالت له فاني: «لقد رأيتك في الحال، فور خروجك من المحطة، لكنني في الصف الأخير هنا، لسوء الحظ، ولا يمكن لأحد أن يراني، كما لا يمكنني أن أُلوِّح لأحد بدوري، ولقد نفخت في البوق بغاية جهدي، إلا أنك لم تتعرف عليّ رغم ذلك!».

وقال كارل: «إنكن تنفخن جميعكن بصورة سيئة للغاية!، دعيني أنفخ مرة في هذا البوق!..».

فقالت فاني: «كما تشاء!- وهي تناوله البوق- لكن لا تحاول أن تفسد العرض، وإلا تسببت في طردي!».

وبدأ كارل ينفخ في البوق، وكان قد تصوره برفق قديم الطراز، لا ينفع إلا في إصدار الضوضاء فقط، لكنه اكتشف الآن أنه كان آلة قادرة على إحداث أي صوت دقيق، فلو كانت كل الأبواق هنا بهذا المستوى، فلابد أنها كانت تستعمل إذن استعمالًا بالغ السوء، ودون أن يلقي انتباهًا إلى نفخ الأخريات، نفخ بكل طاقة رئتيه لحنًا كان قد سمعه ذات مرة في إحدى الحانات. وأحس بالسعادة لعثوره على صديقة قديمة، ولسماحها له بالنفخ

في البوق بصورة ودية، وسعد كذلك لفكرة احتمال عثوره هنا على وظيفة حسنة بغاية السرعة، وتوقفت كثيرات من النساء عن النفخ لكي يستمعن، عندما توقف هو فجأة عن النفخ في البوق، كانت نصف الأبواق تقريبًا هي التي تصدر عنها الأصوات واستمر الحال بعض الوقت على هذا، إلى أن عادت الضوضاء كما كانت من قبل، إلى كامل عنفها.

قالت فاني عندما سلمها البوق ثانية: «ولكنك فنان فعلًا! فاطلب منهم أن يأخذوك كنافخ بوق!».

وقال كارل: «وهل يقبلون الرجال في هذه الوظيفة أيضًا؟!».

فقالت فاني: «نعم، إننا ننفخ لمدة ساعتين، ثم نستريح، ويحل الرجال الذين يرتدون ملابس الشياطين محلنا، نصفهم ينفخون في الأبواق، ويقرع نصفهم الآخر الطبول، إنه مشهد رائع، كما أن المعدات تتوافر جميعها في سخاء، ألا تعتقد أن ثيابنا جميلة؟! والأجنحة؟!»، وتطلعت إلى أسفل، وراحت تتفحص نفسها.

تساءل كارل: «هل تعتقدين أنني سأجد وظيفة هنا؟».

فقالت فاني: «بكل تأكيد! إنه أضخم مسرح في العالم، يا له من حظ، أن يجمعنا ثانية مكان واحد، إلا أن الأمر يعتمد على نوع الوظيفة التي سوف تسند إليك، لأنه من الممكن ألا نرى بعضنا ثانية على الإطلاق، على الرغم من انضمامنا هنا».

فتساءل كارل قائلًا: «هل المكان واسع بالفعل إلى هذا الحد؟».

فقالت فاني: «إنه أكبر مسرح في العالم، إنني لم أره بعد بنفسي، إنني

أعترف بهذا، إلا أن بعض الفتيات الأخريات هنا، أولئك اللائي كن قد انضممن قبلي إلى مسرح أوكلاهوما، يقلن إن هذا المسرح لا حدود له على الأغلب!».

فقال كارل، مشيرًا إلى أسفل نحو الصبية، والأسرة الصغيرة.

– لكن لا يوجد كثير من الناس هنا!!

قالت فاني: «هذا حق، لكن عليك أن تلاحظ أننا نضم إلينا أعضاء جددًا من كل المدن، وأن جهاز تجنيد الأعضاء للعمل في المسرح، يتجول دائمًا في الطرق، ويوجد الكثير من فرق تجنيد الأعضاء الجدد للمسرح».

وقال كارل: «لماذا؟ ألم يفتتح المسرح بعد؟!».

قالت فاني: «أوه.. نعم، إنه مسرح قديم، إلا أنه يوسع دائمًا».

فقال كارل: «انه ليدهشني أن أناسًا أكثر من هؤلاء لم يتزاحموا للانضمام إليه!».

قالت فاني: «نعم، إنه أمر غير عادي!».

قال كارل: «ربما كان هذا العرض الذي يقوم به الملائكة والشياطين، ينفر الناس، بدلًا من أن يجتذبهم!».

قالت فاني: «ما الذي يجعلك تظن هذا، إلا أنك قد تكون على حق، فقل هذا لقائدنا، فقد يهمه سماع ذلك!».

فتساءل كارل قائلًا: «أين هو؟!».

قالت فاني: «في حلبة السباق، فوق رصيف التحكيم».

قال كارل: «إن هذا يدهشني أيضًا، فلماذا حلبة السباق لاستقبال الراغبين في الانضمام إلى المسرح؟!».

قالت فاني: «أوه.. إننا نعمل دائمًا استعدادًا هائلًا لاستقبال كثير من الناس، ويوجد متسع للكثيرين في حلبة السباق، وفي كل الأكشاك التي تقبل المراهنات في الأيام العادية، تقام الآن المكاتب لتسجيل أسماء المرشحين للوظائف، ولابد أن هناك حوالي المائتين من هذه المكاتب هناك».

فصاح كارل قائلًا: «وهل لمسرح أوكلاهوما مثل هذا الدخل الضخم، الذي يسمح له بجمع الناس وإقامة المنشآت على هذه الصورة؟».

قالت فاني: «وما الذي يهمنا نحن من ذلك، من الأفضل لك أن تذهب الآن، يا كارل، حتى لا يفوتك أي شيء، ويجب عليّ أن أواصل الآن النفخ في البوق، فابذل كل جهدك لكي تحصل على وظيفة هنا، في هذا القسم، وتعال وأخبرني بذلك في الحال، وتذكر أنني سأنتظر بغاية القلق حتى تعود إليّ بهذه الاخبار».

وضغطت على يده، ونبهته إلى أن يحترس عند هبوطه السلم، ووضعت البوق على شفتيها ثانية، إلا أنها لم تنفخ فيه حتى رأت أن كارل قد هبط إلى الأرض بسلام، ورتب كارل الثوب ثانية، فغطى به السلم، كما كان من قبل، وأومأت فاني إلى كارل بتحياتها، واقترب كارل، وهو لا يزال يفكر فيما سمعه الآن، اقترب من الرجل الذي كان قد رآه وهو فوق القاعدة التي تقف عليها فاني، فاقترب من تلك القاعدة منتظرًا هبوطه.

تساءل الرجل قائلًا: «هل تريد الانضمام إلينا؟ إنني مدير المستخدمين،

في هذه الفرقة، وأنني أرحب بك!» كانت له انحناءة دائمة، كما لو كانت بدافع الأدب، وكانت ساقاه تتململان، دون أن يتحرك من مكانه، وكان يعبث طول الوقت بسلسة ساعته.

قال كارل: «أشكرك، لقد قرأت اللافتة التي وضعتها فرقتك، وقد حضرت إلى هنا، كما جاء بها!».

فقال الرجل موافقًا على ما قال كارل: «هذا صحيح تمامًا، ولسوء الحظ لا يوجد كثيرون قد فعلوا كما فعلت!»، وطرأ على بال كارل أن يقول للرجل، إنهم ربما يكونون قد أخفقوا في جمع الكثيرين بسبب فخامة ذلك الاستعراض، إلا أنه لم يقل شيئًا لأن هذا الرجل لم يكن قائد الفرقة، وبالإضافة إلى ذلك فليس من المستحسن له أن يبدأ بتوجيه الاقتراحات التي تستهدف تحسين حال جهاز تجنيد الأعضاء الجدد، من قبل أن يقبل هو نفسه بالفعل كعضو، وعلى هذا فقد قال فقط:

– ثمة رجل ينتظر هناك في الخارج، ويرغب في تسجيل اسمه هنا أيضًا، وقد أرسلني لكي أستطلع الأمر أولًا، فهل لي أن أبحث عنه الآن؟

قال الرجل: «بالطبع، من المستحسن هذا».

قال كارل: إن له زوجة معه هي أيضًا، وطفل صغير في عربة أطفال، فهل لهما أن يحضرا أيضًا؟

فقال الرجل، وبدا وكأنه كان يبتسم من تردد كارل: «بالطبع، يمكننا أن نقبلهم جميعًا».

فقال كارل: «سوف أعود في الحال»، وانطلق يجري نحو حافة

الرصيف، ولوح بيده للزوجين، وصاح قائلًا: «إن بإمكان كل شخص أن يحضر أيضًا»، وعاون الرجل في حمل عربة الطفل إلى الرصيف، ثم تقدما معًا، وعندما رأى الصبية ذلك تشاوروا بعضهم مع بعض وترددوا إلى اللحظة الأخيرة، وأيديهم في داخل جيوبهم، ثم صعدوا الرصيف ببطء، وتبعوا كارل والأسرة، ثم ظهر عندئذ عدد من الوافدين الجدد خرجوا من المحطة التحتية، ورفعوا سواعدهم في دهشة عندما شاهدوا الرصيف والملائكة، وبدا مع ذلك أن المنافسة من أجل الحصول على الوظائف ستزداد الآن، وأحس كارل بالسعادة البالغة لوصوله مبكرًا على هذه الصورة، ولعله كان أولهم جميعًا، وكان الزوجان يتوجسان شرًّا، وتساءلا عديدًا من التساؤلات عما قد يُطلب منهما، وقال لهما كارل إنه لا يعرف شيئًا محددًا بعد، إلا أنه قد أحس بأن كل شخص بلا استثناء سوف يُقبل، وظن أنهما سيشعران براحة البال عندئذٍ، وتقدم مدير المستخدمين نحوهم، والرضا يبدو عليه لوجود مثل ذلك العدد ممن حضروا يطلبون الانضمام إلى هيئة المسرح، وفرك يديه، وحيا كل واحد من الموجودين بانحناءة خفيفة، ورتبهم جميعًا في صف واحد، وكان كارل على رأس الصف، يليه الزوج، وزوجته، ويليهما الآخرون، وعندما اصطفوا جميعًا- ظل الصبية يتدافعون في البداية، واستغرق الأمر بعض الوقت لكي يتم تنظيمهم في الصف- وقال مدير المستخدمين، بينما صمتت الأبواق: «إنني أحييكم باسم مسرح أوكلاهوما، ولقد وصلتم مبكرين (كان الوقت ظهرًا لحظتها)، ولم يحدث زحام شديد بعد حتى الآن، وعلى هذا فإن الشكليات الضرورية التي تلزم لانضمامكم سوف تتم في الحال، إنكم تحملون معكم بالطبع الأوراق التي تثبت شخصياتكم».

وجذب الصبية في الحال أوراقًا من جيوبهم، وفردوها نحو مدير

المستخدمين ولكز الزوج زوجته، فأخرجت حزمة كبيرة من الأوراق من تحت البطاطين التي كانت في عربة الأطفال، إلا أن كارل لم يكن يحمل أية أوراق، فهل يحول ذلك بينه وبين الانضمام؟ إنه يعلم جيدًا من خلال خبرته أنه سيسهل عليه أن يتغلب بحل من الحلول البسيطة، على تلك التعليمات، ويبدو أنه سينجح في ذلك، وتطلع مدير المستخدمين إلى الصف كله، وتأكد من أن الجميع يحملون تلك الأوراق، ولما كان كارل يقف بيديه مرفوعتين مع أنهما كانتا خاليتين من تلك الأوراق، فقد تأكد الرجل من أن كل شيء على ما يرام بالنسبة لكارل أيضًا.

قال مدير المستخدمين: «حسن جدًّا!» مؤكدًا ذلك للصبية بتلويح يده لهم، وكان هؤلاء يريدون أن تفحص أوراقهم في الحال: «سوف تفحص أوراقكم في مكاتب الاستقبال، وكما قد لاحظتم بالفعل من لافتتنا، ففي إمكاننا أن نجد وظيفة لكل شخص، لكننا يجب بالطبع أن نعرف ما هي الوظائف التي كنتم تشغلونها حتى الآن، وعلى هذا يمكننا أن نضع كلًّا منكم في مكانه الصحيح؛ لكي نستفيد من خبراتكم!».

وفكر كارل في نفسه مرتابًا: «ولكنه مسرح!»، ثم استمع في انتباه شديد.

ومضى مدير المستخدمين في حديثه قائلًا: «ولهذا فقد أقمنا مكاتب للاستقبال والتسجيل في أكشاك المراهنات على خيل السباق، لكل تجارة أو مهنة مكتب خاص، وعلى هذا فسوف يخبرني كل منكم بوظيفته، وتسجل الأسرة عادة في مكتب توظيف الأزواج، وسوف أصحبكم إذن إلى هذه المكاتب، حيث يراجع المختصون أوراقكم أولًا، ثم صلاحيتكم، وسوف يكون فحصًا قصيرًا للغاية، فلا تخشوا شيئًا، وسوف تسجل أسماؤكم

في الحال، بعد ذلك، ثم تتلقون التعليمات اللازمة، فلنبدأ الآن إذن، هذا المكتب الأول خاص بالمهندسين الميكانيكيين، كما يتضح من الكتابة التي كتبت فوقه، فهل يوجد مهندس هنا بينكم؟».

فتقدم كارل إلى الأمام، كان قد ظن أن افتقاره إلى الأوراق يتيح له أن يتخطى تلك الشكليات بأقصى سرعة ممكنة، وكان لديه كذلك ما يبرر تقدمه إلى الأمام بعض التبرير، فلقد كان قد رغب ذات مرة في أن يصبح مهندسًا ميكانيكيًّا، إلا أن الصبية عندما شاهدوا كارل وهو يتقدم إلى الأمام، ثار الحسد في نفوسهم، ورفعوا أيديهم جميعًا، فنهض مدير المستخدمين على قدميه وقال للصبية: «هل أنتم مهندسون؟!»، فتذبذبت أذرعهم، ثم انخفضت إلى جانبهم، لكن كارل بقي ثابتًا على قراره الأول، ولقد نظر إليه مدير المستخدمين بالطبع في ارتياب، فقد كان كارل يبدو في ثياب خلقة وكان صغيرًا أيضًا حتى يكون مهندسًا، إلا أنه لم يقل شيئًا، ربما كنوع من الامتنان لكارل؛ لأنه كان قد تسبب في رأيه على الأقل، في دخول هؤلاء الذين يرغبون في الانضمام إلى المسرح، ثم التفت مدير المستخدمين نحو الآخرين.

وفي المكتب المخصص للمهندسين، كان يجلس سيدان إلى طرفي طاولة مستطيلة، وهما يقارنان قائمتين طويلتين كانتا موضوعتين أمامهما، وكان أحدهما يقرأ، بينما كان الآخر يضع علامة أمام كل اسم في القائمة، وعندما دخل كارل وحياهما، تركا القائمة في الحال، وتناولا دفترين هائلين، وفتحاهما.

وقال أحدهما، وكان يبدو واضحًا أنه كاتب: «من فضلك أعطني أوراق إثبات شخصيتك».

فقال كارل: «إنني آسف لأنني لم أحضرها معي».

قال الكاتب للسيد الآخر: «إنه لم يحضرها معه!»، بينما كان يكتب في الوقت نفسه تلك الإجابة التي أجاب بها كارل في دفتره، وعندئذ سأله الرجل الآخر، الذي بدا أنه رئيس المكتب: «هل أنت مهندس؟».

قال كارل مسرعًا: «إنني لم أصبح مهندسًا بعد، ولكنني...».

فقال السيد في سرعة تفوق سرعته: «يكفي هذا، فأنت لا تتبعنا في هذه الحالة، وعلى هذا فأرجو أن تتكرم بملاحظة ما كتب هنا على واجهة الكشك!»، وصر كارل على أسنانه، ولابد أن السيد كان قد لاحظ ذلك؛ لأنه قال: «لا حاجة بك إلى أن تخشى شيئًا، ففي إمكاننا أن نقبل كل شخص»، وأشار لواحد من المساعدين، كان يتسكع متكاسلًا بين الأسوار، قائلًا له: «قُد ذلك السيد إلى مكتب الفنيين».

وفسر المساعد ذلك الأمر حرفيًا، فأخذ كارل من يده، ومرا بعدد من الأكشاك على كلا الجانبين، وفى أحد هذه الأكشاك رأى كارل أحد الصبية كان قد انتهى تسجيله بالفعل، فكان هذا الصبى يشد على يد السيد الذى كان يرأس المكتب الذى أُقتيد إليه كارل الآن. كانت الإجراءات شبيهة بتلك الإجراءات التى جرت فى المكتب الأول، كما كان كارل قد توقع، فيما عدا أنهما قد أرسلاه الآن الى المكتب الخاص بطلبة المدارس المتوسطة، عندما سمعا أنه كان قد التحق بمدرسة متوسطة، لكن عندما صرح كارل هناك بأنها كانت مدرسة أوروبية، تلك التى كان قد التحق بها، ورفض الموظفان قبوله، وأرسلا معه من اقتاده إلى المكتب الخاص بطلبة المدارس الأوروبية المتوسطة، وقد كان كشكًا فى الطرف الخارجي من الحلبة، ولم يكن كشكًا

أصغر فقط، بل أكثر تواضعًا أيضًا من باقى الأكشاك الأخرى، وكان المساعد الذى اقتاده الى هناك غاضبًا غاية الغضب، للمشوار الطويل والرجوع المتكرر الذى كان السبب فى حدوثهما فى رأيه هو كارل وحده، ولم ينتظر المساعد حتى تبدأ الأسئلة التى سيوجهها أعضاء المكتب إلى كارل، بل رجع فى الحال، فلعل هذا المكتب إذن أن يكون هو فرصة كارل الأخيرة! وعندما لمح كارل رئيس المكتب، فوجئ للغاية بالشبه الشديد بينه وبين مدرس، ربما كان لا يزال يدرس فى المدرسة التي كان يدرس بها فى بلده، ومع ذلك، فقد بدأ الشبه فى الحال مقصورًا على بعض التفاصيل المعينة، إلا أن النظارات التي كانت ترتكز فوق أنف الرجل العريض، واللحية الجميلة، وهى تنحدر كجائزة معروضة، والظهر المنحني قليلًا، والصوت المرتفع المفاجئ الذى يصدر فجأة، كلها جمدت كارل من الدهشة لبعض الوقت، ولحسن الحظ لم يكن عليه أن ينتبه انتباهًا شديدًا، ذلك أن الاجراءات هنا كانت أبسط كثيرًا منها فى المكاتب الأخرى.

ولا شك أن مذكرة ما كانت قد تضمنت أن أوراقه لم تقدم، وقد اعتبر رئيس المكتب عدم وجود تلك الأوراق «شيئًا من الإهمال غير المفهوم!» إلا أن الكاتب الذى بدا، وكأنه هو الذى يسيطر على المكتب، سرعان ما علق على ذلك، وصرح ذلك الكاتب- بعد عدد من الأسئلة التي وجهها رئيسه إلى كارل، وبينما كان السيد يستعد لتوجيه مزيد من الأسئلة المهمة- بأن كارل قد قُبِل، واستدار رئيس المكتب مفغور الفم نحو كاتبه، إلا أن الكاتب أتى بحركة حاسمة من يده قائلًا: «قُبِل»، ودون في الحال هذا القرار في دفتره، ويبدو أن الكاتب كان ينظر إلى «طالب أوروبي بالمدارس المتوسطة»، نظراته

إلى شخص غاية في الوضاعة، لدرجة لا يصح معها الارتياب في أي كلام يصدر عنه، أو مناقشته فيه، ولم يكن لدى كارل من ناحيته أدنى اعتراض على هذا، ومضى رأسًا نحو الكاتب، وهو ينوي أن يشكره على ذلك، لكن كان هناك ثمة تأخير آخر، فبينما كانا يسألانه عن اسمه، لم يجب كارل في الحال، فقد أحس بالخجل من ذكر اسمه الحقيقي، والسماح لهما بتدوينه، وما دام قد وجد مكانًا هنا، مهما كان ضئيلًا، وقبل أن يشغله، راضيًا، فيمكنهما أن يحصلا على اسمه، لكن ليس الآن! كان قد أخفى اسمه الحقيقي طويلًا، بحيث يصعب عليه أن يصرح به الآن! ولما لم يطرأ على باله أي اسم آخر في تلك اللحظة، فقد أدلى لهما باسمه المستعار الذي كان يلقب به في عمله الأخير، «الزنجي».

قال رئيس المكتب: «الزنجي!!»، وهو يدير رأسه، ويأتي بحركة ما، كما لو كان قد بلغ الآن أقصى حدود الريبة، وحتى الكاتب هو أيضًا، نظر إلى كارل، وتفحصه، للحظة، إلا أنه قال بعدئذٍ: «الزنجي!»، ودوّن الاسم.

وصاح به رئيسه قائلًا: «لكنك لا يمكن أن تكون قد كتبت بالفعل كلمة (الزنجي!)»

ورفع الكاتب حاجبيه، ونهض بدوره، وقال: «إذن، فإن من واجبي أنا، أن أقول لك، إنك قد قُبلت ضمن هيئة مسرح أوكلاهوما، وإن علينا الآن أن نقدمك إلى قائدنا».

واستدعى مساعدًا آخر، اقتاد كارل إلى منصة التحكيم.

وعند أقدام الدرج، لمح كارل عربة الطفل، وهبط عندئذ الأب والأم،

وكانت الأم تحمل الطفل على ذراعيها.

سأله الرجل قائلًا: «هل قبلت؟!» كان أكثر نشاطًا عن ذي قبل، وابتسمت زوجته لكارل من فوق كتفها، وعندما أجاب كارل بأنه كان قد قبل لتوه، وأنه كان في طريقه لكي يُقدم إلى القائد، قال الرجل: «إذن فإنني أهنئك، فلقد قبلنا نحن أيضًا، ويبدو أنه شيء طيب أن ننضم إلى المسرح، على الرغم من أنه لا يمكنك أن تعتاد على شيء مرة واحدة وفي الحال، إلا أن الأمور تسير دائمًا على هذا النحو في كل مكان!».

وقالا لبعضهما: «إلى اللقاء مرة أخرى»، وصعد كارل إلى المنصة، واتخذ دوره، ذلك أن تلك المساحة الضيقة في أعلى المنصة، كانت تزدحم فيما يبدو بالناس، ولم يكن كارل يرغب في المزاحمة والإلحاح، ولهذا توقف لحظة، وتطلع إلى حلبة السباق الهائلة التي كانت تمتد في كل اتجاه نحو الغابات البعيدة، وكانت تملؤه الرغبة في رؤية سباق الخيل، ولم يكن قد أتيحت له الفرصة من قبل لمشاهدة أي سباق للخيل منذ أن جاء إلى أمريكا، وفي أوروبا كان قد ذهب إلى سباق للخيل ذات مرة، عندما كان طفلًا صغيرًا، إلا أن كل ما يمكنه أن يتذكره، هو أن أمه كانت قد سحبته خلال الزحام، ولم يرغب الناس في أن يفسحوا له طريقًا لكي يمر، وعلى هذا فلم يكن بالفعل قد رأى قَطّ من قبل سباقًا للخيل.

وكانت خلفه آلة من نوع ما، كانت قد بدأت تطن، واستدار حوله ورأى فوق اللافتة، حيث تظهر أسماء الفائزين من المتسابقين، هذه الكلمات: «التاجر كاللا، وزوجته، وطفله»، وعلى هذا فإن أسماء هؤلاء الذين تم قبولهم كانت توزع على مختلف المكاتب من هنا.

وعندئذ هبط بعض السادة الدرج مسرعين، وبأيديهم أقلام رصاص، ومفكرات، وكانوا يتحدثون بعضهم إلى بعض باهتمام، والتصق كارل بالسور، لكي يفسح مكانًا لمرورهم، ثم صعد بعد ذلك إلى أعلى المنصة، حيث أفسح له الآن مكانًا فوقها، وفي أحد أركان المنصة، بسورها الخشبي- وكانت المنصة كلها تبدو أشبه ما تكون بسطح منبسط لبرج صغير- كان يجلس أحد السادة، وذراعاه مفرودتان أمامه فوق السور، ووشاح عريض من الحرير يتدلى على صدره بميل، وعليه هذه الكتابة: «قائد فرقة التجنيد العاشرة، لمسرح أوكلاهوما»، وكان فوق المنصة تليفون، قد وضع لاشك للاستعمال في أثناء مباريات سباق الخيل، ولكنه يستخدم الآن فيما يبدو، لإبلاغ المعلومات المهمة التي تتعلق بمختلف المتقدمين إلى شغل الوظائف، إلى القائد قبل أن يقدموا إليه، لأنه لم يبدأ بتوجيه الأسئلة إلى كارل، بل قال لسيد كان يجلس بجواره، وساقاه معقودتان، وذقنه بين يديه:

«الزنجي، تلميذ بالمدارس الأوروبية المتوسطة» وكأنما لم يكن أمامه أي شيء آخر يمكن أن يقوله، بعد ذلك لكارل، الذي انحنى له انحناءة شديدة، وتطلع القائد إلى أسفل الدرج ليرى إن كان ثمة قادم آخر، ولما لم يجد أي قادم آخر، أصاغ السمع إلى الحديث الذي دار بين السيد الآخر وبين كارل، لكنه ظل صامتًا طوال الجزء الأغلب من ذلك الحديث، وراح يتطلع إلى حلبة السباق، وهو يربت بأصابعه فوق السور، وقد جذبت هذه الأصابع الرقيقة الطويلة، القوية، انتباه كارل من حين لآخر، مع إنه كان قد أعار كل انتباهه بالفعل إلى السيد الآخر.

وكان هذا قد بدأ حديثه إلى كارل متسائلًا: «هل كنت قد فصلت من

عملك؟!»، كان السؤال ككل الأسئلة الأخرى التي وجهت إلى كارل، بسيطة، ومباشرة، ولم يكن هذا السيد يراجع كارل في إجاباته، ولم يحاول استدراجه إلى شيء بسؤال غير مباشر مطلقًا، إلا أن الطريقة التي ينحني بها إلى الأمام لكي يرى أثر تلك الأسئلة، وطريقته كذلك في خفض رأسه فوق صدره في أثناء استماعه إلى الإجابات، وترديده أحيانًا لهذه الإجابات بصوت مرتفع، وتمعنه في أسئلته بصورة لها مغزاها الذي قد لا يدركه المرء، لكنه لا يرتاح رغم ذلك إلى الارتياب فيها.. ولقد أحس كارل عددًا من المرات بشيء كان يدفعه إلى أن يتراجع في إجابته بعد أن يكون قد أدلى بها، وأن يجيب بإجابة أخرى، لعلها تجد قبولًا أكثر، إلا أنه تمكن دائمًا من أن يضبط نفسه، فلم يفعل ذلك، لأنه كان يعلم أي انطباع سيئ قد يعكسه مثل هذا التذبذب، كما لم يمكنه في الحقيقة أن يدرك أثر أغلب إجاباته.. وبالإضافة إلى ذلك فإن قبوله في هذه الوظيفة، بدا وكأنه قد تقرر بالفعل، وقد شجعه إدراكه لهذه الحقيقة.

وقد أجاب ببساطة عن السؤال الذي وجه إليه، عما إذا كان قد فصل من عمله؟ قائلًا: «نعم».

ثم سأله السيد ثانية: «أين كنت تعمل أخيرًا؟».

وهم كارل بالإجابة، عندما رفع السيد أصبعه السبابة، وكرر قائلًا: «أخيرًا».

ولما كان كارل قد فهم السؤال جيدًا، فقد هز رأسه رغمًا عنه، لكي يتحاشى الملاحظة الإضافية المزعجة، وأجاب قائلًا: «في أحد المكاتب!».

كانت هذه هي الحقيقة، لكن، لو أن ذلك السيد طلب منه تحديدًا أكثر عما يتعلق بنوع ذلك المكتب، فقد كان سيكذب عليه عندئذ بلا شك.. ومع ذلك، فلم تبد ثمة ضرورة لمثل هذا الطلب، لأن السيد وجه سؤالًا، كان من السهل تمامًا الإجابة عنه، إجابة صادقة: «هل كنت راضيًا في عملك ذاك؟!».

فصاح كارل قائلًا في انفعال: «لا!»، حتى قبل أن ينتهي السؤال، ومن طرف عينه، كان يمكنه أن يلاحظ أن القائد كان يبتسم في وهن، وأسف لشدة انفعاله، إلا أن السؤال كان مغريًا للغاية، حتى لقد اندفع قائلًا: «لا!»، دون أن يدري، ذلك أنه كان يحلم طوال الفترة الماضية من خدمته، بصاحب عمل قد يلتقي به، ويوجه إليه هذا السؤال نفسه.. إلا أن هذا النفي كان من الممكن أن يثير أمامه مشكلة أخرى، لو أن السيد واصل سؤاله، طالبًا منه أن يوضح له، لماذا لم يكن راضيًا في عمله ذاك؟ إلا أن ذلك السيد تساءل بدلًا من ذلك قائلًا: «ما هو نوع العمل الذي تشعر بأنه يناسبك؟»، من الممكن أن يخفي مثل هذا السؤال فخًّا حقيقيًّا، فلماذا يوجه إليه سؤال كهذا، إذا كان قد قبل بالفعل كممثل؟ ومع إنه قد أحس بصعوبة الإجابة عن هذا السؤال، فإنه لم يستطع أن يقول إنه يشعر بأن مهنة التمثيل، على وجه الخصوص، هي المهنة التي تناسبه، وعلى هذا فقد تهرب من الإجابة عن هذا السؤال، وقال مجازفًا بأنه قد يبدو ممتنعًا عن الإجابة: «لقد قرأت اللافتة في المدينة، ولما كانت تقول بأن في إمكانكم أن توفروا عملًا لكل شخص، فقد جئت إلى هنا!».

قال السيد: «نحن نعلم هذا!»، موضحًا بصَمْته المتعمد، إنه لا يزال ينتظر إجابة سؤاله.

فقال كارل في تردد، لكي يتيح للسيد أن يلاحظ أنه قد وجد نفسه في ورطة: «لقد قبلت كممثل».

قال السيد: «هكذا إذن!»، ثم لجأ ثانية إلى الصمت.

فقال كارل: «لا!»، وابتدأت كل آماله في الحصول على وظيفة تهتز: «لست أدري، ماذا إذا كنت أستطيع أن أكون ممثلًا، إلا أنني سأبذل كل جهدي، وسأحاول أن أنفذ التعليمات التي توجه إليّ!».

واستدار السيد إلى القائد، وأطرق كلاهما، وبدا لكارل أنه قد أجاب الإجابة الصحيحة، لهذا فقد تشجع ثانية، وانتصب في وقفته، في انتظار السؤال التالي، وكان كما يلي:

- ما الذي كنت تريد أن تدرسه أساسًا؟!

ولكي يحدد السؤال في دقة أكثر- ويبدو أن هذا السيد كان يلقي أهمية كبيرة على دقة السؤال- أضاف قائلًا: «أعني في أوروبا!»، وهو يبعد يده عن ذقنه، في الوقت نفسه، ويلوح بها، كما لو كان ليعين كم هي نائية أوروبا تلك، ومدى عقم أية خطة قد تكون وضعت هناك.

وقال كارل: «كنت أريد أن أصبح مهندسًا ميكانيكيًّا!»، لقد التصقت هذه الإجابة في حلقه، كان سخيفًا منه وهو يعلم جيدًا نوع الحياة التي عاشها في أمريكا، أن يحيا حلم اليقظة القديم، برغبته في أن يكون مهندسًا ميكانيكيًّا، فهل أمكنه أن يصبح مهندسًا ميكانيكيًّا، حتى في وطنه، أوروبا؟، إلا أنه لم يدر بأي جواب آخر يمكنه أن يجيب، وعلى هذا فقد أدلى بهذا الجواب، إلا أن السيد قد تقبل هذه الإجابة في جدية، فقد كان يأخذ كل

شيء مأخذ الجد، وقال: «حسنًا، لا يمكنك أن تتحول إلى مهندس، فجأة! لكن ربما يناسبك الآن أن تضطلع بنوع من العمل الميكانيكي البسيط؟».

قال كارل: «بلا شك!»، كان راضيًا تمامًا، حقًّا لو أنه قبل هذا العرض، فسيتحول من مهنة التمثيل إلى الوضع الذي يقل عنه على نحو ما، وهو وضع العامل الفني، لكنه كان مقتنعًا بالفعل من أنه سيتمكن من أن يكون صادقًا مع نفسه، بقبوله تلك الوظيفة الميكانيكية، وبالإضافة إلى ذلك، فقد ظل يقول لنفسه: «إن الأمر ليس هو نوع العمل، بقدر ما هو ضرورة أن يؤكد المرء وجوده في مكان ما، بصرف النظر عن العمل الذي يؤديه».

وتساءل السيد قائلًا: «هل أنت قوي البنية بدرجة كافية للعمل الجسماني؟».

فقال كارل: «أوه.. نعم».

وعند ذلك أمر السيد كارل بأن يقترب منه، وتحسس ذراعه.

ثم قال عندئذ: «إنه فتى قوي»، وهو يجذب كارل من ذراعه نحو القائد، وأطرق القائد مبتسمًا، وهو يمد يده إلى كارل، دون أن يغير وضعه المتكاسل، وقال: «إذن، فقد تم إقرار هذا كله، وفي أوكلاهوما سننظر في هذا الأمر ثانية.. فاعلم بأنك قد شرفت جماعتنا المجندة».

وانحنى كارل، واستدار أيضًا، ليقول وداعًا للسيد الآخر، إلا إنه كان قد نهض، وراح يتمشى ذهابًا وجيئة، فوق المنصة، كما لو كانت أعباؤه كلها قد انزاحت الآن عن كاهله، وكان يتطلع نحو السماء. وعندما هبط كارل الدرجات، كانت لوحة الإعلانات إلى جواره، تبدو فوقها هذه الكلمات:

«الزنجي، عامل فني».

ولما كان كل شيء يسير هنا بمثل هذا النظام، فقد أحس كارل بأنه لن يهتم لو رأى اسمه الحقيقي فوق تلك اللوحة، لقد كانت هيئة المسرح، هيئة دقيقة النظام بالفعل إلى حد لا يكاد يُصدق، فعند أقدام الدرج وجد كارل مساعدًا ينتظره، وثبت حول ذراعه شريطًا، وعندما مد كارل ذراعه ليرى ما كتب فوق هذا الشريط، وجد عليه في خط واضح هذه الكلمات: «عامل فني».

لكن مهما كان المكان الذي سيوجهونه إليه الآن، فيجب عليه أولًا أن يبلغ فاني بما آلت إليه الأمور.. وسمع لأسفه الشديد أن الملائكة والشياطين كانوا قد رحلوا الآن إلى المدينة المجاورة، مع فرق التجنيد المتجولة، ولكي يقوموا بدور الطلائع المتقدمة لوصول الفريق بأكمله في اليوم التالي.. قال كارل: «يا للأسف!»، وكانت هذه هي أول خيبة أمل يصاب بها في هذه المهنة: «إن لي صديقة بين الملائكة!».

قال المساعد: «سوف تراها ثانية في أوكلاهوما، لكن هيا الآن، فإنك الأخير».

واقتاد كارل بطول الجانب الداخلي للرصيف، الذي كانت الملائكة يقفن فوقه، ولم يكن هناك سوى القواعد الخالية.. وقد ثبت الآن توهم كارل بأن النفخ في الأبواق لو كان قد توقف، لكان كثير من الناس قد تقدموا طالبين الانضمام إلى المسرح، ذلك أن أحدًا لم يكن يقف الآن أمام الرصيف، فقط بضعة أطفال قلائل يتعارك بعضهم مع بعض، وريشة بيضاء كانت قد طارت بلا شك من جناح إحدى الملائكة، وكان صبي يمسكها في الهواء إلى أعلى،

بينما كان باقي الأطفال يحاولون إنزال ذراعه التي كانت تمسك بتلك الريشة إلى أسفل، على حين كانوا يمدون أيديهم الأخرى إلى الريشة.

وصرف كارل الأطفال بعيدًا، إلا أن المساعد، قال له دون أن ينظر ناحيته: «هيا، أسرع، لقد تطلب قبولك وقتًا طويلًا، وأظن أنهم لم يكونوا واثقين منك!».

قال كارل فى دهشة: «لست أدري!»، إلا أنه لم يصدق ذلك مطلقًا، ومهما كانت الظروف، فلابد من وجود شخص يحاول أن يسيء إلى زملائه، لكن نظرا للبشاشة التى بدت بها المنصة الرئيسية التى كان يقتربان الآن منها، سرعان ما نسي كارل ملاحظة المساعد.. فقد كان يوجد فوق تلك المنصة مائدة طويلة عريضة، قد غطيت بقماش أبيض، وكان كل من قُبِلوا يجلسون إلى تلك المائدة، بظهورهم إلى حلبة السباق، يأكلون.. كانوا سعداء جميعًا، وفي غاية التأثر، وعندما وصل كارل أخيرًا، واتخذ مكانه في هدوء، نهض عدد منهم، وبأيديهم الكؤوس التي رفعوها إلى أعلى، وشرب أحدهم نخب قائد فرقة التجنيد العاشرة، الذي دعاه باسم «أبو العاطلين جميعًا»، وقال شخص آخر، إن القائد يمكن رؤيته من هنا، وبالفعل كانت منصة التحكيم واضحة على مسافة ليست بالغة البعد، وفوقها السيدان، ورفع الجميع كؤوسهم الآن في ذلك الاتجاه، وتناول كارل أيضًا الكأس الموضوعة أمامه، وهتفوا بأعلى أصواتهم، إلا أنهم لم يفلحوا في لفت أنظار من كانا يجلسان فوق منصة التحكيم، فلم يكن ثمة ما يدل على أنهما قد لاحظا شيئًا من هذا الحماس، ولا كانت هناك على الأقل أدنى رغبة في ملاحظته، واضطجع القائد جالسًا في ركنه كما كان يجلس من قبل، ووقف السيد الآخر إلى

جواره، وهو يضع ذقنه على راحة يده، وتبدو عليه خيبة الأمل إلى حد ما، وجلسوا جميعهم ثانية، وكان يستدير شخص هنا، أو شخص هناك نحو منصة التحكيم، إلا أنهم سرعان ما انهمكوا في تناول الطعام الوفير، وكان الطعام عبارة عن طيور ضخمة، لم ير كارل مثلها من قبل، تُحمل إلى المائدة، وقد انغرست في لحمها المحمر، شوك عديدة، وكان المساعدون لا يتوقفون عن ملء الكؤوس بالنبيذ- ويصعب عليك أن تلاحظ ذلك، فبينما تكون مشغولًا تمامًا بطبقك، تجد النبيذ يتدفق فجأة ببساطة في كأسك- وهؤلاء الذين لم يكونوا يرغبون في المشاركة في الحديث، كان في إمكانهم أن يتفرجوا على صور من مسرح أوكلاهوما، كانت توجد في كومة عند طرف المائدة، وكانت الصور تنتقل من يد إلى أخرى، إلا أن القلائل هم الذين اهتموا بهذه الصور، وهكذا لم تصل منها سوى واحدة فقط إلى يد كارل الذي كان يجلس في آخر الصف، ورأى كارل عندما بلغته تلك الصورة أن باقي الصور كانت جديرة هي أيضًا بالرؤية، كانت هذه الصورة توضح الشرفة المخصصة في المسرح لرئيس الولايات المتحدة، وربما ظن المرء من النظرة الأولى إليها، أنها لم تكن مجرد شرفة، بل المسرح نفسه، وكان سور الشرفة يمتد إلى مسافة كبيرة، وكان مصنوعًا من الذهب حتى أدق تفاصيله، وبين أعمدته الرشيقة، التي نحتت في رقة، وكأنما بمقص بارع، كانت الأوسمة المهداة من الرؤساء السابقين، تصطف بعضها إلى جانب بعض، وكانت لإحدى الحليات أنف يمتد بصورة ملحوظة وشفتان وعين مغطاة بجفن كامل مستدير، وتنظر إلى أسفل، وكانت أشعة الضوء تسقط على الشرفة من كل الجهات، ومن السقف، وكانت المقدمة غارقة كلها في

الضوء، وأرضيتها بيضاء ناعمة، بينما تبدو الخلوة إلى الخلف كمغارة معتمة متوهجة، تغطيها الستائر الدمشقية الحمراء التي تتهدل في طيات مختلفة من السقف إلى الأرض، وتنعقد طياتها بالحبال.. ولم يكن في استطاعة المرء أن يتخيل وجود بشر في تلك الشرفة، بصورتها تلك الملكية، ولم يكن كارل قد انصرف تمامًا عن تناول طعامه، لكنه كان قد وضع تلك الصورة، بجانب طبقه، وراح يتطلع إليها، وكان يسره أن يتطلع إلى صورة على الأقل من الصور الأخرى، لكنه لم يكن يرغب في النهوض لكي يلتقط إحداها بنفسه، فقد كان ثمة مساعد يضع يده فوق تلك الكومة من الصور، ويبدو أنه كان يحاول أن يحافظ على عدم اضطراب تسلسل ترتيبها، وعلى هذا فقد رفع كارل عنقه فقط، لكي يتطلع عبر المائدة، محاولًا أن يرى إن كانت ثمة صورة أخرى تتداولها الأيدي! ولدهشته العظمى- ولقد بدا ذلك شيئًا لا يمكن تصديقه في البداية- تعرف وسط هؤلاء الذين كانوا يميلون فوق أطباقهم، باستغراق، على وجه يعرفه جيدًا، جياكومو، فنهض في الحال، وأسرع نحوه صائحًا: «جياكومو»!، ونهض جياكومو من على مقعده، خَجِلًا كعادته عندما يفاجأ بشيء، واستدار حول نفسه في المساحة الضيقة بين المقاعد، ومسح فمه بيده، وتهلل جدًّا لرؤية كارل، واقترح على كارل أن يأتي لكي يجلس إلى جواره، أو يغير هو مكانه بدلًا من ذلك، وكان لديهما الكثير ليخبرا به بعضهما، وعليهما لهذا أن يلتصقا طوال الوقت، ولما لم يكن كارل يريد أن يزعج الآخرين، فقد قال إنه من الأفضل لهما أن يحتفظا بمكانيهما الحاليين الآن، فسرعان ما تنتهي الوجبة، وبعد ذلك بالطبع، سيلتصقان ببعضهما.. إلا أن كارل قد تمهل دقيقة أو دقيقتين، لمجرد أن

يتطلع إلى جياكومو.. كم من ذكريات الماضي قد طرأت على ذاكرته! ما الذي حدث للمديرة؟ وماذا تفعل تيريز؟ لم يكن قد طرأ على جياكومو نفسه تغيير يكاد يذكر، ولم تتحقق نبوءة المديرة، بأنه سوف يتحول في خلال ستة شهور إلى رجل أمريكي ناضج، فقد كان رقيق المظهر كما كان من قبل، وكانت وجنتاه بارزتان كما كانتا، على الرغم من انتفاخهما الآن بقطعة كبيرة من اللحم، كان يستخرج منها العظم ببطء، ليضعه في طبقه.. وكما استطاع كارل أن يرى من رباط ذراعه، لم يكن قد قُبل كممثل هو أيضًا، لكن كصبي مصعد، ويبدو أن مسرح أوكلاهوما، كان لديه بالفعل مكان لكل شخص! إلا أن استغراق كارل في التطلع إلى جياكومو، كان قد أبعده طويلًا عن مقعده، وعندما فكر في العودة إلى مكانه، كان مدير المستخدمين قد وصل لحظتها، وصعد فوق أحد المقاعد، وصفق بيديه، وألقى كلمة قصيرة، بينما نهض أغلب الموجودين على أقدامهم، أما هؤلاء الذين ظلوا فوق مقاعدهم، غير راغبين في ترك طعامهم، فقد ظل الآخرون يلكزونهم حتى اضطروا هم أيضًا إلى النهوض.

قال مدير المستخدمين: «أرجو..- ورجع كارل في تلك الأثناء إلى مكانه على أطراف أصابعه- أن تكونوا قد رضيتم عن استقبالنا لكم، وأن يكون قد أعجبكم ما قدمناه لكم من الطعام، إن الفرقة المجندة، ينبغي لها دائمًا أن يكون لها مطعمها الجيد، وآسف لأننا يجب أن نخلي المائدة الآن؛ لأن القطار الراحل إلى أوكلاهوما، سيتحرك في خلال خمس دقائق، وإنها لرحلة طويلة، أعلم هذا، إلا أنه سيوجد من يعتني بشئونكم في خلالها، عناية تامة، واسمحوا لي الآن بأن أقدم لكم السادة الذين يشرفون على إجراءات

انتقالكم، والذين نرجو أن تلتزموا بتنفيذ تعليماتهم».

وصعد رجل قصير نحيل إلى أعلى المقعد، بجوار رئيس المستخدمين، وما كاد يجد الوقت لكي ينحني انحناءة سريعة، حتى شرع يلوح بذراعيه في عصبية لكي يوجههم إلى كيفية تنظيم أنفسهم، وتحركوا نحو المحطة.. إلا أنهم قد تجاهلوه في بداية الأمر، فقد خبط الرجل الذي كان قد ألقى خطبته في بداية تناول الوجبة، المائدة بيده، وبدأ في توجيه الشكر في خطبة طويلة، مع أنه كان يعلم- ولم يكن كارل مرتاحًا لتلك الخطبة- بأن القطار سيتحرك في خلال خمس دقائق، بل إن لا مبالاة مدير المستخدمين الواضحة لم توقفه أيضًا عن إتمام خطبته، وكان مدير المستخدمين يلقي ببعض التعليمات إلى الموظف المسئول عن الانتقال، بينما كان ذلك الشخص قد أقام خطبته على تمجيد الأخلاق العالية التي يتحلى بها موظفو مسرح أوكلاهوما، وعلى وصف الأطباق التي قدمت على المائدة، ثم راح يطلق أحكامه على كل شخص اتفق له أن التقى به، ثم انتهى إلى هذا التصريح، مشيرًا إلى الأطباق: «أيها السادة، هذا هو الطريق إلى قلوبنا!»، وضحك الجميع فيما عدا السيد الذي كان الحديث قد وجه إليه أساسًا، ولقد كان في هذا التقرير، كثير من الحقيقة، بجانب ما كان يتضمنه في الوقت نفسه من الهزل.

وقد ترتب على تلك الخطبة نوع من العقاب، فقد كان على الجميع أن يقطعوا الآن الطريق إلى المحطة جريًا، وإن لم يكن ثمة صعوبة في هذا- كما لاحظ كارل الآن فقط- لأن أحدًا لم يكن يحمل أية أمتعة، وكان الشيء الوحيد الذي كان يمكن تسميته بالأمتعة هو عربة الطفل، التي دفعها الأب أمامه في مقدمة الركب، والتي كانت ترتفع مهتزة إلى أعلى وإلى أسفل بعنف، كما لو

لم تكن هناك يد تضغط عليها.. يا لهم من أشخاص معدمون، بائسون اجتمعوا هنا معًا، ثم بأي طيبة استقبلوا هنا، ووجدوا شيئًا من العناية! ولابد أن الموظف المشرف على الرحلة، كان قد أوصى برعايتهم كحبة عينه، فقد أخذ الآن دوره في دفع عربة الطفل، ملوحًا بإحدى يديه لكي يستحث الركب على الإسراع، وكان يستعجل الشاردين في مؤخرة الموكب، ويتجول بين الصفوف وهو يرعى من يعجزون عن الجري السريع، محاولًا أن يوضح لهم بذراعيه اللتين كان يلوح بهما طوال الوقت، كيف يمكنهم أن يسرعوا في الجري بسهولة.

وعندما بلغوا المحطة كان القطار يتأهب للرحيل، وأشار الناس في المحطة بعضهم إلى بعض إلى هؤلاء القادمين، وكان المرء يسمع صيحات التعجب، من قبيل: «هل ينتمي كل هؤلاء إلى مسرح أوكلاهوما»!، ويبدو أن المسرح كان معروفًا أكثر مما كان يتصور كارل، فهو لم يكن يهتم اهتمامًا كبيرًا بشئون المسرح، وكانت عربة كاملة قد تم حجزها لهم، وبذل المشرف على الرحلة جهدًا يفوق الجهد الذي بذله حارس القطار في إدخالهم إلى تلك العربة، ولم يجلس ذلك المشرف على مقعده قبل أن يفتش على كل ديوان، ويقوم ببعض الترتيبات اللازمة، وتصادف أن جلس كارل على مقعد يجاور النافذة، وجلس جياكومو إلى جواره.

وهكذا جلسا ملتصقين ببعضهما، متهللين من أعماق قلبيهما للرحلة، تلك الرحلة المجهولة إلى أمريكا التي لا يعرفان عنها شيئًا على الإطلاق.

وعندما بدء القطار في التحرك.. خارجًا من المحطة، لوحا بأيديهما من النافذة، وقد تسلى الشبان الذين كانوا يجلسون قبالتهما بهذا المنظر، ولكز بعضهم بعضًا، وضحكوا.

واستمرت الرحلة يومين وليلتين، وأدرك كارل الآن فقط كم كانت أمريكا واسعة، وتطلع بلا ملل من خلال النافذة، وحرص جياكومو على التشبث بمكانه إلى جوار كارل، حتى ضاق به الآخرون الذين كانوا يشاركونهما نفس الديوان، عندما أرادوا أن يلعبوا الورق، وتنازلوا له طوعًا عن المقعد الآخر المجاور للنافذة، وشكرهم كارل- فقد كان من الصعب فهم إنجليزية جياكومو- وبمرور الوقت، كما يحدث دائمًا بين رفاق السفر، أصبحوا جميعًا أكثر ودًّا بعضهم مع بعض، على الرغم من أن هذا الود كان أحيانًا عبارة عن مجرد ضوضاء وإزعاج، فكلما كانوا ينحنون، مثلًا، لالتقاط ورقة انزلقت إلى أرضية الديوان، لم يكن يمكنهم أن يقاوموا رغبتهم في أن يقرصوا ساق كارل أو جياكومو بصورة مؤلمة، وكان جياكومو يصرخ دائمًا في دهشة متجددة، كلما حدث ذلك، ويرفع ساقيه إلى أعلى، وحاول كارل في إحدى المرات أن يرفسهم ردًّا على ذلك، إلا أنه قاسى بقية الوقت في صمت.. وكان كل شيء يحدث في ذلك الديوان الصغير، كان يتلاشى أمام عظمة المناظر التي تبدو من خلال النافذة.

وقد انطلق بهم القطار في اليوم الأول عبر سلسلة مرتفعة من الجبال، وكتل ضخمة من الصخور الزرقاء الضاربة إلى السواد، كانت تنحدر انحدارًا يكاد يكون عموديًا على الخط الحديدي، وحتى لو مد المرء عنقه من خلال النافذة، فلم يكن يمكنه أن يرى قممها، ووديان، ضيقة، كئيبة، غير ممهدة، كانت تمتد في أحيان أخرى، حاول أحدهم أن يتتبع بأصبعه، الاتجاه الذي كانت تنتهي عنده، وتتلاشى، وكانت تظهر كذلك أنهار

عريضة جبلية، تندفع في أمواج هائلة إلى أعماق سفوح التلال، وعلى سطحها تطفو آلاف من أمواج الزبد، كانت تغوص تحت القناطر، التي كان القطار يندفع فوقها، وقد كانت تلك الأمواج قريبة غاية القرب منهما، حتى إن الرذاذ البارد الذي كان يتناثر منها كان يصفع وجهيهما.

تعقيب

لم يكن مخطوط فرانتس كافكا يحمل عنوانًا، وكان قد اعتاد في أحاديثه أن يشير إلى هذه الرواية، على أنها «روايته الأمريكية»، إلا أنه أطلق عليها ببساطة فيما بعد «العطشجي»، وهو عنوان الفصل الأول الذي نشر منفصلًا عام ١٩١٣. وكان كافكا يكتب هذه الرواية في سعادة لا حدّ لها، في الأمسيات، ثم بعد ذلك كانت تستغرقه الكتابة فيها حتى أوقات متأخرة من الليل.

ولم تكن صفحات المخطوط تحتوي، مما يثير الدهشة، إلا على القليل جدًّا من التصحيحات، أو الحذف، وكان كافكا يدرك تمامًا، أن هذه الرواية كانت أكثر كتاباته جميعًا، تفاؤلًا، وأبسطها من حيث التركيب والمزاج الذي كُتبت به، وقد تحدث إلى الكثيرين حول هذه الحقيقة.

وربما كان لي أن أقول في هذا الصدد: إن فرانتس كافكا، كان مغرمًا بقراءة كتب الرحلات، والمذكرات، وإن سيرة حياة فرانكلين، كانت أحد كتبه المفضلة، وكان يحب أن يقرأ منه بعض المقطوعات في صوت مرتفع، وإنه كان يحن دائمًا إلى المساحات الشاسعة، والبلاد النائية، وهو لم يرحل

بالفعل إلى أبعد من فرنسا، وإيطاليا، ولهذا فإن براءة خياله، تضفي على هذه الرواية التي تصور مغامرة «كارل روسمان في أمريكا» لونها الغريب.

وقد انقطع كافكا فجأة عن مواصلة كتابة هذه الرواية، فظلت ناقصة.. وقد عرفت مما ذكره لي أن الفصل الناقص عن «مسرح أوكلاهوما الطبيعي»، وهو فصل كانت بدايته بصفة خاصة تمتع كافكا، حتى لقد اعتاد على أن يقرأه بصوت مرتفع في تأثر بالغ.. كان كافكا ينوي أن يجعله خاتمة للرواية، وكان ينتهي بنوع من التوافق الشاعري الحزين مع الحياة.

وقد اعتاد كافكا أن يشير في غموض إلى أنه في إطار ذلك المسرح «الذي لا حدود له»، كان بطله الصغير سيجد مرة أخرى وظيفة، وسندًا، وسيجد حريته، وبيته، ووالديه، كأنما بشيء من السحر العلوي.

وأن الأجزاء التي تسبق مباشرة هذا الفصل الختامي من الرواية «نهاية الفصل السابع» هي أيضًا ناقصة.

وتوجد قطعتان كبيرتان تتعرضان لخدمة كارل في شقة برونيلدا، إلا أنهما لا تصلان السياق.. وقد كانت الفصول الستة الأولى هي فقط الفصول التي قسمها كافكا، ووضع عناوينها بنفسه.

ماكس برود